سلسلة

مدرسة الدعاة

فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

سلسلة

مدرسة الدعاة

فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية

عبد الله ناصح علوان

أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

المجلد الأول

1 - 10

ويشتمل على :

1 – هذه الدعوة .. ما طبيعتها ؟ 2 – الدعوة الإسلامية . والانقاذ العالمي 3 – وجوب تبليغ الدعوة .
4 – فضل الدعوة والداعية . 5 – صفات الداعية النفسية . 6 – روحانية الداعية . 7 – أخلاقية الداعية .
8 – ثقافة الداعية . 9 – كيف يدعو الداعية ؟ 10 – مواقف الداعية التعبيرية .

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





ترجمة المؤلف رحمه الله (*)

ولادته ونشاته :

ولد – رحمه اللّه – في حي قاضي عسكر بمدينة حلب ، سنة 1928 في أسرة متدينة معروفة بالتقى والصلاح .. تربى في ظل والده الصالح الشيخ : سعيد علوان – رحمه اللّه – وكان الناس في حلب يقصدون الشيخ سعيدًا طلبًا للتداوي ، فقد كان طبيبًا وصيدليًا يداوي الناس بالأعشاب والمراهم ، وكان لسانه لا يهدأ عن ذكر اللّه وقراءة القرآن ، وكان يدعو ربه أن يجعل من أبنائه العالم الحكيم والطبيب المسلم، وقد استجاب اللّه لدعائه .

عندما انتهى فقيدنا من المرحلة الابتدائية وجهه والده عام 1943 إلى دراسة العلم الشرعي في الثانوية الشرعية ، وكانت في ذلك الوقت بالخسروية – نسبة إلى بانيها (خسرو باشا) – وكان يقوم بالتدريس في تلك المدرسة علماء قلَّ نظيرهم في ذلك الزمن وفي هذا العصر أيضًا ، علماء وهبوا حياتهم للعلم وأخلصوا في عملهم ، وكان أساتذة المدرسة يعاملون طلابهم كأبناء لهم وكأخوة لهم ، وقد تأثر فقيدنا بالشيخ راغب الطباخ مؤرخ حلب ومحدثها ، صاحب كتاب « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » وتأثر – أيضًا – بالدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه اللّه .

عرف فقيدنا بين زملائه في المدرسة بالجرأة في الحق والشجاعة في مواجهة الأحداث .. وبدت الشخصية القيادية في تصرفاته ، وعرف في المدرسة بالخطابة والقلم المعبِّر عن أحاسيس المسلمين ، وكان بيته في قاضي عسكر منتدى ومجمعًا لأصدقائه ولأساتذته .

دراسته :

● نال شهادة الثانوية الشرعية في سنة 1949 وبتوجيه من والده سافر إلى مصر لاستكمال تحصيله في علوم الشريعة الإسلامية .

● شارك في الأزهر ونال شهادة كلية أصول الدين سنة 1952 ، ثم نال شهادة

* هذه سطور موجزة في التعريف بالمؤلف – رحمه اللّه تعالى – مما تتناسب مع حجم هذه الرسالة ، وسيقوم بعض إخوانه وتلامذته باستيفاء ترجمته بعون اللّه تعالى .

كان متواضعًا في علمه ، ومتواضعًا للناس ، حسن المعاملة مع الناس يحب الخير والنصح للمسلمين .

كتبه وآثاره العلمية :

1 - تربية الأولاد في الإسلام – في مجلدين .

2 - قصة الهداية – في مجلدين .

3 - التكافل الاجتماعي في الإسلام .

4 - أفعال الإنسان بين الجبر والاختيار .

5 - الشباب المسلم في مواجهة التحديات .

6 - الإسلام والقضية الفلسطينية .

7 - صلاح الدين الأيوبي ، بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين .

سلسة مدرسة الدعاة :

8 - هذه الدعوة .. ما طبيعتها .

9 - الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي .

10 - وجوب تبليغ الدعوة .

11 - فضل الدعوة والداعية .

12 - صفات الداعية النفسية .

13 - روحانية الداعية .

14 - ثقافة الداعية .

15 - كيف يدعو الداعية ؟

16 - مواقف الداعية التعبيرية .

17 - عقبات في طريق الدعاة .

18 - بين العمل الفردي والعمل الجماعي .

سلسلة بحوث إسلامية هامة :

19 - إلى كل أب غيور يؤمن باللّه .

20 - فضائل رمضان وأحكامه .

21 - حكم الإسلام في التأمين .

22 - تعدد الزوجات والحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ .

23 - أحكام الزكاة على المذاهب الأربعة .

24 - حكم الإسلام في وسائل الإعلام .

25 - شبهات وردود حول العقيدة وأصل الإنسان .

26 - عقبات الزواج وطرق معالجتها على ضوء الإسلام .

27 - آداب الخطبة والزواج وحقوق الزوجين في الإسلام .

28 - مسؤولية التربية الجنسية .

29 - إلى ورثة الأنبياء .

30 - تكوين الشخصية الإنسانية في نظر الإسلام .

31 - معالم الحضارة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية .

32 - نظام الرق في الإسلام .

33 - الإسلام شريعة الزمان والمكان .

34 - حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية .

35 - القومية في ميزان الإسلام .

36 - دور الشباب في حمل لواء الإسلام .

37 - الإسلام والجنس .

38 - الإسلام والحب .

39 - حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان .

40 - ماذا عن الصحوة الإسلامية في العصر الحديث .

41 - التعريف بالشريعة الإسلامية .

42 - حتى يعلم الشباب .

43 - الأخوة الإسلامية .

مرضه ووفاته :

منذ ثلاث سنوات أصيب بمرض في الكبد إثر عودته من الباكستان ، وقد احتار الأطباء في طبيعة هذا المرض .

ذبل عود الشيخ ، وتضاءل جسمه وتناولته الأوجاع في كل مكان ، وكان دائم التردد على العيادات الطبية طالبًا المشورة والعلاج ، ولكن نفسه لم تهن ولم تضعف ، بل بقي عالي الهمة متوثب العزيمة محافظًا على مهماته الدعوية ، يقوم بمسؤولياته الاجتماعية ، لا يعتذر عن قبول أية حفلة يدعى إليها ، وحين يطلب منه التحدث كان يتكلم وينفعل وينسى حالته المرضية التي لا تسمح له بإرهاق نفسه .

المدة التي قضاها راقدًا في المستشفى خلال هذه السنة تعتبر فترة طويلة ، فقد كان يخلع ثوب المستشفى ويلبس ثيابه ويذهب إلى الجامعة لإلقاء المحاضرات ، ثم يعود مرة أخرى إلى المستشفى ليتلقى العلاج من الأطباء وبجوار سريره في المستشفى ترتفع مجموعات من الكتب فهو يجد السعادة في القراءة .

كان يضع (الوسادة) أمامه ويكتب فصولا من كتاب قد بدأه . كل الأطباء وكل الأصدقاء كانوا ينصحون الشيخ بالابتعاد عن القراءة والكتابة ، لكن النفس الشامخة تأبى أن تلقي القلم من يدها مهما اشتد الألم .

* * *

وفاته :

كانت الوفاة في الساعة التاسعة والنصف صباح يوم السبت الخامس من شهر محرم عام 1408 هـ الموافق 29/8/1987 م في جدة بمستشفى جامعة الملك عبد العزيز ، وقد شُيع جثمانه يوم الأحد في السادس من محرم الموافق الثلاثين من آب ، ونقل من جدة إلى مكة ودفن فيها حيث صلي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة العصر ، وقد شيَّعَ الفقيد عددٌ كبير من العلماء والدعاة والإخوة والشباب والطلاب ، وقد ألقى أحبة الفقيد الكلمات المعبرة عن حبهم ومصابهم في فقيدهم العالم الذي أخلص في دعوته وقدم للمكتبة الإسلامية الإنتاج الوفير .

وبفقده ودَّع المسلمون في بلاد الشام ، بل في العالم الإسلامي رجلا من أفذاذ

الرجال ، وعالماً من كبار العلماء ، وداعية مجاهدًا بذل حياته للدعوة إلى الإسلام بحاله ومقاله وقلمه ولسانه .

وكان مما رثى به الشيخ علوان رحمه اللّه ما قاله فيه د . محمد وليد :

أبا سعد رحلْت وكنت فينا   مثالا للدعاة ... المخلصينا
بكى لفراقك الأحباب طرًّا   وحيَّاك الهداة المؤمنونا
تَفطَّر قلبُهم حزنا دفينا   وفاضت عينُهم دمعا سخينا
عليك سلام ربك في البرايا   وأشواق الملائك ... أجمعينا
سقَتْ عينُ الغمام هناك رمسا   بمكة ضم ... عينك والجفونا
ويا أرضَ الحجاز حييت أرضا   ترابُك روضة ... للصالحينا

* * *

أخا الإسلام كنت أخا كريما   وعند مصابنا قلبا ... حنونا
رمَتْك سهامُ دهرك بالرزايا   فكنت من التقاة الصابرينا
خرجتم في البلاد مهاجرينا   وهذي سُنَّة في الأولينا
ونافحتم عن الإسلام دهرا   وصنتم عرضه .. لغة ودينا
وإن رَكَنَتْ إلى الدنيا دعاةٌ   فأنت من الدعاة .. العاملينا
تقلَّبَتِ القلوبُ بنا وكنتم   إلى يوم المنية .. صامدينا
أبا سعد رأيتك .. والمنايا   تصارعكم فتصرعها سنينا
إلى أن جاء يوم كان فيه   لقاءكُمُ برب العالمينا
تأذى من سهام الداء جسم   ولكن روحكم كانت معينا
ولم أر مثل عودك في البرايا   ذوى ورسا وضوَّع ياسمينا

* * *

أبا سعد وللذكرى شجون   تهيَّج في مشاعرنا الحنينا
فذكراكم هنا في الخالدينا   رحلت عن الديار وأنت فينا

* * *

اللهم اغفر له وارحمه ، وأكرم نُزله ، وأسكنه فسيح جناتك ، واجمعنا معه في مقعد صدق عند مليك مقتدر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .



مقدمة المؤلف

الحمد للّه ربّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد سيّد الدعاة ، وإمام المجاهدين ، وقائد الغر المحجّلين ، وعلى آله وأصحابه الأبطال الأُسْدِ الميامين ، وعلى دعاة الحق ، وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : (فإن الدعوة إلى اللّه عز وجل هي مهمة الرسل والأنبياء الذين هم خيرة اللّه من عباده ، وسفراؤه إلى خلقه ، وهي أيضًا مهمة خلفاء الرسل ، وورثتهم من العلماء العاملين ، والدعاة المخلصين الصادقين ، وهي أفضل الأعمال بعد الإيمان باللّه تعالى ، وبعد التزام منهجه القويم ؛ لأن ثمراتها هداية الناس إلى الحق ، وتحبيبهم في الخير ، وتنفيرهم من الباطل والشرّ ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

والدعوة إلى اللّه عز وجل هي الدعوة إلى دينه ، واتباع هداه ، وتحكيم منهجه في الأرض ، وإفراده تعالى بالوحدانية والعبادة ، والاستعانة والطاعة ، والبراءة من كل الطواغيت التي تطاع من دون اللّه ، وإحقاق ما أحق اللّه ، وإبطال ما أبطل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل اللّه .. وبعبارة موجزة : **الدعوة إلى الإسلام خالصًا متكاملًا غير مشوب ولا مجزّأ** . ومثل هذه الدعوة إلى هذه المعاني ليست بالأمر الهيّن الذي يقابل بالإغضاء والسكوت ، أو الموافقة والقبول ، وكيف تقبل هذه الدعوةَ العقولُ الجامدة ، أو القلوب المريضة ، أو القوى المتسلّطة ، أو الفئات التي أضلّها الهوى ، أو أغرقها حب الدنيا ؟ !! .

لهذا كان لابد لهذه الدعوة العظيمة الشاملة من دعاة أقوياء ، وهداة أشدّاء ، ومبلّغين صابرين ، يتناسبون مع عظمتها وشمولها ، قادرين على أن يمدّوا أشعّة ضيائها في أنفس الناس وعقولهم وضمائرهم .. بعد أن تشرق بها جوانحهم ، وتستضيء بها حياتهم) [2] .

---

(1) سورة فصلت الآية : 33 .

(2) من كتاب « ثقافة الداعية » للدكتور يوسف القرضاوي ص : 5 مع بعض التصرف .

إن هذا الداعية الموفّق هو القوّة المحرّكة لعملية الدعوة ، وحركة سيرها وامتدادها . وهذا يجعل العناية بتكوينه ، وإعداده الإعداد الكامل أمرًا بالغ الأهمية ، وإلا فإنه سيكون خيبة أمل للأمة جميعًا ، لكونه لم يتهيّأ لحمل الرسالة ، ولم يعد صالحًا لهداية الناس !! .

والأمة الإسلامية مع كافة أجناسها وألوانها ولغاتها لا يمكنها أن تصل إلى المجد والعظمة والسيادة ؛ إلا بفضل رجالها المخلصين ، ودعاتها الصادقين ، وعلمائها العاملين .

فبقدر ما يوجد في الأمة دعاة ، وبقدر ما يتحرّكون للدعوة إلى اللّه ، وبقدر ما يكون عندهم من أخلاقيّات إسلامية عالية ، وأساليب في التبليغ ناجحة ، وإشعاعات في الروحانية مشرقة .. فبقدر هذا كلّه يحقق اللّه الخير على أيديهم ، ويرفع بعزماتهم وتضحياتهم راية الإسلام عالية خفّاقة مؤذنةً بنصر مؤزّر ، وفتحٍ مبين ، وعزة إسلامية سامقة .

وربّ سائل يقول : ما المدرسة التي إذا انتسب إليها الدعاة ، ودرسوا موادّ فصولها ، واجتازوا جميع مراحلها .. كانوا بحق الدعاة الأقوياء ، والهداة الحكماء ، والرجال الأوفياء ؟ .

- المدرسة هي مدرسة الدعوة الإسلامية .
- والأعضاء المنتسبون إليها هم الدعاة .
- ومواد الفصول التي يمرّون على دراستها إلى مرحلة التخرّج هي كما يلي :

الفصل الأول – هذه الدعوة .. ما طبيعتها ؟

الفصل الثاني – الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي .

الفصل الثالث – وجوب تبليغ الدعوة .

الفصل الرابع – فضل الدعوة والداعية .

الفصل الخامس – صفات الداعية النفسية .

الفصل السادس – روحانية الداعية .

الفصل السابع – أخلاقية الداعية .

الفصل الثامن – ثقافة الداعية .

الفصل التاسع – كيف يدعو الداعية ؟

الفصل العاشر – مواقف الداعية التعبيرية .

الفصل الحادي عشر – العقبات التي تعترض الداعية .

وفي تقديري أن الدعاة إلى اللّه إذا انتسبوا إلى مدرسة الدعوة عازمين ، ودرسوا موادّ فصولها متفهّمين مستوعبين ، ثم انطلقوا في ميادين التبليغ صادقين مخلصين .. كان لهم في مجال الدعوة أثر ، وفي نطاق الإصلاح تغيير ، وفي تحرّك الدعاة قدوة .

ولقد رأيت أن أُخرج هذه الفصول أجزاء متسلسلة متتابعة .. تحت شعار « سلسلة مدرسة الدعاة »[1] عسى أن يجد فيها شباب الدعوة الزاد لثقافتهم ، والمنهاج لتحرّكهم ، واليسر في مطالعتهم ، والاستيعاب لأفكارهم ، والمراحل لإعدادهم وتكوينهم .

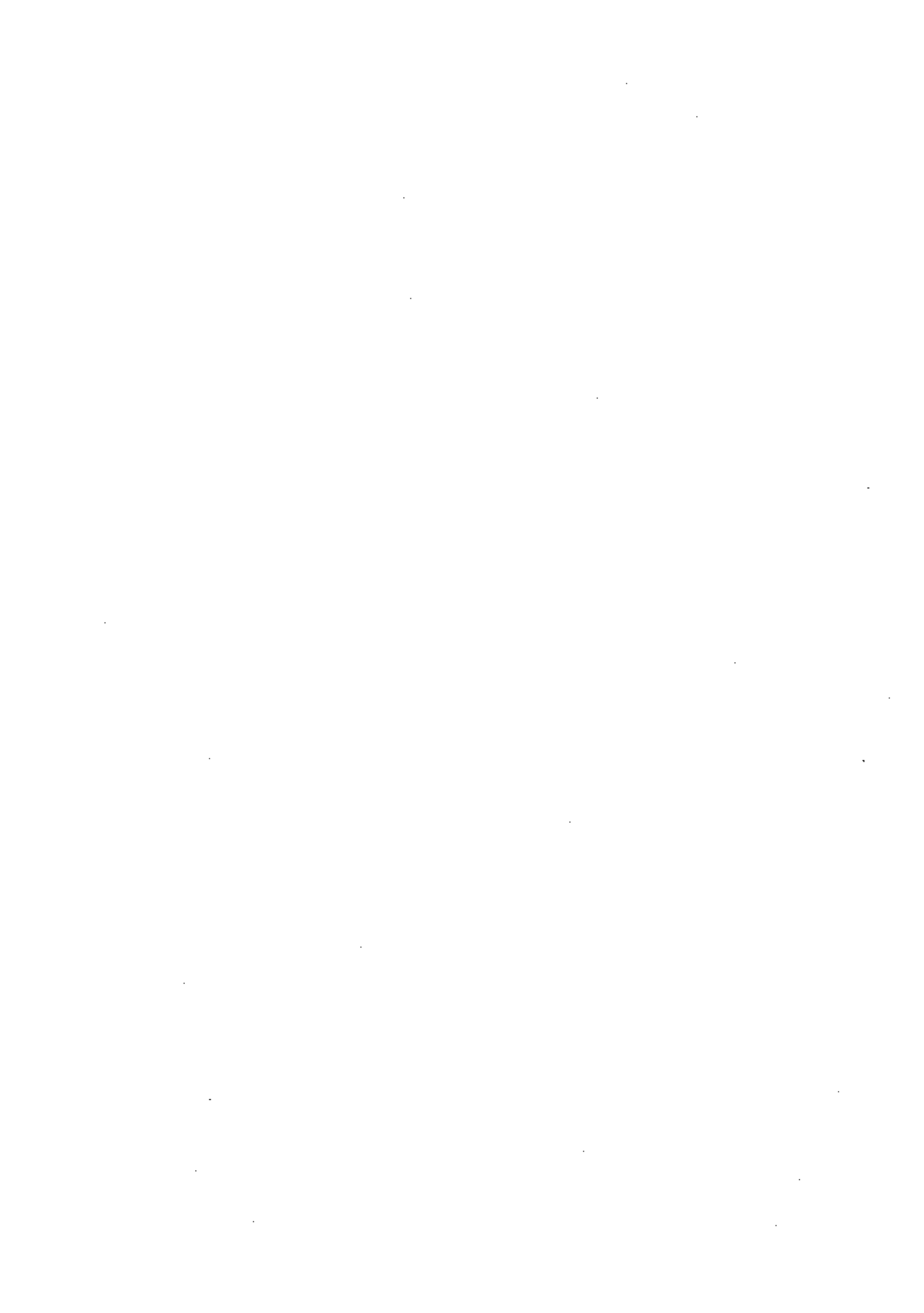
واللّه أسأل أن يجد الدعاة في هذه الفصول المتتابعة مقصدهم الأسمى ، وزادهم الأوفى ، وأمنيتهم الغالية .. كما أسأله سبحانه أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يتقبّله مني يوم العرض عليه ، وأن ينفع به شباب الدعوة في كل مكان ، إنه خير مسؤول ، وبالإجابة جدير .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

عبد اللّه ناصح علوان

أستاذ الدراسات الإسلامية
في جامعة الملك عبد العزيز

(1) وقد طبعت بحمد اللّه هذه السلسلة ، ثم عنّ لدار السلام بعد أن زاد الطلب على هذه السلسلة أن تجمعها في مجلد لطيف من الحجم الكبير ، وهذا العمل هو ما بين يدي القارئ الكريم .



سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(1)

هذه الدعوة .. ما طبيعتها

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



الفصل الأول

هذه الدعوة .. ما طبيعتها

لابدّ للمدعوّ والداعية أن يعرفا طبيعة هذه الدعوة التي شرّف اللّه الأمم باعتناقها ، وشرّف الدعاة والعلماء بحملها وتبليغها .

شرّف اللّه الأمم باعتناقها لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (1) .

وشرّف الدعاة والعلماء بحملها وتبليغها لقوله جلّ جلاله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (2) .

والمقصود من طبيعة هذه الدعوة أن يعرف كلّ من المدعوّ والداعية خاتمة هذه الدعوة ولماذا ختمت ؟ وأن يعرف عالميّتها ولماذا عُمّمت ؟ وأن يعرف خصَائصها ولماذا تميّزت ؟ .

ولاشك أن الداعية إذا عرف هذه التصورات عن طبيعة هذه الدعوة ؛ يكون انطلاقه في حملها أشدّ ، ويكون تحفزه في سبيل تبليغها أعظم مهما لقي من أذى واضطهاد ، ومهما اعترضته العقبات والعراقيل .. إلى أن يأذن اللّه بالنّصر أو يموت وقد أبرأ ذمّته وأدّى ما عليه . ومن المؤكد أن المدعو إذا عرف هذه الحقائق عن الدعوة التي اعتنقها وآمن بها ؛ يكون تمسّكه بها أقوى ، ومناهضته لمن يحاربها أكبر، وجهاده في سبيلها أضخم وأعظم .. بل يبقى مؤمنًا بها ، ثابتًا عليها ، داعيًا إليها إلى أن يلقى اللّه عز وجل وهو عنه راضٍ في مجمع من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

لذا كان من الطبيعي أن نتكلم في هذا الفصل عن طبيعة الدعوة الإسلامية ، وأظهر مزاياها وخصائصها .. وإليكم بنود طبيعة هذه الدعوة مرتّبة مفصلّة :

1 – لماذا كانت الدعوة الإسلامية خاتمة الدعوات ؟

2 – لماذا كانت عالميّة عامّة ؟

3 – ما هي أظهر خصائصها ومزاياها ؟

---

(1) سورة آل عمران الآية : 85 .

(2) سورة آل عمران الآية : 104 .

1 - لماذا كانت الدعوة الإسلامية خاتمة الدعوات [1] ؟.

كلّ من عنده بقيّة من علم أو فهم أو تجرّد .. يعلم علمًا أكيدًا أن محمدًا عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن رسالته التي كُلّف بتبليغها هي خاتمة الرسالات والشرائع ، ولا ينكر ذلك إلا من كان معاندًا للحق ، مستعليًا على الحقيقة ، متجاهلًا طبيعة الإسلام ، منكرًا حقائق الأشياء .

والدليل على ختم النبوة من القرآن الكريم : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [2] .

والدليل على ختم النبوة من السنة النبوية : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وُضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللّبنة وأنا خاتم النبيين » [3] .

ومن المؤيدات على ختم الرسالة في القرآن الكريم :

قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [4] .

وقوله في سورة الفتح : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ ﴾ .

وقوله في سورة آل عمران : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥ ﴾ .

إلى غير ذلك من هذه النصوص القاطعة التي تثبت بشكل لا يقبل الجدل أن شريعة الإسلام ناسخة لجميع الشرائع والديانات ، وأن رسالة محمد ﷺ ودعوته هي خاتمة الرسالات والدّعوات ..

ولعل المعقولية في هذا النسخ والختم والهيمنة : أن رسالة الإسلام جمعت في طيّاتها دعوة الأنبياء والرسل جميعًا ، وزادت عليها شموليّة التشريع الواقعي المتجدّد إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .

---

(1) اقتبست هذا البحث من كتابنا « حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية » صفحة (8 - 10) مع شيء من التصرف .
(2) سورة الأحزاب الآية : 40 .
(3) صحيح مسلم كتاب الفضائل ب (7) برقم (22) .
(4) الآية : 48 .

وهذا التشريع - كما سيأتي بيانه - يمتاز بالخصائص ، ويتصف بالخلود ، ويحمل في طبيعته عوامل نموّه وامتداده إلى يوم البعث والنشور .

وصدق اللّه العظيم القائل في سورة المائدة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [1] .

ولعل المعقولية كذلك : أن الإنسانية - عند تنزّل شريعة الإسلام - بلغت من النضج العقلي ، والرشد الإنساني ، ما لم تبلغه في أي مرحلة من مراحل التاريخ .

بل وصلت في نضجها ورشدها بعد بعثة النبي ﷺ إلى أسمى آيات الفهم والوعي والإدراك والاستيعاب ، مما جعلها تتفهم طبيعة هذا الدين ، وتؤمن به ، وتدعو إليه ، وتجاهد في سبيله ، وتدفع عجلة المدنية والحضارة إلى الأمام ، وتطبع في ضمير الزمان مبادئ التوحيد والعدالة والحرية والمساواة .. بل كان نزول هذا التشريع متلائمًا مع مصالح الناس وحاجاتهم ، ومتوافقًا مع أحوالهم وواقع حياتهم ، وملبيًا حاجة تطورهم وتقدمهم في كل زمان ومكان ؛ لذا كانت التشريعات في عصور الأنبياء والمرسلين من قبلُ مرحليّة ومؤقتة ، فأصبحت بعد بعثة الرسول ﷺ ثابتة خالدة . وكانت محدودة وجزئيّة ، فأصبحت شاملة وكلّية . وكانت خاصة ومحلية ، فأصبحت عامّة وعالمية .

وإلى هذه المعقولية من الهيمنة والظهور والنسخ أشار القرآن الكريم حين قال :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ ﴾ [2] .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. ﴾ [3] .

من أجل هذه النصوص ، وهذه المعقولية كانت الرسالة المحمدية ، والدعوة الإسلامية خاتمة الرسالات والدعوات إلى يوم البعث والنشور .

* * *

2 - لماذا كانت الدعوة عالميّة وعامة ؟

كانت عالمية وعامة لكونها ذات صبغة إنسانية في تشريعها ومبادئها ، فهي رحمة

(1) الآية : 3 . (2) سورة الفتح الآية : 28 . (3) سورة المائدة الآية : 48 .

للعالمين ، وهي هداية للناس كافّة ، وهي منهاج للبشرية عامة .

فهذه الدعوة الإسلامية ليست تشريعًا لجنس خاص من البشر ، أو لإقليم معيّن من الأرض ، أو لفئة خاصة من الناس ؛ بل هي لكل إنسان في الوجود بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو أرضه . فلا عنصريّة في هذه الدعوة ، ولا عصبيّة في هذا التشريع ، ولا طبقيّة في هذا الإسلام ، وإنما الناس سواء كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

والشعار العام في هذه الصبغة الإنسانية لدعوة الإسلام قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [1] .

● وهذه العالمية للدعوة الإسلامية قد بيّنها اللّه جل جلاله في أكثر من آية في كتاب اللّه :

قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

وقال في سورة سبأ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [2] .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [3] .

● وهذه العالمية للدعوة أكدها النبي ﷺ في أكثر من مناسبة :

روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أعطيتُ خمسًا لم يعطهنّ نبيّ قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلّ ، وأُحلّت لي الغنائم ، وأُعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصّة وبعثتُ إلى الناس عامّة » [4] .

وثبت تاريخيًّا – عن طريق الرواية الصحيحة – أنه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى الملوك والرؤساء في عصره كالنجاشي ، وكسرى ، وقيصر ، والمقوقس ... كتبًا يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان شعاره في ذلك : « أسلم تسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين ، فإن تولّيت فإنما عليك إثم **الأريسيين** (أي الفلاحين والعامة) » .

فلو لم تكن دعوته عليه الصلاة والسلام عالمية لما أرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم

(1) سورة الحجرات الآية : 13 .
(2) الآية : 28 .
(3) الآية : 158 .
(4) اللؤلؤ والمرجان (1 / 104) برقم (299) .

بدعاية الإسلام ، ويأمرهم باعتناق هذا الدين .

● **ومن المؤيدات لهذه العالمية** : تحميل القرآن الكريم أمة الإسلام في كل زمان ومكان أمانة التبليغ والدعوة في آفاق الدنيا ، ومجاهل الأرض وأصناف الأمم .

وهذا التحميل لأمانة التبليغ والدعوة بيّنه اللّه عز وجل في أكثر من آية في كتاب اللّه سبحانه :

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ [1] .

وقال في سورة البقرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [2] .

وقال في سورة يوسف : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي .. ﴾ [3] .

فانطلاقًا من هذه الأوامر الربانية ، والإرشادات القرآنية ؛ انطلق المسلمون في آفاق الأرض ، وأرجاء الدنيا ، يبلّغون رسالات اللّه ، ويدعون إلى اللّه ، ويعلنون التوحيد ، وينشرون الإسلام .. **وشعارهم في ذلك** :

(ابتعثنا اللّه لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام) [4] .

(وهذه الميزة العالمية للدعوة الإسلامية إنما هي أثر من آثار الصبغة الربانية في هذا التشريع ، فلو كان واضعه فردًا أو فئة من الناس ، لتعصّبت – بوعي أو بلا وعي – لجنسها وطبقتها ومصالحها . ولكن المشرّع هنا – كما هو معلوم – ربّ الناس ، إله الناس ، فهم جميعًا عباده ، لا فضل لفرد منهم على فرد ، ولا لفئة على أخرى بحكم الخَلْق والنشأة) [5] .

ولعل المعقوليّة في هذه العالمية – كما سبق ذكره – لتحقيق وحدة التشريع العالمي لأمم الأرض ، ليتمّ لها الاستقرار والسلام والمحبة ، ولتنصبغ بالصبغة الربانية الخالصة .

ألا فليدرك شباب الدعوة هذه المزايا العالمية لدعوة الإسلام ؟ !! ..

---

(1) الآية : 110 . (2) الآية : 143 . (3) الآية : 108 .

(4) كلام « ربعي بن عامر » أمام « رستم » قائد جيش الفرس في معركة القادسية انظر البداية والنهاية 7 / 39 .

(5) من كتاب « شريعة الإسلام » للدكتور القرضاوي صفحة : 20 .

3 - ما هي اظهر خصائص هذه الدعوة ؟

من الأمور المسلّمة التي لا يكاد يختلف فيها اثنان ؛ أن لكل نظام من الأنظمة سواء أكان نظامًا ربانيًا أو كان نظامًا وضعيًا لابدّ له من خصائص يُعرف بها ، ويتميز بها عن غيره . فما هي أظهر خصائص دعوة الإسلام ؟ أو بعبارة أوضح : ما هي طبيعة مبادئ الشريعة الإسلامية الغراء التي تتميّز بها عن غيرها من النظم الأرضيّة ، والمذاهب البشرية ؟

أرى هذه الخصائص في دعوة الإسلام تتركز في النقاط التالية :

أ - الربانية :

نقصد بالربانية : أن أحكام هذه الشريعة وأنظمتها ومبادئها ليست من وضع بشر يحكمه القصور والعجز والتأثر بمؤثّرات المكان والزمان والثقافة ، ومؤثّرات الوراثة والنّزعة والمزاج والهوى .. وإنما شارعها صاحب الخلْق والأمر في هذا الكون ، وربّ كل ما فيه ومن فيه ، الذي أحسن كل شيء خلقه .

والمؤمن حين يندفع إلى تطبيق المنهج الربّاني على نفسه ، يندفع بكليته وهو مرتاح عن رغبة وصدق ، وإخلاص وطواعية .

لماذا يندفع المؤمن هذا الاندفاع ؟

● لأنه يعلم علمًا أكيدًا أن اللّه سبحانه هو الخالق المبدع القادر . فله أن يتصرّف في شؤون خلقه كما يريد وكما يشاء ، وليس للإنسان المخلوق الضعيف القاصر إلا أن يمتثل ما اختاره اللّه له دون توقّف أو تردّد .

قال تعالى في سورة القصص : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وقال في سورة الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ .. ﴾ [1] .

● ولأنه يعلم علمًا أكيدًا أن اللّه سبحانه عليمٌ بكل شيء .

فهو أعلم بما يشرع لعباده من أحكام ، وأدرى بما يحقق لهم من مصالح .

(1) الآية : 36 .

– قال تعالى في سورة المُلْك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ .

وقال في سورة البقرة : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ .

● ولأنه يعلم علمًا أكيدًا أن اللّه سبحانه حكيم في كل ما يشرعه ويخلقه ، وحكمته جلّ جلاله معناها أن يضع كلّ شيء في موضعه المناسب بالشكل الذي يؤدي إلى تحقيق المصالح ، ودرء المفاسد .

قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ .

وقال في سورة الأنفال أيضًا : ﴿ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

● ولأنه يعلم علمًا أكيدًا أن الإنسان – مهما علا شأنه – ضعيف في حدّ ذاته ، عاجز عن أن يصل إلى مرتبة الكمال والنضج مهما ارتقى علمه ، ونضجت ثقافته .

قال تعالى في سورة الروم : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ (1) .

وقال في سورة النساء : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

وقال في سورة يوسف : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

عدا أن الإنسان – كما ألمحنا – يتأثر بالبيئة ، ويتأثر بالعاطفة ، ويتأثر بالوراثة ، ويتأثر بالعقيدة التي يعتنقها ، ويتأثر بالنزعة التي يندفع إليها .

ولأضرب على ذلك الأمثال :

هذا الإنسان الذي كلّف لأن يضع لأمة ما نظامها ، ومنهجها .. يأتي من هو أعلم منه تفنينًا ، وأكثر منه ثقافة ، فينقض له كل ما سنّه من نظم ، وما قنّنه من قوانين .

وهذا الإنسان المتأثر بالفكر الماركسي ، حين يكون مختصًا بالقانون ، ويكلّف لأن يضع لأمة ما دستورها ؛ يضع بنود هذا الدستور بما يتفق مع الفكر الماركسي الشيوعي .

وهذا الإنسان المتأثر بالفكر الرأسمالي ، حين يكون مختصًا بالقانون ، ويكلّف لأن يضع لأمة ما دستورها ؛ يضع بنود هذا الدستور بما يتفق مع الفكر الرأسمالي الغربي .

وهذا الإنسان المتأثر بالنزعة الوجودية الإباحية يضع القوانين للأمة بما يتفق مع

(1) الآية : 54 .

هذه النزعة الإباحية .

وهذا الإنسان المتأثر بالنزعة التسلّطية الفردية يضع القوانين للأمة بما يتفق مع هذه النزعة التسلّطية .

إلى غير ذلك من هذه المؤثرات ، والنزعات ، والمبادئ ، والأهواء .

والواقع الدولي ، والصراع العالمي ، والتناقض المذهبي ، والتباين الفكري الذي آلت إليه المجتمعات الإنسانية في العصر الحديث أكثر شاهد على ما نقول ، بل أعظم برهان على أن الإنسان في طبيعته وحقيقة ذاته يتأثر بالنزعة والهوى ، والبيئة والوراثة ، والعقيدة والمبدأ ، وأن عقله مهما سما ؛ قاصر ، وأن علمه مهما اتسع ؛ محدود ، وأنه عاجز عن وضع التشريع لنفسه مهما بلغ درجة النضج والكمال ، وفوق كل ذي علم عليم .

لهذا كله نجد المؤمن الواعي البصير المتفهم للحقيقة يندفع بكليته ، وينطلق من ذاته إلى تطبيق المنهج الرباني على نفسه ، وعلى من يكون تحت ولايته ؛ لاعتقاده الجازم أن كمال شخصيته ، وبناء إنسانيته ، وإصلاح بني قومه لا يتم على الوجه اللائق إلا أن يأخذ ممن اختُصّ بالكمال والجلال ، وينقاد إلى من تنزه عن النقص والقصور ، ويستسلم إلى مَن عُرِف بالعظمة والإبداع .. ألا وهو اللّه سبحانه وحده ؟!!

وصدق اللّه العظيم القائل في سورة الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [1] .

والقائل في سورة الأنعام : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [2] .

والقائل في سورة المائدة : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

هل عرف شباب الدعوة ما معنى الربانية ؟ وما يقصد منها ؟!!

* * *

ب - الشمول :

ونقصد بالشمول : أن الشريعة الإسلامية الغراء اشتملت على نظم وأحكام وتشريعات في كل جانب من جوانب التكوين والبناء والإصلاح ، وفي كل ناحية من نواحي

(1) الآية : 36 .　　(2) الآية : 114 .

المجتمع والحياة ، سواء ما يتعلق بالعقائد والعبادات والأخلاق ، أو ما يتعلق بالقوانين العامة من مسائل مدنيّة ، وأمور جنائية ، وأحوال شخصية ، ونظم اجتماعية ، وعلاقات دوليّة ... ، أو ما يتعلق بأسس الحكم ، ومبادئ الاقتصاد ، وأصول المعاملات ، وركائز المجتمع الفاضل .

كل ذلك في مبادئ دقيقة مُحكمة ، وفي تشريعات ربانية خالدة تعطي ولا تأخذ ، وتجمع ولا تفرق ، وتؤلّف ولا تبدّد ، وتبني ولا تهدم ، تنزيل من حكيم حميد .

ومما يدل على شمول الشريعة الإسلامية لكل أنظمة الحياة :

أولًا : التجربة التاريخية التي بدأت منذ تأسيس الدولة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول ﷺ في الجزيرة العربية ، والتي انتهت بزوال الخلافة العثمانية على يد العميل الخائن الملحد « أتاتورك » فالإسلام في هذه العصور جميعًا كان يحكم الواقع والحياة .

وكانت التجربة رائدة وناجحة ومحقّقة الخير والأمن والاستقرار لبني الإنسان بشهادة الخصوم كما سيأتي بيانه إن شاء اللّه .

ثانيًا : النصوص القرآنية التي تنطق بالحق والهدى :

قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ (1) .

وقال في سورة النحل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

ونوضح خاصيّة الشمول بالأمثلة ولنقتصر على المسائل المدنيّة والاقتصادية والدستورية ، والقوانين الجنائية ، والعلاقات الدولية ؛ باعتبار أن هذه الأمور تأخذ من اهتمام المقنّنين والمشرّعين في العصر الحديث ، ويعتبرونها الأساس لأنظمة الحياة :

ففي القضايا المدنية والاقتصادية يقول اللّه تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ... وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ... وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ .. ﴾ (2) .

وفي القضايا الدستورية يقول اللّه تعالى في سورة الشورى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (3) .

وفي المسائل القضائية يقول جلّ جلاله في سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ

(1) الآية : 38 . (2) الآية : 282 ، 283 . (3) الآية : 38 .

ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [1] .

وفي العقوبات الجنائية يقول عز من قائل في سورة البقرة : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ ... ﴾ [2] .

وفي الإعداد الحربي يقول القرآن الكريم في سورة الأنفال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [3] .

وفي العلاقات الدولية يقول من بيده الخَلْق والأمر في سورة الممتحنة : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ ﴾ .

إلى غير ذلك من هذه القواعد والأحكام والمبادئ المبينة : إما في قرآن كريم ، أو سنّة مطهّرة ، أو إجماع ، أو قياس .

وما ذاك إلا تأكيد شامل على ظاهرة الشمولية التي انطوت عليها شريعة الإسلام، لترتشف الإنسانية على مرّ العصور من معينها الصافي ، وتغترف الأجيال على مدى الزمان من بحرها الهادر الزاخر ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [4] .

من هذا المنطلق في خاصيّة الشمولية :

يقول العلامة الكبير « ساتيلانا » : « إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم إن لم نقل ما يكفي الإنسانية كلها » .

ويقول الدكتور « **هوكنج** » أستاذ الفلسفة في جامعة « هارفارد » : « إن في نظام الإسلام استعدادًا داخليًا للنموّ ، وإني أشعر بأني على حقّ حين أقرّر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض » .

ويقول القانوني الكبير « **فمبري** » : « إن فقه الإسلام واسع إلى درجة أنني أعجب كل العجب كلما فكرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم ومكانكم .. » .

وهذه الشهادة على شمولية الإسلام ، ومبادئه الحيّة الباقية هي شهادة أساطين

(1) الآية : 58 . (2) الآية : 178 . (3) الآية : 60 .
(4) سورة المائدة الآية : 50 .

الفقه والقانون في العالم .

فبأي حديث بعد هذا يؤمنون ؟

* * *

ج - العطاء والتجدّد :

إن المتأمل في مبادئ الشريعة الإسلامية الغراء ، وقواعدها الكلية ، يجد أن هذه الشريعة تفي بحاجات الزمن المتطور ، وتواكب حضارة العصور المتقلّبة ؛ ولا سيما المبادئ والقواعد التي لها ارتباط بأحكام المعاملات ، والمسائل الدستورية ، والنظم الاقتصادية ، والعلاقات الدولية ، والقضايا المدنية .. **ولنضرب على ذلك الأمثلة :**

القرآن الكريم في المسائل الدستورية ، والأمور القضائية .. نصّ بوضوح على قاعدة العدل :

﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [1] .

﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [2] .

فقاعدة العدل التي نصت عليها الآيتان الكريمتان قاعدة كلية ثابتة لا تتبدّل ولا تتغير ، وهذه القاعدة يجب العمل بها في كل زمان ومكان ، ولكن وسائل تطبيق قاعدة العدل متروك للزمن المتطور ، والحياة المتجدّدة ،، فتطبيق قاعدة العدل في محكمة واحدة ، أو بتعدد من المحاكم ، أو بفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية .. فهذا كله متروك لأهل الحلّ والعقد ، بل متروك للأصلح من تجارب البشرية .

فمقصود الشريعة الأول تطبيق مبدأ العدل ، فليكن التطبيق بأية وسيلة ، وبأية صورة ارتآها أهل الحلّ والعقد ، وبأي تنظيم وبأي إطار أشار إليه المختصّون في هذا المجال ما دامت هذه التنظيمات والوسائل تطبّق قاعدة العدل وتحقق مبدأ المساواة بالنسبة للجميع .

وكذلك قاعدة الشورى ..

فالقرآن الكريم نص على هذه القاعدة بوضوح : ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [3] .

---

(1) سورة المائدة الآية : 8 . (2) سورة النساء الآية : 58 . (3) سورة آل عمران الآية : 159 .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[1] .

فقاعدة الشورى التي نصّت عليها الآيتان قاعدة كلية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير . وهذه القاعدة يجب العمل بها في كل زمان ومكان ، ولكن وسائل تطبيق قاعدة الشورى متروك للزمن والحياة .. فتطبيق قاعدة الشورى في مجلس استشاري يضمّ النخبة من أهل الاختصاص والرأي ، أو في مجلس انتخابي ينتخبه الشعب ، أو انتقاء مجالس وزارية من أهل الخبرة والمشورة ، أو انتخاب مجالس محلّية لكل مقاطعة أو بلد ... فهذا كله متروك للأصلح من تجارب البشرية !!

فمقصد البشريعة الأول تطبيق قاعدة الشورى ، فليكن التطبيق بأية وسيلة كانت ، وبأية صورة أو هيئة ارتآها أهل الحلّ والعقد ، مادامت الدولة بمسؤولها الأول ، ووزرائها ورجال الحكم فيها تحقق قاعدة الشورى ، وتقوم على تنفيذ مبدأ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ولنقس على ذلك :

مبدأ المساواة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2] .

ومبدأ إعداد القوة في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[3] .

ومبدأ تنظيم الدَّيْن في قوله تعالى : ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾[4] .

ومبدأ الجنوح للسَّلم في قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾[5] .

ومبدأ تنظيم العقود في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[6] .

إلى غير ذلك من هذه المبادئ والقواعد التي نصّت عليها شريعة الإسلام الخالدة .

وهنا يرد تساؤل : **هل أحكام الشريعة قابلة للتجدّد والتطور ؟**

للإجابة على هذا التساؤل يجدر أن نقسّم الأحكام التشريعية إلى ثلاثة أقسام :

1 – مسائل تشريعية قابلة للتجديد .

2 – مسائل تشريعية قابلة للتبديل .

3 – مسائل تشريعية ثابتة غير قابلةٍ لتجديدٍ ولا تبديل .

---

(1) سورة الشورى الآية : 38 . (2) سورة الحجرات الآية : 13 . (3) سورة الأنفال الآية : 60 .
(4) سورة البقرة الآية : 282 . (5) سورة الأنفال الآية : 61 . (6) سورة المائدة الآية : 1 .

● **أما المسائل التشريعية القابلة للتجديد :**

فقد سبق أن ذكرنا المبادئ والقواعد التي لها الارتباط الوثيق بالمعاملات المالية ، والشؤون الاقتصادية ، والنظم القضائية ، والقضايا الإدارية والدستورية .

فالإسلام - كما ذكرنا - نصّ على هذه المسائل بقواعد عامة ، ومبادئ كلية من غير تعرّض إلى تفصيلات أو جزئيات أو مراحل ، وترك أمر التطبيق والهيئة والشكل للأصلح من تجارب البشرية كقاعدة العدل ، وقاعدة الشورى ، وقاعدة كتابة العقود .. كما سبق الشرح والبيان .

فالشريعة في هذه المسائل إذن اكتفت بتثبيت القاعدة ، وتحديد الإطار العام ، وتركت وسائل التطبيق ، وتفصيلات التنفيذ لأهل الحل والعقد ، وهيئة الخبرة والاختصاص كلٌّ على حسب زمانه ومكانه ، شريطة أن لا تتعارض هذه الوسائل والتفصيلات مع نص صريح ، أو تخرج عن القاعدة العامة ، أو تتجاوز هذا الإطار المحدّد لها .

* * *

● **أما المسائل التشريعية القابلة للتبديل :**

فهي المسائل التي لم يرد فيها نصّ أصلًا لا في كتاب ، ولا في سنّة ، ولا إجماع ، ولا قياس ؛ هذه المسائل خاضعة للاجتهاد الزمني ، والتطور المصلحي .. حيث يجتهد بهذه المسائل المستحدثة المستجدّة علماء راسخون مختصّون ، متّسمون بالورع والتقوى ، ومتّصفون بملكة الفهم والاجتهاد . فيصدرون أحكامهم بما يحقق وجه المصلحة ، وبما يتلاءم مع التطور الحضاري ، والتقدّم العلمي .. كبيان حكم الإسلام في الضمانات التقاعدية للموظف والعامل ، وفي تعويض التسريح ، وفي التعويض العائلي ، وفي التأمين الصحي .. فهذه المسائل وما كان على شاكلتها مما لم يرد فيها نص ، وتتفق مع روح الشريعة ومقصدها العام ، تحتاج إلى نُخْبة من أهل العلم والاختصاص ليقرّروا حكم الإسلام فيها على ضوء المصلحة والتطور ، وروح الشريعة ، ومقاصدها العامة .

وبناء على هذا يقول علماء الأصول : « لا ينكر تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان » .

* * *

● **اما المسائل التشريعية الثابتة غير القابلة لتجديدٍ ولا تبديلٍ :**

فهي المسائل التي وردت فيها نصوص قطعية ثابتة لا مجال لتجديدها وتبديلها ، والاجتهاد فيها ، كمسائل العقيدة ، وأركان الإيمان ، وأحكام العبادات ، وأمور المعاملات .. وكحرمة الزنى ، والربا ، والخمر ، والميسر ، وقتل النفس ، وتحديد أنصبة المواريث ، وتحديد عدة الطلاق والوفاة .. وكالنهي عن السفور ، والاختلاط بين الجنسين ، وخروج المرأة متبرّجة .. ونحوها .

فهذه النصوص التي بينت هذه الأمور كلها هي نصوص قطعية ، وأحكام ثابتة ؛ بل هي منطقة محرّمة ، لا يتطرّق إليها الاجتهاد ، ولا تخضع لأي تبديل أو تعديل لحكمةٍ يعلمها اللّه ، وكثيرًا ما يدرك الإنسان بعقله وتجربته ومشاهداته السرّ من الأمر أو النهي ، والحكمة من الحلّ أو التحريم .

وقلنا إنها منطقة محرّمة لا يتطرّق إليها الاجتهاد ؛ لأن كل من يريد أن يبدّل فيها ، أو يجتهد في تطويرها يكون هادمًا للشريعة ، ومحاربًا للّه والرسول ، وخالعًا عن عنقه ربقة الإسلام .

وبناء على هذا يقول علماء الأصول : « لا مجال للاجتهاد في مورد النصّ » .

ومما يدل على عطاء هذه الشريعة وتجدّدها المستمر على مدى الزمان والأيام ؛ أنها أتت بقواعد تشريعية ميسّرة مُستنبطة من استقراء النصوص ، وأسباب النزول ، ووقائع الأحداث ، ومقاصد الشريعة . **مثل :**

« **الضرر يزال** » .

« **الضرر لا يزال بالضرر** » .

« **يُتحمّل الضرر الخاص لدفع الضرر العام** » .

« **الضرورات تبيح المحظورات** » .

« **ما أُبيح للضرورة يقدّر بقدرها** » .

« **درء المفسدة يقدّم على جلب المصلحة** » .

ألا فليعلم رجال الدعوة الإسلامية كيف يكون عطاء الشريعة ؟ وكيف يكون تجدّدها على مدى الزمان والأيام ؟!!

د - التوافق بين المادّية والروحانية :

ومن خصائص التشريع الإسلامي أنه يلائم بين المادة والروح ، ويوفق بين الدنيا والآخرة ، ويربط بين العبادة والحياة .. بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة توظف الإنسان على أن يؤدي حق ربه ، وحق نفسه ، وحق غيره بكل دقة وأمانة وتساوٍ وتنسيق ؛ وبهذا يتسنّى للإنسان أن يمارس الحياة الاجتماعية العملية بكل طاقاته وأشواقه على أسس من مبادئ الإسلام توافق الفطرة ، وتتلاءم مع واقعية الحياة .

فالإسلام بتشريعه المتكامل لا يُقِرّ الحرمان ، ولا الترهبن ، ولا العزلة الاجتماعية ، وفي الوقت نفسه لا يُقرّ الإنسان في أن ينهمك بكليته في الحياة المادية ، وينسى ربّه والدار الآخرة ، بل يهيب به أن يتوازن مع هذا وذاك ، وأن يعطي حق اللّه ، وحق نفسه ، وحق الناس دون أن يغلّب حقًّا على حق ، ودون أن يتساهل في واجب على حساب واجب آخر .

والقرآن الكريم قد قرّر هذا التوازن بين المادة والروح ، وبين العبادة والحياة في كثير من آياته التي تلامس المشاعر والوجدان قبل أن تخاطب عقل الإنسان .

ففي تذكيره بأداء حق اللّه في العبادة في غمرة الانهماك في الأعمال الدنيوية ، والمزاولات التجارية يقول في سورة النور : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وفي تذكيره بأداء حق النفس والعيال في التكسّب ، وابتغاء الرزق في غمرة المناجاة الربانية ، والنفحات المسجدية ، يقول في سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ .. ﴾ [1] .

ومن الأصول التي وضعها القرآن الكريم في هذا التوافق : ابتغاء الدار الآخرة مع الأخذ بحظوظ الدنيا : قال اللّه تعالى في سورة القصص : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .. ﴾ [2] .

الاستنكار على من يحرّم على نفسه الزينة المباحة ، والطيبات من الرزق . قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [3] .

(1) الآية : 10 . (2) الآية : 77 . (3) الآية : 32 .

وما ذاك إلا ليوازن الإنسان بين الدين والدنيا ، والعبادة والحياة .

ولو تأملنا مواقف رسول اللّه ﷺ في تحقيق التوافق ، ومعالجة ظاهرة العزلة والانطوائية والتخلّي عن الدنيا ؛ لازددنا يقينًا أن هذه المواقف ، وهذه المعالجة قائمة على إدراك فطرة الإنسان ، ورامية إلى تلبية أشواقه وميوله ، حتى لا يتجاوز أيّ فرد من أفراد المجتمع حدود فطرته ، ولا يسلك سبيلًا منحرفًا يصطدم مع أشواقه ؛ بل يسير على مقتضى المنهج القويم السويّ الذي رسمه الإسلام سيرًا طبيعيًا متوازنًا معتدلًا سويًّا بلا عوج ولا شذوذ ولا التواء .

وإليكم بعض هذه المواقف :

روى الشيخان عن أنس رضي اللّه عنه : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها (أي وجدوها قليلة) ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟!!..

قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا !!

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر !!

وقال آخر : أعتزل النساء فلا أتزوّج أبدًا !!

فجاء رسول اللّه ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما واللّه إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقد ، وأتزوّج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » [1] .

ثبت في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام أنكر على عبد اللّه بن عمرو بن العاص حينما علم أنه قد تخلّى عن الدنيا ، وعزم على نفسه أن لا ينام ، وأن لا يفطر ، وأن لا يأكل اللحم ، وأن لا يؤدي إلى أهله حقها ، فقال له عليه الصلاة والسلام ناصحًا وموجهًا ومرشدًا : « إن لك في رسول اللّه أسوة حسنة ، إن رسول اللّه ﷺ ينام ويصلّي ، ويصوم ويفطر ، ويأكل اللحم ، ويؤدي إلى أهله حقوقهن . يا عبد اللّه بن عمرو : إن للّه عليك حقًّا ، وإن لنفسك عليك حقًّا ، وإن لأهلك عليك حقًّا ، فأعط كل ذي حقّ حقّه » [2] .

---

(1) البخاري كتاب النكاح برقم 5063 ، 3 / 142 ، ومسلم رقم 1401 في النكاح .

(2) حديث صحيح ، وانظر صحيح البخاري 4 / 189 ، 190 باب حق الجسم في الصوم .

من هذه المواقف التي وقفها النبي ﷺ مع أصحابه تعطينا دليلًا قاطعًا ، وحجة بيّنة على أن هذا الإسلام العظيم هو دين الفطرة ، والتوازن ، والوسطية ، والاعتدال ؛ يضع الأسس الكفيلة ، والمبادئ الواقعية في بناء الشخصية الإنسانية واكتمالها وتوازنها لتنهض برسالتها ، ومهمتها في الحياة على أكمل وجه .

هذا شرع الله فأروني ماذا شرع الذين من دونه ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون .

* * *

هـ - اليسر والبساطة والمعقولية :

إن المتتبع لتعاليم الشريعة الإسلامية الغرّاء يجدها تمتاز باليسر والبساطة والمعقولية .

تمتاز باليسر لأن من مبادئها الأساسية :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (1) .

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (2) .

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (3) .

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (4) .

فهذه النصوص وغيرها تؤكد تأكيدًا جازمًا أن الإسلام بمبادئه السمحة لا يكلف الإنسان فوق طاقته ، ولا يحمّله من المسؤوليات فوق استعداده ، بل نجد كل هذه التكاليف والمسؤوليات تدخل في حيّز الإمكان البشري ، والطاقة الإنسانية ، لكي لا يكون لأيّ إنسان عذر أو حجّة في التخلّي عن أمر شرعي ، أو ارتكاب مخالفة إسلامية .

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة :

من يسر هذه الشريعة أنها شرعت الحج للمسلم القادر المستطيع في العمر مرة واحدة .

ومن يسرها أنها شرعت الزكاة للقادر المالك للنصاب بنسبة / 2,5 / في المائة على الأمور النقدية ، وعروض التجارة في العام مرة واحدة .

ومن يسرها أنها شرعت للمسلم خمس صلوات في اليوم والليلة ، يؤديها في

(1) سورة البقرة الآية : 185 .
(2) سورة الحج الآية : 78 .
(3) سورة البقرة الآية : 286 .
(4) سورة البقرة الآية : 173 .

أوقات مخصوصة متفرّقة في المكان الذي يريد ، ويسّرت أمر أدائها بالتيمم عند فقد الماء ، وبأدائها قاعدًا أو مضطجعًا أو موميًا في حالة العجز أو المرض ؛ وبالجمع بين صلاتين مع قصر الرباعية في السفر .

ومن يسرها أنها شرعت الصوم شهرًا قمريًّا واحدًا في السنة ، يصومه المسلم مستديرًا مع الفصول الأربعة ، وأباحت للصائم أن يفطر إذا كان مريضًا أو على سفر .

ومن يسرها أنها أباحت للمسلم تناول المحرّم أو أكل الميتة ؛ إذا أشرف على الهلاك ولم يجد شرابًا أو طعامًا يسدّ الحاجة .

وتمتاز بالبساطة والمعقولية :

لأن مبادئها واضحة بسيطة مفهومة يعقلها كل ذي عقل ، ويفهمها كل ذي فهم ، ويستجيب لها كل ذي فطرة سليمة صافية .

ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة :

من بساطة الشريعة ومعقوليتها أنها أمرت الإنسان أن يفكّر ويقدّر ويتأمل ؛ ليصل إلى حقيقة الإيمان بواجد الوجود سبحانه ، ويقرّ جزمًا واعتقادًا بوحدانية اللّه المتفردة ، وقدرته المطلقة .

ومن بساطتها ومعقوليتها أنها جعلت الصلة بين الخالق والمخلوق قائمة على الاعتقاد أن اللّه هو ربّ كل شيء ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء .

ومن بسطاتها ومعقوليتها أنها حاربت الخرافة والكهنوتية بكل أشكالها وصورها .. حاربت فكرة التثليث ، وفكرة الواسطة بين الخالق والمخلوق ، ونعتت بشدّة على أولـئك الذين يخدعون الجماهير بكرسي الاعتراف ، وبيع صكوك الغفران ، ومنح الجنة وحرمان النار .

ومن بساطتها ومعقوليتها أنها تقبل التوبة من كل مَنْ يطرق باب اللّه عز وجل تائبًا منيبًا صادقًا ؛ مهما كان موغلًا في الكفر ، متماديًا في الفسوق والعصيان دون واسطة من أحد .

ومن بساطتها ومعقوليتها أنها ربطت الإيمان بالحياة ، والعقيدة بالعمل ؛ فالمسلم لا يكون عند اللّه مسلمًا إلا إذا سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن لا يكون عند

اللّه مؤمنًا إلا إذا أمنه الناس على دمائهم وأموالهم .

ومن بساطتها ومعقوليتها تقريرها بأن النية الصالحة شرط لقبول العمل عند اللّه عز وجل ، فهذه النية إذا تحققت في المسلم بشكل دائم ، فإنها تقلب العمل - مهما كان نوعه - إلى عبادة للّه ، وطاعة لربّ العالمين ؛ وبناءً على هذا يقول علماء الفقه والأصول : « **إن النية الصالحة تقلب العادة إلى عبادة** » .

هذا هو الإسلام في بساطته ويسره ومعقوليته وواقعيته . ألا فليفهم شباب الدعوة هذه الحقيقة ؟!!

* * *

ز - الأصالة والخلود :

ومن أميز خصائص الشريعة الإسلامية أنها تتصف بالأصالة الباقية ، والخلود السرمدي في نصوصها ومصادرها دون أن يتطرّق إليها تحريف ، أو يطرأ عليها تبديل أو تغيير .

فالقرآن الكريم الذي هو المصدر الأول من مصادر الشريعة ، وقد تكفّل اللّه حفظه وبقاءه إلى يوم البعث والنشور ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] .

وها هو ذا قد مضى على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرنًا ، فالقرآن هو القرآن في لفظه ومعناه ، وتجويده وأدائه .

وكم يُسَرّ المسلم حين يفتح أي إذاعة من إذاعات العالم ، ليستمع إلى ما تبثّه من آيات اللّه البينات .. كم يُسَرُّ حين يجد التلاوات كلها متفقة ، والقراءات جميعها واحدة ؛ بل يزداد يقينًا بأصالة هذا القرآن ، وبحفظ اللّه له على مدى الزمان والأيام ؟!!

وكم حاول أعداء الإسلام عبر التاريخ ، وخلال العصور أن يبدّلوا في القرآن - ولو كلمة - فهل استطاعوا ، وهل وصلوا إلى هدفهم الخبيث ؟.

الدنيا تعلم ، والتاريخ يشهد أن محاولاتهم الآثمة ، ومؤامراتهم المغرضة باءت بالهزيمة والفشل ، بل عادت عليهم بالفضيحة والعار ، ولعنة الأجيال والتاريخ .

ولقد شهد لأصالة القرآن وخلوده الأبديّ على مدى الزمان منصفون من رجالات الغرب قالوا كلمة الحق بنزاهة وتجرّد ، ووضحوا الحقيقة بدقّة وأمانة !!.

---

(1) سورة الحجر الآية : 9 .

ومن هؤلاء البروفسور « **رينولد نيكلسون** » في كتابه « التاريخ الأدبي للعرب » ، يقول هذا العالم بالحرف الواحد : « القرآن الكريم وثيقة إنسانية رائعة ، توضح بدقة سرّ تصرّفات محمد ﷺ في جميع أحداث حياته ، حتى إننا لنجد فيه مادة فريدة لا تقبل الشك أو الجدل ، نستطيع خلالها أن نتتبّع سير الإسلام منذ نشأته وظهوره في التاريخ المبكّر ، وهذا ما لا تجد له مثيلًا في البوذية أو المسيحية أو أي دين من الأديان القديمة .. » .

والسنة النبوية التي هي المصدر الثاني من مصادر الشريعة ، بل هي المبيّنة للقرآن الكريم ، والمكمّلة لنظام الإسلام .

هذه السنة قد هيّأ اللّه لها من يحفظها من عبث العابثين ، ووضع الوضّاعين ، ودسّ المغرضين .. هيّأ لها علماء أثباتًا ، ومحدّثين أفذاذًا ، ورجالًا فطاحل لم يشهد التاريخ الإنساني أنبه منهم ، ولا أدقّ في بيان درجة الحديث ، ومعرفة أحوال السند والمتن ، وأصول الرواية والدراية ؛ حتى وصلت السنّة إلينا نقيّة خالصة لم يعترها أي شبهة ، ولم يطرأ عليها أي علّة . وأصبح الآن كل إنسان حين يرجع إلى أسفار السنّة ، ومراجع الحديث الأساسية .. يعرف أيّ حديث – يريد التحقق منه – من حيث الصحة أو الضعف ، أو يعرف سنده من حيث التعديل أو الجَرْح .. وما ذاك إلا بجهود أهل الحديث الثقات الأثبات الأفذاذ على مدى العصور .

وإليكم هذا الموقف التاريخي الذي يؤيد ما نقول :

سمع الخليفة العباسي « هارون الرشيد » أن زنديقًا لفّق أحاديث موضوعة ونسبها إلى الرسول ﷺ ، والرسول ﷺ لم يقل منها حرفًا واحدًا ، فأمر باستدعائه ، والمثول بين يديه ، فلما أقرّ عرضه على السيف ، وقبل أن يقتل ؛ قال الزنديق للخليفة : أين أنتم من الأحاديث التي وضعتُها فيكم ، وقد أحللتُ فيها الحرام ، وحرّمتُ فيها الحلال ، والرسول لم يقل منها حرفًا واحدًا ؟!! .. فقال له الخليفة على الفور : أين أنت يا زنديق من أبي إسحاق الفزاري ، وعبد اللّه ابن المبارك ، فإنهما سينخلانها نخلًا ، ويخرجانها حرفًا حرفًا ؟!! ثم أمر بقتله فقتل .

وما دامت السنة تابعة للقرآن الكريم في تبيانها وتكميلها وتأكيدها ؛ فاللّه سبحانه تولّى حفظها وخلودها كما تولّى القرآن الكريم سواء بسواء إلى يوم البعث والدين .

هذه هي الشريعة في أصالة نصوصها ، وخلود مصادرها على مدى الزمان والأيام ، فهل علم شباب الدعوة هذه الحقيقة ؟ وهل عرفوا هذه الخصيصة الرائعة ؟

و - العدل المطلق :

من المعلوم لدى كل ذي فهم وبصيرة « أن هدف الشريعة الأساسي هو إقامة العدل المطلق بين الناس جميعًا ، وتحقيق المساواة بينهم ، وصيانة دمائهم وأعراضهم وأموالهم وعقولهم ، كما صان لهم دينهم وأخلاقهم ؛ فغايتها الوحيدة تحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وليست غاية الشريعة تحقيق مصلحة طبقة خاصة دون طبقة ، ولا جنس دون جنس ، ولا أمة دون أمة ؛ وليست غايتها تحقيق المصلحة المادية مع إهمال الناحية الخلقية والروحية ، وليست غايتها تحقيق المصلحة الدنيوية بقطع النظر عن المصالح الأخروية كما تفعل القوانين الأرضية ؛ وليست غايتها تحقيق المصلحة الأخروية بغض النظر عن المصالح الدنيوية كما هو شأن بعض الديانات والنّحل المغالية في نزعتها الروحية .

ومراعاة هذه الاعتبارات كلها مستحيل أن يتحقق في تشريع بشري ، فإن مراعاتها لتحقيق العدل المطلق لبني الإنسان تحتاج إلى علم إله ، ورحمة إله ، وحكمة إله ؛ فالإنسان دائمًا ينظر من زاوية ، ويغفل زوايا كثيرة .

أما الذي ينظر النظرة المحيطة بكل شيء ، وكل جانب ؛ فهو الخلاق العليم الحكيم الذي وسع كل شيء رحمةً وحكمةً وعلمًا ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [1] » [2] .

ومن هذه النظرة الإسلامية الكلية في بناء شخصية الإنسان وتوازنه ، وتحقيق العدل له وتكامله ؛ قال علماء الاجتهاد والأصول : « إن مقاصد التشريع الإسلامي خمسة : حفظ الدين ، وحفظ النفس ، وحفظ العقل ، وحفظ النسب ، وحفظ المال » .

وقالوا : « إن كل ما جاء في الشريعة من مبادئ وأحكام ، وأوامر ونواه ، وزواجر وعقوبات ؛ كلها تهدف إلى حفظ هذه المقاصد الخمسة .. » .

وهذا تأكيد جازم على أن الشريعة نزلت لتحقق لبني الإنسان الخير العام ، والعدل المطلق في دينهم ودنياهم وآخرتهم .

فشعارها العام الذي لا يتبدل : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [3] .

---

(1) سورة الملك الآية : 14 .
(2) من كتاب « شريعة الإسلام » للدكتور القرضاوي ص : 20 .
(3) سورة الحجرات الآية : 13 .

ومبدؤها الثابت الذي لا يتغير : ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [1] .

هذه هي خصيصة الشريعة في تحقيقها العدل المطلق لكل من يعيش تحت ظل حكمه ونظامه ، فهل علم شباب الدعوة نظرة الإسلام في بناء الشخصية الإنسانية ، وتكوين المجتمع الفاضل ؟!!

* * *

تلكم - يا شباب الدعوة - أظهر ما في هذه الدعوة الإسلامية التي تحملون إلى الدنيا لواءها من خصائص ومزايا ، وإن دعوة تحمل في طياتها مزايا الربانية والعالمية والشمول ، وتحمل في أنظمتها خصائص العدل والتجدد والبساطة ، وتحمل في طبيعتها ظواهر الأصالة والهيمنة والثبات ؛ لهي دعوة تستحق البقاء ، وتستأهل الخلود ، وتضيء للدنيا أنوار الحق والحضارة والعرفان ، وترفع في سماء البشرية منارات الهدى والعلم والمدنية ، وتسطر في ضمير الزمن آيات المجد والقوة والعظمة والخلود .

وهي جديرة أن يحملها الدعاة إلى الدنيا يعرّفونها ، ويدعون إليها ، وينشرونها في ربوع العالمين ، وآفاق المعمورة ، ومجاهل الأرض .

* * *

ومما يؤكد صلاحية الدعوة الإسلامية ، واتصافها بالتجدد والعطاء ، وإيفائها بحاجات الأمم والشعوب ، ودفعها لعجلة التقدم الحضاري ، والإبداع المادي في كل زمان ومكان .

مما يؤكد هذا كله الشهادات التالية :

1 - شهادة الواقع العالمي .

2 - شهادة المؤتمرات الدولية .

3 - شهادة المنصفين من غير المسلمين في العالم .

* * *

اما شهادة الواقع العالمي :

فإن النظريات القانونية التي يباهي بها العصر الحديث ، وتفتخر بها الفلسفات

(1) سورة المائدة الآية : 8 .

القانونية قد سبقت بها الشريعة الإسلامية ، وأرست قواعدها ، وقام على ذلك فقهها وتشريعها وقضاؤها قبل أربعة عشر قرنًا .

من هذه النظريات : « نظرية المساواة » :

هذه النظرية جاءت بها الشريعة الإسلامية من وقت نزولها بنصوص صريحة تقرّرها وتفرضها فرضًا ، وبصفة مطلقة بلا قيود ولا استثناءات ، فلا امتياز فرد على فرد ، ولا جماعة على جماعة ، ولا جنس على جنس ، ولا لون على لون ، ولا لحاكم على محكوم .

والشعار في ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [1] .

هذا على حين لم تعرف القوانين الوضعية هذه النظرية إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، وهي مع هذا تطبّقها تطبيقًا محدودًا بالنسبة إلى الشريعة التي توسعت في تطبيق النظرية إلى أقصى حدّ .

● **ومن هذه النظريات : « نظرية الحرية » :**

هذه النظرية قررتها الشريعة في أروع صورها ، فقرّرت حرية التفكير ، وحرية الاعتقاد ، وحرية القول .

● **ومن هذه النظريات : « نظرية الشورى » :**

هذه النظرية نزل بها القرآن منذ عهده المكي ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [2] وأمدّها في المدينة بقوله : ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [3] .

وقد سبقت الشريعة الإسلامية القوانين الوضعية في تقريرها مبدأ الشورى بأحد عشر قرنًا ، حيث لم تأخذ القوانين به إلا بعد الثورة الفرنسية ما عدا القانون الإنجليزي ، فقد عرف مبدأ الشورى في القرن السابع عشر ، وقانون الولايات المتحدة الذي أقرّ المبدأ بعد منتصف القرن الثامن عشر .

● **ومن هذه النظريات : « نظرية تقييد سلطة الحاكم » :**

هذه النظرية تقوم على ثلاثة مبادئ أساسية :

---

(1) سورة الحجرات الآية : 13 . (2) سورة الشورى الآية : 38 . (3) سورة آل عمران الآية : 159 .

أولها : وضع حدود لسلطة الحاكم .

ثانيها : مسؤوليته عن عدوانه وأخطائه .

ثالثها : تخويل الأمة حقّ عزله .

وقد جاءت هذه النظرية الإسلامية بهذه المبادئ الثلاثة في وقت كانت سلطة الحاكم في العالم كله سلطة مطلقة على المحكومين ، فكانت شريعة الإسلام أول شريعة تقيد هذه السلطة ، وتلزم الحاكمين أن يتصرّفوا داخل حدود معيّنة ، وضمن دائرة خاصة ، ليس لهم أن يتجاوزوها .

● **ومن ذلك : جملة نظريات في الإثبات والتعاقد** :

مثل نظرية : إثبات الدّيْن بالكتابة صغيرًا كان الدين أم كبيرًا .

ومثل نظرية : حق الملتزم في إملاء العقد ؛ لأنه أضعف الطرفين المتعاقدين .

ومثل نظرية : تحريم الامتناع عن تحمّل الشهادات أو أدائها .

وهذه النظريات كلها بعض ما اشتملت عليه آية المداينة المثبتة في أواخر سورة البقرة من أحكام ومبادئ وتوجيهات .

ومن التفريع على ما ذكرناه من نظريات :

أن كثيرًا من الأحكام والنظريات التي قررتها الشريعة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ، وكانت في وقت ما موضع ارتياب أو اتهام من خصوم الشريعة لم تجد البشرية بدًّا من اللجوء إليها ، والاعتراف بها ؛ تحقيقًا للعدل ، ورفعًا للضرر والظلم عن الأفراد والمجتمعات .

وابرز مَثل لذلك :

أ – **الطلاق** : الذي اضطرت دول الغرب كافة إلى الاعتراف به ؛ فقد عقد في « لاهاي » سنة 1968 مؤتمر للقانون الدولي الخاص « الدورة الحادية عشرة » ، فكان مما تناوله البحث : إعداد معاهدة الاعتراف بالطلاق ، والتفريق القانوني على المستوى الدولي [1] ، وهذا معناه الرجوع إلى حكم الإسلام .

---

(1) انظر مدى الحاجة إلى « موسوعة الفقه الإسلامي » للدكتور جمال الدين عطية .

ب – الربا : الذي زعموا في وقت من الأوقات أن عجلة الحياة الاقتصادية لاتدور إلا به ، حتى قام من كبار الاقتصاديين في الغرب من ينقض فكرة الربا من أساسها باسم العلم والاقتصاد لا باسم الدين والإيمان ؛ ولعل أشهر اسم يذكر في هذا الصدد هو اسم الاقتصادي البريطاني « كينز » الذي قرر أن المجتمع لن يصل إلى العدالة الكاملة إلا بالقضاء على سعر الفائدة ؛ وكذلك الدكتور « شاخت » الألماني الذي يقول : « بعملية رياضية متناهية يتضح أن جميع المال صائر إلى عدد قليل من المرابين .. » [1] .

وهناك صيحات في أوروبة تنبعث هنا وهناك :

صيحات تطالب بإباحة تعدد الزوجات ، قالت « آني بيزانت » في كتابها « الأديان المنتشرة في الهند » : « متى وزنا الأمور بقسطاس العدل المستقيم ظهر لنا أن تعدد الزوجات في الإسلام أرجح وزنًا من البغاء الغربي الذي يسمح بأن يتخذ الرجل امرأة لمحض إشباع شهوته ، ثم يقذف بها إلى الشارع متى قضى منها وطره .. » .

وقد قيل : إن ألمانيا أباحت نظام تعدد الزوجات ؛ حلًّا لأزمة الأولاد غير الشرعيين ؛ وتسوية لمشكلة الاتصال الحرام عن طريق اتخاذ الخليلات ، كما ذكرت ذلك صحيفة الأهرام القاهرية .

وصيحات تنادي بوضع حدّ للميوعة والانحلال ؛ ذكرت جريدة الأخبار القاهرية : « أن النساء السويديات خرجن في مظاهرة عامة شملت أنحاء السويد ؛ احتجاجًا على إطلاق الحريات الجنسية هنا وهناك ، وقد اشترك في هذه المظاهرات مائة ألف امرأة .. » .

وهذا معناه العودة إلى نظام الإسلام ، ومبادئ الشريعة ، وحكم القرآن .

وصدق الله العظيم القائل في سورة فصلت : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

* * *

(1) ارجع إلى الظلال ، المجلد الأول آية : ﴿ الذين يأكلون الربا .. ﴾ تجد البحث وافيًا إن شاء الله .

أما شهادة المؤتمرات الدولية :

فحسبنا أن نذكر أشهر المؤتمرات الدولية التي عقدت في هذا القرن ، والتي شهدت أن شريعة الإسلام لهي الشريعة الحيّة الصالحة المتجدّدة الخالدة منذ أن أنزلها اللّه إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها :

أ – ففي مدينة « لاهاي » سنة 1937 انعقد مؤتمر دولي للقانون المقارن دعي إليه الأزهر الشريف ، فمثّله فيه مندوبان من كبار العلماء حاضرا فيه عن « المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية » ، وعن « استقلال الفقه الإسلامي ، ونَفْي كل صلة مزعومة بين الشريعة الإسلامية ، والقانون الروماني » .

وقد سجل المؤتمر على أثر ذلك قراره التاريخي الهام ، بالنسبة إلى رجال التشريع الغربي وقد جاء فيه :

1 – اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرًا من مصادر التشريع العام .

2 – وإنها حيّة قابلة للتطور .

3 – وإنها شرع قائم بذاته ليس مأخوذًا من غيره [1] .

ب – وفي نفس المدينة « لاهاي » سنة 1948 انعقد مؤتمر المحامين الدولي الذي اشتركت فيه (53) دولة من جميع أنحاء العالم ، والذي ضمّ جمعًا غفيرًا من الأساتذة والمحامين اللامعين من مختلف الأمم والأقطار .

اتخذ هذا المؤتمر القرار التالي : « نظرًا لما في التشريع الإسلامي من مرونة ، وما له من شأن هام ، يجب على جمعية المحامين الدولية ، أن تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع ، وتشجع عليها .. » [2] .

ج – وفي سنة 1950 عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولي للحقوق المقارنة مؤتمرًا للبحث في الفقه الإسلامي في كلية الحقوق من جامعة « باريس » تحت اسم : « أسبوع الفقه الإسلامي » ، ودعت إليه عددًا كبيرًا من أساتذة كليات الحقوق العربية ، وغير العربية ، وكليات الأزهر الشريف ، ومن المحامين الفرنسيين

(1) من كتاب « التشريع الإسلامي » للأساتذة : السايس ، والسّبكي ، والبربري ص 253 .
(2) انظر « المدخل الفقهي » للأستاذ العلامة مصطفى الزرقاء ص : 245 .

والعرب ، وغيرهم من المستشرقين ؛ وقد اشترك فيه أربعة من مصر من الأزهر والجامعات ، واثنان من سورية ، وقد دارت المحاضرات حول موضوعات فقهية خمسة ، عيّنها المجمع الدولي قبل عام ، ووجهت دعوة المحاضرات فيها ، وهي :

1 – إثبات الملكية .

2 – الاستملاك للمصلحة العامة .

3 – المسؤولية الجنائية .

4 – تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها في بعض .

5 – نظرية الربا في الإسلام .

وكانت المحاضرات كلها باللغة الفرنسية ، وخصص لكل موضوع يوم ، وعقب كل محاضرة كانت تفتح مناقشات مع المحاضر .

وفي خلال بعض المناقشات وقف أحد الأعضاء ، وهو نقيب سابق للمحامين في باريس فقال : « أنا لا أعرف كيف أوفّق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلوحه أساسًا تشريعيًا يفي بحاجات المجتمع العصري المتطوّر ، وبين ما نسمعه الآن في المحاضرات ، ومناقشاتها ، مما يثبت خلاف ذلك تمامًا ببراهين النصوص والمبادئ .. » .

وفي الختام وضع المؤتمرون بالإجماع هذا التقرير الذي نترجمه فيما يلي :

« بناءً على الفائدة المتحققة من المباحثات التي عرضت أثناء « أسبوع الفقه الإسلامي » ، وما جرى حولها من المناقشات التي نستنتج منها بوضوح :

1 – إن مبادئ الفقه الإسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها .

2 – إن اختلاف المذاهب الفقهية في هذه المجموعة العظمى ينطوي على ثروة من المفاهيم والمعلومات ، ومن الأصول الحقوقية – وهي مناط الإعجاب – وبها يتمكن الفقه الإسلامي أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة ، والتوفيق بين حاجاتها .. » [1] .

---

(1) ارجع إلى « المدخل الفقهي العام » في المقدمة للأستاذ الزرقاء تجد البحث وافيا .

وفي هذه الشهادات من المؤتمرات الدولية المتخصصة دليل قاطع على عظمة هذه الدعوة الإسلامية ، وتجدّدها وعطائها ، وشمولها وخلودها على مدى الزمان والأيام .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ؟ [1] .

* * *

اما شهادة المنصفين في العالم [2] :

فإنها أعظم من أن تحصى ، وأكثر من أن تُستقصى ، هذه الشهادات ليست من رجال الأزهر ، وعلماء الإسلام ، وأساتذة الشريعة في الجامعات ؛ وإنما هي شهادات من كبار رجال القانون الوضعي الذين رضعوا من لبانه ، وترعرعوا في رحابه ، وهي شهادات معلّلة تحمل في عباراتها براهين صدقها ، معترفة بفضل الشريعة وصلاحيتها ، وسبقها وتفوّقها .

ولا بأس أن نسوق هنا بعض شهادات هؤلاء المنصفين للذين لا يزالون يثقون بالفكرة إذا هبت ريحها من جهة الغرب :

- يقول الدكتور « **إيزكو انساباتو** » : « إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية ، بل هي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتًا » .

- ويقول العلامة « **شبرل** » عميد كلية الحقوق بجامعة « فينا » في مؤتمر الحقوق سنة 1927 : « إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها ، إذ رغم أمّيته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون - نحن الأوربيين - أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة » .

- ويقول الفيلسوف الإنكليزي « **برناردشو** » : « لقد كان دين محمد ﷺ موضع تقدير سام ، لما ينطوي عليه من حيوية مدهشة ، وأنه الدين الوحيد الذي له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة ، وأرى واجبًا أن يدعى محمد ﷺ منقذ الإنسانية ، وإن رجلًا كشاكلته إذا تولّى زعامة العالم الحديث لنجح في حلّ مشكلاته .. » .

---

(1) سورة المائدة الآية : 50 .

(2) هذه الشهادات منقولة بالتمام من كتاب « حتى يعلم الشباب » للمؤلف ص : 56 - 58 .

– ويقول المؤرخ الإنكليزي « **ويلز** » في كتابه « ملامح تاريخ الإنسانية » : « إن أوروبة مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية .. » .

– ويقول المؤرخ الفرنسي « **سيديو** » : « إن قانون نابليون منقول عن كتاب فقهي في مذهب مالك هو شرح الدردير على متن خليل » .

– ونقل « غوستاف لوبون » عن الأستاذ « **ليبري** » قوله : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبة الحديثة عدّة قرون » .

– ويقول « **لين بول** » في كتابه « العرب في أسبانيا » : « فكانت أوروبة الأمية تزخر بالجهل والحرمان ، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم ، وراية الثقافة في العالم » .

– ويقول « **أدموند بيرك** » : « إن القانون المحمدي قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقلّ رعاياه ، وهذا القانون نسج بأحكم نظام حقوقي ، وشريعة الإسلام هي أعظم تشريع عادل لم يسبق قط للعالم إيجاد نظام مثله ، ولا يمكن فيما بعد .. » .

– وسبق أن ذكرنا ما قاله القانوني الكبير « **فمبري** » : « إن فقه الإسلام واسع إلى درجة أنني أعجب كل العجب كلما فكّرت في أنكم لم تستنبطوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لزمانكم وبلادكم .. » .

فهذه الأقوال وأقوال كثيرة غيرها تشهد بجلاء ووضوح على ما انطوت عليه الدعوة الإسلامية من ثروة قانونية وتشريعية ، وقوة دفع علميّة وحضاريّة .

والفضل كل الفضل هو ما اعترف به المنصفون ، وما أقرّ به المختصون من نبغاء العالم ومفكريه .

شهد الأنام بفضله حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

* * *

والمسلمون الأوائل من الرعيل الأول من صحابة رسول اللّه ﷺ ومن تبعهم بإحسان ، حين علموا طبيعة الدعوة ، ومهمة الداعية ، ومسؤولية المجاهد في سبيل اللّه ، وحين علموا أن الإسلام دين ودولة ، وعبادة وسياسة ، ومصحف وسيف ، ونظام حكم ، ومنهج حياة ، وحين تأصلت هذه المعاني في نفوسهم ، وعرفوا في هذا الكون مسؤوليتهم ورسالتهم ، خرجوا من محيطهم الضيّق ، وبيئتهم المحدودة ،

إلى أرجاء الأرض ، وآفاق الدنيا ، يمدنون الأمم ، ويكرّمون الإنسان ، ويرفعون لواء التوحيد ، ويُرسون في العالمين قواعد المدنية والحضارة ، وينشرون في الوجود أضواء العلم والمعرفة ، ويسطرون على جبين الزمن مبادئ الحرية والعدالة والمساواة . انطلقوا ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

● ولم ينتقل عليه الصلاة والسلام إلى الملأ الأعلى حتى انتشر الإسلام في الجزيرة العربية ، ودخل اليمن والبحرين ، ووصل إلى تهامة ونجد .

● وفي عهد الخلفاء الراشدين أخضع المسلمون المملكتين العظيمتين : فارس والروم ، وامتدّ ظلّهم إلى بلاد السند شرقًا ، وإلى بلاد الخزر وأرمينية ، وبلاد الروس شمالًا ، ودخلت في عدلهم بلاد الشام ومصر وبرقة وطرابلس ، وبقية أفريقية ، وذلك كلّه في خمس وثلاثين سنة .

● وفي عهد بني أمية استبحر ملكهم ، وامتدّ سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، ووصلوا إلى حدود الصين شرقًا ، ودخلوا بلاد الأندلس في أوروبة غربًا .

● وفي عهد بني العباس استطاع الخليفة « هارون الرشيد » أن يصوّر للعالم بسطة الدعوة الإسلامية الممتدة شرقًا وغربًا ، وشمالًا وجنوبًا ؛ فلم يجد غير أن يخاطب السحابة التي تمرّ به ولا تمطره ، فيقول لها بلسان المطمئن : « أمطري حيث شئت فإن خراجك سيُحمل إلينا » !!

اما ما تركته الدعوة من اثر في بناء الحضارة الإنسانية :

فإن التاريخ يشهد ، والمنصفين من فلاسفة الغرب يشهدون أن المسلمين على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، وتباين لغاتهم وألوانهم في العصور الإسلامية الزاهية خلّفوا في العالم آثارًا حضارية شاملة خالدة ، ما زالت الأجيال الإنسانية في كل زمان ومكان تنهل من معينها ، وترتشف من سلسبيلها !!

والمؤرخون مُجمِعون على أن انتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب كان عن طريق المعابر التالية :

أ - معبر الأندلس .

ب - معبر صقلية .

جـ - معبر الحروب الصليبية .

د - معبر مدارس الترجمة في شمال إسبانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا .

هـ - معبر تجار المسلمين والدعاة الذين نشروا الإسلام في كثير من البلدان الأوروبية ، والأفريقية ، والآسيوية ، وغيرها .

ولا شك أن الأندلس هي المعبر الرئيسي لحضارة الإسلام في شتى المجالات العلمية والفنية والأدبية .

وبقيت أوروبة - بعد عبور الحضارة الإسلامية إليها - قرونًا طويلة ترتشف من معين الحضارة الإسلامية ، وتنهل من سلسبيل علومها ومعارفها ؛ حتى استطاعت في أمد قصير أن تصل إلى قمة الحضارة المادية ، وأن تصعد إلى ذرى العلوم الكونية في العصر الحديث .

ويشهد على هذا كبار الغربيين المختصين في علم الطب ، والكيمياء ، والطبيعيات ، والرياضيات والفلسفة ، وسائر العلوم الأخرى :

● كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » للدكتورة « زيغريد هونكة » إقرار صريح بالقفزة الحضارية الكبرى التي قفزتها أوروبة نتيجة التأثر بالحضارة الإسلامية وعلومها في شتى المجالات .

● وقال « دويبر » المدرس في جامعة « نيويورك » في كتابه « المنازعة بين العلم والدين » : « ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة (813) م ، صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض ؛ فجمع الخليفة إليها كتبًا لا تحصى ، وقرّب إليه العلماء ، وبالغ في الحفاوة بهم . وقد كانت جامعات المسلمين مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أوروبة وأمراؤها يغدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها .. » .

● وقال « **سيديلوت** » في كتابه « تاريخ العرب » : « كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها أينما حلّت أقدامهم ، وتسرّبت عنهم إلى أوروبة ؛ فكانوا سببًا لنهضتها وارتقائها .. » .

● وقال « **شريستي** » في حديثه عن الفن الإسلامي : « ظلت أوروبة نحو ألف عام تنظر إلى الفن الإسلامي كأنه أعجوبة من الأعاجيب » .

● وقال « **بريفولت** » في كتابه « تكوين الإنسانية » : « العلم هو أعظم ما قدمت الحضارة الإسلامية إلى العالم الحديث ، ومع أنه لا توجد ناحية واحدة من نواحي النموّ الأوروبي إلا ويلحظ فيها أثر الثقافة الإسلامية النافذ ... وهذه الحقائق مؤدّاها أن الإسلام بناء حضاري .. » .

إن هذه الأقوال وأقوالًا كثيرة غيرها تبين بصدق ، وتشهد بحق على ما انطوى عليه الإسلام من قوة دفع علمية وحضارية على مدى العصور !!

ولولا أن يكون الإسلام العظيم منهاج علم ، وهذا القرآن الكريم مبعث حضارة ، وهذا الدين الخالد مفتاح نهضة ؛ لَمَا أشاد هؤلاء المنصفون الغربيون بعظمة الحضارة الإسلامية ، ولما كشفوا عن هذه الحقائق في طبيعة دعوة الإسلام .

ولما سمعنا في التاريخ أيضًا عن جدود عباقرة ، وآباء علماء نبغاء ؛ ملؤوا الدنيا معارف وعلومًا ، ونشروا في العالم نور المدنية ، ومعالم الحضارة .

وما زالت أسماء هؤلاء العباقرة الأفذاذ تتردد على ألسنة الشرق والغرب عبر القرون .

ومازالت الأجيال الصاعدة تتغنى بعلومهم ، وتفتخر بنبوغهم ، وتتناقل آثارهم الحضارية على مدى الزمان والأيام !!

وأذكر على سبيل المثال بعض أولئك العباقرة الأفذاذ واختصاصاتهم العلمية ؛ ليعرف شباب الدعوة كيف شاد أولئك بنيان الحضارة ؟ وكيف حوّلوا مجرى التاريخ ؟ :

– ابن خلدون الذي حمل إلى الإنسانية لواء التاريخ ، وعلم الاجتماع والعمران .

– وأبو زكريا الرازي الذي حمل إلى الإنسانية لواء الطب .

– وأبو علي بن سينا الذي حمل إلى الإنسانية لواء الفلسفة .

- والشريف الإدريسي الذي حمل لواء الجغرافية .
- وأبو بكر الخوارزمي الذي حمل لواء الرياضيات والفلك .
- وعلي بن الهيثم الذي حمل لواء علم الطبيعة والبصريات .
- وأبو القاسم الزهراوي الذي حمل لواء الجراحة .
- وأبو زكريا العوام الذي حمل لواء علم النبات .
- وأبو الريحان البيروني الذي حمل لواء علم التاريخ القديم والآثار .
- وأبو البناء الذي حمل لواء الحساب .
- والإمام الغزالي الذي حمل لواء النقد ، والتربية ، ومعالجة آفات النفوس .
- والأئمة : أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وابن تيمية ... الذين حملوا ألوية الفقه والقانون .

وآلاف غيرهم نقرأ في التاريخ أخبارهم ، وتتناقل الأجيال آثارهم ، ويثني المستغربون والمستشرقون على عظمة تراثهم وعلومهم ؛ فكانت هذه الآثار التي خلّفوها على مدى التاريخ منارات هدى ، وهذه الحضارة التي خلّدوها على مدى الزمان إشعاعات عرفان ومدنية !!

أولـئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

فعلى شباب الدعوة أن يعلموا :

إذا كانت الدعوة الإسلامية هي خاتمة الدعوات .

وإذا كانت في طبيعتها عالمية عامة .

وإذا كانت ذات خصائص ومزايا في شمولها وربانيتها وخلودها .

وإذا شهد لصلاحيتها وتجددها وعطائها الواقع العالمي ، والمؤتمرات الدولية ، والمنصفون في العالم .

وإذا كان التاريخ على مدى العصور أثبت جدارة هذه الدعوة ، وأثرها على العلم

والحضارة .

فإذا كانت الدعوة الإسلامية تحمل في طياتها هذه المعاني مكتملة مجتمعة ، فما على الدعاةِ إلى اللّه ، وشباب الإسلام اليوم إلا أن يحملوها إلى الدنيا من جديد .

من أجل ماذا ؟

من أجل ردّ البشرية إلى المنهج الرباني ، والدين المعطاء .

من أجل إنقاذ العالم من المادية الطاغية ، والإباحية الفاجرة .

من أجل إظهار هذا الدين على الدين كله .

من أجل مواجهة التحدّي الحضاري الحديث في جميع مجالاته ؛ لإقرار ما ينسجم مع الإسلام ، ونبذ ما يتنافى معه .

من أجل الوقوف مع الحق لنصرة المظلومين والمستضعفين - أينما وجدوا - والأخذ بأيديهم ، ورفع الظلم عنهم .

وكم يسرّ الدعوة الإسلامية أن تجد من جنودها ودعاتها ، شبابًا مؤمنًا طاهرًا واعيًا مندفعًا ، حملوا إلى الدنيا رسالة الإسلام ، وانطلقوا في ميادين الدعوة إلى اللّه ؛ يبلّغون رسالات اللّه ، ويخشونه ، ولا يخشون أحدًا إلا اللّه ؟!!

وها أنا ذا ألمح بعين الأمل والتفاؤل طلائع الإسلام من شباب الدعوة ، تزحف في الأفق ، وتنساب في المغاور ، وتمخر عباب البحار ، وتطير في الأجواء ؛ لتحمل إلى العالم من جديد دعوة الإسلام الرائدة ، ومشعل الهداية الربانية الباقية . وإن شاء اللّه فلن يمر بضع سنوات حتى نرى بأمّ أعيننا حضارة الإسلام قد بزغت ، ودولة المسلمين قد قامت ، وتعاليم القرآن قد ظهرت على المبادئ البشرية كلّها .

وما ذلك على اللّه بعزيز إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(2)

الدعوة الإسلامية..
والإنقاذ العالمي..

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق ، وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا هو الفصل الثاني من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » ، وهو بعنوان :

« **الدعوة الإسلامية : والإنقاذ العالمي** » .

أقدمه لكم – إخوتي الدعاة – عسى أن تندفعوا إلى تبليغ الدعوة عن صدق وعزيمة وإخلاص .. والله يقول الحق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف

عبد الله ناصح علوان



الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمي

بعد أن آمن الداعية من قرارة وجدانه أن دعوة الإسلام تحمل في طياتها مزايا الربانية والعالمية والشمول وخصائص العدل والتجدد والبساطة وظواهر الأصالة والهيمنة والثبات ..

وبعد أن عرف أنها الرسالة الرائدة الجديرة بأن يحملها المسلمون إلى الدنيا ، وأن يبدلوا بها وجه الأرض ، وأن يغيروا بإعجاز مبادئها مجرى التاريخ .. وجب على الداعية أن يعرف أيضًا حال الحضارة المادية في القرن العشرين ، وحال الذين لفحهم سعيرها ، وكواهم لهيبها ، وحال الإنسانية المعذبة التي بعدت عن اللّه ، وتخبطت في أوحال الانحلال والإباحية ، وتعثرت في دياجير الأفكار والفلسفات والمبادئ ، وتمزقت في صراع الحروب والأهواء والمطامع ، فإذا عرف الداعية كل هذا أدرك جيدًا مدى مهمته ، وضخامة مسؤوليته في إصلاح الشعوب ، وهداية الأمم ..

لذا رأيت لزامًا عليَّ في هذا الفصل أن أسلّط الأضواء على أوضاع البشرية بشكل عام ، وأوضاع المسلمين بشكل خاص ، عسى أن تنجلي الحقائق لكل ذي عينين وبصيرة ، فيرى البون شاسعًا ، والفرق كبيرًا بين دعوة الرحمن ، ودعوة الإنسان ، أو بعبارة أوضح : يجد التفاوت الكبير بين من يدعو إلى الجنة وبين من يدعو إلى النار .. وصدق اللّه العظيم القائل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [1] .

وعسى أن يندفع المسلمون في مجال الدعوة ، وفي ميدان التبليغ ، وفي سلوك طريق الإصلاح والتغيير ؛ ليردّوا البشرية إلى اللّه ، وينعم العالم بنعمة الإسلام ، ويتحقق الأمن والسلام والاستقرار في ربوع الأرض ، وآفاق المعمورة ، وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *

(1) سورة البقرة الآية : 221 .

أرقام وحقائق عن أوضاع البشرية

وإليك – أخي الداعية – بعض الإحصاءات والأرقام والحقائق عن نتائج الحضارة المادية التي اكتوت الأمم بنارها ، وضلت البشرية بسببها ؛ لتعرف كيف أن هذه النتائج المذهلة تكثر وتزداد بشكل مؤلم مخيف في المجتمعات الجاهلية الغارقة في فسادها وانحلالها ، وكيف أنها تنتقل تدريجيًا – ويالأسف – إلى المجتمعات الإسلامية التي تنتمي إلى الإسلام دونما تعقّل ولا تحفّظ ولا اتّزان .. إلا من رحم ربك .

قد جاء في كتاب « خطر التبرج والاختلاط » للأستاذ « عبد الباقي رمضون » ما يلي :

ففي فرنسا :

لا تزال تهبط نسبة المواليد فيها منذ ستين عامًا متوالية .

ومن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوبة في المتطوعين للجندي الفرنسي على فترة بضع سنين .

وإن عدد المصابين الذين اضطر الجيش الفرنسي أن يعفيهم من العمل ويبعثهم إلى المستشفيات في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى ؛ لكونهم مصابين بمرض الزهري – وهو مرض جنسي خطير – بلغ خمسة وسبعين ألفًا ، وابتلي بهذا المرض وحده 242 جنديًا في آن واحد في ثكنة متوسطة واحدة من ثكنات الجيش .

ويقول الدكتور « **ليريد** » الفرنسي : « إنه يموت في فرنسا ثلاثون ألف نسمة بأمراض الزهري كل عام » .

ولقد اعترف المؤرخون بأن السبب الرئيسي في سقوط « باريس » عاصمة فرنسا ، واستسلام الجيش الفرنسي أمام جيش الألمان خلال أسبوعين هو الانغماس في الشهوات ، والانكباب على الملذات ، والخوف على مراقص ومواخير باريس من قنابل الألمان مع أن خط « ماجينو » الدفاعي الذي أنشأته فرنسا لحمايتها كان أحصن وأشد ما عرف في التحصينات الحربية في ذلك الحين .

وفي امريكا :

يموت ما بين ثلاثين وأربعين ألف طفل بمرض الزهري الموروث وحده في كل عام .

ويقول القاضي « **لندس** » : إنه يسقط فيها مليون حمل على الأقل في كل سنة

ويقتل آلاف الأطفال من فور ولادتهم .

وفيها تبلغ نسبة الحبالى من تلميذات المدارس الثانوية في إحدى المدن 48 بالمئة ، كما دلت الإحصائيات عن مدينة « نفز » عاصمة « كولورادو » .

وفيها تبلغ نسبة البيوت والأسر المحطمة بالطلاق نسبة عجيبة ، حيث تقفز النسبة بين فترة وفترة كلما ازداد الاختلاط ، وتفشت الإباحية ، وهذه النسبة المخيفة تمضي في هذه السرعة المطردة حسب إحصائية أمريكية صدرت سنة 1950 م .

تقول الإحصائية :

نسبة الطلاق	6%	عام 1890 م
نسبة الطلاق	10 %	عام 1900 م
نسبة الطلاق	10%	عام 1910 م
نسبة الطلاق	14 %	عام 1920 م
نسبة الطلاق	14 %	عام 1930 م
نسبة الطلاق	20 %	عام 1940 م
نسبة الطلاق	30 %	عام 1946 م
نسبة الطلاق	40 %	عام 1948 م

والزيادة في اطّراد في كل عام ، مما ينذر بتشتيت الأسرة ، وتشريد الأولاد وتصعيد الانحراف ..

وفيها أيضًا صدرت التعليمات إلى جميع مدارس « نيويورك » بإنشاء غرفة ولادة في كل مدرسة ، على أن يُدرب اثنان من موظفي المدرسة على أعمال التوليد إلى أن يتم استدعاء الطبيب المختص ، وقد صدرت تلك التعليمات من المجلس الصحي للمدينة بناء على طلب مجلس التعليم الذي يرى تشجيع الطالبات الحوامل على الاستمرار في الدراسة بدلًا من فصلهن من المدرسة .

وقال المجلس : « إن عدد الطالبات الحوامل دون زواج في مدارس « نيويورك » وحدها بلغ 2487 حاملًا في عام 1969 م » .

ودلت الإحصائيات الحديثة أن ربع طالبات المدارس الثانوية حبالى وأن البكارة مفقودة ألبتة .

وفيها أيضًا : نصف نسائها وخمس رجالها يخشون الخروج وحدهم ليلًا ، وتقتني ثلث العائلات الأمريكية بنادق في بيوتها ، بينما يحاول أكثر سكان المدن الرحيل بعيدًا إلى الريف هربًا من كابوس جرائم المدن المخيف ..

ففي عام 1968 م وقعت 4,5 مليون جريمة كبرى في الولايات المتحدة ، وجرائم القتل فيها تزيد 48 مرة عن مثيلاتها في بريطانيا وألمانيا واليابان معًا ، فالعنف أصبح حقيقة أساسية موجودة في المجتمع الأمريكي ، والأمريكيون يعيشون في رعب الجريمة كل يوم .. في صورة سفاح الممرضات في « شيكاغو » ، وسفاح « برج الجامعة » في « بوسطن » ، وجندي المرور الذي اغتصب 23 فتاة خلال ثلاثة أشهر . وجاء في كتاب أساليب الغزو الفكري للأستاذ علي جريشة ص 226 : « يقع في أمريكا أربعة ملايين ونصف مليون جريمة خطيرة تقع كل عام : جريمة قتل كل 29 دقيقة ، جريمة اغتصاب (زنى بالإكراه) كل 17 دقيقة ، جريمة اغتصاب مال كل دقيقتين ، جريمة سرقة كل 17 ثانية .. » .

وقرر « **كنيدي** » في تصريحه الخطير سنة 1962 م أن مستقبل أمريكا في خطر ؛ لأن شبابها مائع منحل غارق في الشهوات ، لا يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، لأن الشهوات التي أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الجسمية والنفسية ..

وفي أمريكا في الأربعينيات ، عدد مدمني الخمر سنويًا « 42,1 » مليون .

الذين يتعاطون المخدرات سنة 1975 م 19 % من الشعب الأمريكي .

الذين يتعاطون المخدرات سنة 1978 م 49 % من الشعب الأمريكي .

عدد المرضى في مستشفيات الأمراض العقلية في الولايات المتحدة (750) ألفًا ويشغلون 55 % من جميع أَسِرّة المستشفيات .

عدد من أعفتهم القوات المسلحة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية لاضطرابات نفسية وعقلية 47 % من المجموع الذي يساوي (980) ألفًا [1] .

وعدد من رفضوا الامتحانات لاختبار الخدمة العسكرية (860) ألفًا [2] .

(1 – 2) من كتاب « الإسلام ومستقبل البشرية » للدكتور عبد الله عزام ص : 30 - 31 .

وفي روسيا :

صرح « **خروشوف** » سنة 1962 م – كما صرح كنيدي في نفس العام – بأن مستقبل روسيا في خطر ، وأن ضباب روسيا لا يؤتمن على مستقبلها ؛ لأنه منحل ومائع غارق في الشهوات .

وفي روسيا وألمانيا شعار تتناقله الألسن وهو : « عار على البنت الروسية والألمانية أن تبقى بكرًا ، وأدوات منع الحمل موجودة في كل طريق ... » .

« ... وفي الشرق الشيوعي كبت للحريات ، وكم للأفواه ، وإحصاء للأنفاس ، وأجهزة مراقبة على البيوت .. وشقاء الإنسان بين فكي الجوع والإرهاب ..

وفي الشرق الشيوعي انهيار للاقتصاد ، وفقد للأقوات .. فبعد قرارات لينين سنة 1917 م حصل التدهور الاقتصادي الكبير ؛ حيث انهار الإنتاج إلى 20 % مما كان عليه ، وأما العملة فقد وصلت إلى 1 % من قيمتها التي كانت عليها قبل الثورة ، ! والاتحاد السوفيتي يستورد من أمريكا سنويًّا (15,8) مليون طن من القمح .. وفي رومانيا كان العجز في الميزانية سنة 1967 م (215) مليون جنيه استرليني .. وكان من نتيجة الاستفتاء الذي أجراه « دوبتشك » سكرتير الحزب الشيوعي في تشيكوسلوفكيا أن 90 % من الشعب يحبذون إبعاد الحزب الشيوعي عن الحكم ؛ لأن الحزب – في نظرهم – أناني ، جبان ، وأصحابه ذوا ضمائر ميتة ..

وفي الشرق الشيوعي هجرة للأدمغة ، وهرب للعقول الذكية .. رغم الستار الحديدي المضروب على الناس ، وحرمان الفرد من نعمة الحرية حتى من جواز السفر .

وفي الشرق الشيوعي شقاء قاتل يعانيه العمال وجميع الطبقات ما عدا سدنة الحزب الشيوعي ، وكبار قادتهم الذين يستأثرون بالسلطة وبالمال ، وأبناء الأمة محرومون من الحياة البسيطة العادية ذات الكرامة والعدالة ..

وهذا مما حدا بشعب الشقاء وأمة الضياع في المجتمعات الشيوعية أن تتجه إلى الكحول ، وإلى المخدرات بنَهم عجيب لم يشهد التاريخ له مثيلًا من قبل .. وذلك تسرية لأحزانهم ، ونسيانًا لهمومهم وشقائهم .. » [1] .

---

(1) من كتاب « الإسلام ومستقبل البشرية » للدكتور عبد الله عزام ص : 24 .

وفي السويد :

انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين ، وارتفاع مستمر في عدد المواليد غير الشرعيين مع ملاحظة أن 20 % من البالغين من الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدًا .

إن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله ، وأنه يحدث حادثة طلاق واحدة من بين ست أو سبع زيجات ، طبقًا للإحصائيات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية في السويد .

إن نسبة المرضى عقليًا وعصبيًا ونفسيًا 25 % من سكان السويد ، وتنفق الدولة 30 % من ميزانيتها لعلاجهم .

وإن نسبة الموظفين الذين يخرجون من وظائفهم بسبب هذه الأمراض يساوي 50 % من مجموع المخرجين بشكل عام ..

وفي إيطاليا :

أثبتت الإحصائيات أن 75 % من الشعب الإيطالي يفضلون قراءة مجلات الجنس والفكاهة أكثر من اهتمامهم بالصحف السياسية ، والمجلات الاجتماعية الإصلاحية ..

وأكدت الإحصائيات أيضًا أن مؤسسات نشر الكتب والمجلات الجنسية العارية تعتبر أضخم المؤسسات في إيطاليا .

وفي المجر :

أعلن البروفسور المجري : أن عدد حالات الإجهاض التي تحدث في العالم أصبحت تبلغ (30) مليون حالة سنويًا ، أي ما يعادل حالة إجهاض واحدة كل ثانية ، وأشار إلى أن عدد عمليات الإجهاض في بعض الدول يفوق عدد حالات الوضع ، ومن بين هذه الدول : ألمانيا ، والنمسا ، وبلجيكا ..

وفي إنكلترا :

نشرت جريدة « التايمز » اللندنية تقارير طبية ، وصرخات رسمية وخاصة عديدة بشأن الإجهاض وخطره ، منها :

وقفت « الجمعية الطبية البريطانية » مذهولة إزاء أرقام الإجهاض الملحوظة في

الربع الأول من سنة 1971 م (أي خلال 90 يومًا فقط) ، والبالغة (22808) حادثة ، وردت حسب العمر على الشكل التالي ..

السن	عدد الحوادث
أقل من 16	533
16 - 19	4023
20 - 34	13873
35 - 44	3786
45 فما فوق	114
بدون تحديد	217

هذا وقد علقت الجمعية الطبية المذكورة على العدد الإجمالي لحوادث الإجهاض لعام 1971 البالغ (80723) حادثة قائلة : إن الزيادة في عدد حوادث الإجهاض في الوقت الحالي تحتم علينا المطالبة بوضع حد حازم وفعال للإجهاض ، خاصة وأنَّ الأرقام في زيادة مستمرة ...

وفي الدانيمرك :

قامت مظاهرة نسائية ضخمة في شوارع عاصمتها (كوبنهاجن) سنة 1970 م تناقلتها بعض وكالات الأنباء على أمواج الأثير ، ونشرتها أكثر صحف العالم – منها مجلة الأسبوع العربي – اشترك في المظاهرة عدد كبير من الفتيات ، والصبيات ، وطالبات الجامعة .. وكن يرددن الهتافات المكتوبة على اللافتات المحمولة أثناء المظاهرة :

نرفض أن نكون أشياء ..

نرفض أن نكون سلعًا لتجار الإباحية ..

سعادتنا لا تكون إلا في المطبخ ..

نريد أن تبقى المرأة في البيت ..

أعيدوا لنا أنوثتنا ..

إننا نرفض الإباحية ..

وحكومة الدانيمرك اعتبرت هذه المظاهرة النسائية انتفاضة جديدة من نوعها في سبيل الأنوثة ، واعتبرتها قضية عامة لها أهميتها [1] .

وفي الشرق والغرب عامة [2] :

● **أفواج الهيب والخنفس والبوب** : شباب فارغ روحيًا وخلقيًا وفكريًا ، أهملته الحضارة المادية ، فلم تملأ فراغه ، فراح يملؤه بالعبث واللهو والمجون والإباحية .. فغدا يتخلق ويتصرف حسب الأهواء ، مرة يلبس القصير الضيق ، وأخرى الطويل الفضفاض ؛ ومرة يطيل شعره حتى يبلغ ظهره ، وأخرى يحلقه من أصله ، مرة يحاكي الحشرات ، وأخرى يقلد الحيوانات ... إلى غير ذلك من هذه المتناقضات التي تشمل كل التصرفات سواء أكانت فكرية أو سلوكية أو نفسية ..

● **الاستغراق في حياة الجنس والميوعة** : حتى صار الجنس وعملياته شيئًا يرافق الفرد الغربي أو الشرقي ،. أينما وجد ، وحيثما حل وارتحل ، وفي جميع جوانب حياته .. حتى غدا شيئًا مألوفًا وعاديًا ومتعارفًا عليه دون تفريق بين خير وشر ، أو فضيلة ورذيلة ، أو حلال وحرام ..

ففي مسرحية « هير » ظهر فيها الممثلون عراة تمامًا على خشبة المسرح ..

وفي نيويورك ظهرت مسرحية « **تشي غيفارا** » ، وقف فيها الممثلون ليمارسوا عملية الشذوذ الجنسي (اللواط) أمام أعين المتفرجين .

وفي نيويورك أيضًا ظهرت مسرحية « **أوه كالكوتا** » تحتوى على عشر شخصيات : خمسة رجال وخمس نساء .. وقفوا جميعًا ليقوموا بعملية العلاقة الجنسية علانية أمام الجمهور بلا حياء ولا خجل ..

وفي فرنسا جزيرة ملقبة بجزيرة العرايا ، يتعرى من يأتي إليها من كل فضيلة وشرف .. ويخوض من يريد مفاسدها حياة الرذيلة والفاحشة ..

---

(1) ارجع إلى كتاب « خطر التبرج والاختلاط » للأستاذ عبد الباقي رمضون ص : 137 - 149 .
(2) المرجع نفسه .

وفي أوروبة : 75 % من الأزواج يخونون زوجاتهم ، وأن نسبة أقل من المتزوجات يفعلن الشيء ذاته ..

أما العلاقات قبل الزواج في أوروبة فإن 85 % من الرجال البالغين لهم خليلات ، وإن لكل واحد منهم خليلة واحدة فقط ؛ وإن ما بقي من أفراد المجتمع من غير المتزوجين والذين ليس لهم خليلاتهم من الزناة فإنهم يتنقلون من امرأة لأخرى إشباعًا لغرائزهم ..

● **انتشار المفاسد الاجتماعية والأمراض النفسية** : ويمكن تلخيص هذه المفاسد والأمراض في النقاط التالية :

1 – الولوغ في المشروبات الكحولية .

2 – الإدمان على المخدرات .

3 – الأمراض العصبية والعقلية .

4 – التمرد وعدم الانتماء إلى الحضارة والقيم ..

5 – الجرائم في شتى صورها وأشكالها .

6 – السعار الجنسي وأمراض النفس .

7 – الانتحار .

ويقع هذا كله بنسبة كبيرة في المجتمعات الغربية والشرقية ؛ نتيجة بُعْد هذه المجتمعات عن الله ، وعدم مقدرة الكنيسة على القيام بوظيفتها في إصلاح الفرد ، وتهذيب الأمة ..

وعمومًا فإن الحياة المادية المحضة هي التي تسود الشرق والغرب ، وأصبح هدف الإنسان الوحيد هناك هو تأمين المال ، والخمرة ، واللذة ، دون أي اهتمام بالقيم الإنسانية ، والكرامة الآدمية ، ودون أي استسلام للحقائق العلمية ، والنظريات الإصلاحية ، والاكتشافات الطبية ، والآراء التربوية ، والمبادئ الخلقية .. فسادت الأنانيات ، وتفشت الأوبئة ، وكثرت الجرائم ، وانتشرت المفاسد ، وديست القيم ، وأصبح الإنسان عدوًّا لأخيه الإنسان ، بل أصبح يسير في الحياة دونما غاية شريفة ، ولا هدف نبيل ، لا هم له إلا إشباع غرائزه ، والاسترسال في الخمر والمفاسد ، والولوغ في الإباحية والمجون ..

ففي تلك المجتمعات البعيدة عن منهج اللّه تجد :

الشباب الشارد السادر .. والمخمور في الحشيش والخمر والمخدرات ..

الجيل المتحلل المائع المريض جسميًّا وعقليًّا ونفسيًّا ..

عصابات القتل والخطف والاغتصاب الجنسي ..

عصابات تهريب المخدرات : الأفيون ، والحشيش ، وغيرهما .

تجار الشهوات والغرائز وبيع الفتيات ، وتأجير البغايا .

عصابات من الأطباء والمحامين ورجال القانون ؛ لتغطية الجرائم ، وهضم الحقوق لقاء الرشوة المالية والجنسية ..

نوادي العراة يتعرى فيها روادها من كل رداء أخلاقي دون أي حياء ..

أفواج العاهرات والمومسات يحترفن الزنى لكسب الكفاف .

الأغاني الفاحشة ، والموسيقى المثيرة ، والتمثيليات المهيجة .

كتب الجنس ، وأفلام الجنس ، ومجلات الجنس .. ، ومسارح الرقص والمجون ..

أفواج « الهيبيين » المتشبهين بالحيوانات والحشرات ..

أفواج « البوب » الغارقين في السكر والزنى والفحش .

إباحيون مستهترون يكفرون بكل فضيلة ، ويبيحون كل رذيلة ، ويسيرون مع الهوى والأهواء .. [1] .

* * *

(1) من كتاب « خطر التبرج والاختلاط » للأستاذ عبد الباقي رمضون ص 147 .

ثم ماذا عن الفكر الإباحي في الغرب ؟

إن المتتبع لما يكتبه رواد الإباحية من الوجوديين اللاأخلاقيين في عالم الغرب يجد العجب العجاب فيما ينفثه فكرهم لقتل كرامة الإنسان ، وفيما تزفر به أقلامهم المأجورة في تحطيم كيان المجتمع .. وهؤلاء كثيرون كأمثال « كامي » و « أرثرميللر » ، و « سلاكرو » ، و « سارتر » ، و « نيتشه » ، و « كيركجارد » ... فهؤلاء وكثير غيرهم حملوا في العالم لواء الفكر الإباحي ، ودعوا أبناء المجتمعات الإنسانية إلى أن يتحرروا من سلطان الدين ، ووازع الأخلاق ، وفضائل العادات .. وأن يطلقوا لأنفسهم هواها في الأخذ بمتع الحياة ، والانخراط من متاهات اللذة والفجور ، وعلى الأغلب إن لم يكونوا يهودًا فإنهم رضعوا مبادئ الماسونية ، وتشبعوا بالأفكار اليهودية في هدم المجتمعات .. ثم انطلقوا بعد الفطام ، والتخرج من محافلهم إلى عالم الفكر والأدب والمسرح .. ليفسدوا الأمم بفلسفتهم ، ويحطموا المجتمعات ببغيهم وفجورهم ، ويسوقوا الشباب والشابات إلى حظائر الإلحاد والميوعة والإباحية ..

ولا بأس أن أنقل لك – أخي الداعية ، طرفًا من سمومهم ودسائسهم ؛ لتعرف إلى أي حد وصلت إليه العقول العفنة ، والأفكار الآسنة ، والأقلام المأجورة :

اقرأ إن شئت للكاتب الفرنسي « **كامي** » : مسرحية « الرجل المتمرد » ، ومسرحية « سوء التفاهم » ، ومسرحية « حال الحصاد » .. فكلها توجّه إلى معاداة الدين ، والتحرر من ضوابط الفضيلة والأخلاق ..

يقول « **كامي** » هذا : « ينبغي ألّا نؤمن بشيء في هذا العالم سوى الخمر ، إن صيحتي هي : الموت للعالم ، حطموا كل شيء ، يجب أن نلغي كل ما هو إنجيلي .. » [1] .

يقور « **أرثرميلر** » الأمريكي في مسرحيته « بعد السقوط » : « إن أكثر الأماكن براءة في بلدي هو مصحة الأمراض العقلية ؛ وكمال البراءة هو الجنون » [2] .

ويقول « **سلاكرو** » الكاتب الفرنسي : « إن الآلهة لا عمل لها إلا أن تعبث بحطام الإنسان .. » [3] .

واقرأ إن شئت كذلك مسرحيات « **جان بول سارتر** » الفرنسي : مسرحية

(1 – 3) انظر كتاب « فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر » للأستاذ عماد الدين خليل ص : 13 - 131 .

« جلسة سرية » ، ومسرحية « بلا قبور » ، ومسرحية « الأيدي القذرة » ، ومسرحية « البغيُّ الفاضلة » .. فكلها توجه إلى الخنا والعبث والفاحشة ، وتدعو إلى التحرر من مبادئ الفضيلة والأخلاق والدين ..

ومن أقوال « **سارتر** » : « إن اللّه لا يستطيع أن يوجد ذاته إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهواته ، بحيث يفعل ما يشاء ، ويترك ما يريد ، ولا يبالي بعرف أو دين .. » [1] .

يقول « **أوسبورن** » الكاتب الإنجليزي في مسرحيته « المسافر » : « نحن موتى ، مكدودون مضيَّعون ، نحن سكيرون مجانين ، نحن حمقى ، نحن تافهون .. » [2] .

ويرى « **نيتشه** » الفيلسوف الألماني : أن الإنسان بين التسليم والتمرد ، فوجوده تمزق وسلب . ولا يجد الخلاص إلا بالجنون الذي يخلصه من تعاسته الحاضرة .. [3] .

اما « **كيركجارد** » رائد الفلسفة الوجودية فيقول : إن الوجود معناه : « أن نعاني اليأس والقلق حتمًا ، وإن من يختار اليأس يختار ذاته في قيمتها الأبدية .. » ولذا نجده قد حاول الانتحار مرارًا ؛ ويضيف قائلًا : « إن الوعي يظهر دائمًا في صورة القلق ، وأما اليأس فهو الحد الذي يفضي إليه » .. لقد بقيت الكآبة القاتلة ملازمة لكيركجارد حتى الموت .

أرأيت – أخي الداعية – مأساة الفكر الغربي التي تتجلى في الإباحية والعبث واليأس والقلق والتمرد والشقاء .. ، ولقد استمعت إلى ما كتبه فلاسفة الوجودية ، ودعاة الإباحية في تحرر الإنسان من ربقة الدين ، ووازع الضمير ، وضوابط الأخلاق ..

فهذا الفكر نذير من النذر الأولى يقضي بالبشرية إلى أقبح الغايات ، وأسوأ النتائج ..

* * *

وماذا أيضًا عن الفكر الإباحي واللاديني في الشرق الشيوعي ؟

إنَّ القارئ للأبجدية الشيوعية التي وضعها « ماركس » ، والقوانين التي صدرت في روسيا بعد قيام الثورة التي أطاحت بحكم القياصرة .. يرى أن الماركسية لا تستريح كثيرًا لنظام الأسرة ، وتعتبره دعامة من دعامات المجتمع « البورجوازي » ، وترى أن « الحب » الطليق ينبغي أن يأخذ مكان الزواج ، كما أنها قررت عند قيامها مباشرة تيسير الطلاق للراغبين فيه من المتزوجين .. وقد جاء في الأبجدية الشيوعية ما يأتي :

(1) من كتاب « المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها » للدكتور عبد الرحمن عميرة ص : 210 .
(2 – 3) انظر كتاب « فوضى العالم .. » للأستاذ خليل ص : 135 .

« حين يقول الوالدان ، هذا ابني ، وتلك ابنتي ، لا تعني هذه الكلمات وجود آصرة أبوية فحسب ، بل توحي بأن للأبوين حقًّا في تربية أولادهم من وجهة نظرهم كما يريدون ، والاشتراكية تأبى هذا الإقرار بهذا الحق للآباء ؛ لأن الفرد ليس ملكًا لنفسه ، ولكنه ملك للجماعة » [1] .

وما قاله « ماركس » ردده « انجلز » بقوله : « إن الأسرة بوضعها الحالي هي وضع من أوضاع مجتمع لا نضج فيه ، ولا جدوى منه ، ولا محل لاستبقاء هذا الوضع وتأييده إلا بالقدر الذي يلائم مصلحة الدولة » ، وتستند الماركسية في موقفها إلى أن الأسرة تدعم النزعة الفردية ، والرغبة في التملك والملكية .. [2] .

وهذه الكلمات التي أطلقها أقطاب الماركسية بشأن الأسرة تعني – من وجهة نظرهم – ما يأتي :

1 – القضاء على الأسرة بمنع رباطها ألا وهو الزواج .

2 – إقامة « الحظائر » لتربية أبناء الدولة ، ومنع الأبوين من أي توجيه أو تلقين ..

3 – إطلاق المشايعة الجنسية بين رجال الدولة ونسائها أو الزواج الاختياري كما كانوا يسمونه .

وتبرر « الماركسية » موقفها هذا تجاه الأسرة بقولها : « إن البشرية عاشت في حالة « مشايعة » جنسية في عصورها الأولى ، وإنها لم تعرف نظام الأسرة إلا تحت تأثير الظروف الاقتصادية » فالفوضوية الجنسية – عند الشيوعيين – هي الأصل .

وتسافد الرجال والنساء على قارعة الطريق أو في أدغال الشجر .. هو القاعدة .

وفكرة الأسرة أو رباط الزواج شيء طارئ بل خاضع للظروف والأحوال .. [3] .

لقد أراد أقطاب « الماركسية » بمخططهم الإباحي هذا أن يحولوا كل امرأة في مجتمعهم إلى أنثى من إناث الدولة ، وأن يحولوا كل رجل في مجتمعهم إلى فحل من فحول الدولة .. يجمعهم الفراش ثم يذهب كل منهما إلى عمله وإنتاجه ..

وللدولة بعد هذا أبناؤها وبناتها جميعًا ، ينتسبون إليها وحدها انتساب ولد

(1 – 2) من كتاب « حقيقة الشيوعية » لعلي أدهم .

(3) من كتاب « المذاهب المعاصرة » للدكتور عميرة ص : 165 - 166 .

الحيوان إلى جنسه لا إلى أبيه وأمه !!

هل هناك انحدار بالأسرة مثل هذا الانحدار ؟ وهل هناك هبوط بالمرأة والرجل والأولاد مثل هذا الهبوط ؟ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [1] .

* * *

أما عن موقف الشيوعيين من الأديان والإسلام :

فحدّث عنه ولا حرج ، وحسبك أن ترجع - أيها الداعية - إلى أي مرجع من مراجع الماركسية ، أو إلى أي قول من أقوال دعاتهم ، فتجد الكفر البواح ، والإلحاد السافر ، والحقد الدفين ، بل تجد الثورة الكبرى على الله ، والأديان ، والإسلام ..

وإليك طرفًا من لافتاتهم الآثمة ، وشعاراتهم الكافرة المعروفة لدى كل إنسان :

- « لا إله في الكون ، والحياة مادة » .
- « الدين أفيون الشعوب » .
- «الأنبياء لصوص كذّابون » .
- « الله ، والأديان ، والرأسمالية ، والإقطاع .. ما هي إلا دمىً محنطة في متاحف التاريخ .. » .

لقد هاجمت بعض الصحف العالمية مرة موجة الإلحاد في الاتحاد السوفيتي ، وقالت : إن هذا شيء مجانب للحق والحقيقة ، ومخالف لفطرة النفس الإنسانية ، ومناقض لقانون السبب والسببية ، فردت عليها صحيفة « برافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي وقالت :

.. ومن قال إننا لا نؤمن بشيء ؟ إن من يقول ذلك يتجنى علينا ، ولا يعرف حقيقة وضعنا .. نحن نؤمن بثلاثة أشياء : (كارل ماركس - لينين - ستالين) .

ونكفر بثلاثة أشياء : (الله - الدين - الملكية الخاصة) [2] .

﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ؟!! ﴾ [3]

---

(1) سورة الكهف الآية : 5 .

(2) راجع كتاب « المذاهب المعاصرة » للدكتور عميرة ص 143 .

(3) سورة التوبة الآية : 30 .

اما موقف الشيوعية من الإسلام :

فهو أدهى وأعظم وأمر .. ؛ ذلك لأن رجال الفكر الشيوعي يعلمون علمًا أكيدًا أن في الإسلام قوة دفع حضارية ، وطاقة انتشار عالمية .. وأن في أنظمته خاصية شمول ، وطابع تجدد ، وميزة ثقة ، وسمة يسر وبساطة ، وحقيقة استمرار وخلود ..

لذا اتفقت كلمة الشيوعيين ، ومن قبلهم كلمة اليهود والصليبيين .. على محاربة الدعوة الإسلامية ، والطعن بمبادئها ، والنيل من نبيها ، وتشويه سمعة دعاتها .. حتى ينشأ الجيل المجانب للحق ، المنسلخ عن الإسلام ، التائه في بيداء الإلحاد والإباحية ..

وإذا أردت – أخي الداعية – أن تعرف موقف الشيوعية من الإسلام ، فاقرأ ما جاء في « الوثائق السرية الخطيرة » التي نشرتها مجلة « كلمة الحق » في شهر المحرم سنة (1387) هـ ، الموافق شهر نيسان سنة (1967) م ، وقد أعده الشيوعيون في « موسكو » ، وقدموه لعبيدهم المسخرين في أحد بلدان الشرق المسلم لينفذوه بدقة وإحكام .

وها نحن أولاء ننقل من مجلة « كلمة الحق » بعض ما يحويه المخطط الشيوعي لضرب الإسلام في دياره .

تقول الوثيقة :

« برغم مرور خمسين عامًا على الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ، وبرغم الضربات العنيفة التي وجهتها أضخم قوة اشتراكية في العالم إلى الإسلام .. فإن الرفاق الذين يراقبون حركة الدين في الاتحاد السوفيتي صرحوا : « إننا نواجه في الاتحاد السوفيتي تحديات داخلية في المناطق الإسلامية ، وكأن مبادئ « لينين » لم تتشربها دماء المسلمين » .

وبرغم القوى اليقظة التي تحارب الدين ، فإن الإسلام ما يزال يرسل إشعاعًا ، وما يزال يتفجر بالقوة ، بدليل أن الملايين من الجيل الجديد في المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام ويجاهرون بتعاليمه مع أن قادة الحزب ومفكري المذهب لا يغيب عنهم يقظة الإسلام في المناطق الإسلامية بالاتحاد السوفيتي ... » .

وتقول الوثيقة :

« .. ومن هذا المخطط : أن يتخذ الإسلام نفسه أداة لهدم الإسلام نفسه ، وقررنا ما يلي :

1 – مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه ، والمهادنة لأجل .. حتى نضمن أيضًا

السيطرة ، ونجتذب الشعوب العربية للاشتراكية .

2 – تشويه سمعة رجال الدين ، والحكام المتدينين ، واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية .

3 – تعميم دراسة الاشتراكية في جميع المعاهد والكليات والمدارس في جميع المراحل .. ومزاحمة الإسلام ومحاصرته حتى لا يصبح قوة تهدد الاشتراكية .. » .

وتقول الوثيقة :

الحيلولة دون قيام حركة دينية في البلاد مهما كان شأنها ضعيفًا ، والعمل الدائم بيقظة لمحو أي انبعاث ديني ، والضرب بعنف لا رحمة فيه لكل من يدعو إلى الدين ولو أدى إلى الموت .

تشجيع الكتّاب الملحدين ، وإعطاؤهم الحرية كلها في مهاجمة الدين ، والضمير الديني ، والتّركيز في الأذهان على أن الإسلام انتهى عصره ، وأن هذا هو الواقع ، ولم يبق منه اليوم إلا العبادات الشكلية التي هي الصوم ، والصلاة ، والحج ، وعقود الزواج والطلاق ، وسنخضع هذه العقود للنظم الاشتراكية .

قطع الروابط الدينية بين الشعوب قطعًا تامًّا ، وإحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الإسلامية التي هي أكبر خطر على اشتراكيتنا العلمية .

إن فصم الروابط الدينية ، ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد والكنائس ؛ لأن الدين يكمن في الضمير ، والمعابد مظهر من مظاهر الدين الخارجية ، والمطلوب هو هدم الضمير الديني ، ولم يصبح صعبًا هدم الدين في ضمير المؤمنين به بعد أن نجحنا في جعل السيطرة والحكم والسيادة للاشتراكية .. ونجحنا في نشر ما يهدم مِنَ القصص ، والمسرحيات ، والمحاضرات ، والصحف ، والأخبار ، والمؤلفات .. التي تروّج للإلحاد ، وتدعو إليه ، وتهزأ بالدين ورجاله ، وتدعو للعلم وحده ، وجعله الإله المسيطر .

خداع الجماهير بأن نزعم لهم أن المسيح اشتراكي ، فهو فقير ، ومن أسرة فقيرة ، وأتباعه فقراء كادحون ، ودعا إلى محاربة الأغنياء ..

ونقول عن محمد ﷺ : إنه إمام الاشتراكيين ، فهو فقير ، وتبعه الفقراء ، وحارب الأغنياء المحتكرين ، والإقطاعيين ، والمرابين ، وثار عليهم ..

وعلى هذا النحو يجب أن نصوّر الأنبياء والرسل ، ونبعد القداسات الروحية ، والوحي والمعجزات عنهم بقدر الإمكان ، لنجعلهم بشرًا عاديين حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التي أوجدوها لأنفسهم ، وأوجدها لهم أتباعهم المهوّسون » .

وتقول الوثيقة :

« نشر الأفكار الإلحادية ، بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الديني ، والعقيدة الدينية ، وزعزعة الثقة في رجال الدين في كل قطر إسلامي .

الإعلان بأن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف الذي يعتنقه الناس لجهلهم ، والدين الصحيح هو الاشتراكية ، والدين الزائف هو الأفيون الذي يخدر الشعوب ..

وإلصاق كل عيوب الدراويش ، وخطايا رجال الدين بالدين نفسه ، وترويج الإلحاد ، وإثبات أن الدين خرافة ، والخرافة تكمن في الدين الزائف لا الدين الصحيح الذي هو الاشتراكية .

تسمية الإسلام الذي تؤيده الاشتراكية لبلوغ مأربها ، وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح ، والدين الثوري ، والدين المتطور ، ودين المستقبل .. حتى يتم تجريد الإسلام الذي جاء به – محمد ﷺ – من خصائصه ومعالمه ، والاحتفاظ منه بالاسم فقط ؛ لأن العرب إلا القليل منهم مسلمون بطبيعتهم ، فليكونوا الآن مسلمين اسمًا ، اشتراكيين فعلًا ، حتى يذوب الإسلام لفظًا كما ذاب معنى ..

أخذنا بتعاليم « لينين » ، ووصيته بأن يكون الحزب الاشتراكي خصمًا عنيدًا للدين ، ويحارب فكرته في المنتظر لما بعد الموت ، بالفردوس الذي تحققه الاشتراكية العلمية التي تحقق العدالة الاجتماعية ، وإذا وجد من الضروري مهادنة الدين وتأييده وجب أن تكون المهادنة لأجل ، والتأييد بحذر ، على أن يستخدم التأييد والمهادنة لمحو الدين ... » [1] .

... هذا غيض من فيض مما تنفثه الشيوعية من حقد وتآمر على الإسلام .. واستئصال شأفة المسلمين ، وطمس منار الهداية الإسلامية في الأرض .. ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [2] .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [3] .

---

(1) راجع كتاب « الشيوعية والإسلام » للأستاذين : العقاد ، والعطار ص : 123 تجد فيه نص الوثيقة كاملة .
(2) سورة الأنفال الآية : 30 .
(3) سورة التوبة الآية : 32 .

ثم ماذا عن طغيان الحكم الشيوعي في الأرض ؟

من المعلوم أن نظام الحكم في الشرق الشيوعي نظام فردي استبدادي يفرض نفسه بقوة الحديد والنار ، ولا يسمح لأحد بأي معارضة أو انتقاد ..

ولم تعرف الدنيا في تاريخها الطويل حكمًا ممدود الرهبة ، مستحكم الطغيان ، قوي الجبروت ، يحوّل البلاد إلى سجن كبير ، يسوق العباد إلى حظائر العبودية مثل ما عرف في الحكم الشيوعي ؛ لذلك لا يتعفف الشيوعيون عن الهدم ، والتدمير ، وإزهاق الأرواح ، وسفك الدماء ، وقتل الآمنين ، وإبادة الملايين .. إذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم .

ينقل الأستاذ « عامر العقاد » في كتابه « حرب الأكاذيب » ص : 17 عن « لينين » قوله : « التصور العلمي للدكتاتورية لا يعني شيئًا أكثر من القوة غير المحدودة ، القوة التي لا يصدها أي نوع من أنواع القوانين والإجراءات ، وإنما تعتمد مباشرة على العنف وحده » .

وذكر الأستاذ « علي أدهم » في كتابه « حقيقة الشيوعية » ص : 25 أن « لينين » بعث رسالة إلى الأديب الروسي « مكسيم جوركي » يقول فيها : « **إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشيء ، وإنما الشيء الهام أن يصبح الربع الباقي منهم شيوعيين** » .

يقول الدكتور « عبد الرحمن عميرة » في كتابه « المذاهب المعاصرة » .. ص : 173 ، معقبًا على ما صرح به « لينين » : إن الفرد الذي يرى أن هلاك ثلاثة أرباع العالم أمر هين ، بل ليس بشيء مادام سيضمن في النهاية أن الربع الباقي سوف يعتنق دعوته لهو فرد أقل ما يقال فيه : إنه مجرم عريق في الإجرام ، وأقل ما يقال في أتباعه أنهم أناس فقدوا الآدمية والإنسانية ، وتحولوا إلى وحوش مفترسة تتعطش للدماء ، ولا تقتصر هذه القسوة على أعداء الشيوعية في الخارج ، ولكنها تمتد في الداخل حتى تتناول أي فرد مهما علا مركزه – ولو كان شيوعيًا – بالملامة أو السجن أو القتل إذا لزم الأمر ذلك .

ومن أيسر الأمور – في منطق الشيوعية – أن يكون المرء وزيرًا في الحكومة الشيوعية اليوم ، ثم يعزل غدًا ، ثم يرمى في السجن ، ثم يقتل لأنه خان الحزب في موقف احتجاج أو معارضة ..

● والعالم بأسره لا ينسى « **مأساة المجر** » لقد كانت هناك ظروف أجبرته على قبول الشيوعية ، وبعد أن جربها ، واكتوى بنارها .. فكر أن يتخلص منها إلى الأبد ،

فقام بحركة مستميتة استرد بها سلطته ، وحرر بها أرضه .. غير أن الأوامر صدرت للجيش الشيوعي الأحمر بعلاج هذا التمرد ، فإذا ألوف الدبابات تنطلق من قواعدها مجتازة المدن والقرى ، ودافنة الثوار تحت أنقاض الخراب ، وفي خنادق المقاومة ..

فعل الجيش الأحمر ذلك فلم يرتفع صوت واحد بالاحتجاج ..!؟.

● **وما حدث في المجر حدث نظيره في « روسيا »** بل أشد وأنكى .. لقد استطاع « ستالين » أن يزج بالآلاف المؤلفة في أقبية السجون ، وكثير منهم لم توجه إليهم تهمة ثابتة .. أو دليل واضح على ارتكابه ما يخل بسلامة الدولة ، ومع ذلك كان يلقى عقابه ، وقد يكون مصيره الإعدام ..

ومن ذلك :

أن زوجة ستالين « ناديوتشكا » سمعت عن أحد زملائها في الدراسة أنه قد أودع السجن ، وأنه قد صدر الحكم ضده بالإعدام رميًا بالرصاص ؛ فتشفعت لزوجها أن يصدر أوامره بالعفو عنه وإطلاق سراحه بعد أن تأكدت من براءته .

ولكن « ستالين » اعتبر هذا تدخلًا من الزوجة لا يليق أن يسمعه من لسانها ، فانفجر في وجهها غاضبًا على جرأتها في مخاطبته في مثل هذه الأمور .

فصاحت الزوجة في وجهه قائلة : إنك بهذا تعذب ابنك الذي من لحمك ودمك ، وها أنت تعذب زوجتك ، وإنك اليوم تعذب الشعب الروسي كله ، وتقلبه على الجمر !! .

ثم تابعت حديثها قائلة : إنني ذاهبة عنك سواء رضيت بذلك أو لم ترض !!

فأجابها « ستالين » بصوت رصين هادئ : « أنت منهوكة القوى ، مضطربة الأعصاب .. » .

قال ذلك ، وتوجه إلى حجرته الخاصة لكي يحضر شرابًا لها ، وعاد بصوت أكثر هدوءًا ورصانة .. ثم أردف قائلًا : « اشربي هذا الكأس ، وستصبحين هادئة الأعصاب » .

فشربت الكأس ، ومرت بعد ذلك دقائق ، سُمع بعدها صوت ارتطام جسم على الأرض ، واندفع رجال الحرس الخاص إلى داخل مسكن « ستالين » على صوت الزجاج الذي تهشم ، فوجدوا الزوجة جثة هامدة ..

وبعد وفاة الزوجة هرع « ستالين » إلى شلة اللعب ، ليرقص ويمرح وكأن شيئًا لم يحدث [1] !!

---

(1) القصة من كتاب « المذاهب المعاصرة » للدكتور عميرة ص : 175 .

إن الإنسان عندما يكفر بخالقه ، ويتنكر لنعم مولاه ، يتحول إلى شيطان رجيم ، أو مجرم خطير .. ينتشي لرؤية دماء الأبرياء ، ويطرب على صوت صرخات الثكالى ، وأنات المظلومين .. ليس هذا فحسب ، ولكنه يتخذ كل الوسائل للوصول إلى هدفه .. سواء أكانت هذه الوسائل مشروعة أو غير مشروعة ، تتفق مع الضمير الإنساني أو لاتتفق ، وهذا ما فعله « ستالين » مع المسلمين الذين أوقعهم سوء الطالع تحت حكمه .

● لقد رفض المسلمون في **بخارى** ، **وسمرقند** ، **والقوقاز** .. أوامر الإلحاد ، ومبادئ الكفر ، فأخرج لهم « ستالين » من جعبته جميع أسلحته ، وعبأ لهم جحافله النظامية ، وغير النظامية ، ولكن المسلمين – مع هذا – ردوهم مدحورين مقهورين ..

فلجأ « ستالين » إلى أسلوب أكثر مكرًا وخداعًا ، فأعلن في « موسكو » تصريحًا جاء فيه : « إلى جميع المسلمين الكادحين الذين دمرت مساجدهم : ثبتوا عقيدتكم وتقاليدكم ، ومارسوا حياتكم القومية بحرية تامة .. » .

فخرج المجاهدون من مخابئهم ، واجتمعوا لصلاة الجمعة في فناء مسجد بخارى ، فتولت المدافع الشيوعية إسكاتهم إلى الأبد .. ا . هـ .

وبهذا الأسلوب الخسيس من المكر والغدر ، وقوة الحديد والنار .. استطاع الشيوعيون أن يسيطروا على كثير من البلاد ، ويجعلوا أعزة أهلها أذلة .. وكذلك يفعلون ..

● وما حدث في بخاري وسمرقند حدث نظيره في **الصين** ، **ويوغسلافيا** ..

ففي الصين أباد الشيوعيون من المسلمين خلال ربع قرن من الزمان ستة وعشرين مليونًا ، بمعدل مليون في السنة .. وقد وقع في القطاع الصيني من التركستان ما يغطي على بشاعة التتار : لقد جيء بأحد زعماء المسلمين فحفرت له حفرة في الطريق العام ، وطلب من المسلمين – تحت وطأة التعذيب والإرهاب – أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية ، فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته .. وظلت العملية ثلاثة أيام ، والرجل يختنق تدريجيًا في الحفرة على هذا النحو حتى قضي شهيدًا رحمه اللّه ، وأعلى منزلته .

وفي يوغسلافيا أباد الشيوعيون من المسلمين منذ الفترة التي صارت فيها يوغسلافيا اشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم .. أبادوا أكثر من مليون مسلم ..

ومن أمثلة عمليات الإبادة : إلقاء المسلمين رجالًا ونساءً في مفارم اللحوم التي

تصنع لحوم « البلوبيف » ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظم والدماء ... وبهذا الإسلوب الخسيس من المكر ، والغدر ، والوحشية ، والقتل ، والتعذيب .. استطاع الشيوعيون أن يضعوا أيديهم على بعض البلاد الإسلامية ، وأن يجعلوا أعزة أهلها أذلة .. وكذلك يفعلون [1] .

● وحيا اللّه شعب « **أفغانستان** » المسلم الذي انطلق تحت شعار الجهاد الإسلامي المقدس لمحاربة الحكم الشيوعي العميل ، ومحاربة روسيا المعتدية الظالمة ، ورد الأمة الأفغانية إلى حكم الإسلام الأصيل ، وإلى شخصيتها الإسلامية المتميزة .. قد انطلقوا تحت شعار الجهاد ؛ لأنهم آمنوا إيمانًا جازمًا أنه لا يحل مشكلة الاستعمار الشيوعي ، ولا يطيح بحكم الطواغيت العملاء .. إلا أن يحملوا السلاح ، ويقفوا في وجه الطغيان .. حتى يأتي اللّه بالفرج ، ويأذن بالنصر .. وإنهم لمنصورون بإذن اللّه ، وسيعطون للشعوب المسلمة الرازحة تحت الحكم الشيوعي في بلاد الإسلام قدوة الثبات والجهاد حتى التحرير والنصر .. وما ذلك على اللّه بعزيز [2] .

وصدق اللّه العظيم القائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [3] .

* * *

ثم ماذا عن صيحات المصلحين في العالم ؟

لاشك أن الكثير من فلاسفة العالم ومصلحيهم ، وأرباب الفكر فيهم .. قد انتقدوا الحضارة المادية التي أوقعت الإنسان في جحيم الشقاء ، ودفعته في الحياة لكي ينطلق بلا غاية شريفة يهدف إليها ، وأن يسير بلا هدف نبيل يسعى إليه .. بل وضعوا أصابعهم على مكمن الداء ليصوروا لكل ذي عقل وبصيرة حالة الإنسان التعيسة ، ونهايته الأسيفة المحزنة ..

وذلك في ولوغه في المشروبات الروحية ، وتماديه في الإدمان على المخدرات ، وتمرده على اللّه والأديان والأخلاق .. ، وانطلاقه في سعار الجنس ومتاهات الإباحية ، وإصابته

---

(1) ارجع إلى تفسير قوله تعالى ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة .. ﴾ آية : 10 في سورة التوبة في تفسير « ظلال القرآن » لسيد قطب .

(2) ولقد تم النصر للشعب الأفغاني المسلم المجاهد على القوى الشيوعية ، مما آل الأمر بعد ذلك إلى تفكك الاتحاد السوفيتي سنة 1990 .

(3) سورة الصافات الآية : 171 - 173 .

بالقلق واليأس والأمراض العصبية والعقلية ، واندفاعه نحو الجريمة والرذيلة والانتحار ..

وإليك – أخي الداعية – ماذا قال هؤلاء المصلحون عن انحدار الإنسان وشقائه في غمرة الحضارة المادية التي اجتاحت العالم اليوم ؟ :

يقول « **اليكس كاريل** » في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » عن قلق الإنسان الحديث وهمومه :

« إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فإن البيئة التي أوجدها العلم للإنسان لا تلائمه ؛ لأنها أنشئت دون اعتبار ذات الإنسان » [1] .

– ويقول « **براتراندرسل** » عن شقاء الإنسان الحديث وحرمانه من السعادة :

« إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها في العصر الحديث ، واليوم أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة والسعادة » [2] .

– ويقول « **ماكنيل** » عن همجية الإنسان الحديث المتوحش في الحضارة الغربية :

« إن الحضارة الغربية في الطور الأخير من أطوار حياتها لأشبه بالوحش الذي بلغت شراسته النهاية في انتهاكه لكل ما هو معنوي ، وبلغ اعتداؤه على تراث السلف وعلى كل مقدس ومحرم قمته ، ثم أغاص مخالبه في أمعائه فانتزعها وأخذ يمزقها ويلوكها بين فكيه بمنتهى الغيظ والتشفي .. » [3] .

– لقد عقدت جامعة « **هارفاد** » في « أمريكا » سنة 1979 مؤتمرًا لكبار الأساتذة والمفكرين وعلماء النفس والاجتماع وجميع مجالات العلوم الإنسانية ، وطرح على المؤتمر سؤالان :

1 – ما معنى الحياة في أمريكا ؟

2 – ما فلسفة التعليم وهدفه في أمريكا ؟

والذي لفت نظر الأستاذ الذي أعد المؤتمر رسالة دكتوراة تحت عنوان « عدد

(1) من كتاب « طريقنا إلى النصر » لراشد الغنوشي ص : 27 .

(2 ، 3) من كتاب « الإسلام ومستقبل البشرية » ص : 19 للدكتور عبد الله عزام .

الحمير في العالم » ، قدمت للجامعة ، فاستغرب كيف تنفق حياة البشر في هذه الأمور التافهة ، ولم ترسم لتعليمها فلسفة ولا هدفًا .. ؟ !! [1] .

ولقد لخص « **شوبنهاور** » حياة الغرب في كلمات فقال : « إن الحياة تتأرجح من اليمين إلى اليسار ، من الألم إلى الملل .. وليستغث هذا الغرب المسكين إلهه إذا شاء ، إنه سيظل فريسة مصيره ، فالقدر لا يرحم » [2] .

« نعم لقد خنقت مداخن المصانع الروح الإنسانية في الغرب والشرق .

لقد قتلت الآلة صانعها ومهندسها ..

لقد تكدست أكوام الإنتاج والآلات على المجتمع الغربي فسحقته .

لقد تكومت أكداس النقود على القلب الغربي فخنقته .

لقد انطلق إشعاع الذرة فأباد الرحمة والخلق في أعماق الإنسان .

إن الإنتاج البشري الهائل في عالم المادة يحتاج إلى ضوابط خلقية لتحميه من التدمير ، لابد من صمام أمان للطاقة الجبارة التي تحملها اليد الغربية ، وهذا الصمام يتمثل في الاتصال بالله ، والخوف من حساب الآخرة ، والرحمة بعباد الله ، والغنى النفسي الذي لا يوفره سوى الإيمان بالله ، والرضى بقضائه والصبر على بلائه .. » [3] .

* * *

ولكن ما هو صمام الأمان في إنقاذ البشرية اليوم ؟

إنه الإسلام في ربانيته وعالميته وشموله وتجدده واستمراره .. إلى يوم البعث والنشور .

– فهذا « **دياسكييه** » المفكر الفرنسي يرشح الإسلام كمنقذ وحيد لما تعانيه البشرية اليوم .. يقول هذا المفكر : « إن الغرب لم يعرف الإسلام قط ، فمنذ ظهور الإسلام اتخذ الغرب موقفًا عدائيًا منه ، ولم يكف عن الافتراء عليه ، والتنديد به لكي يجد مبررات لقتاله ، وقد ترتب على هذا التشويه أن رسخت في العقلية الغربية مقولات فظة عن الإسلام .

ولاشك أن الإسلام هو الوحدانية التي يحتاج إليها العالم المعاصر ، ليتخلص من

(1) من كتاب « الإسلام ومستقبل البشرية » للدكتور عبد الله عزام ص : 20 .
(2) من كتاب « الغرب » للأستاذ الغنوشي ص : 26 .
(3) من كتاب « الإسلام ومستقبل البشرية » ص : 21 - 22 .

متاهات الحضارة المادية المعاصرة التي لابد إن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان » [1] .

– ويقول « **شبنلجز** » موضحًا حضارة الإسلام العالمية النقية وخصائصها الروحية والفكرية : « إن للحضارة دورات فلكية ، تغرب عنها ، لتشرق هناك ، وإن حضارة جديدة أوشكت على الشروق في أروع صورة هي حضارة الإسلام الذي يملك أقوى قوة روحانية عالمية نقية .. » [2] .

– ويقول العلامة « **شبرل** » عميد كلية الحقوق بجامعة « فينا » في مؤتمر الحقوق عام 1927 في صلاحية التشريع الإسلامي وقوة نمائه : « إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد (ﷺ) إليها ، إذ رغم أميته استطاع قبل بضع عشرة قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا لقمته بعد ألفي سنة » [3] .

– ويقول الدكتور « **إيزكوانساباتو** » في تفوق الشريعة الإسلامية على كل الشرائع الوضعية الحاضرة : « إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوروبية ، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتًا » [4] .

إن هذه الأقوال وأقوالًا كثيرة غيرها تشهد بجلاء على ما انطوت عليه شريعة الإسلام من ثروة قانونية وتشريعية متجددة ، وقوة دفع علمية وحضارية مستمرة .. بل هي الشريعة الوحيدة التي ستكون للعالم شمس هداية ، وأداة إنقاذ ، ومصدر إصلاح .. إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .. والفضل كل الفضل فيما اعترف به المنصفون ، وشهد به – على الخلود والتجدد – العقلاء ..

شهد الأنام بفضله حتى العدا   والفضل ما شهدت به الأعداء

* * *

إذن فماذا عن الدعاة ؟ :

فإذا كان هذا – كما سبق ذكره – هو حال المجتمعات الإنسانية التي تأثرت بالحضارة المادية ، واكتوت بنارها ..

وإذا كان هذا هو حال الفكر الإباحي الذي انتشر في ديار الغرب الأوروبي والأميركي ..

وإذا كان هو حال الفكر اللاديني واللاأخلاقي الذي انبعث من ديار الشرق الشيوعي ..

---

(1) انظر مجلة « الأمان اللبنانية » عدد / 57 / السنة الثانية آذار عام 1980 .

(2) انظر « عقيدة الإسلام أيدلوجية المستقبل » الدكتور مهدي عبود ص : 28 .

(3 ، 4) انظر « شريعة الإسلام » للدكتور القرضاوي ص : 89 .

وإذا كان هذا هو موقف الشيوعيين من الأديان والإسلام في العالم ..

وإذا كان هذا هو طغيان الحكم الشيوعي في عامة العباد ، وكافة البلاد ..

وإذا كانت هذه هي صيحات الفلاسفة والمصلحين في الآفاق وأرجاء الدنيا ..

وإذا كان الإسلام - كما قرر المنصفون - هو صمام الأمان في إنقاذ البشرية من كفرها وإباحيتها .. فالأمر يتطلب من كل داعية يدعو إلى اللّه على هدًى وبصيرة .. أن يهُبَّ من رقدته ، وأن يضاعف من نشاطه ، وأن ينهض بمسؤوليته .. ؛ ليرد هذا العالم الضائع ، والبشرية المنكوبة ، والأمم التائهة ، والشعوب السادرة في الغي والضلال .. إلى نور الحق ، وحقيقة التوحيد ، وآفاق المعرفة ، وهدى الإسلام ..

وهذا لا يتأتى إلا أن يبدأ الداعية بنفسه ، فينهاها عن غيها ، ويأمرها بالتقوى ، ويهذبها بأخلاق الإسلام .. حتى إذا استقامت على الحق ، ودرجت على الهدى أمر الداعية من حوله من أهل وعشيرة .. بالمعروف ، ونهاهم عن المنكر ، وغرس في نفوسهم أصول الإيمان ، ومكارم الأخلاق ، وعرفهم بحقيقة هذا الدين ، وخصائص هذا الإسلام .. حتى إذا قبلوا هدى اللّه ، واستجابوا لدعوة الحق ، وآمنوا بحركية التبليغ ، وانطلاقة العمل للدين الخالد .. انطلق الداعية مع من هم على شاكلته حركةً ونشاطًا وتبليغًا .. ليقولوا للدنيا : « **ابتعثنا اللّه ؛ لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام** .. » .

وقد قال هذا من قبل **ربعي بن عامر** حين وقف أمام رستم ليعلن له بعزة وإيمان وشموخ .. كرامة المسلم ، وعزة الداعية ، ومهمة الذين يبلغون رسالات اللّه ، ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا اللّه .

وقد أصبحت هذه الكلمات الخالدات شعارًا يرفعه المجاهدون والدعاة في وجه الطغاة والمعاندين في كل زمان ومكان .. بل أصبح منهجًا خالدًا يبين لكل مسلم خلال العصور مهمته الكبرى في حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا ، وتبليغ مبادئ هذا الدين للإنسانية جمعاء .

من ينقذ المجتمعات الإنسانية من شقاء الحضارة المادية ، وجحيم الجاهلية الحديثة غير المسلمين ؟

من يحرر الغرب من الفكر الإباحي الآسن ، ومن أتون الفوضى الجنسية الآثمة غير المسلمين ؟

من يخلص الشرق الشيوعي من براثن الفكر اللاديني ، ومن مفاسد المبادئ

اللاأخلاقية غير المسلمين ؟

من يقف من مبادئ الشيوعية التي تتحدى العالم والأديان والإسلام .. بكفرها وضلالها غير المسلمين ؟

من يستطيع أن يقف في وجه الصليبية الحاقدة ، واليهودية الماكرة ، والاستعمار البغيض غير المسلمين ؟

من يقدر أن يواصل طريق الجهاد حتى النصر أو الشهادة .. غير المسلمين ؟

تعالوا معي نستقرئ التاريخ ، ونسأل ديار الشام ، وسواد العراق ، ورياض الأندلس ، ووادي مصر ، وفيافي الجزيرة ، وربوع العجم ، وبلاد الهند ، وأرجاء الصين ، وعالم الدنيا .. عن أخبار أولئك الجدود البواسل الأمجاد الذين حملوا في نفوسهم أنبل معاني الكرامة والفداء ، وتربوا في مدارس الإيمان والإسلام ، وتخرجوا من مساجد المدينة ، ومكة ، والأقصى ، وقرطبة ، والأزهر ، والأموي .. فإن عندهم جميعًا خبرًا أكيدًا عن مفاخرهم وأمجادهم ، وعلومهم وحضارتهم ، وقيمهم ومبادئهم ، وتحركهم وانطلاقتهم ، وبطولاتهم وتضحياتهم .. فهم الذين هذبوا النفوس ، وهدوا القلوب ، ونشروا العلم ، وفرضوا المعرفة ، وكرموا الإنسان ، وطمسوا معالم الوثنية ، وأضاؤوا في العالمين نور الحق والهداية والعرفان ، وأنبتوا الأرض خيرًا وعسلًا ولبنًا ، وطبعوا في ضمير الزمان مبادئ التوحيد والعدل والإخاء .

هل عرفت الدنيا أنبل منهم أو أكرم ، أو أرأف أو أرحم ، أو أجل أو أعظم ، أو أرقى أو أعلم ؟!!

أعلنوا الحرية يوم كانت الأمم ترسف في قيود العبودية ، ونشروا التوحيد يوم كانت العقول مصفدة بأغلال الجاهلية ، وأقاموا العدل يوم كانت فارس والروم تسخران الشعوب لمطامعهما الحربية ..

بذلوا المال في المكارم حين كان يجمعه غيرهم من المظالم ، وصانوا الأعراض والحرمات حين كان غيرهم يبيع الأمهات والأخوات ..

جباههم تخضع لله ، وتعلو عمن سواه ، وقلوبهم تهوى الجمال ، وتنفر من كل قبيح ، وعقولهم تؤمن بالحق ، وترفض كل باطل ، وأيديهم يد مع الله ، وأخرى مع الناس ..

آمنوا بالدين ؛ ليرفعوا به الدنيا ، وعملوا للدنيا ؛ ليخدموا بها الدين ، وجمعوا بين الدين والدنيا ، ليكونوا في الحياة أعزاء ، وفي الآخرة من الفائزين ..

حكموا الدنيا فملؤوها أمنًا وسلامًا ، وعصفت بهم النكبات فاستقبلوها صبرًا وابتسامًا ، ومن اعتدى عليهم جعلوا الأرض فوق المعتدين أطلالًا وركامًا ..

دماء الشهداء عندهم عطر الشباب والرجال ، وسهام الأعداء في صدورهم أوسمة العزاء والكمال ، وخوض المنايا في سبيل دينهم أغنية النساء والأطفال ..

لمواكب الشهداء عندهم أفراح وأعراس ، ولصليل السيوف في آذانهم ألحان وأنغام ، وللمعارك الحُمر تربيهم أمهاتهم في الأسرَّة والمهود ..

إنهم في الحقيقة جيل فريد لا كالأجيال ، ورجال متميزون لا كالرجال ، وأمة رائدة لا كالأمم [1] ..

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

والمسلم الداعية هو الذي يسير في دعوته وجهاده على غرار ما سار عليه الجدود الأمجاد في دعوتهم وجهادهم .. ؛ لا يصح في دين الله أن يتغنى المسلم بالأمجاد السالفة ، وأن يفتخر بالبطولات الغابرة ، ثم يترك أمة الإسلام تمزقها الأحداث ، وتهب في أجوائها الأعاصير ، وهو لا يعمل عملًا ، ولا يقدم لإسلامه شيئًا .. بل من أبسط مقتضيات الإيمان أن يبذل قصارى جهده ، وأن يأخذ بكل أسباب القوة معتمدًا على الله ثم على نفسه .. حتى يرى هذه الأمة قد استعادت مجدها الغابر ، واستردت عزتها السليبة ، وأصبح لها تحت الشمس كيان ، وفي هذا الوجود مكانة ..

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

والآن أريد – أخي الداعية – **أن أضع بين يديك أحوال أمة الإسلام في المشارق والمغارب** ؛ لأضعك تحت مسؤوليتك في تبليغ الدعوة ، والعمل دائبًا في حمل رسالة الإسلام ؛ ولتعرف كيف تبدأ ؟ وإلى أين تنتهي ؟ وعلى الله قصد السبيل .

---

(1) من كتاب « حتى يعلم الشباب » ص : 10 - 12 .

أحوال أمة الإسلام في المشارق والمغارب

على أعقاب إلغاء الخلافة الإسلامية على يد العملاء المتآمرين : « كمال أتاتورك » « وعصمت اينونو » ، « وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي » .. عام 1928 تغير كل شيء في العالم الإسلامي :

1 - تم فصل الدين عن الدولة في أكثر بلاد الإسلام .

2 - تمزقت الوحدة الإسلامية إلى مزق وأشتات ، وتقسمت البلاد إلى أجزاء ودويلات ، وأصبحت ألعوبة بيد الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها : إنجلترا ، وفرنسا .. **والآن** : أمريكا ، وروسيا ، وأحلافهما .

3 - تغلغلت « الماسونية » التي تديرها اليهودية إلى بلاد الإسلام ، واستقطبت الكثير من أصحاب الجاه والسلطان ، واصطنعت منهم حكامًا يأتمرون بأمرها ، وينفذون مخططاتها ..

ومن أهم مخططات الماسونية : احترام اليهودية وتقديسها ، وإعادة بناء هيكل سليمان في أرض الإسراء والمعراج ، واغتصاب اليهود بلاد فلسطين ، وجعلها وطنًا قوميًا ، ودولة يهودية حيث منها ينفذ مخططهم الأكبر : « حدودك يا إسرائيل من الفرات والنيل » .

4 - تأسست في كثير من بلاد الإسلام منظمات إلحادية ، تنتمي إلى المذاهب الماركسيّة ، والمبادئ الاشتراكية .. وقامت تنشط بوقاحة متناهية للدعوة إلى الإلحاد ، والتنكر لخالق الأرض والسموات ، وإبطال القيم الروحية ، والمفاهيم الخلقية التي جاءت بها الأديان والشرائع .

وكان من نتيجة ذلك أن تبنَّت بعض الحكومات التي تنتسب إلى الإسلام الفكر الماركسي الشيوعي ليكون في مجتمعاتها نظام حكم ، ومنهج حياة .. يا للخيانة .. ويا للعار .

5 - اجتاحت موجات الميوعة والانحلال بلاد الإسلام ، فكان من مظاهرها : خروج المرأة المسلمة سافرة متبرّجة بشكل يدعو إلى الفتنة والإغراء ، واختلاط الرجال بالنساء في معظم المجتمعات .. بمظهر يستدعي الفساد والانحراف ، أما الخمر فأصبحت تباع علنًا في الحانات والمؤسسات ... ويشربها الناس جهارًا في المواخير والمنتديات ..

وأما بيوت الدعارة وصالات الرقص ، والمسارح المختلطة الفاضحة .. فأصبحت ملتقى المائعين والمائعات من حثالات الأمة وأشقيائها .. فيها تنتهك العفة ، وعلى أعتابها يخدش الحياء والشرف !!..

6 – أكثر البرامج التي تبثها أجهزة التلفاز والإذاعة في كثير من البلاد العربية والإسلامية .. توجه إلى ترسيخ الفساد والانحراف ، وترمي إلى حياة الترهُّل والمجون ، وتشجع على السفور والاختلاط .. وقليل من البرامج ما تهدف إلى العلم ، وتوجّه إلى الخير ، وتحض على الفضيلة والأخلاق ..

7 – أكثر المستلمين لزمام التعليم والتربية ، والمشرفين على المناهج وتأليف الكتب المدرسية في مدارسنا وجامعاتنا .. هم من الشخصيات المرتبطة بالماسونية والصليبية .. وأحيانًا بالشيوعية والاشتراكية .. فهؤلاء لا يألون جهدًا في تلقين أبناء المسلمين مبادئ الدس والتشكيك ، والطعن بالأديان ، والغمز على شخصية الرسول ﷺ . والدعوة السافرة إلى الكفر والإلحاد ..

وكم سمعنا عن معلمين وأساتذة جامعيين .. شكّكوا بالإله الواحد .. واتهموا أنظمة الإسلام بالجمود والرجعية ، وعدم مسايرتها للحياة .. وطعنوا بالقصة القرآنية أنها – في نظرهم القاصر – أسطورة من الأساطير ..؟ إلى غير ذلك من هذه المطاعن الكاذبة ، والاتهامات الباطلة .

8 – أما فلسطين الشهيدة .. فقد سقطت بأيدي شرذمة من شذّاذ الآفاق ، وصعاليك الدنيا ، فما بين عشية وضحاها قامت لليهود دولة وسلطان ، وتأسست لهم حكومة وبرلمان .

وها هي ذي إسرائيل تولّي وجهها شطر البلاد العربية ، وتقترب شيئًا فشيئًا ، لتنفيذ مخططها الأكبر من الفرات إلى النيل .

وحتى الآن لم تزل القضيّة الفلسطينيّة معلّقة لم تحلّ بعد ، والصهاينة المجرمون ما زالوا يتكاثرون عددًا ، ويكتملون عدّة ، والرأسمالية الظالمة وعلى رأسها أمريكا ما زالت تمدّها بالمعدّات والذخائر والمال .. ، ومشروع الصلح ... ما زال يملأ أسماع الدنيا ، والنكسات المتكرّرة التي مرّت عليها أمة الإسلام في الحروب الأربعة أفقدت الثقة بالنصر ، وأخمدت روح المقاومة والجهاد في شبابنا ، والمطامع التوسّعية التي

تحلم بها إسرائيل تزداد على مرّ الأيام امتدادًا واتساعًا ، وتصفية العمل الفدائي التي تتبنّاها حكومة عميلة أصبح معلومًا لدى الجميع ، ولا يغيب عن الأذهان ما تفعله إسرائيل في لبنان اليوم ..

9 – أما الاستعمار الغاشم فقد أقضّ مضاجع البلاد الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، وأدى دورًا كبيرًا في تحطيم وحدة المسلمين العالمية ، وتنكيس راية المسلمين الخفاقة ، والاستعمار لا يفتر ولا يكل من الخطط المدبرة التي يرسمها ، والمؤامرات المحكمة التي يصممها في سبيل القضاء على الدعوة الإسلامية الخالدة ، ومحو مبادئها القويمة من الأرض ، والسيطرة على المواد الخام ، والسوق الاقتصادية ، ومواطن النفوذ .. في أكثر المناطق الغنية في العالم الإسلامي ..

10 – الصليبية الحاقدة المتعاونة مع الاستعمار ترسل إلى البلاد الإسلامية في كل عام آلافًا من الإرساليات التبشيرية .. مهمتها الأولى تنصير أبناء المسلمين ، وتشكيكهم في عقيدتهم ونبّيهم وتاريخهم .. وكم سمعنا عن نشاط التبشير في أندونيسيا ، وشمال إفريقية ، ولبنان ، ومصر ... ؟!!

والاستعمار المتعاون مع الصليبية والتبشير .. لا يحاربنا بالمدافع والمدمرات إلا بمقدار ما تقتضيه المصلحة والحاجة ، ولكن يحاربنا بالغزو الفكري ، والهيئات التبشيرية ، ويحاربنا بالمنشآت الحديثة التي تتخذ أسماء ومسميات ظاهرها الرحمة ، وباطنها من قبله العذاب : كهيئة اليونيسكو ، والنقطة الرابعة ، وجمعية الفلاح ، والمؤسسات الطبية والخيرية ..

ويحاربنا بالإباحية الفاجرة سواء ما يتعلق بالنظريات الجنسية ، والأفلام الخليعة ، والمجلات ، والكتب ، والصحف ، والقصص .. التي تدعو إلى الانحلال ، والميوعة ، والشذوذ الجنسي ..

ووراء هذا كله أقلام المخابرات الأجنبية التي من مهامها الأساسية تمييع الجيل المسلم ، وتشكيكه بعقيدته ، وصرفه عن الجبهات المرسومة للكفاح والجهاد ..

ذلكم حاضر العالم الإسلامي على أعقاب إلغاء الخلافة الإسلامية منذ نصف قرن من الزمان !!.

وعلى أثر ذلك تبدلت المفاهيم الخلقية عند كثير من المسلمين حتى أصبحت

أوروبية في مظهرها وأشكالها ، وتغيرت المقاييس الاعتقادية والفكرية عند كثير من الشباب حتى غدت إلحادية في ضلالها وانحرافها ؛ وأصبح حال المسلمين اليوم كحال الضواري الأوابد تتباعد وتتدانى ، وكحال الأمم البدائية الأولى تتدابر وتتخاصم ، وكحال الشعوب المستعبدة في أدوار سقوطها وانحلالها ..

ورحم اللّه من قال :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لَمنْ لم يحي دينًا

ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء له قرينًا

* * *

مهمة الدعاة اليوم

فإذا كان هذا - أخي الداعية - هو حاضر العالم الإسلامي في تفككه ، وانحرافه ، وانحلاله ، وفساد تصوره ، وتآمر الأعداء عليه .. فما عليك إلا أن تهب من رقدتك ، وتضطلع بمسؤوليتك ، وتبذل قصارى جهدك في إصلاح الأوضاع ، ومتابعة الجهاد ، ومواصلة العمل .. حتى ترى في نهاية المطاف بلاد الإسلام تحررت اقتصاديًّا من مواقع النفوذ ؛ وتحررت اجتماعيًّا من الفساد والانحراف ؛ وتحررت فكريًّا من اتباع غير منهج اللّه ، وتحررت سياسيًّا من سيطرة الشيوعية والاستعمار .. وحتى ترى أيضًا الأمة الإسلامية الواحدة أخذت مكانتها العظيمة تحت الشمس .. تضاهي الدول الكبرى في سيادتها وشموخها !!

وبعد أن تصل - أخي الداعية - إلى هذه الغاية النبيلة في الوحدة الإسلامية ، والعظمة السياسية ، والسيادة الدولية ، والخلافة الراشدة ، واتباع منهج اللّه .. انطلقت في مجاهل الأرض داعيًا ومبلغًا ومجاهدًا تعلي كلمة اللّه ، وتحمل رسالة الإسلام .. حتى ترى البشرية قد ثابت إلى رشدها ، واستجابت لهدى ربها ، وتحررت من الشقاء والدمار والفساد .. وما ذلك على اللّه بعزيز !! .

وها أنا ذا ألمح بعين الأمل والتفاؤل طلائع الإسلام تزحف في الأفق ، وتنطلق بعزم وشمم .. في حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا ، وكأن جيل الإسلام قد أعطى العهد للّه على أن يقوم بدوره في إصلاح نفسه وأمته ، ثم ينطلق إلى الدنيا من جديد ، ليحرر الإنسانية من ربقة الكفر والانحلال والفوضى والإباحية والمفاسد الاجتماعية .. إلى نور الحق والهداية والاستقرار ، ومعالم المكارم والفضائل والإصلاح .

فثق - أخي الداعية - إذا كنت بهذه الروح ، وهذه العزيمة ، وهذا التفاؤل .. فسوف تحدث في الوجود شيئًا ، وتبني لأمتك مجدًا ، وتحقق للإنسانية خيرًا .. بل سوف تبدل الأرض غير الأرض ، والحياة غير الحياة ، والتاريخ غير التاريخ .. وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه .

وليكن شعارك دائمًا - أخي الداعية - قول اللّه عز وجل : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

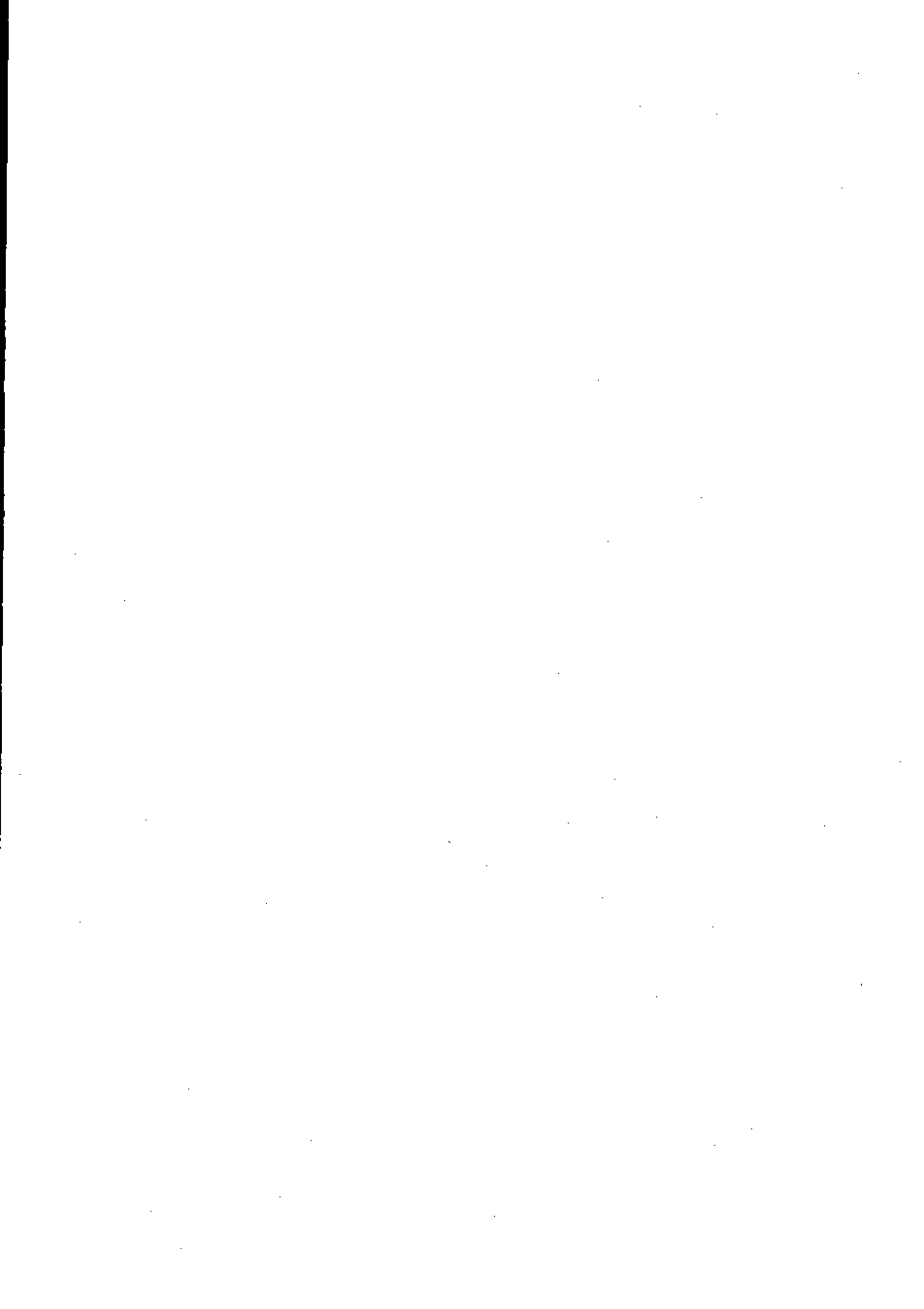
(1) سورة التوبة الآية : 105 .

وليكن نشيدك أنشودة شاعرنا الإسلامي الذي يقول :

ستعلم أمتنا أننا ركبنا الخطوب هيامًا بها
فإن نحن فزنا فيا طالما تذل الصعاب لطلابها
وإن نلق حتفًا فقد قدمت كؤوس المنايا لشرابها [1]

وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [2] .

(1) الأبيات لشاعر اليمن الموهوب المرحوم محمود الزبيري .
(2) سورة التوبة الآية : 52 .



سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(4 / 3)

وجوب تبليغ الدعوة

فضل الدعوة والداعية

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد للّه رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا هو الفصل الثالث ، والفصل الرابع من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » وهما بعنوان « **وجوب تبليغ الدعوة** » و « **فضل الدعوة والداعية** » .

أقدمها لكم – إخواتي الدعاة – عسى أن تتفهموا ضخامة مسؤوليتكم ، وعظم واجبكم في حمل الدعوة الإسلامية إلى الدنيا ، ونشر دين اللّه في الأرض ، واللّه يقول الحق ، ويتولى العاملين المخلصين .

المؤلف

عبد اللّه ناصح علوان



الفصل الثالث

وجوب تبليغ الدعوة

إذا كان هذا – أخي الداعية – هو حال البشرية اليوم من الفساد ، والانحلال والشقاء .. حيث لم تنج – كما علمت – بقعة من الأرض من العفن والميوعة ، ومبادئ الكفر والضلال . إذا علمت هذا فعليك أن تعلم أيضًا ما هي أبعاد مسؤوليتك في الإصلاح والتغيير ، وما هو عظم واجبك في التبليغ والدعوة ؟

وفي هذا الفصل إن شاء اللّه سوف تعلم – أخي الداعية – عظم المسؤولية ، وضخامة الأمانة في حمل الدعوة الإسلامية إلى الدنيا ، ونشر دين اللّه في الأرض ، وعلى اللّه قصد السبيل ، ومنه نستمد العون والتوفيق .

اعلم رحمك اللّه أن الدعوة إلى الإسلام أصبحت في هذا العصر فريضة شرعية ، وضرورة حتمية على كل من انتسب إلى أمة الإسلام : شيبًا وشبابًا ، رجالًا ونساءً ، صغارًا وكبارًا ، حكامًا ومحكومين ، خاصّة وعامة ... كلٌّ يقوم بهذه المهمّة على حسب حاله ، وحسب طاقته ، وحسب إيمانه ، وحسب تحسسه بواقع المسلمين ، وأحوال المجتمعات البشرية .

والأصل في هذه الوظيفة الدعوية العامّة قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

والقاعدة في هذا المهمة التبليغية الشاملة قوله جلّ جلاله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ .. ﴾ [2] .

وعبارة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ .. ﴾ في الآية تشمل المسلمين جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم .

وعبارة ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴾ في الآية نفسها تعبير يلفت النظر ، حيث يشير إلى اليد الخالقة المدبّرة التي أخْرجتْ أمة الإسلام من ستار الغيب إخراجًا ، ودفعتها إلى الظهور وإثبات الذات دفعًا لتبلّغ دعوة اللّه في العالمين !! .

(1) سورة التوبة الآية : 71 .	(2) سورة آل عمران الآية : 110 .

ولاشك أن هناك نصوص كثيرة من القرآن والسنة وعمل الأمة ، تدل دلالة قطعيّة على حتميّة التبليغ ، وفريضة الدعوة نقتطف طاقة منها وباللّه التوفيق :

● **فمن نصوص القرآن الكريم :**

أ – قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

فاللام في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن ﴾ للأمر ، والأمر يقتضي الوجوب . و﴿ أُمَّةٌ ﴾ في الآية يقصد منها – كما يدل عليه السياق – طائفة من العلماء والدعاة موظفة لمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وساهرة على حراسة الرأي العام في كل بقعة من المجتمع الإسلامي وإن كان ذلك واجبًا – في الأصل – على كل فرد من الأمة ، كلٌّ على حسب طاقته واستعداده وإيمانه .. يقول « ابن كثير » رحمه اللّه في تفسير هذه الآية : والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة ، كلٌّ بحسبه : كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وفي رواية : « .. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .. » [2] .

فالذي تدل عليه الآية : أن تبليغ الدعوة ، وحراسة الرأي العام ... واجب على طائفة من العلماء والدعاة الموظفين من قبل الإمام على أعمال الحسبة [3] ، وإن كان ذلك واجبًا في الأصل على كل فرد من أفراد الأمة .

ب – قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [4] .

أقسم اللّه سبحانه في هذه السورة بالعصر الذي بعث اللّه فيه نبيه ؛ لشرفه على كل العصور ، أقسم وأكّد : أنَّ جنس الإنسان لفي ضياع وخسران إلا من تحقق :

(1) سورة آل عمران الآية : 104 .

(2) ارجع إلى مختصر « ابن كثير » للشيخ الصابوني ج 1 – ص : 306 .

(3) الحسبة : هي القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسميت هذه المهمة حسبة ، لكون صاحبها يحتسب الأجر والثواب من اللّه وحده .

(4) سورة العصر .

- بالإيمان بالله .
- والعمل الصالح .
- والتواصي بالحق .
- والتواصي بالصبر .

فالذي تدل عليه السورة : أن أي إنسان في هذه الحياة إذا لم يكن مؤمنًا بالله الواحد الأحد ، وإذا لم يكن سالكًا سبيل العمل الصالح ، وإذا لم يكن متواصيًا مع المؤمنين بالتمسك بالحق والمجاهرة به ، وإذا لم يكن صابرًا على المحنة والبلاء ، راضيًا بما قدر الله عليه ؛ فإنه يكون لا محالة خاسرًا ضالًّا ضائعًا !! فالدعوة إلى الله إذن من أوجب الواجبات في نظر الإسلام ، بل هي واجبة على كل إنسان بحسبه .

ج - قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ .. ﴾ [1] ، وقال سبحانه وتعالى في السورة نفسها : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [2] .

ومما يستفاد من النصّين : أن الله سبحانه ميّز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

قال القرطبي في تفسيره : « فجعل تعالى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين ، فدلّ على أن أخص أوصاف المؤمن : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ورأسها : الدعاء إلى الإسلام » [3] . ودل على أن أخص أوصاف المنافقين : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، ورأسها : الدعاء إلى الكفر !!.. فهذا التمييز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما يبدو من الآيات - دليل قاطع على أن تبليغ الدعوة على سبيل الوجوب ، لسمة هذه الأمة بالإيمان والخيرية والتبليغ .. فإذا تخلّت عن سمتها وخصيصتها فإنها تتسم بصفات المنافقين ، وتنحدر إلى أخلاق اليهود المجرمين أعاذ الله هذه الأمة منهم .

د - وقال تعالى : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

(1) سورة التوبة الآية : 71 .
(2) سورة التوبة الآية : 67 .
(3) تفسير القرطبي ج 4 - ص : 47 .

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [1] .

وقد سرد الإمام الغزالي هذه الآيات وعقّب عليها وقال : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر ، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .. » [2] وقد نزلت هذه الآية كما ذكر – ابن كثير – فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد – وثعلبة بن شعبة ، وغيرهم ، وأصبح معنى الآية : لا يستوي من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب بالذمّ والإجرام ، وبين من أسلم منهم وأقروا بالإيمان ، بل الذين أسلموا منهم كانوا مستقيمين يتلون كتاب الله ، ويقيمون الصلاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين ..

ومما نستفيده من هذا النص : أن من انتظم في أمة الإسلام عليه أن يعمل على مقتضى المنهج الذي رسمه الله لأبناء هذه الأمة ، وأن من مفردات هذا المنهج : تبليغ دعوة الله المتمثلة بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وأن من قصّر في هذا الحق يكون آثمًا .

هـ – وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [3] يخبر الله سبحانه في هاتين الآيتين أنه لَعَنَ الكافرين من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله ، واعتدائهم على خَلقه ، وكانوا أيضًا لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ، بل كانوا يخالطون أهل المعاصي ، ويجلسون معهم ، ويرضون بمنكرهم !! وهذا ما بينه الرسول – صلوات الله وسلامه عليه في الحديث الذي رواه الإمام أحمد : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم ، وشاربوهم ؛ فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم .. » [4] .

ومما يدل عليه هذا النص القرآني : أن أمة الإسلام إذا لم تقم بوظيفة حراسة الرأي العام ، ولم تنصح الناس إلى ما فيه خيرهم ، ولم تبلغ دعوة الله عز وجل ، ولم تأمر

(1) سورة آل عمران الآية : 113 - 114 .
(2) إحياء علوم الدين ج 2 – ص : 307 .
(3) سورة المائدة الآية : 78 - 79 .
(4) مسند الإمام أحمد 1 / 391 عن عبد الله بن مسعود .

بالمعروف ، ولم تنه عن المنكر ؛ فإن اللّه سبحانه يضرب قلوب بعضها ببعض ، ويلعنها كما لعن الذين كفروا من بني إسرائيل بسبب إهمالها لواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبسبب تساهلها في حق دعوة اللّه سبحانه ، وحراسة الرأي العام المسلم .

و – قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [1] يؤكد اللّه سبحانه في هاتين الآيتين أنه ينصر من ينصره ، وذلك في اتباع هداه ، وإعزاز دينه ، والجهاد في سبيله . وهؤلاء الذين ينصرون اللّه عز وجل ، لهم في الحياة الدنيا مهمّة ، وفي مجال العمل التبليغي رسالة ؛ فمهمتهم الأولى حين يمكن اللّه لهم في الأرض أن يعبدوا اللّه ويوحّدوه ، ورسالتهم الأساسية في إطار هذا التمكين أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويدعوا الناس إلى الخير . فهذه هي مهمتهم ، وتلك هي رسالتهم ، فلا يجوز أن يتساهلوا فيها ، ويتخلّوا عنها حتى يستأهلوا نصر اللّه عز وجل ، وحتى يزيدهم اللّه في الأرض عزة وقوة وتمكينًا . وإذا حادوا عن تحقيق هذه المهمة ، وتقاعسوا عن أداء هذه الرسالة ؛ فإن اللّه سبحانه يجعل بأسهم بينهم شديدًا ، ويسلط عليهم عدوّهم فيستنفد بعض ما في أيديهم ، ويزيدهم في الحياة ذلة وَوَهْنًا وتمزيقًا .

ومما يوجّه إليه هذا النص القرآني : أن هذه الأمة إذا لم تقم بمسؤوليتها في التزام منهج اللّه عز وجل ، وإذا لم تؤدّ رسالتها في التبليغ والدعوة ؛ فإن اللّه سبحانه يُعرض عنها ، ويتخلّى عن نصرتها ، ويذيقها وبال أمرهم ، ويبدّلها من بعد أمن خوفًا ، ومن بعد عزة ذلًا . وسوف تبقى على هذه الحالة المتردّية حتى تعود إلى هدي ربها ، وأصالة دينها ، ولينصرن اللّه من ينصره . إلى غير ذلك من هذه النصوص القرآنية المستفيضة التي تدل على وجوب تبليغ الدعوة في أرض اللّه .

● **ومن نصوص السنّة الشريفة :**

أ – روى الشيخان عن عبادة بن الصامت – رضي اللّه عنه – قال : « بايعنا رسول اللّه ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أَثَرَةٍ علينا (أي الإيثار) ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بَوَاحًا عندكم من اللّه فيه

(1) سورة الحج الآية : 40 - 41 .

برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنّا ، لا نخاف في اللّه لومة لائم) [1] .

ماذا تعني كلمة : « بايعنا .. » ؟ وماذا تعني عبارة : « أن نقول الحق أينما كنّا .. » ؟

أليست تعني أن على كل من انتمى إلى جماعة المسلمين أن يعطي البيعة والعهد للأمير على أن يسمع ويطيع في العسر واليسر ، وأن لا ينشقّ عن أمير الجماعة إلا إذا أمر بالمعصية أو دعا إلى كفر بواح ... ، وأن يقول الحق أينما كان ، وأن لا يخاف في اللّه لومة لائم ..

أليس يدل هذا الحديث : على التزام جماعة المسلمين ، ووجوب النصح العام ، وحتمية التبليغ والدعوة أينما كانت هذه الجماعة ، وحيثما حلّت وَوُجِدَتْ ؟

ب – روى البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير – رضي اللّه عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل القائم على حدود اللّه ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا (اقترعوا) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذ مَنْ فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا » [2] .

مثّل النبي ﷺ في هذا الحديث حال رقابة المجتمع للفرد ، ورقابة الفرد للمجتمع بحال جماعة ركبت في سفينة ، فأرادت طائفة منها أن تعبث بأمن السفينة وركابها ، فكلُّ مَنْ في السفينة إذا تركوُا هذه الطائفة العابثة تفعل ما تشاء هلك كلُّ مَنْ في السفينة ، وإذا منعُوها ، وأخذوا على يديها نجا كلّ من في السفينة !!.

أليس يدلّ هذا التمثيل النبوي : على أن كل مسلم في هذا الوجود له وظيفة اجتماعية في الأخذ على يد العابثين المفسدين ، والوقوف في وجه المارقين الظالمين .. حتى تسلم لأمة الإسلام عقيدتها وأخلاقها ، ويتحقق لها كيانها وعزتها ، وأنها إذا تساهلت في ذلك أصابها اللّه بالذل والهوان والتمزق ؟

ج – روى أبو داود والترمذي عن عبد اللّه بن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق اللّه ودع ما تصنع به فإنه لا يحلّ لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله (أي من المنكر) ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه

(1) البخاري 4 / 154 برقم 7199 ، ومسلم 1470 كتاب الإمارة 1709 .

(2) البخاري 3 / 152 برقم 2493 ، والترمذي 4 / 470 برقم 2173 .

وقعيده ؛ فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ... ﴾ الآية .. [1] ثم قال عليه الصلاة والسلام : « كلا والله لتأمُرن بالمعروف ، ولتنهوُنّ عن المنكر ، ولتأخُذنّ على يد الظالم ، ولتأطُرُنّه (لتردنّه) على الحق أطرًا .. » [2] .

هذا الحديث يدلّ دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل فرد في الأمة .

ووجه الاستدلال :

– استحقاق الأمة جميعًا لعنة الله إذا تقاعست في واجب التغيير والتبليغ والدعوة ..

– صِيَغ الردع ، والزجر ، ولام الوجوب ، في قوله عليه الصلاة والسلام : « **كلا والله لتأمُرنّ بالمعروف** ... » ، فهذه الصِّيَغُ كلها – كما هو معلوم – تدلُّ على الوجوب .

– تنافر القلوب وتمزقها بضرب بعضها ببعض بسبب التخلّي عن الوظيفة الاجتماعية المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وسبق أن شرحنا بعض هذه المعاني فيما استنتجناه من آية : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ... ﴾ [3] في المبحث السابق فارجع إليه .

د – روى الشيخان عن زينب بنت جحش – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ دخل علينا فَزِعًا يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شرّ إذا اقترب ، فُتِح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه » ، وحلّق بين أُصبعيْه : الإبهام والتي تليها ، فقلت : يا رسول الله : أنهلِك وفينا الصالحون ، قال : « نعم إذا كثُر الخَبَث » [4] .

مما يدل عليه هذا الحديث : أن الأمة بأسرها : صلحاءها وفجّارها يعمّها الدمار والهلاك ؛ لكونها لم تقم بمهمة التبليغ ، ومسؤولية التغيير ، وواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فالصالحون منها يشملهم الهلاك ، لكونهم سكتوا عن استشراء الفساد والمنكر ، ورضوا بواقع الذلّ والمهانة !! .

هـ – روى مسلم والترمذي وابن ماجه .. عن أبي سعيد الخدري – رضي الله

---

(1) سورة المائدة الآية : 78 .
(2) أبو داود 4336 ، والترمذي 5 / 252 برقم 3047 .
(3) سورة المائدة الآية : 78 .
(4) البخاري 8 / 113 برقم 7059 ، ومسلم كتاب الفتن رقم 2880 .

عنه - قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [1] .

فَمَنْ في قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ رأى منكم منكرًا .. » لفظ من ألفاظ العموم ، ويشمل هذا اللفظ كل من استطاع تغيير المنكر باليد أو اللسان أو القلب ، سواء أكان المنكرُ من العامة أو الخاصة ؛ إذا فقهوا الخطر الذي يترتب عليه تفشّي المنكر في المجتمع الإسلامي .

ومما يدل عليه الحديث : أن تغيير المنكر واجب على حسب الاستطاعة ، فيبدأ المسلم بالتغيير باليد إن استطاع ، فإن لم يستطع فباللسان ، وإن لم يستطع فبالقلب [2] وذلك أضعف الإيمان .

ووجه الاستدلال الذي يدل على الوجوب :

أن تغيير المنكر أمر واجب على كل الأحوال وعلى حسب الاستطاعة : اليد أولًا ، ثم اللسان ثانيًا ، ثم القلب ثالثًا ، فإذا لم يتمّ التغيير بأيّ مرحلة من هذه المراحل الثلاثة .. ، فالإثم واقع ، والخروج من دائرة الإيمان متحقق .

وهذا ما تدلّ عليه الرواية الثانية التي رواها مسلم : « .. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » [3] .

إلى غير ذلك من نصوص السنة المستفيضة التي تدلّل على وجوب تبليغ الدعوة في أرض اللّه .

● **الدليل من عمل الأمة :**

انطلاقًا من خصيصة الإسلام الأولى : بكون الدعوة إنسانية عالمية .

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان 49 ، والترمذي 2173 ، وابن ماجه كتاب الفتن برقم 4013 .

(2) وتغيير المنكر بالقلب معناه أن ينكر بقلبه على أهل الفسوق والعصيان إذا رآهم متلبسين بالفسق والمعصية ؛ وذلك بمقاطعتهم ، والانسحاب من مجالسهم ، وتمعّر وجهه من أفعالهم .

(3) قد يقول قائل : هذه النصوص من القرآن والسنة التي استشهد بها المؤلف على وجوب تبليغ الدعوة خاصة بالاستدلال على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فما وجه الارتباط بينها وبين تبليغ الدعوة ؟

أقول : أجل إن لها كل الارتباط ، وذلك من وجوه :

1 - مضمون تبليغ الدعوة والأمر بالمعروف واحد ، وإن كان هناك اختلاف في اللفظ .

2 - الإرشاد والإصلاح والهداية .. قاسم مشترك بين الدعاة ، والآمرين بالمعروف كما هو معلوم .

3 - في لفظ ﴿ أخرجت ﴾ في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس .. ﴾ دليل قوي يوضح لهذه الأمة مسؤوليتها في حمل الرسالة إلى الدنيا ، وعالمية الدعوة إلى اللّه هي المستوحاة من الآية ، وهي المستهدفة منها .

واستشعارًا بمسئولية المسلمين في حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا .

وإيمانًا باعتقاد المؤمنين جميعًا حين يخوضون غمرات الدعوة والجهاد ، أنهم على إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

بناء على هذا انطلق المسلمون الأولون ومن تبعهم بإحسان في مجاهل الأرض ، يمدّنون الأمم ، ويكرمون الإنسان ، ويفرضون المعرفة ، ويشيدون في العالمين صرح الحضارة ، ويُنبتون الأرض خيرًا وعسلًا ولبنًا ، ويطبعون في ضمير الزمان مبادئ التوحيد ، والعدل ، والحق ، والحرية ، والمساواة .

انطلقوا يعلنون للدنيا أنهم دعاة حق ، ومصابيح هدى ، وحَمَلة رسالة ، وأئمة خير وإصلاح ..

وإليكم باقة من مواقفهم الدعوية ، ومآثرهم الجهادية :

أ – بعد أن رغّب « المقوقس » حاكم مصر وفد المسلمين بالصلح والمال ، والكفّ عن القتال ، وأنذرهم بالعدد والكثرة والقوة والحرب ... إذا هم لم ينصاعوا لذلك ..!!.

بعد هذا وقف « عبادة بن الصامت » ليقول للمقوقس قولة الحق بشجاعة وإيمان : « يا هذا ، لا تغرّنّ نفسك ولا أصحابك .. أما ما تخوّفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوّفنا به ، ولا بالذي يردنّا عما نحن فيه إذا كان ما قلتم حقًّا !!..

وإنا منكم على إحدى الحسنيين :

– إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم .

– وإما غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا .

وإن اللّه عز وجل قال في كتابه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [1] .

وما منّا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه اللّه الشهادة ، وألا يردّه إلى بلده ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وقد استودع كل واحد منا ربّه أهله

(1) سورة البقرة الآية : 249 .

وولده . وإنما همنا في سبيل الله ، وإعلاء كلمته .

ثم استطرد « عبادة » قائلًا :

ولا يمكن أن نجيبك إلا بواحدة من ثلاث :

– إما أن تجيبونا إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره ، وهو دين أنبيائه ورسله . فمن دخل فيه فله ما لنا ، وعليه ما علينا ، وكان أخانا في الإسلام . فإن قبلت أنت وأصحابك سعدتم في الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحلّ أذاكم ، ولا التعرض لكم .

– وإن أبيتم فأدّوا إلينا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم ، وعرض لكم في شيء من أرضكم ودياركم وأموالكم ، وندافع عنكم إذا كنتم في ذمتنا ، وكان لكم به عهد إلينا ..

– وإن أبيتم الجزية فليس بيننا إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا ، أو نصيب ما نريد منكم .

هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا غيره ، فانظروا لأنفسكم !! .

فقال المقوقس : أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاثة ؟

فرفع عبادة يديه وقال : لا وربّ هذه السماء ، وربّ هذه الأرض ، وربّ كل شيء .. ما لكم عندنا خصلة غير هذا ، فاختاروا لأنفسكم !! » [1] .

ب – (أرسل سعد بن أبي وقاص – رضي الله عنه – جماعة من الأشراف دعاة إلى « **يزدجرد** » ملك الفرس ، وكان منهم ، النعمان بن مقرّن ، وعمر بن معد يكرب ، والمغيرة بن زرارة ... فلما وصلوا إليه بالمدائن سألهم « يزدجرد » : ما جاء بكم ودعاكم إلى غزونا ، والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أنّا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فتكلم « النعمان بن مقرّن » فقال :

« إن الله رحمنا ، فأرسل لنا رسولًا يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على

---

(1) راجع كتاب « فتوح مصر » لابن عبد الحكم ص : 59 - 63 .

إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يَدْعُ قبيلة إلا قاربه منها فرقة ، وتباعد عنه منها فرقة ، ثم أمر أن نبتدئ بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين :

مُكْرَهٍ عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمر أن نبتدئ بمن جاورنا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن ، وقبّح القبيح ، فإن أبيتم ، فأمْرٌ من الشر هو أهون من آخر شرّ منه : الجزية ، فإن أبيتم ؛ فالمناجزة (أي القتال) .

فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزاء (أي دفعتم الجزية) قبلنا منكم ومنعناكم (أي دفعنا عنكم) ، وإلا قاتلناكم .. »)[1] .

ج - (.. ولما نزل « رستم » قائد الفرس أرضَ القادسية أرسل إلى سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - أن ابعث إلينا رجلًا نكلمه فأرسل إليه ربعيَّ بن عامر ، فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب ، وبسط النمارق (السجاد) ، والوسائد منسوجة بالذهب ، فأقبل رِبْعيٌ على فرسه ، وسيفه في خِرقَةٍ ، ورمحه مشدود بعَصَب ، فلما انتهى إلى البساط وطئه بفرسه ، ثم نزل وربطها بوسادتين شقّهما ، وجعل الحبل فيهما ، ثم أقبل يتوكأ على رمحه ، ويقارب خَطْوه حتى أفسد ما مرّ عليه من البسط ، ثم دنا من رستم ، وجلس على الأرض ، وركز رمحه على البساط ، وقال : إنا لا نقعد على زينتكم .. فقال له رستم : ما جاء بكم ؟

قال ربعي : « الله جاء بنا ، وهو ابتعثنا ؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر » .

فقال رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ فقال ربعي : نعم ، وإن مما سنّ لنا رسول الله ﷺ ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث ، فنحن ممتنعون عنكم ثلاثًا ، فانظر في أمرك ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

- الإسلام وندعك وأرضك .

---

(1) من كتاب « إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء » محمد الخضري ص : 71 - 72 .

– أو الجزاء (أي الجزية) فنقبل منك ، ونكفّ عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك .

– أو المنابذة (أي القتال) في اليوم الرابع إلا أن تبدأنا (أي بقتال) . وأنا كفيل على أصحابي) [1] .

* * *

هذا غيض من فيض مما ذكره التاريخ عن مواقفهم الدعوية المشرفة ، ومآثرهم الجهادية الخالدة . هؤلاء الرجال ، ومن سلك سبيلهم بإحسان ، هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة ، وهم الذين استعذبوا في سبيلها أسمى آيات الصبر والفداء والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم ؛ حتى حققوا لهذا الدين انتصاره ، ولهذا الإسلام انتشاره .

فما هو إلا ربع قرن من الزمان من بعثة الرسول ﷺ حتى قامت للمسلمين في عهد **الخلفاء الراشدين** دولة عتيدة وسلطان ، وامتد لهم في رحاب الأرض كيان مرموق وسيادة ، وأخضعوا لحكمهم المملكتين الكبيرتين العظيمتين فارس والروم ، وامتد ظلهم إلى بلاد السند شرقًا ، وإلى بلاد الخزر وأرمينية وبلاد الروس شمالًا ، ودخلت في عدلهم بلاد الشام ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وبقية إفريقية ، وذلك كله في خمس وثلاثين سنة .

وفي عهد بني أمية : استبحر ملكهم ، وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، وبلاد التركستان ، ووصلوا إلى حدود الصين شرقًا ، ودخلوا بلاد الأندس بأوروبة غربًا .

ولكي نعرف عظمة الكيان الإسلامي الكبير في عهد بني العباس فلنستمع إلى ما قاله الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وذلك حين وقف مرة في شرفة قصره ، وقد مرت به سحابة ولم تمطره ، فما وجد غير أن يخاطبها قائلًا : « أمطري حيث شئت فإن خراجك سيحمل إلينا » .

وهذا القول تصوير صادق لعظمة السيادة السياسية التي بلغتها دولة الخلافة آنذاك .

وإليكم ما قاله قوادنا الأشاوس الأبطال في تصوير الكيان السياسي المرموق الذي وصلت إليه الدولة الإسلامية في عصر العز والشموخ والسيادة :

---

(1) من كتاب « إتمام الوفاء .. » لمحمد الخضري ص : 73 - 74 .

● **هذا عقبة بن نافع** الذي وقف في آخر الغرب على شاطئ المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) ، وقال : – وقد خاض جواده بالماء – « اللهم ربّ محمد لولا هذا البحر لفتحتُ الدنيا في سبيل إعلاء كلمتك .. اللهم فاشهد !! .. » .

● **وهذا قتيبة الباهلي** الذي توغل في آخر الشرق ، وأبى إلا أن يدخل بلاد الصين ، فقال له أحد أصحابه محذرًا مشفقًا : « لقد أوغلت في بلاد الترك يا قتيبة ، والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر .. » .

فأجابه قتيبة ، والإيمان قد بلغ منه كل مبلغ : « بثقتي بنصر اللّه توغلتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدّة !! » .

فلما رأى ذلك المحذر عزمه وتصميمه على المضي لإعلاء كلمة اللّه قال له : (**اسلك سبيلك حيث شئت يا قتيبة ، فهذا عزم لا يفلّه إلا اللّه !!**) [1] .

اللّه أكبر نداؤهم ، وسروج الخيل ركابهم ، ومضارب الخيام استقرارهم ، وإبلاغ الدعوة غايتهم ، والجهاد في سبيل اللّه سبيلهم ، والموت من أجل إعلاء كلمة اللّه أسمى أمانيهم .

وما أحسن ما قاله الشاعر في تصوير حالهم ، وتجسيد انطلاقتهم :

في كل فجّ عزمهم سيّار ... جماعة ليس لهم ديار
سوى ظهور الخيل والغبار ... إلى الوغى تهافتوا وطاروا

ورحم اللّه شاعر الإسلام محمد إقبال إذ يقول :

بمعابد الإفرنج كان أذاننا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرض تقذف نارًا
كنا نقدم للسيوف صدورنا ... لم نخش يومًا غاشمًا جبارًا
وكأن ظل السيف ظلّ حديقةٍ ... خضراء تنبت حولها الأزهارا

فلولا أن دعوة الإسلام عالمية ، ومبادئها إنسانية ، وأنظمتها دولية ... لما انطلق الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان هذه الانطلاقة الكبرى في هداية البشرية ، وتحريرها من الكفر والطغيان ، والأخذ بيدها من وهدة الشقاء ، وحضيض الجهالة إلى قمة السعادة والمجد ، وذروة الحضارة والعرفان !! .

---

(1) من كتاب « حتى يعلم الشباب » للمؤلف ص : 9 - 10 .

وصدق اللّه العظيم القائل في محكم التنزيل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

* * *

ومما يدل على وجوب تبليغ الدعوة القاعدة الأصولية التي تقول :

« **ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب** » .

إن بلاد الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها – كما هو معلوم – يجب أن تكون محررة صافية إلا من مسلم صادق ، أو ذمّي معاهد ، وما عداهم من مرتدين أو ملحدين أو شيوعيين أو مستعمرين أو صهيونيين ... فلا يصح أن يقرّ لهم في بلاد الإسلام قرار ، ويكون لهم فيها وجود واستقرار .

فالمؤمنون لا يتحققون بصفة العزة الإسلامية في دار الإسلام ، وأرض المسلمين ؛ إلا أن يقوموا قومة رجل واحد في التوعية ، وتبليغ الدعوة ، والالتفاف تحت راية واحدة ، والارتباط بالجماعة المسلمة . حتى إذا كوّنوا فيما بينهم القاعدة الصلبة وأصبحوا مهيئين لخوض معارك الجهاد ؛ طهّروا أرض الإسلام من كل مرتد أفّاك ، أو ملحد مفسد ، أو مستعمر غاشم ، أو شيوعي مجرم ، أو يهودي آثم ... عندئذ يعلم أعداء الإسلام في كل مكان أنهم لا حياة لهم في أرض الإسلام إلا بإسلام أو ذمّة !! .

أما أن يكون في المجتمع الإسلامي ملحدون ، ووجوديون ، وإباحيّون مستحلّون لكل حرمة .

أما أن يكون في أرض الإسلام زنادقة ، وباطنيون ، وفرق ضالّة تدّعي الإسلام زورًا وتقية كالقرامطة ، والقاديانية ، والإسماعيلية ، وغيرهم ممن على شاكلتهم . أما أن يكون في بلاد الإسلام أحزاب كافرة ، ودعاة إلى مبادئ هدامة كالشيوعية والوجودية والقومية .

أما أن يكون هذا كله فذلك دليل على أن المسلمين فقدوا صفة أساسية من صفاتهم ، وهي إظهار العزة على الكافرين التي من مظهرها تبليغهم الدعوة ، ومجاهدتهم بالسيف إذا هم أعرضوا !! .

---

(1) سورة التوبة الآية : 33 .

ومن يوم ما فقدت الشخصية الإسلامية هذه الصفة من العزة والاستعلاء على الكافرين ؛ تفكك المجتمع الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ، وأصيب بالذلة والدمار والتخلف . حتى استطاع اليهود بمعاونة (الماسون) في بلاد الإسلام أن يقوّضوا عرش الخلافة الإسلامية ، وأن ينكّسوا راية الوحدة السياسية ، وأن يزرعوا في أرض الإسلام الفساد ؛ واستطاع الباطنيون أن يسيطروا على بقعة من أرض الإسلام ، وأن يجعلوا أعزة أهلها أذلّة ؛ واستطاع الشيوعيون أن يضعوا أيديهم على كثير من بلاد المسلمين ، وأن يذيقوا أهلها القتل والتشريد والدمار .. ؛ واستطاع اللادينيّون أن يتحكموا في أقطار ينتسب أهلها إلى الإسلام ، وأن يبعدوا الإسلام عن نظام الحكم ومناهج الحياة ؛ واستطاع النصارى أن يستولوا على أجمل البقاع في بلاد الإسلام ، وأن يجعلوها تحت حكمهم وسيطرتهم ؛ واستطاع اليهود أن يقيموا دولة فلسطين ، وأن يغتصبوا المسجد الأقصى ، وأن يفعلوا بالمسلمين الأفاعيل ؛ واستطاع آخرون وآخرون أن يفعلوا الكثير الكثير !! .

وفي الحقيقة لا تُحلّ مشاكل المسلمين في هذا العصر إلا إذا وجد الجيل المؤمن الواعي الداعية المجاهد الذي يحقق بإيمان وشجاعة العزّة للمؤمنين ، والحاكمية للإسلام في كل مجتمع يؤمن أهله بلا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه .

وهذا في الواقع لا يتأتّى إلا أن يستشعر الجيل المسلم في العصر الحديث معنى الواجب الذي كلفهم الشرع به ، ومعنى المسؤولية التي حمّلهم الإسلام إياها . فإقامة حكم اللّه في الأرض هو من أعظم المسؤوليات .

وتحرير بلاد الإسلام من الإلحاد والكفر والانحلال هو من أقدس الواجبات . ألا فلينهض الجيل الحاضر اليوم بمسؤوليته وواجبه ؟ لأنه كما ذكر علماء الأصول : « **ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب** » وإلا فإن الحساب عند اللّه عسير ، وإن المسؤولية يوم القيامة كبيرة .

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [1] .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

* * *

(1) سورة الصافات : 24 .

(2) سورة الحجر : 92 - 93 .

ثم ماذا عن تبليغ الدعوة والجهاد والإكراه ؟

إذا كان الإسلام أوجب تبليغ الدعوة على المسلمين ، وإذا كان لم يكره أحدًا من الناس على اعتناقه والدخول فيه ، فلماذا شرع الجهاد ؛ وما هو الهدف ؟

إن للجهاد في الإسلام أهدافًا محددة تنبع من صميم الواقع ، وعالمية الدعوة ، ونظام العهود والمواثيق ، ونلخصها في النقاط التالية :

1 - رد الظلم والعدوان عن أرض الإسلام :

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [1] .

وقال جلّ جلاله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [2] .

وبناء على هذين النصين أذن للمسلمين بأن يقاتلوا من يقاتلهم ويعتدي عليهم ؛ دفاعًا عن النفس ، وانتصارًا للكرامة .

2 - الإخلال بالعهود والمواثيق :

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [3] .

وبناءًا على هذا النص جاز للمسلمين أن يقاتلوا أعداءهم إذا أخلّوا بالعهود التي اصطلحوا عليها ، والمواثيق التي نقضوا عراها .. والبادئ أظلم !! .

3 - إزالة العقبات التي تعترض الدعوة :

لقوله سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ [4] وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [5] .

---

(1) سورة البقرة الآية : 190 . (2) سورة الحج الآية : 39 - 40 . (3) سورة التوبة الآية : 12 .
(4) المقصود بالفتنة : الشرك والكفر ، والمعنى : حتى لا يبقى كفر على وجه الأرض ، إما إسلام أو ذمة ، الآية بجملتها تشير إلى عالمية الدعوة . ونسخ الإسلام لكل الأديان . (5) سورة الأنفال الآية : 39 .

وبناءً على هذا النص يجب قتال مَنْ يعترض طريق الدعوة الإسلامية ، ومن يصد عن سبيل اللّه ، ومن يمنع وصول الإسلام إلى الشعوب . بل النص في جملته يأمر المسلمين أن يُزيحوا عن طريق الدعوة من يصدّ عن سبيل اللّه ، ومن يمنع وصول الإسلام إلى الشعوب . أو حاكم متأله يحول بين قومه وبين الهداية ؛ حتى تصل دعوة الإسلام إلى الأمم والشعوب نقيّة صافية واضحة ، ثم بالتالي الشعوب هي التي تقرر مصيرها : إن شاءت أن تدخل في الإسلام عن طواعية واختيار ، وإن شاءت أن تبقى على دينها ، وتدفع الجزية إلى الدولة الإسلامية مقابل حمايتها من العدوان .

فتبين مما عرضناه من أهداف الجهاد في الإسلام : أن الإسلام لم يجبر أحدًا على الدخول فيه ، وأنه لم ينتشر بحد السيف كما يزعم أعداء الإسلام ، وإنما شرع الجهاد – كما سبق ذكره – من أجل إزاحة الطواغيت المتألهين الذين يصدون عن سبيل اللّه ، ويمنعون وصول الإسلام إلى شعوبهم .

ومما يؤكد أن الإسلام لم يكره أحدًا على الدخول فيه ، ولم ينتشر بحد السيف هذه النصوص :

قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ (1) .

– لو كان الإسلام يفرض وجوده واعتناقه بالقوة لما قبل رسول اللّه ﷺ الجزية من صاحب « أيلة » ، ومن أهل « جرباء » ومن أهل « أذرح » بعد أن انسحب أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك ؛ فإن طبيعة النصر تدفع المرء إلى الظفر بأكبر قسط منه ، ولكن رسول اللّه ﷺ أبى أن يحارب أهل أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرح لما وجد جنوحهم للسلم ؛ امتثالاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ (2) .

والجزية التي دفعوها ليست لقاء إصرارهم على دينهم ، وإنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم .

وهذا التخيير الذي فرضه الإسلام على المحاربين بين قبول الإسلام أو الجزية دليل واضح على منع الإكراه في الدين .

(1) سورة البقرة : 256 .

(2) انظر كتاب « آثار الحرب والسلم » للدكتور وهبة الزحيلي والآية من سورة الأنفال رقم 61 .

– ومن شواهد التاريخ : (أن السلطان « سليم العثماني » رأى أن « الأروام » و « البلغار » و « الأرمن » قد كثروا في مملكته كثرة مزعجة ، وأقضّوا مضاجع الدولة الإسلامية بفتنهم ومؤامراتهم ؛ فقرر أن يجبرهم على الإسلام أو يخرجهم من مملكته ، فعارض شيخ الإسلام « زنبيلي علي أفندي » معارضة شديدة ، وقال للسلطان بلهجة قوية قاطعة : « ليس لك على اليهود والنصارى إلا الجزية ، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم » ، فرجع السلطان عن عزمه ؛ امتثالاً لإرادة الشرع) [1] .

– (والتاريخ يسطر بملء الافتخار والإعجاب أن **الإسلام وصل إلى جنوب الهند ، وسيلان ، وجزر لكديف ، ومالاديف في المحيط الهندي ، وإلى التبت ، وإلى سواحل الصين ، وإلى الفلبين ، وجزر أندونيسيا ، وشبه جزيرة الملايو .. ووصل إلى أواسط إفريقية في السنغال ، ونيجيريا ، والصومال ، وتنزانيا ، ومدغشقر ، وزنجبار ، وغيرها من البلاد ...**) [2] .

وصل الإسلام إلى كل هذه الأمم بواسطة تجار مؤمنين ، ودعاة صادقين ، وهداة مخلصين ، أعطوا الصورة الصادقة عن الإسلام في سلوكهم وأمانتهم وصدقهم ووفائهم ، ثم أعقب ذلك الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والدعوة اللطيفة ؛ فدخل الناس في دين اللّه أفواجًا ، وآمنوا بالدين الجديد عن إيمان وقناعة ورغبة ، دون ضغط أو إكراه ، ودون قتال أو جهاد ..

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم ..

أن دعوة الإسلام انتشرت في العالم إما عن طريق الدعاة ، وإما عن طريق الفتوح .

فما انتشر **عن طريق الدعاة** : كان بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والقدوة الصالحة ..

– وما انتشر **عن طريق الفتوح** : كان بإزاحة الطواغيت المتجبرين ؛ لتصل الدعوة إلى شعوبهم على حقيقتها . والشعوب هي التي تقرر مصيرها ، إن شاءت : أن تدخل في الإسلام ، وإن شاءت أن تدفع الجزية وتبقى على دينها .. ، وأكثر هذه الشعوب التي قُضي على طواغيتها عن طريق الفتوح اعتنقت الإسلام عن إيمان ورغبة بعد أن زال عن كاهلها كابوس الظلم والطغيان . لقد أوردنا من النصوص الشرعية ،

(1) ارجع إلى كتاب « آثار الحرب والسلم » للدكتور الزحيلي .
(2) من كتاب « حتى يعلم الشباب » للمؤلف ص : 119 .

والشواهد التاريخية ما يثبت هذه الحقيقة .

فكيف يسوغ لعاقل متجرّد منصف أن يتهم المسلمين بأنهم نشروا دينهم بالإكراه وحدٌ السيف بعد الذي عرفوه من الحق والحقيقة ؟

فبأي حديث بعد هذا يؤمنون ؟

أخي الداعية :

علمت مما سبق أن هناك نصوصًا قطعية ثابتة :

من القرآن الرباني الخالد .

ومن السنة النبوية المطهرة .

ومن عمل الأمة الإسلامية عبر التاريخ .

هذه النصوص تدل دلالة واضحة على حتمية الدعوة ، وفريضة التبليغ .

وعلمت أيضًا ما قاله الأصوليون : (**ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب**)

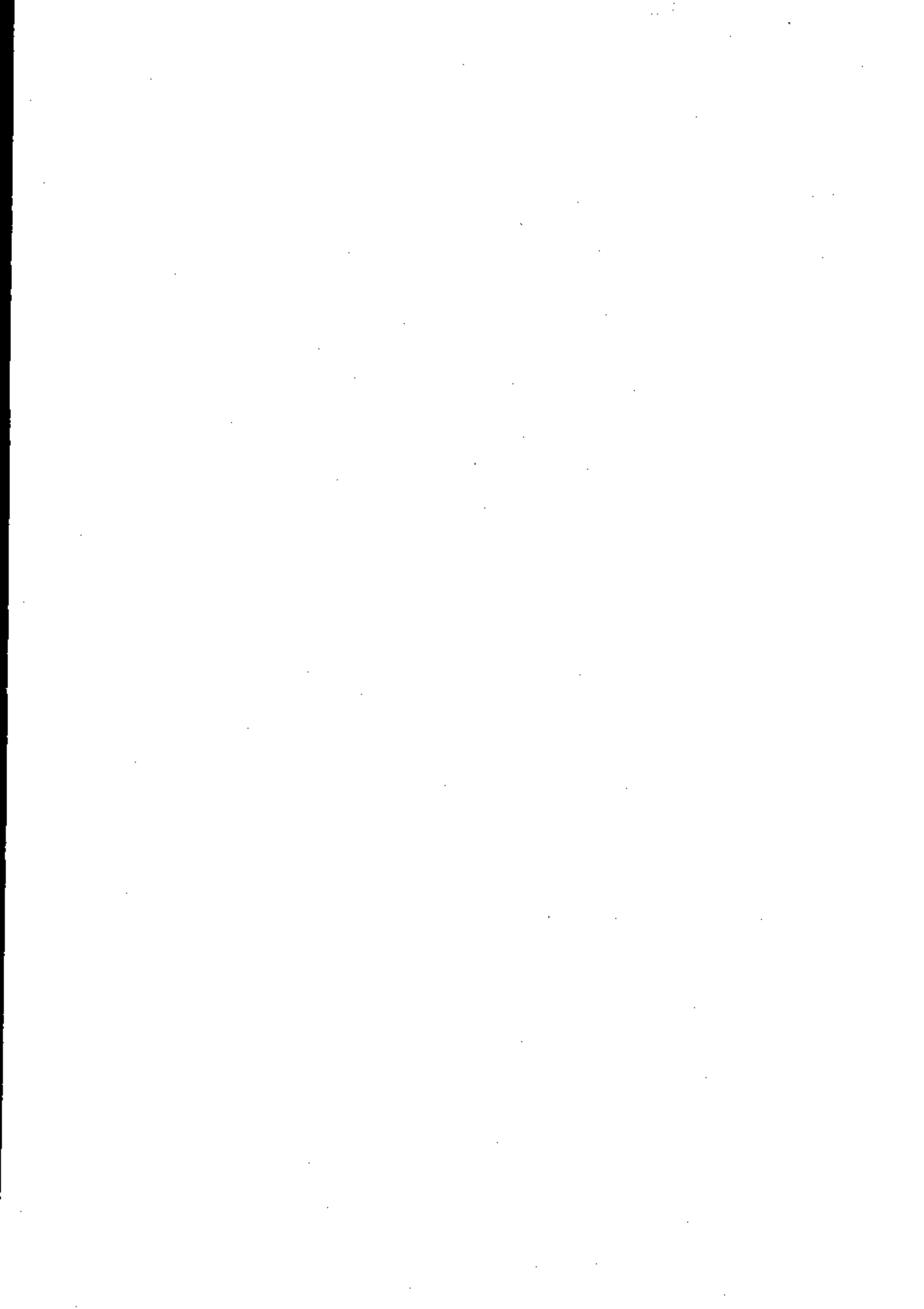
فهذه القاعدة - كما فهمت - توجب عليك فريضة الدعوة ، وواجب التبليغ ؛ لأن الإصلاح ، والإنقاذ ، والتغيير ، وردّ الأمم إلى الإسلام ؛ لا يتأتى إلا بالانطلاقة الكبرى ، والمسيرة الصادقة ، والعزم الصادق المتين .

وعلمت - كذلك - أن الجهاد شرع في الإسلام لإزاحة الطواغيت الذين يعترضون الدعوة ، ويقفون عقبة كأداء في سبيلها ، عدا عن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والقدوة الصالحة . فكل هذه المبادئ طرق ووسائل لانتشار الإسلام في آفاق الأرض ، وأنحاء المعمورة .

إذا علمت كل هذا فبلغ الرسالة ، وأدّ الأمانة ، وانصح الأمة ، وانطلق في أرض اللّه ، فاللّه سبحانه لم يَتِرَكَ عملك ، ولن يضيع جهدك ، ولن يخيّب مسعاك .

فسوف تصل بإذن اللّه إن انطلقت مخلصًا صادقًا عازمًا إلى أفضل النتائج ، وأطيب الثمرات ، وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *



الفصل الرابع

فضل الدعوة والداعية

بعد أن علمت – أخي الداعية – أن في الشريعة الإسلامية نصوصًا قطعية توجب عليك حتمية الدعوة ، وفريضة التبليغ .

فما أراك منفّذًا لما أوجبه اللّه عليك ، وما أسمع عنك إلا منطلقًا بحرارة الإيمان لتبليغ دعوة اللّه في الأرض ، وما أجدك إلا قد شمرت عن ساعد الجد والعمل ، لإنقاذ الشعوب ، وهداية الأمم

ولا شك أنك إذا انطلقت في مجال الدعوة إلى اللّه كما أمر الشرع ، وبلّغت رسالة الإسلام كما أراد اللّه ؛ فاللّه سبحانه يُنزلك منازل الأبرار ، ويرفعك مقام الأخيار ، ويثيبك في الدنيا خيرًا ، ويعظم لك في الآخرة أجرًا ، ويحشرك في مجمع من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

وفي هذا الفصل أريد – أخي الداعية – أن أضع بين يديك ما جاء في كتاب اللّه عز وجل ، وما ثبت من حديث رسول اللّه ﷺ في فضل الدعوة والداعية ؛ لتعرف المنزلة الكبيرة التي شرّف اللّه بها الدعاة على غيرهم من البشر ، ولتعلم الدرجة الرفيعة التي ميّز اللّه بها دعوة الإسلام على غيرها من الدعوات .

إذا علمت هذا – أخي الداعية – فيكون انطلاقك في الجهاد الدعوي أبلغ ، وحركيتك في هداية البشرية أكبر . بل تترسّخ حساسية الدعوة في بؤرة شعورك ، وتتعمق حرارة التبليغ في أعماق نفسك ، فما تجد نفسك إلا وقد انطلقت في الحياة مخلصًا صادقًا أمينًا تبلغ دعوة اللّه ، ولا تخشى أحدًا إلا إياه ، بل لا ترقأ لك عين ، ولا يهدأ لك بال حتى ترى أمة الإسلام قد عادت إلى اللّه ، وترى الإنسانية قد نعمت بهداية الإسلام .

ولكن ما الفضائل التي خصّ اللّه بها هذه الدعوة على سائر الدعوات ؟ وما المكارم التي خصّ اللّه بها الدعاة على غيرهم من البشر ؟

أولًا - ما الفضائل التي خصّ الله بها هذه الدعوة ؟

سبق أن ذكرنا في الفصل الأول : « **هذه الدعوة ما طبيعتها ؟** » أن الدعوة الإسلامية تميزت على غيرها من الدعوات بالفضائل التالية :

1 - أنها خاتمة 2 - أنها عالمية 3 - أنها ذات خصائص

أما أنها خاتمة : فلكونها - كما مرّ - جمعت في طياتها دعوة الرسل جميعًا ، وزادت عليها بالتشريع المتكامل الأبدي المتجدد على مرّ العصور إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .

أما أنها عالمية : فلكونها - كما سبق - ذات صبغة إنسانية عامة في تشريعها ومبادئها ؛ فهي رحمة للعالمين ، وهي هداية للناس كافة ، وهي منهاج للبشرية عامة .

أما أنها ذات خصائص : فلكونها - كما وضح - تختص بالمزايا التالية :

أ - **الربانية** : لأنها تنزلت من حكيم حميد .

ب - **الشمول** : لأنها تنزلت بمنهج الحياة .

ج - **التجدد** : لكونها تحمل في طبيعتها عوامل نموها وامتدادها إلى يوم الدين .

د - **التوازن** : لكونها وقفت بين المادة والروح ، وحققت مصلحة الفرد والجماعة ، وأعطت لكل ذي حقّ حقه في الحياة ..

هـ - **اليسر** : لكون تكاليفها تتوافق مع طاقة الإنسان ، وتنسجم مع مسؤولياته ..

و - **البساطة** : لكون مبادئها واضحة بسيطة مفهومة يستجيب لها كل ذي عقل ، وينشرح لها كل ذي فطرة .

ز - **الخلود** : لكون نصوصها أصيلة ثابتة خالدة لا يتطرق إليها قصور ، ولا يعتريها تحريف ..

تلكم - أخي الداعية - أهم الفضائل والخصائص التي ميزت دعوة الإسلام على غيرها من الدعوات الأخرى سواء أكانت هذه الدعوات ربانية من تنزيل اللّه عز وجل ، أو كانت أرضية من صنع البشر ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ ؟ [1] .

وإن دعوة تحمل في طياتها مزايا الربانية ، والعالمية ، والشمول . وتحمل في مبادئها خصائص التجدد ، واليسر ، والبساطة ، وتحمل في طبيعتها ظواهر التوازن ، والأصالة ، والاستمرار ؛ فهي دعوة تستحق البقاء ، وتستأهل الخلود ، وتفي

(1) سورة البقرة الآية : 138 .

بحاجات الزمن ... إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .

ومما يؤكد عظمة الدعوة الإسلامية ، ويظهر فضلها على غيرها من الدعوات ، الشهادات التالية :

1 – شهادة الواقع العالمي .

2 – شهادة المؤتمرات الدولية .

3 – شهادة المنصفين من غير المسلمين في العالم .

وسبق أن ذكرنا هذه الشهادات مُدلّلة ومفصّلة في فصل : « هذه الدعوة ما طبيعتها ؟ » فارجع إليه – أخي الداعية – تجد ما يشفي الغليل ، وما يبلّ الصدى إن شاء اللّه .

فهذه الشهادات كلها – كما سبق بيانها – إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على أن دعوة الإسلام انطوت على ثروة قانونية وتشريعية ، وعلى قوة دفع علميّة وحضارية ، وعلى مبادئ مثالية وواقعية ... لا يمكن أن نجدها في أي دين سماوي ، أو قانون أرضي ، أو مذهب اجتماعي ، أو عقيدة إنسانية ... ذلك لأن هذه الدعوة هي من صنع اللّه الذي أتقن كل شيء ، وأحكم كل ما أبدع ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [1] .

فإذا كانت دعوة الإسلام بهذه المنزلة ، وهاتيك الخصائص ؛ فهي جديرة بأن يحملها الدعاة إلى الدنيا يعرّفون بها ، ويدعون إليها ، وينشرونها في ربوع الأرض . عسى اللّه سبحانه أن يفتح بهم عيونًا عُميًا ، وقلوبًا غُلفًا ، وآذانًا صُمًّا .. وعسى اللّه جل جلاله أن يحقق على أيديهم إنقاذ البشرية من ظلام الشرك ، وبراثن الجاهلية ... إلى نور التوحيد ، ومعالم الحق ، ومنار الإسلام ... وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *

ثانيًا : ما المكارم التي خصّ الله بها الدعاة ؟

لو استعرضنا نصوص القرآن والسنة في تكريمها للدعاة ، وفي الرفع من منزلتهم ، وفي الإشادة بفضلهم ... لوجدناها أكثر من أن تحصى .

وها نحن أولاء نقتطف **باقة** من آيات القرآن الكريم ، ومن أحاديث المصطفى – صلوات

(1) سورة المائدة الآية : 50 .

اللّه وسلامه عليه – في فضل الدعاة ؛ ليعلم من يريد أن يعلم كيف كرّم اللّه من يسير في طريق الدعوة إلى اللّه ؟ وكيف أولاهم بالمنزلة ؟ وكيف رفع مقامهم في الدرجات العُلى ؟

1 – **الدعاة هم خير الناس** : لقوله تبارك وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ (1) .

يقول الداعية الكبير « سيد قطب » رحمه اللّه في كتابه « الظلال » في تفسير هذه الآية : « إن التعبير بكلمة ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ المبني لغير الفاعل تعبير يلفت النظر ، وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة التي تُخرج هذه الأمة إخراجًا ، وتدفعها إلى الظهور دفعًا من ظلمات الغيب ، ومن وراء الستار السرمديّ الذي لا يعرف ما وراءه إلا الله .. إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى ، لطيفة الدبيب ، حركة تُخرج على مسرح الوجود أمة ، أمة ذات دور خاص ، لها مقام خاص ، ولها حساب خاص : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴾ .

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة ، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة الأمم ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها خير أمة ، واللّه يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض ، ومن ثمّ لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية ؛ إنما ينبغي أن تعطي هذه الأمم مما لديها : من الاعتقاد الصحيح ، والتصور الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخلق الصحيح ، والعلم الصحيح . فواجبها أن تكون دائمًا في الطليعة ، وفي مركز القيادة .

ومِنْ أول مقتضيات هذا العطاء : أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد ، وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهي خير أمة أخرجت للناس ، لا عن مجاملة أو محاباة ، ولا عن مصادفة أو جزاف .. – تعالى اللّه عن ذلك كله علوًّا كبيرًا – إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف .

فهو النهوض إذن بتكاليف الأمة الخيّرة (الداعية) بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما في طريقها من أشواك .. » اهـ .

فالدعاة خُصّوا بالخيرية لهذه المعاني من الأعباء والتكاليف التي ذكرها « سيد قطب » رحمه اللّه في إصلاح البشرية وهدايتها إلى نور التوحيد ، ومعالم الإسلام .

---

(1) سورة آل عمران الآية : 110 .

2 – **الدعاة هم الشهداء على الناس** : لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [1] .

فأمة الإسلام هي الأمة الداعية الوسَط التي تشهد يوم القيامة على أنها بلّغت الأمم رسالة الإسلام ، وأقامت بينها موازين العدل والقسط ، ووضعت لها التصوّرات الصحيحة المستمدة من الرسالة الخالدة ، في كل ما يتصل ببناء الفرد والأسرة والمجتمع ، وفي كل ما يرتبط بهداية الأمم والشعوب والإنسانية ، وبهذا يتضح فضل هذه الأمة ، وتتحدد مسؤوليتها ووظيفتها في التبليغ والدعوة والتغيير .

وكانت هذه الأمة وَسَطًا ، لكونها في أوسط بقاع الأرض ، فهي الأمة التي تتوسط أقطار الدنيا كلها .. فموقعها – كما هو معلوم – وسط بين شرق وغرب ، وشمال وجنوب . وما تزال بموقعها هذا تُشهد الناس جميعًا ، وتَشْهد على الناس جميعًا ، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة .

وكذلك فهي الأمة الوسَط في الاعتقاد والتصور والمبادئ ، لا تغلو في التجرّد الروحي حتى العزلة والرهبانية ، ولا تنطلق في الحياة المادية انطلاقة البهائم ؛ بل تسير في الحياة على أساس الوسطية والقصد والاعتدال بلا إفراط ولا تفريط .

– وأيضًا **فهي الأمة الوسط في التجربة والمعرفة والأخذ بأسباب الحضارة** .. لا تجمد على ما عندها من علم وتُغلق منافذ التجربة والمعرفة ، ولا تتبع كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك .. إنما تستمسك بما لديها من تصوّرات ومناهج وأصول ، وشعارها الدائم : « **الحقيقة ضالّة المؤمن أنّى وجدها أخذها** » في تثبّت ويقين .

فإذا كانت هذه الأمة شهيدة على الأمم في أداء رسالتها وتبليغها . وقيّمة على البشرية في إنقاذها وهدايتها ، ومتميزة على الدنيا في تصوّر مبادئها ، وسموّ تشريعها ؛ فهي خليقة بهذه المزايا والخصائص أن تكون خير الأمم ، وأشرف الشعوب على الإطلاق !! .

3 – **الدعاة هم المفلحون في الدنيا والآخرة** : لقوله جل جلاله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

هذه الأمة الداعية إلى الخير ، والآمرة بالمعروف ، والناهية عن المنكر هي الأمة

---

(1) سورة البقرة الآية : 143 .

(2) سورة آل عمران الآية : 104 .

المفلحة الفائزة في الدنيا والآخرة .

المفلحة في الدنيا ؛ لكونها نفّذت منهج اللّه عز وجل في الدعوة ، والجهاد ، والعمل في سبيل الإسلام ؛ فنالت أعلى مراتب العز والمجد والسؤدد والشرف العظيم .

والمفلحة في الآخرة لكونها بلّغت في الدنيا الرسالة ، وأدّت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت في اللّه حق جهاده .. ؛ فاستأهلت النعيم الخالد المقيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وهل تنال أمة في الدنيا من الفلاح والفوز والنجاح والشرف .. ما نالته أمة الإسلام .

فهنيئًا للدعاة الهداة ما أعدّ اللّه لهم من منزلة رفيعة ، ومقام كريم .. في الدنيا والآخرة . وهنيئًا لهم في دنياهم حين يحكمون الدنيا بالإسلام ، وهنيئًا لهم في أخراهم حين يتميزون على سائر الأمم ، وهم في جنات الخلد تحت راية سيد الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليه ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

4 – **الدعاة أحسن الناس حديثًا** : لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

مما تدل عليه الآية الكريمة : الدعاة إلى اللّه هم أحسن الناس قولًا ، وأقومهم هديًا ، وأعظمهم منزلة ، وأسعدهم حالًا ؛ ذلك لأنهم لا يخرجون في دعوتهم عن الإطار المرسوم في شريعة اللّه ، ولا يحيدون عن المنهج الذي رسمه الإسلام . بل الدعوة إلى اللّه هي مقصدهم الأسمى ، وهداية البشرية إلى الدين الأقوم هي غايتهم العظمى ، وحمل الرسالة الإسلامية إلى الدنيا هو هدفهم الأكبر ؛ فهم من أجل هذا يواصلون ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم .. حتى يروا في نهاية المطاف أمة الإسلام قد ثابت للحق ، وأبناء الإنسانية قد قبلت هدى اللّه ، وأجناس الأمم قد استجابت للإسلام .

ألا فليكثر الدعاة من أحاديث الإسلام ، وليسيروا في طريق الدعوة إلى اللّه ، وليبلغوا دعوة الحق والقوة والحرية ، فإنهم في المقام الأرفع ، والمنزل الأكرم .

5 – **الدعاة ورثة الأنبياء** : لما روى الخمسة وصححه ابن حبان والحاكم ... أن رسول اللّه ﷺ قال : « العلماء ورثة الأنبياء » [2] .

وهل هناك شرف أعظم ممّن يداني الأنبياء في المنزلة والكرامة ؟

(1) سورة فصلت : 33 . (2) رواه البيهقي 223 وانظر كنز العمال برقم 28679 والتاريخ الكبير للبخاري 33718 .

وما العلماء والدعاة إلى اللّه عز وجل إلا ممن اقتفوا أثر رسول اللّه ﷺ في دعوة الأمم إلى الخير ، وهداية البشرية إلى الصراط السويّ ، فهم وَرَثَة النبوة ، وهم الواقفون على ثُغْرَة الإسلام ، وهم المجاهدون لإعلاء دين اللّه ، وهم يُحيون بكتاب اللّه الموتى ، ويفتحون بالإسلام قلوبًا غُلْفًا ، وأعينًا عُميًا ، وآذانًا صمًّا ، وهم الذين يعيدون مجد المسلمين إلى الدنيا بعد أن غاب هذا الإسلام عن الشهود والوجود .

فهل أدرك الدعاة إلى اللّه فضلهم ، وعرفوا في هذه الحياة منزلتهم ؟

6 – **أهل السماء والأرض يستغفرون للدعاة** : لما روى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا ... « ... إن اللّه وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جُحْرها ، والحيتان في البحر .. يصلّون على معلّم الناس الخير » [1] . والصلاة – كما هو معلوم – من اللّه رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن العبد دعاء . وهذه منزلة قلما يدركها أحد إلا مَنْ تصدى للدعوة ، وسار في طريق الهداية والإصلاح والتبليغ . ألا فليعلم الدعاة مقامهم ، ويدركوا في هذا الوجود منزلتهم ؟ فهنيئًا لهم ، ولمن يسير على دربهم ، كم ينالهم من شرف ؟ وكم يسطر لهم في صحائفهم من أجر ومثوبة ؟

7 – **طاعة الدعاة في المرتبة الثالثة** : لقوله جل جلاله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [2] .

قال ابن عباس في إحدى الروايتين عنه ، وجابر بن عبد اللّه ، والحسن البصري ، وأبو العالية ، وعطاء ، والضحاك ، ومجاهد ، وأحمد في إحدى الروايتين عنه :

أولو الأمر : هم العلماء [3] .

فمرتبة العلماء والدعاة في الفضل والمنزلة والطاعة – كما نصت عليها الآية – تأتي بالمرتبة الثالثة بعد طاعة اللّه سبحانه ، وطاعة رسول اللّه عليه الصلاة والسلام .

وهذه منزلة لا تدانيها أية منزلة في الشرف والكرامة والاعتبار ؟!! .

يقول ابن القيم – رحمه اللّه – في تبيان منزلة العلماء والدعاة [4] : « هم في

(1) رواه الترمذي برقم 2685 ، والدر المنثور للسيوطي 5 / 251 .

(2) سورة النساء الآية : 59 . (3) انظر تفسير الطبري ج 6 ص : 149 . (4) إعلام الموقعين ج 1 ص : 9 .

الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يهتدي الحيران في الظلماء ، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب .

وطاعتهم أفرض من طاعة الأمهات والآباء بنصّ الكتاب ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ .. ﴾ »[1] اهـ .

ومعنى هذا – كما قرر ابن القيم – أنهم يحكمون على كل البشر بعد الرسل حتى على الملوك ..

يقول : « أبو الأسود الدؤلي » : « ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك »[2] .

ورحم اللّه من قال :

إن الملوك ليحكمون على الورى   وعلى الملوك ليحكم العلماء

هل أدرك العلماء ، ومَنْ في حكمهم من الدعاة والمرشدين ...؟ هل أدركوا فضلهم ، وعرفوا في الحياة منزلتهم ؟

8 – **الدعاة لا تنقطع أجورهم** : لما روى مسلم وأصحاب السنن عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : « من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا »[3] .

لماذا نالوا هذه المنزلة ؟

لما أحدثوا من التغيير في تربية العقول والنفوس ، ولما أفاضوا في الحياة من ينابيع الهداية في إصلاح الأمم والشعوب ، ولما تركوا في تاريخ الإنسانية من أثر طيب خالد في تقويم الاعوجاج والعيوب . ففضلهم ليس قاصرًا على أشخاصهم في تبليغ مبادئ الدعوة ، وإنما تعدى إلى مَنْ كانوا سببًا في إصلاحهم وهدايتهم . فهؤلاء المهتدون ، وهؤلاء السائرون في طريق الصلاح والتقوى إذا كان لهم ثمة أجر ، ومَيزَة فضل . فالذين سيّروهم في هذا الطريق ، وحوّلوهم إلى هذا المصير ، كان لهم من الأجر

(1) سورة النساء : 59 .

(2) من كتاب « الدعوة إلى الإسلام » للمرحوم أحمد البيانوني ص : 73 .

(3) رواه مسلم 4 / 2063 برقم 2674 ، وأبو داود كتاب السنة ب 6 . والترمذي 2674 وغيرهم .

والفضل مثل أجورهم ، ومثل فضلهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا .

فهنيئًا للدعاة على هذا الثواب والأجر ، وهنيئًا لهم على هذه المكانة والفضل .

فهل أدرك الدعاة أجرهم عند اللّه ، ومنزلتهم في مقامات الصالحين الأبرار ؟

9 - **الدعاة في هديهم خير لهم من الدنيا وما فيها** : لما روى البخاري عن علي - كرّم اللّه وجهه - عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « فواللّه لأن يهدي اللّه بك رجلًا واحدًا خير لك من أن تكون لك حُمُر النعم »[1] ، وفي رواية : « خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت »[2] .

انظروا إلى هذه المكرُمة التي أكرم اللّه بها الداعية ، فلأن يهدي اللّه به رجلًا واحدًا خير له من الدنيا وما فيها ، فكيف إذا كان سببًا في هداية جماعة برمّتها ، أو أمة بأسرها ؟ ، وكيف إذا أحدث تغييرًا جذريًّا في المجتمعات والشعوب ؟ فلا شك أن أجره عند اللّه أكبر ، وأن كرامته عند الناس أعظم .

لِمَ تميّز الهداة والدعاة بهذا الفضل ؟

تميزوا لكونهم ساروا على بركة اللّه ، وباسم اللّه ، مبلّغين داعين صادقين : فلم يُحجموا عن التبليغ لضرّ أصابهم ، ولم يتقاعسوا عن الدعوة لعقبة اعترضتهم ، ولم يقعدوا عن المثابرة والعمل لمحنة ألمت بهم ؛ وإنما مضوا في طريق الدعوة إلى اللّه صابرين عازمين متفائلين ، حتى يروا في نهاية المطاف راية الإسلام قد ارتفعت على كلّ الرايات ، وجيل الإسلام قد وصل إلى أقدس الغايات ، وكيان المسلمين قد امتدّ في أنحاء المعمورة .

ومعنى هذا أنهم قد أحدثوا في الوجود تبديلًا وتغييرًا ، وأقاموا في أرض اللّه الواسعة كيانات للمجد ، ومنارات للنصر ، وبوارق للعزة ..

فهنيئًا للدعاة الهداة كرامتهم وفضلهم ، وهنيئًا لرجال الدعوة والإصلاح جهادهم وأثرهم .. فإنهم الأحبة الكرام ، والمرموقون العظام .

10 - **الدعاة نجوم السماء في الظلماء** : لما روى الإمام أحمد عن أنس - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة »[3] ؟

---

(1) حُمُر النّعم : هي الإبل الحمراء ، وكان العرب يتفاخرون بها لعظمها ونفاستها ..

(2) صحيح البخاري 4 / 246 برقم 3701 .

(3) مسند الإمام أحمد 3 / 157 ، ومجمع الزوائد 1 / 121 ، 202 والترغيب والترهيب 1 / 100 .

ما أعظم تشبيه رسول اللّه ﷺ حين شبه العلماء والدعاة بالنجوم المضيئة في الظلماء !! . وما أدق تعبيره - صلوات اللّه وسلامه عليه - حين جسّد شقاء الأمة وانحرافها بغياب دعاتها ، وفقد علمائها !! .

وما العلماء في الحقيقة إلا منارات هداية وإشعاع للأمم برمّتها ، وما الدعاة في الواقع إلا شموس حياة وعافية للعوالم الإنسانية بأسرها ؛ فإذا غابت الشمس أظلم الكون ، واختلت الحياة ، وإذا طُمست المنارات ضلت السفن وتحيّر الربان !! .

ورحم اللّه الخليفة الراشد عليًا - رضي اللّه عنه - حين قال :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم ولا تبغ به بدلًا الناس موتى وأهل العلم أحياء

فهنيئًا للعلماء الدعاة منزلتهم العالية ، وفضلهم العظيم ؛ لكونهم - كما سبق - نجوم الهدى في سماء الإنسانية ، والمنارات المتلألئة في بحار الظلمات .

* * *

ماذا عليك أخي الداعية ؟

● فإذا كانت دعوة الله - أخي الداعية - تميزت على غيرها من الدعوات على أنها :

خاتمة - وعالمية - وذات خصائص ..

● وإذا كانت تمتاز على أنها : ربانية ، وشاملة ، ومتجددة ، ومتوازنة ، وميسّرة ، وبسيطة ، وخالدة ، إلى أن يرث الأرض ومن عليها .

● وإذا كان يشهد لعظمتها وحيويتها وخلودها : الواقع العالمي والمؤتمرات الدولية والمنصفون المختصون من غير المسلمين في العالم .

● وإذا كان الدعاة إلى اللّه - أخي الشاب - يتميزون على غيرهم من البشر :

بأنهم خير الناس .
وأنهم الشهداء على الأمم .
وأنهم المفلحون الفائزون في الدنيا والآخرة .

وأنهم في المنزلة في أعلى المنازل .

وأنهم ورّاث النبوة .

وأن أهل السماء والأرض يستغفرون لهم .

وأن طاعتهم تأتي بعد طاعة اللّه جل جلاله وطاعة الرسول ﷺ .

وأن أجورهم عند اللّه لا تنقطع ولا تنتهي .

وأن أثرهم في هداية البشر خير لهم من الدنيا وما فيها .

وأنهم في الهدى كنجوم السماء في الظلماء .

فإذا كانت دعوة الإسلام بهذا الفضل والعظمة .

وإذا كان الدعاة إلى اللّه بهاتيك المكارم والمنازل .

فما عليك – أخي الداعية – إلا أن تدعو إلى هذه الدعوة العظيمة الخالدة التي شرّف اللّه بها الأمم تكريمًا وتعظيمًا عسى أن يرتبط هؤلاء المدعوّون على اختلاف أجناسهم وألوانهم :

بالإسلام دينًا ودولة ..

وبالقرآن العظيم نظامًا وتشريعًا ..

وبالتاريخ الإسلامي اعتزازًا واقتداءً ..

وبالحضارة الإسلامية روحًا وفكرًا ..

وبالارتباط الحركي للدعوة الإسلامية اندفاعًا وحماسة .

وبهذا تنال أعلى المنازل ، وتصل إلى قمة الفخار ، وتحظى بأعظم المثوبة .

فياليت شباب الإسلام يعلمون ، ويا ليتهم في طريق الدعوة إلى اللّه يسيرون ، ويا ليتهم تحسّسوا مسؤوليتهم ؛ ليعرفوا كيف يندفعون وينطلقون ؟ ويا ليتهم نفذوا أمر اللّه سبحانه القائل : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

* * *

(1) سورة التوبة الآية : 105 .

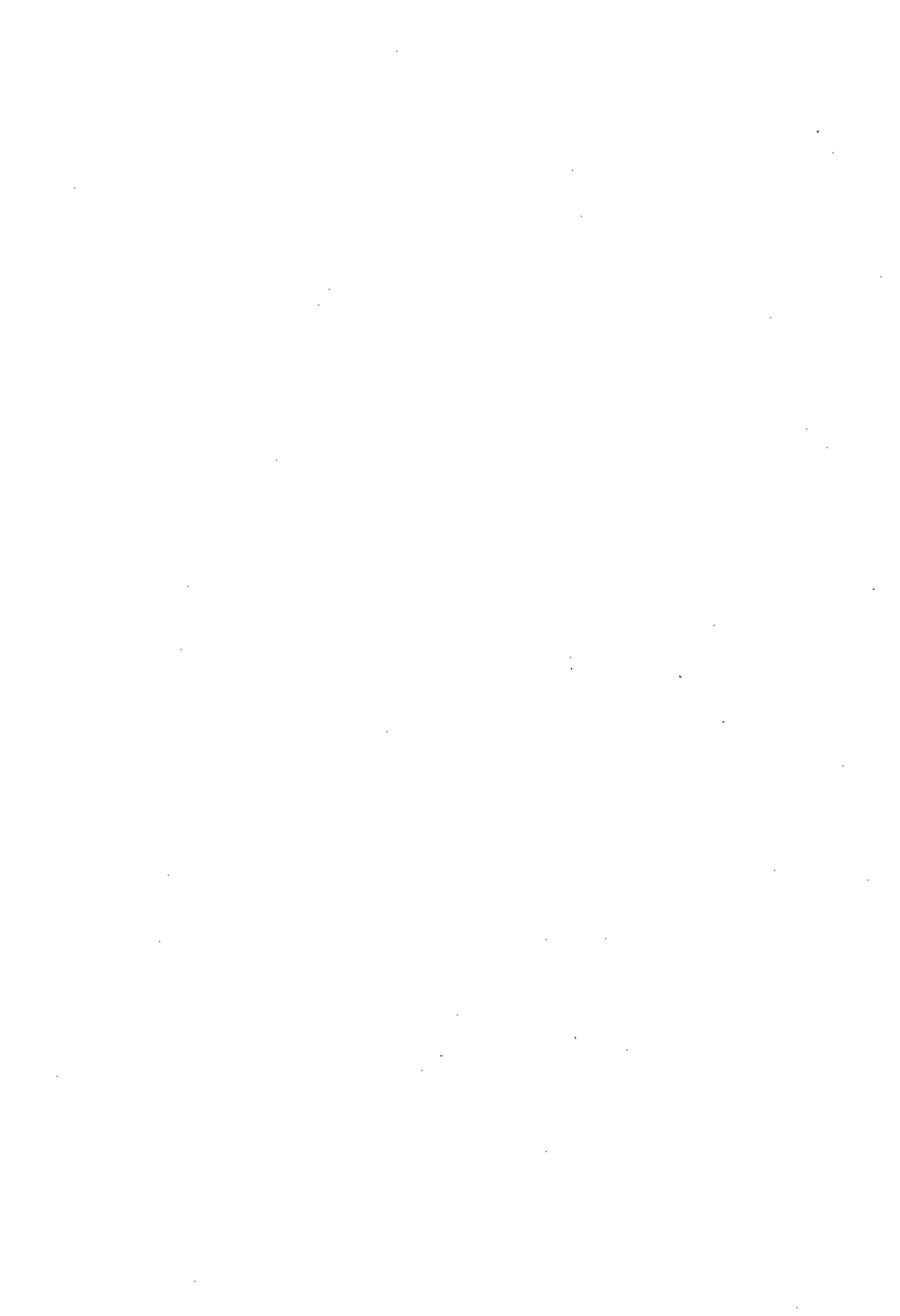


سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(5)

صفات الداعية النفسية

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد للّه رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق ، وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا هو الفصل الخامس من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » ، وهو بعنوان :

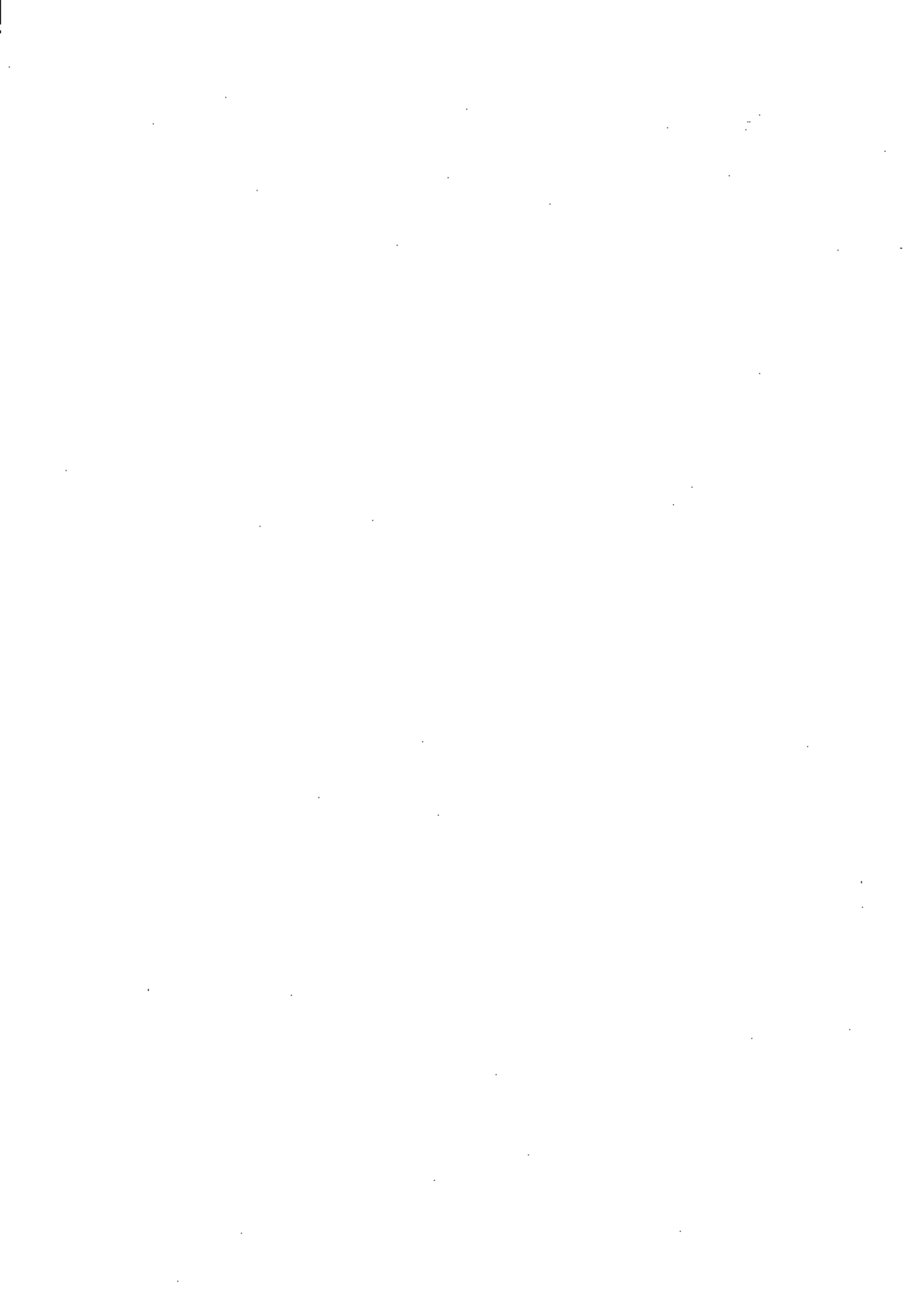
« **صفات الداعية النفسية** » .

أقدمه لكم - إخوتي الدعاة - عسى أن يكون لكم حافزًا في تبليغ دعوة الإسلام ، ودافعًا في حمل الرسالة الربانية إلى الدنيا ..

واللّه مع الذين اتقوا وكانوا محسنين .

المؤلف

عبد اللّه ناصح علوان



الفصل الخامس

صفات الداعية النفسية

بعد أن علمت – أخي الداعية – فضل هذه الدعوة على غيرها من الدعوات ، وبعد أن علمت وجوب تبليغها في حياة البشر وواقع الحياة ، وبعد أن عرفت كرامة الداعية ومنزلته عند اللّه وعند الناس .

فما أراك بعد هذا إلا متطلّعًا إلى معرفة الأصول النفسية في تكوين الدعاة ، وإعداد العلماء ؛ عسى أن تتصف بها ، وتتحلّى بأفضلها ؛ لتكون الداعية الحق الذي ينفع بدعوته الناس ، ويتأثر بإرشاده البشر ، ويقوم بدوره الكبير في الإصلاح والتغيير ، والإنقاذ والهداية .

ولكن ما هي هذه الأصول النفسية التي إن تحلّى بها الدعاة انطلقوا في ميادين الدعوة والجهاد والاستشهاد – غير هيّابين ولا وجلين ولا يائسين ؟!!

أرى هذه الأصول مرتّبة على الأسس التالية :

1 - الإيمان :

من المعلوم يقينًا أن الإيمان باللّه الواحد الأحد حين يتغلغل في النفوس ، ويخالط بشاشته القلوب ، هو أول سلاح يتسلح به المؤمن الداعية في مواجهة صراع الحياة ، وفي مجابهة مغريات الدنيا ، سواء أكان الداعية متقهقرًا أو متقدمًا ، وسواء أكان مهاجمًا أو مدافعًا ، وسواء أكان منتصرًا أو ممتحنًا .

فبدون الإيمان يبطل كل سلاح ، ويبطل كل إعداد ، وتبطل كل ذخيرة .

* **وأعني بالإيمان** أن يعتقد الداعية من قرارة وجدانه أن الآجال بيد اللّه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه اللّه له ، وإن اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه اللّه عليه .

وعلى المؤمن أن يضع نصب عينيه قول الحق سبحانه : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

(1) سورة التوبة الآية : 51 .

وأن يردد صباحَ مساءَ قوله جلّ جلاله : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [1] .

فبهذا الاعتقاد ، وبهذا الشعور ؛ يتحرر المؤمن من الخوف والجبن والجزع ، ويتحلّى بالصبر والشجاعة والإقدام ، ويهتف من أعماق قلبه بما هتف به الإمام عليّ - كرم اللّه وجهه - حين كان يجابه الأعداء :

أيّ يومــيّ مــن الموت أفــرّ   يوم لا يقـدر أم يـوم قُـدر
يــوم لا يــقــدر لا أرهــبــه   ومن المقدور لا ينجو الحَذِر

ويتمثل بما تمثل به قطري بن الفجاءة حين كان يخاطب نفسه في حومة الوغى ويقول :

أقول لها وقد طارت شَعاعًا   من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم   على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبرًا في مجال الموت صبرًا   فما نيل الخلود بمستطاع

● **وأعني بالإيمان أيضًا** : أن يعتقد المؤمن من سويداء قلبه أن الأرزاق بيد اللّه ، وأن ما بسطه اللّه على العبد لم يكن لأحد أن يمنعه ، وأن ما أمسكه عليه لم يكن لأحد أن يعطيه ، وأن ما قدر لماضِغَيْه أن يمضغاه لابدّ أن يمضغاه ، وأن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها . وعلى المؤمن أن يضع نصب عينيه قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [2] .

وأن يردّد صباحَ مساءَ قوله جل جلاله : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [3] .

فبهذا الاعتقاد وبهذا الشعور يتحرّر المؤمن من الحرص الزائد على الدنيا ، والإلحاح بالطلب ، ويتحرر أيضًا من الشحّ النفسي ، والتقتير المزري ، والإمساك الشائن ، ويتحلّى بمعاني الكرم والإيثار والعطاء . بل يرى السعادة في القناعة وعيش الكفاف ، فإذا قنعت النفوس رضيت بالقليل وكفاها اليسير .

ورحم اللّه الإمام الشافعي حين قال :

النفس تجزع أن تكون فقيرة   والفقر خير من غنًى يطغيها

(1) سورة الأعراف الآية : 34 .   (2) سورة الإسراء الآية : 30 .   (3) سورة الملك الآية : 21 .

وغنى النفوس هو الكفاف ، فإن أبَتْه   فجميع ما في الأرض لا يكفيها

● **وأعني بالإيمان** كذلك : أن يعتقد المؤمن من أعماق أحاسيسه ومشاعره أن اللّه سبحانه معه يسمعه ويراه ، ويعلم سرّه ونجواه ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وعلى المؤمن أن يضع نصب عينيه قول الحق سبحانه : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ .. ﴾ (1) .

وأن يردّد صباحَ مساءَ قوله جل جلاله : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (2) .

فبهذا الاعتقاد وبهذا الشعور يتحرّر المؤمن من ربقة الهوى ، ونزغات النفس الأمّارة بالسّوء ، وهمزات الشياطين ، وفتنة المال والنساء ، ويتحلّى بالمراقبة للّه ، والإخلاص له ، والاستعانة به والتسليم لجنابه ؛ ويندفع بكليته إلى العمل بكل أمانة وجدّية وإتقان . بل يكون – إذا مشي في الناس – إنسانًا سويًّا ، وبرًّا تقيًّا ، وريحانة طيبة الشّذى ، وشامة في المجتمع يشار إليه بالبنان .

بل يتمثل بما تمثل به شاعرنا الإسلامي حين قال :

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن اللّه يغفل ساعة   ولا أن ما تخفي عليه يغيب

فعلى هذه المعاني من الإيمان ينبغي أن يتكوّن الداعية ، ويواجه بها صراع الحياة .

* * *

2 - الإخلاص :

الإخلاص في حقيقته قوة إيمانية ، وصراع نفسيّ ، يدفع صاحبه – بعد جذب وشدّ – إلى أن يتجرد من المصالح الشخصية ، وأن يترفّع من الغايات الذاتية ، وأن يقصد من عمله وجه اللّه لا يبغي من ورائه جزاءً ولا شكورًا .

وإذا استمر المخلص على هذه الحالة من المجاهدة والتغلّب على وساوس الشيطان ،

(1) سورة المجادلة الآية : 7 .   (2) سورة الأنعام الآية : 59 .

والنفس الأمّارة بالسّوء؛ يصبح الإخلاص في أعماله كلها خلقًا وعادة، بل تصبح الأعمال التي تصدر عنه خالصة للّه رب العالمين دون أن يجد في ذلك أي تكلُّف أو مجاهدة !! .

وهذا المعنى للإخلاص هو المقصود من قوله جلّ جلاله في هذه الآيات :

- ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ .. ﴾ [1] .

- ﴿ .. فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [2] .

- ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾ [3] .

وهو المقصود أيضًا من قوله - عليه الصلاة والسلام - في هذه الأحاديث :

- روى الشيخان عن عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » [4] .

وروى أبو داود والنسائي بإسناد جيد عن أبي أمامة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إن اللّه عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه » [5] .

- روى الحاكم وقال : صحيح الإسناد عن معاذ بن جبل أنه قال حين بُعث إلى اليمن : يا رسول اللّه أوصني ، قال له عليه الصلاة والسلام : « أخلص دينك يكفك العمل القليل » [6] .

ولكن ما حقيقة العمل الخالص ؟

أي عمل يقوم به المسلم في الحياة لا يكون مقبولًا عند اللّه عز وجل ، ولا يكتب في سجل الحسنات إلا أن يتصف بشيئين :

الأول : أن يكون موافقًا للشريعة .

الثاني : أن يكون خالصًا للّه .

---

(1) سورة البينة الآية : 5 . (2) سورة الكهف الآية : 110 . (3) سورة الإنسان الآية : 8 - 9 .
(4) رواه البخاري 1 / 3 برقم 1 ، ومسلم كتاب الإمارة 155 وغيرهما .
(5) النسائي 5 / 25 ، والإمام أحمد 4 / 126 .
(6) رواه الحاكم 4 / 306 وانظر الترغيب والترهيب 1 / 54 .

فإذا كان العمل موافقًا للشريعة ولم يكن خالصًا للّه لم يقبل ، وإذا كان خالصًا للّه ولم يكن موافقًا للشريعة لم يُقبل ؛ فلا يُقبل العمل إلا إذا كان على وفق الشريعة وكان خالصًا للّه !! .

وهذا المعنى لقبول العمل عند اللّه هو ما بينه علماء السلف ، وقرروه لتلامذتهم ، ولقّنوه جيل الإسلام ؛ لينشأ الجيل على الاتباع الكامل ، والإخلاص الصادق ، ويتصف أيضًا بالعمل الصالح ، والسمعة الطيبة .

إليك - أخي الداعية - هذا الحوار الذي جرى مع أحد السلف :

سئل الفضيل بن عياض عن أحسن العمل في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ؟[1] .

قال : أحسن العمل أخلصه وأصوبه !! .

قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا ؛ لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا ؛ لم يقبل ؛ لم يقبل العمل حتى يكون خالصًا صوابًا !!

وقال : والخالص ما كان للّه ، والصواب ما كان على الشريعة [2] ؛ ثم قرأ قوله تعالى في آخر سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ .

والداعية إلى اللّه هو أولى من غيره في التحقق بالعمل الصالح المقبول عند اللّه عز وجل .

فما عليك - أخي الداعية - إلّا أن تنظر في أعمالك التي تصدر منك :

هل هي موافقة لشريعة اللّه ، وداخلة في تعاليم المنهج الذي رسمه اللّه ؟

وهل هي خالصة لوجه اللّه الكريم لا تبغي من ورائها جزاءً ولا شكورًا ؟ فإذا كانت كذلك فاسأل اللّه سبحانه الثبات ، وتطلع دائمًا إلى المزيد ، والتدرج نحو الكمال ؛ وإذا كانت غير ذلك فتب إلى اللّه عز وجل ، وصحح النية ، وأخلص للّه ، واجتهد بكليتك على أن يكون العمل على وفق شريعة اللّه ، وعلى أساس المنهج الذي رسمه اللّه لعباده .

---

(1) سورة الملك الآية : 2 .

(2) القصة من كتاب « محاضرة تكوين الشخصية الإنسانية » ص : 35 للمؤلف .

ما هي مواصفات المخلصين الدعاة ؟

سبق أن ذكرنا قبل قليل أن أي عمل لا يتصف بالصلاح والقبول حتى يكون على الشريعة ، ويكون خالصًا للّه .

فبناءً على هذا المعنى لقبول العمل ، واتصافه بالصلاح ، يجب على الدعاة أن يدركوا الحقائق التالية :

أولًا – أن يقصدوا من دعوتهم وجه اللّه .

ثانيًا – أن تكون جميع تصرفاتهم وأعمالهم وسلوكهم الاجتماعي على وفق شريعة اللّه .

ثالثًا – أن يحاسبوا أنفسهم بشكل دائم ، وأن يتساءلوا ماذا يريدون من تبليغ الدعوة ؟ وماذا يقصدون من دعوة الناس ؟

رابعًا – أن ينظروا إلى أفعالهم هل هي مطابقة لأقوالهم ولسان حالهم ؟

خامسًا – أن يحذروا مكائد الشيطان ، ووساوس النفس والهوى ، وفتنة العجب ومزالق الرياء .

فبتقديري أن الدعاة إلى اللّه إذا أدركوا هذه الحقائق ، واتصفوا بهذه المواصفات ؛ ساروا صادقين في درب الإخلاص ، ومضوا مخلصين في طريق الدعوة ، وحقق اللّه سبحانه على أيديهم إصلاح البشر ، وهداية الشعوب ، بل الناس يتأثرون بهم ، ويستجيبون لدعوتهم ، ويقبلون هُدَى اللّه عز وجل طائعين مختارين .

ولتَعلم – أخي الداعية – أثر الإخلاص في الدعوة ، وأثر المخلصين المخبتين في الناس .

أسوق لك هذه القصة التي تستشف من وراء كلماتها ومعانيها ماذا يفعل الإخلاص ؟ وماذا تفعل الأهواء ؟

« كان عابد من العبّاد في الأمم السابقة يعبد اللّه دهرًا طويلًا ، فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قومًا يعبدون شجرة من دون اللّه تعالى .

فغضب لذلك ، وأخذ فأسه على عاتقه ، وقصد الشجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال :

أين تريد .. رحمك اللّه ؟

قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة .

قال : وما أنت وذاك ؛ تركت عبادتك ، واشتغالك بنفسك ، وتفرغت لغير ذلك ؟!!

قال : إن هذا من عبادتي .

قال : فإني لا أتركك أن تقطعها .

فقاتله ، وما هي إلا لحظات ، حتى طرحه العابد على الأرض ، وقعد على صدره .

فقال له إبليس : أطلقني حتى أكلمك . فقام عنه .

فقال إبليس : يا هذا ، إن اللّه تعالى قد أسقط عنك هذا ، ولم يفرضه عليك ، وأنت لا تعبدها ، وما عليك من غيرك ؟ وللّه تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها ، وأمرهم بقطعها !! ..

فقال العابد : لابد لي من قطعها .

ونابذه القتال ، وتصارعا ، فغلبه العابد ثانية ، وصرعه ، وقعد على صدره ، فلما رأى إبليس عجزه وضعفه سلك طريق الاحتيال ، وعلم أن هذا العابد مادام مخلصًا للّه ، فلن تكون قوة في الأرض تغلبه أو تُثنيه عن عمله . وبالفعل فقد لجأ إلى أن يغيّر العابد نيته ، وأن يريد شيئًا غير اللّه وثوابه .

فقال له : هل لك في أمر فصلٍ بيني وبينك ، وهو خير لك وأنفع ؟

قال العابد : وما هو ؟

قال إبليس : أطلقني حتى أقول لك ، فأطلقه .

فقال إبليس : أنت رجل فقير لا شيء لك .. إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك ، ولعلك تحبّ أن تتفضل على إخوانك ، وتواسي جيرانك ، وتشبع ، وتستغني عن الناس ؟

قال العابد : نعم !!

قال : فارجع عن هذا الأمر ، ولك عليّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين ، إذا أصبحت أخذتهما ، فأنفقت على نفسك وعيالك ، وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ، ولا يضير عُبّادها قطعها شيئًا ، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها !! .

فتفكر العابد فيما قال .. ثم قال : صدق الشيخ ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ، ولا أمرني الله أن أقطعها ، فأكون عاصيًا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة ؛ ثم وضع يده في يد الشيخ وتعاهدا . وقد عاهده إبليس على الوفاء بذلك ، وحلف له .

ورجع العابد إلى صومعته ، فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه ، فأخذهما ، وكذلك في الغد . ثم أصبح في اليوم الثالث وما بعده ، فلم ير شيئًا !!

فغضب ، وأخذ فأسه على عاتقه ، ومضى إلى الشجرة يريد قطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ ، فقال له :

إلى أين تريد ؟

قال : أقطع تلك الشجرة .

فقال : كذبت ! والله ما أنت بقادر على ذلك ، ولا سبيل لك إليها .

فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة ، فقال : هيهات ، هيهات !! .

وما هي إلا لحظة حتى أخذه إبليس ، وصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجليه ، وقعد إبليس على صدره ، وقال : لتنتهينّ عن هذا الأمر أو لأذبحنّك .

فنظر العابد ، فإذا لا طاقة له به . قال :

يا هذا غلبتني فخلّ عني . وأخبرني كيف غلبتُكَ أولًا ، وغلبتني الآن ؟

فقال إبليس : لأنك غضبت أول مرة لله ، وكانت نيتك الدار الآخرة فغلبتني بقوة الله ، وهذه المرة غضبت لنفسك وللدينار فصرعتُك » [1] .

فبالإخلاص إذن يكون التأثير ، ويكون الاحترام ، وتكون الثقة .

ألا فليتحلّ الداعية بالإخلاص ، وليتجنّب مواطن الانزلاق والزلل .

وليحذر مكائد الشيطان ، ودبيب الرياء ، وحبائل الهوى ، ووساوس النفس الأمارة بالسّوء . إن أراد لهذه الدعوة الانتشار ، ولهذا الإسلام العزة والفخار ، ولهذه الأمة الإسلامية الكيان والسيادة وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

---

(1) من كتاب « من صفات الداعية » للأستاذ محمد الصباغ ص 45 ، نقلًا عن الإحياء .

3 - **الجرأة** :

الجرأة في الحق قوة نفسية رائعة يستمدها المؤمن الداعية من الإيمان بالله الواحد الأحد الذي يعتقده ، ومن الحق الذي يعتنقه ، ومن الخلود السرمدي الذي يوقن به ، ومن القدر الذي يستسلم إليه ، ومن المسؤولية التي يستشعر بها ، ومن التربية الإسلامية التي نُشِّئ عليها .

وعلى قدر نصيب المؤمن من الإيمان بالله الذي لا يُغْلَب ، وبالحق الذي لا يُخْذَل ، وبالقَدَر الذي لا يتحوّل ، وبالمسؤولية التي لا تكلّ ، وبالتربية التكوينيّة التي لا تملّ ؛ بقدر هذا كله يكون نصيبه من قوة الجرأة والشجاعة ، وإعلان كلمة الحق التي لا تخشى في الله لومة لائم ..

ومن هنا كانت فضيلة الجرأة بالحق من أعظم الجهاد ، لما روى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » [1] .

ومن هنا كان الذي يستشهد في سبيل كلمة الحق سيد الشهداء ، لما روى الحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » [2] .

ومن هنا كان ﷺ يأخذ العهد من أصحابه على أن يقولوا بالحق أينما كانوا ، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – أنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أَثَرَة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » [3] .

ومن هنا كان امتداح الله سبحانه للذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحدًا سواه ، قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ .

وتاريخ الدعوة والدعاة مليء بسيرة رجال يقولون كلمة الحق ، ولا يخافون في الله لومة لائم ..

وها نحن أولاء نسوق نماذج حيّة من مواقفهم الرائدة ، وبطولاتهم النفسية الخالدة

---

(1) رواه أبو داود 4 / 124 . والترمذي 4 / 471 برقم 2174 . وابن ماجه 1329 برقم 4011 .

(2) الحاكم 2 / 120 . وأبو داود برقم 195 . وانظر الترغيب والترهيب 3 / 225 .

(3) سبق تخريجه . انظر ص 97 .

عسى أن يتأسّى بهم دعاتنا اليوم ، ويأخذوا بأحسنها :

أ - من مواقف « **العز بن عبد السلام** » : أنه قال مرّة لسلطان مصر « نجم الدين أيوب » وكان في مجلس حافل برجال الدولة : يا أيوب !! .. ما حجتك عند اللّه إذا قال لك غدًا : ألم أبوّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟

فقال : هل جرى هذا ؟

فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور ، وتستباح فيها المنكرات ، وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة !! .

فقال : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي !! .

فقال العز بن عبد السلام : أنت من الذين يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ؟ [1] .

فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة وإغلاقها [2] .

ب - كان « سلمة بن دينار » المكنى بأبي حازم يدخل على معاوية ، فيقول : السلام عليك أيها الأجير ، فإذا حاولوا أن يقولوا لأبي حازم قل : السلام عليك أيها الأمير ، أبى عليهم ذلك ، ثم التفت إلى معاوية فقال له : « إنما أنت أجير هذه الأمة استأجرك ربك لرعايتها !! » [3] .

ج - لما أنشأ « عبد الرحمن الناصر » مدينة الزهراء في الأندلس أبدع في بنائها أيّما إبداع ، وأنفق عليها من الأموال ما لا يكاد يعدّ ولا يحصى ، وبلغ من إنفاقه وتفنّنه في تزيينها أن أقام « الصرح الممرّد » واتخذ لقبته قراميد من ذهب وفضة ، فما إن سمع بذلك الفقيه القاضي « **منذر بن سعيد** » ، حتى ارتاع لعمل الناصر ، وغضب لتبديده أموال الشعب ، فوقف في المسجد يخطب الناس بحضور الناصر ، ويتوجه إليه باللوم والتأنيب ، وهو يقول : « ما كنت أظن أن الشيطان - أخزاه اللّه - يبلغ بك هذا المبلغ ، ولا أن تمكّنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك اللّه وفضلك به على العالمين ، حتى أنزلك منازل الكافرين .. » !! .

فاقشعرّ عبد الرحمن الناصر من قوله ، فقاطعه وقال له : انظر ما تقول ؟ كيف أنزلني اللّه منازلهم ؟

---

(1) الزخرف : 23 .
(2 - 3) من كتاب « تربية الأولاد في الإسلام » للمؤلف ص : 378 .

قال : نعم ، أليس اللّه تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ [1] .

فوجم الخليفة ونكّس رأسه مليًا ، ودموعه تجري على لحيته خشوعًا للّه تبارك وتعالى ثم أقبل على القاضي وقال له : « جزاك اللّه تعالى – يا قاضي – خيرًا وعن المسلمين والدين ، وأكثر في الناس من أمثالك ، فالذي قلته – واللّه – هو الحق » ؛ وقام من مجلسه وهو يستغفر اللّه ، وأمر بنقض القبة وأعاد قراميدها ترابًا !! [2] ..

د – وروى زياد عن مالك بن أنس قال : بعث « أبو جعفر المنصور » إلى « والي ابن طاووس » أحد أفاضل العلماء في عصره ، فدخلنا عليه وبين يديه أنطاع قد بسطت (جلود توضع تحت المحكوم عليهم بالقتل) ، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن اجلسا ، فجلسنا ، فأطرق عنا قليلًا ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس ، فقال له : حدثني عن أبيك .

قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة ، رجل أشركه اللّه في حكمه ، فأدخل عليه الجور في عدله » .

قال مالك : فضممت ثيابي مخافة أن يملأني دمه ؛ فأمسك ساعة ، ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عظني يا ابن طاووس ، قال : نعم يا أمير المؤمنين !! . يقول اللّه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [3] .

قال مالك : فضممتُ ثيابي مخافة أن يملأ ثيابي من دمه !! .

فأمسك ساعة ، ثم قال : يا ابن طاووس ، ناولني هذه الدواة .. فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟

قال ابن طاووس : أخشى أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها !! .

فلما سمع ذلك قال أبو جعفر : قوما عني !!

---

(1) الزخرف : 33 - 34 . (2) من كتاب « إلى ورثة الأنبياء » للمؤلف ص : 44 - 45 . (3) الفجر : 6 - 14 .

قال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم !! .

قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاووس فضله .. [1] .

هـ - وذكر الغزالي في إحيائه : عن الأصمعي قال : « دخل « **عطاء بن أبي رباح** » على عبد الملك بن مروان ، وهو جالس على سريره ، وحوله الأشراف من كل بطن وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ، فلما بصر به قام إليه ، وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يده وقال له : يا أبا محمد ما حاجتك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق اللّه في حرم اللّه ، وحَرَم رسوله ؛ فتعاهده بالعمارة ، واتق اللّه في أولاد المهاجرين والأنصار ؛ فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق اللّه في أهل الثغور ؛ فإنهم حصن المسلمين ، وتفقّد أمور المسلمين ؛ فإنك وحدك المسؤول عنهم ، واتق اللّه فيمن على بابك ؛ فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق بابك دونهم !! .

فقال عبد الملك بن مروان : أجل ؛ أفعل .. ثم نهض وقام ، فقبض عليه عبد الملك !! .

فقال : يا أبا محمد ، إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟

فقال : مالي إلى مخلوق حاجة !! . ثم خرج .

فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف !! .. » [2] .

فما على الدعاة ! إلا أن يتأسوا بالسلف الصالح شجاعة وجرأة .. عسى أن يوجهوا الرأي العام إلى ما فيه جلب للمصالح ، ودرء للمفاسد .. وأن يتفاعلوا مع المجتمع في إعلان كلمة الحق دون أن تأخذهم في اللّه لومة لائم .. عسى أن يقوموا بالدور الكبير في البناء والإصلاح والتغيير .. واللّه سبحانه يُثيبُهم في الدنيا خيرًا ، ويدّخر لهم يوم القيامة أجرًا ، ويحقق على أيديهم العزة للإسلام والمجد للمسلمين ، والوحدة الكبرى التي تضم العالم الإسلامي كله تحت راية الخلافة الراشدة ، ولواء الحاكمية للّه الواحد الأحد . وما ذلك على اللّه بعزيز .

وعلى الداعية في هذا المجال أن يميز بين الجرأة والغلظة ، فالجرأة شيء والغلظة شيء آخر .. **فالجرأة** أن يقول كلمة الحق ولا يحسب لهذه الكلمة أي حساب ولو

---

(1) من كتاب « إلى ورثة الأنبياء » للمؤلف ص : 48 .

(2) من كتاب « أخلاق العلماء » للشيخ محمد سليمان ص : 99 .

أدت إلى المحنة والابتلاء ، ولا يمنع أن يكون الداعية في موقفه هذا رفيقًا حكيمًا مع من ينصحه ، ويقوّم اعوجاجه ، ويقول أمامه كلمة الحق ..

بل الأصل في دعوة من يدعو ، ونصيحة من ينصح الرفق واللين والحكمة والموعظة الحسنة .. تحقيقًا لقوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [1] .

أما الغلظة فهي أن يبدأ من يريد إصلاحه ، وتقويم اعوجاجه ، ودعوته إلى الخير .. أن يبدأه بالجفاء والفظاظة والشدّة .. وهذه المبادرة تورث لدى المدعو أو المنصوح له ردود فعل قد تؤدي به وبمن يدعوه إلى أسوأ العواقب ، ولا سيما إذا كان المنصوح له ذا مركز مرموق ، وسلطة قويّة .

ويحضرني في هذه المناسبة هذه القصة : دخل واعظ إلى أبي جعفر المنصور ، وأغلظ عليه في الكلام ، فقال أبو جعفر للواعظ : يا هذا ارفق بي ، أرسل اللّه سبحانه مَنْ هو خير منك إلى مَنْ هو شرّ مني ، أرسل اللّه موسى عليه السلام إلى فرعون ، فقال له : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [2] .

فخجل الرجل ممّا بدر منه ، وعرف أنه لم يكن أفضل من موسى عليه السلام ، وأن أبا جعفر لم يكن شرًّا من فرعون . نعم قد يكون في بعض مواقف الدعاة ما يلمح منها الشدّة والجفاء كما يتبينّ من بعض الأمثلة التاريخية التي استشهدنا بها في هذا المقام ولكن هذه الشدة أحيانًا قد تكون لها مبرّراتها وأسبابها كما رأينا من موقف القاضي « منذر بن سعيد » والعالم « والي بن طاووس » .. **فالأول** : أنكر على من أنفق أموال الأمة وبدّدها في غير ما وضعت له ، **والثاني** : ذكر باللّه مَنْ بين يديه جلادون يضربون الأعناق .. فالموقف إذن يستدعي أخذ الأمور بالحزم ، وتوضيح المسائل بالصراحة عسى أن يكفّ الظالم عن ظلمه ، والمستهتر بمصالح الأمة وأموالها عن استهتاره .. وهذا ما جعل الخليفة « **عبد الرحمن الناصر** » أن يردّ لَبِنَات الذهب والفضة إلى بيت المال ، لصراحة القاضي « **منذر بن سعيد** » وما جعل الخليفة « **أبا جعفر المنصور** » أن يتذكّر أو يخشى لتذكير العالم « **والي بن طاووس** » له بنهاية الطغاة ومصيرهم ..

(1) سورة النحل الآية : 125 .
(2) سورة طه الآية : 44 .

والذي اخلص إليه بعد ما تقدم :

أن الجرأة في الحق خُلُق محمود في الداعية ، وأن الأصل فيها الرفق واللين ، ولاسيما لمن يُبدأ معهم في النصيحة والهداية والإصلاح .. اللهم إلا إذا دعت الضرورة أن يكون الداعية أكثر صراحة ، وأظهر حَزْمًا ، وأقوى اندفاعًا ، وأدعى تبيانًا ... فلا بأس في صراحته وحزمه ، ولا مانع من اندفاعه وتبيانه ... بشرط ألا يخرج عن الطور ، وألا يتعدّى حدود الحكمة ، وألا يسبب حدوث فتنة .. كما تبين من المواقف التي وقف فيها الدعاة والعلماء والمصلحون !! ..

* * *

4 - **الصبر :**

الصبر قوة نفسية إيجابية فعالة .. تدفع المتحلّي به إلى مقاومة كل أسباب الخَوَر ، والضعف ، والاستكانة ، والاستسلام .. وتحمله على الصمود والثبات أمام الفتن والمغريات ، وأمام المحن والمكاره والأحداث .. إلى أن يأذن اللّه له بالنصر ، أو أن يلقى اللّه عز وجل وهو عنه راض ..

وعلى الداعية حين يبلّغ دعوة اللّه أن يضع في حسبانه هذه الابتلاءات :

● أن يضع بحسبانه الاتهامات الكاذبة ، والأقاويل الباطلة للحطّ من شأنه ، والتقليل من اعتباره ..

● أن يضع بحسبانه السجن والاعتقال والتعذيب .. وكل اعتداء يمسه ماديًا ، ويصيبه جسميًا ..

● أن يضع بحسبانه إخراجه من وظائفه ، ومصادرة أملاكه ، واقتطاع كسبه ورزقه ..

● أن يضع بحسبانه تهجيره من بلده ، ومفارقته لأهله وأولاده ، وابتعاده عن أصدقائه وأحبابه ..

● أن يضع بحسبانه إغراءَه بالمنصب والوظيفة ، وفتنته بالمال والجاه ، وإغواءَه بالجنس والنساء ، وقد يلبس هذا الإغواء ثوب الزواج في كثير من الأحيان ..

● وأخيرًا أن يضع بحسبانه الاستشهاد والشهادة في سبيل الإسلام والدعوة إلى

الله .. فحين يضع الداعية نصب عينيه كل هذه الاحتمالات من ضروب الأذى والاضطهاد والشدة .. فلا يجد في سبيل ما يلقاه من محنة وابتلاء أي حرج أو غضاضة أو يأس أو انهزامية .. ؛ لأن من طبيعة الدعاة الصادقين ، والعلماء المخلصين .. أن يتعرضوا لأنواع الأذى ، وضروب الاضطهاد .. وحسبهم في ذلك قدوة قائد دعوتهم ، ورائد رسالتهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام أعطى الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان القدوة العملية في الصبر والاحتمال ، والأسوة الحسنة في الصمود والثبات ..

فإن المشركين في مكة سلكوا مع النبي ﷺ مسالك شتى في الأذى ، وأساليب متنوعة في الاضطهاد .. ؛ ليصدّوه عن دعوته ، ويثنوه عن أداء رسالته فما استكان وما خضع ..

سلكوا معه طريق الإغراء بالمال والرياسة والجاه .. فما استكان وما خضع .

سلكوا معه طريق الضغط العائلي ، والتأثير الطائفي .. فما استكان وما خضع .

سلكوا معه طريق الاستهزاء والسخرية والاتهام .. فما استكان وما خضع .

سلكوا معه طريق المقاطعة الاقتصادية الشاملة له ولمن آزره .. فما استكان وما خضع .

وقرروا أخيرًا اغتياله وملاحقته .. فما استكان وما خضع .

وبعد أن أذن الله له بالهجرة حاربوه بحملات متعددة ، وحروب طاحنة .. ؛ ليستأصلوا دعوته وأتباعه فما كان ذلك يردّه عن تبليغ الدعوة ، ونشرها في الأرض ، وظهورها على الدين كلّه .. وظل عليه الصلاة والسلام صابرًا داعيًا مجاهدًا محتسبًا .. ماضيًا في طريق إعزاز دين الله حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا ..

وتحقق ذلك بفضل صبره وثباته صلوات الله وسلامه عليه ، وفضل تضحيته وجهاده ﷺ ، ألا فليتخذ الدعاة من مواقف صاحب الدعوة ﷺ قدوة وأسوة إن أرادوا أن يبنوا لأمتهم مجدًا ، ولبلاد الإسلام عزًّا ، وللمسلمين وحدة وقوة ومكانة ؟!! .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [1] .

وعلى الدعاة أن يعلموا أن من سنة الله في الأنبياء والمصلحين والدعاة والعلماء ..

(1) سورة الأحزاب الآية : 21 .

أن يتعرضوا في تبليغهم للدعوة ، وهداية الناس إلى الخير لأنواع من الابتلاء والاضطهاد ، ولأصناف من الإحن والشدائد .. ؛ لكونهم يغيّرون واقعًا مريرًا ، ويواجهون فئات من الطواغيت المستبدين الظالمين ، ويتعرضون لأقوام خبثت سرائرهم وأعمالهم .. لا يرعوْنَ في مؤمن إلًّا ولا ذمة .. ؛ فمن الطبيعي – وهذا شأنهم – أن يواجهوا الصراع والمقاومة والابتلاء .. في أمة الانتكاس والجهالة والضلال .. ومن الطبيعي أيضًا أن تعرف حقيقتهم – بعد المحنة – إن كانوا صادقين في تبليغ الدعوة أو كانوا خوّارين منهزمين ..

وهذا ما بينه القرآن الكريم أوْفى بيان :

قال اللّه تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ .

وقال عز من قائل في سورة البقرة : ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ۝ ﴾ .

وقال القرآن على لسان لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [1] .

وهذا أيضًا ما بينه الرسول ﷺ في مواطن عدة .

روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن سعد بن أبي وقاص – رضي اللّه عنه – قال : قلنا : يا رسول اللّه ! أيّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقّة ابتلاه اللّه على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » [2] .

وروى مسلم في صحيحه عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « حفّت الجنة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات » [3] .

وروى البخاري في صحيحه : أنه لما اشتد إيذاء قريش على ضعفاء المؤمنين جاءوا إلى

---

(1) لقمان : 17 .

(2) رواه الترمذي 4 / 601 برقم 2398 . وابن ماجه 2 / 1334 برقم 4023 وابن حبان 4 / 245 و 253 برقم 2890 و 2909 . والحاكم 1 / 41 .

(3) مسلم 4 / 2174 برقم 2822 .

النبي ﷺ وهو متوسّد بردةً في ظلّ الكعبة يقولون : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال لهم النبي ﷺ : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فَيُحْفَرُ له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه .. فما يصده ذلك عن دينه ، واللّه ليتمنّ اللّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللّهَ والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون !! . » [1] .

* * *

ولما علم الرعيل الأول من صحابة رسول اللّه ﷺ ومن تبعهم بإحسان هذه التوصيات القرآنية ، والتوجهيات النبوية في إعداد المؤمن ، والصبر على المحنة والابتلاء .. أعدوا للثبات والصبر والتضحية .. نفوسًا مؤمنة لا تجزع أمام أحداث الليالي ، وقلوبًا صامدة لا ترتعد من نوازل الأيام ..

لذا رأيناهم بعد أن فهموا رسالة المسلم ، ومسؤولية الداعية ، ومهمة المجاهد .. انطلقوا في ميادين الدعوة إلى اللّه غير عابئين بما يعترضهم من عقبات ، وغير مكترثين بما يلقونه من مصائب وأهوال !!.

وحسبنا الآن أن نذكر **بعض الأمثلة التاريخية** [2] ، ليعرف الداعية جليًا ما كان يلقاه آباؤنا البواسل الأمجاد من صحابة رسول اللّه ﷺ من أذى واضطهاد في سبيل الرسالة الإسلامية ، والدعوة الربانية .. عسى جيل الإسلام اليوم **وعلى الأخص الشباب** أن ينهجوا في الصبر نهجهم ، وأن يسلكوا في التضحية والثبات دربهم .. لتحيا لهم في الكون دعوتهم ، وتعود لهم في الدنيا عزتهم وكرامتهم .. وتقوم على سواعدهم الفتية دولة القرآن ، ووحدة الإسلام ، وأمجاد التاريخ ..

– **فهذا بلال** – رضي اللّه عنه – المؤمن الصابر لقي في سبيل الدعوة ألوانًا من العذاب ، وأصنافًا من البلاء .. فكلما اشتدت عليه وطأة الألم ، ونزلت به المحن السود ، ووضعت على بطنه الحجارة الثقيلة في وهج الظهيرة المحرق .. ليترك دينه ، ازداد إيمانًا وتثبيتًا ، وهتف من الأعماق **أحد أحد** ، **فرد صمد** !! .

– **وهذا عمار ، وأمه سمية ، وأبوه ياسر** – رضي اللّه عنهم جميعًا – : قد تحملوا في سبيل إسلامهم مالم يتحمله إنسان ، وما أن علم بنو مخزوم بإسلامهم حتى انقضّوا عليهم يذيقونهم

(1) رواه البخاري 8 / 71 برقم 6943 .
(2) هذه الأمثلة من كتابنا « إلى ورثة الأنبياء » .

أشدّ العذاب ، ليفتنوهم عن دينهم ، ويُرجعوهم كفارًا بعد أن هداهم اللّه إلى الإسلام .

وفي بطحاء مكة حيث ترسل الشمس شواظًا من لهب قضى آل ياسر أيامًا في عذاب مقيم .. ومر عليهم رسول اللّه ﷺ وهم يعذبون ، وسمع ياسرًا يئن في قيوده وهو يقول : الدهر هكذا ! ، فنظر الرسول – صلوات اللّه وسلامه عليه – إلى السماء ونادى : « أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » [1] .

وسمع آل ياسر النداء ، فهدأت نفوسهم ، وسكنت قلوبهم ، فلما أتاهم أبو جهل لعنه اللّه ، كان استهزاؤهم بالموت ، وعُلوهم على الحياة أعظم ما رأى الناس ، لقد استشهدت سمية – رضي اللّه عنها – وكانت أول شهيدة في الإسلام ، ثم تبعها ياسر ، وكان أول من استُشهد من الرجال ، وبقي عمار يغالب العذاب ، ويصابر الألم حتى بلغ به الجهد كل مبلغ .. واضطر أن يتلفظ ظاهرًا بكلمة الكفر حتى يكفّوا عنه ويطلقُوه .. ولكن قلبه الطاهر بقي عامرًا باليقين والإيمان ، ونزل في حقه قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [2] .

– **وهذا مصعب بن عمير** – رضي اللّه عنه – : نشأ في الترف ، وربي في الرفاهية والنعمة .. اسمعوا إلى قصة إسلامه وابتلائه كما يرويها ابن سعد في طبقاته : « كان مصعب بن عمير فتى مكة شبابًا وجمالًا .. وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقّه ، وكان أعطر أهل مكة ، يلبس الحضرميّ من النعال ، فكان رسول اللّه ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فدخل عليه وأسلم وصدق به ، وخرج فكتم إسلامه ؛ خوفًا من أمه وقومه ، ولما كشفوا أمره ، أخذوه فحبسوه ، فلم يزل محبوسًا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين حين رجعوا .. » .

يقول خباب بن الأرتّ : « هاجرنا مع رسول اللّه ﷺ نبتغي وجه الله ، فوجب أمرنا على اللّه ، فمنّا من مضى ولم يأكل من أجره شيئًا ، منهم : مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد ، فلم يوجد له شيء يكفّن فيه إلا بردة ، قال : فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه ، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسه ، فقال لنا رسول اللّه ﷺ : اجعلوها مما يلي رأسه ، واجعلوا على رجليه من الإِذْخِر [3] » .

(1) انظر مجمع الزوائد 9 / 293 . (2) النحل : 106 .

(3) انظر السنن الكبرى للبيهقي 3 / 401 والإذخر : نبات طيب الرائحة .

ولقد وقف رسول اللّه ﷺ على هذا الفتى ، وهو مقتول مسجى في بردة ، فقال له والدموع تزدحم في عينيه : « لقد رأيتك بمكة ، وما بها أحد أرقّ حلّة ، ولا أحسن لمّة منك ، ثم أنت شعث الرأس في بردة ، وقرأ عليه هذه الآية : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ »[1] .

ولاشك أن هذه الظاهرة من الإيمان والثبات والصبر والمصابرة قد تعلموها وأخذوها من سيد الدعاة ، وإمام المجاهدين – صلوات اللّه وسلامه عليه – فقد أعطاهم القدوة العملية في صبره وثباته ، والأسوة الحسنة في تضحيته وجهاده .. وسبق أن ألمحنا عن مواقفه الخالدة ﷺ قبل الهجرة وبعدها ..

ولقد سار على الدرب التابعون ومن تبعهم بإحسان إلى عصرنا هذا كأمثال الإمام أحمد بن حنبل ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، ومنذر بن سعيد ، وسعيد بن المسيب ، ووالي بن طاووس ، والإمام حسن البنا ، والشهيد سيد قطب ، والشيخ مروان حديد ، والشيخ عبد العزيز البدري ، والشيخ موفق سيرجية ومئات غيرهم .. بل ألوف .. فقد ضربوا أروع الأمثال في صبرهم وثباتهم ، وجرأتهم وصمودهم .. رحمهم اللّه ، وأعلى منزلتهم .. وسلامًا عليهم في الخالدين .

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن الذين يتصدون للدعوة ، ويسيرون في طريق الإصلاح والتغيير والهداية .. لابد أن يتعرضوا للمحنة ، ولابد أن يواجهوا بأساء الحياة وضراءها .. ويخطئ من يظن أن طريق الدعوة دائمًا محفوف بالورود والرياحين ، ومفروش بالزينات والسجاجيد ، ومغتصّ بالمودّعين والمستقبلين .. بل على الداعية أن يعلم أن الطريق قد تكون مفروشة بالصخور الكبيرة العاتية ، والأشواك اليابسة المؤذية ، والأشقياء العتاة المجرمين .. فإن لم يكن معتادًا على الثبات والاحتمال ، متروِّضًا على الصبر والمصابرة .. فإنه ينهزم في أول لحظات المحنة ، ويتقهقر في أول لمحات البلاء .. ويقعد مع القاعدين اليائسين المثبّطين ..

وما أحسن ما قاله الطغرائي في لاميّته :

حب السلامة يثني هم صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقًا ... في الأرض أو سلمًا في الجو فاعتزل

(1) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد 3 / 116 ، 117 ، والحاكم 3 / 200 والآية من سورة الأحزاب : 23 .

وفي هذا المعنى يقول أبو الطيب المتنبي :

ذريني أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

وصدق من قال :

إذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

* * *

5 - **التفاؤل :**

التفاؤل قوة نفسية إيجابية فعالة .. ينظر صاحبها إلى الغد بابتسامة أمل ، ويسير إلى الغاية المرجوّة بروح القائد الشجاع ، وبنفسيّة العزيز المنتصر .. دون أن يعتريه يأس ، أو يستحوذ عليه قنوط ..

صحيح أن الدول الغربية عامّة ، وأمريكا خاصة هي التي صنعت إسرائيل ، وصحيح أن الاستعمار له وسائله وأساليبه في إخراج المسلم من الإسلام وإدخاله في تيار اللادينية والإباحية ، وصحيح أن الشيوعية العالمية لها مخططها الأكبر في تلحيد الجيل المسلم وإفساد خلقه وعقيدته ، وصحيح أن اليهوديّة العالمية لها مخططاتها وأساليبها في القضاء على الأديان غير اليهودية ، والسيطرة على العالم العربي والإسلامي ، وصحيح أن الدول الكبيرة في العالم سواء أكانت شرقية أو غربية تعمل جاهدة لتقوية إسرائيل ، وتحرص على وجودها لغايات سياسية ، وأهداف اقتصادية ، ومصالح ذاتية ، وصحيح أن التآمر على الإسلام وأهله بلغ هذا الحد الكبير والمدى الواسع .. ولكن ينبغي على المسلم ولا سيما الداعية أن لا يتملكه القنوط في بناء العزة ، وأن لا يستحوذ عليه اليأس في تحقيق النصر .

والداعية إلى اللّه هو أولى بأن يتحلّى بالأمل لانتصار دعوته ، وهو أحق بأن يتصف بالتفاؤل لإعزاز دينه .. لماذا ؟

- لأن القرآن الكريم حرّم اليأس ، وندّد باليائسين ..
- لأن التاريخ برهن له على انتفاضات الأمم مما أصابها ..
- لأن الرسول عليه الصلاة والسلام بشّر أمة الإسلام بالعز والسيادة ..

* **أما أن القرآن الكريم حرّم اليأس وندّد باليائسين :**

فللآيات الصريحة الواضحة .

من هذه الآيات ما تعتبر اليأس قرين الكفر ، قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

ومن هذه الآيات ما تعتبر اليأس قرين الضلال ، قال تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

ومن هذه الآيات تنديد بالإنسان اليائس ، وتقبيح لنفسه الحائرة ، وقلبه الهالع قال الله تعالى في سورة الروم : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

فمن هذه النصوص القرآنية يتبين أنه لا يجوز اليأس في دين الله ، وكتابه الخالد .. لأن اليأس قاتل للرجال ، وهازم للأبطال ، ومزلزل للشعوب ، ومحطم للآمال والأخذ بأسباب الكرامة .. فعلى الداعية أن يحذر من وجهات النظر اليائسة المتهالكة التي تقول : « انتهى كل شيء وعجزنا » ، « الزم حِلس بيتك ، فليس في الدعوة ولا الجهاد أي فائدة ؟ » ، « عليك بخويصة نفسك ودع عنك أمر العامة » ...

لقد سمّى القرآن الكريم هذه الزمرة اليائسة الميئسة بالمعوّقين المثبطين .. قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

إن هذه الطائفة اليائسة الميئّسة عندما تتبنّى هذه الوجهة من اليأس والقنوط .. إنما تدلل على هلاكها قبل كل شيء ، وليس على هلاك المسلمين ..

يقول عليه الصلاة والسلام : « من قال هلك المسلمون فهو أهلكهم » [1] .

والعجيب الغريب أن نجد من بعض الضعفاء الذين ينتمون إلى العلم والعلماء من ينادي بالعزلة ، والانطوائية ، والتزام أحلاس البيوت .. اعتقادًا منهم أن لا سبيل إلى

---

(1) الحديث رواه مسلم في البر والصلة برقم 2623 . وانظر شرح السنة 13 / 144 .

إصلاح هذه الأمة ، وأن لا أمل إلى استعادة مجدها ، واسترجاع عزتها وكيانها .. وآن الأوان أن يخرج المسلم بنفسه ببضع غنيمات ، يتّبع بها شَعَفَ الجبال يفرّ بدينه من الفتن حتى يدركه الموت !!..

صحيح أن النبي ﷺ قال – فيما رواه البخاري – : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ،ومواقع القطر ،يفرّ بدينه من الفتن » [1] .

ولكن الحديث هذا محمول – كما قال شراح الحديث – على من يفتن بدينه ، ويجبر على الردّة [2] .

أما أنه مادام يوجد في أرض الإسلام مسلمون يؤدون الشعائر ، ويطبقون على أنفسهم أحكام الإسلام ، ومادام أنه ثمّة مجال للتعاون ، وإقامة العزّ للإسلام .. فإنه يحرم على المسلمين العزلة والانزواء .. ؛ لأنه ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب ؛ لذا وجب على المسلمين جميعًا أن يقيموا حكم اللّه في الأرض ، وأن يحرروا الأرض المقدسة من براثن يهود ، وأن يشيدوا في ربوع المعمورة دولة الإسلام .. لكونهم مستطيعين قادرين إن أخلصوا النية ، وعقدوا العزم ، ولزموا الجماعة ، ومضوا في طريق الجهاد والتحرير .. واثقين متفائلين .

*** أما أن التاريخ برهن على انتفاضات الأمم مما أصابها من ذلة وهوان ..**

فللشواهد [3] التاريخية التالية :

أ – من كان يظن أن تقوم للإسلام قائمة بعد أن استلم أبو بكر – رضي اللّه عنه – مقاليد الخلافة ؛ ففي هذا الوقت من خلافة أبي بكر عظم الخطب ، واشتدّ الحال ، ونجم النفاق .. وارتدّ من ارتد من أحياء العرب ، وظهر مدّعو النبوة ، وامتنع قوم عن أداء الزكاة ، ولم يبق للجمعة مقام في بلد سوى مكة والمدينة ؛ وأصبح المسلمون كما يقول « عروة بن الزبير » رضي اللّه عنه : « كالغنم في الليلة المطيرة

---

(1) رواه البخاري في كتاب الفتن عن أبي سعيد الخدري برقم 7088 وفي كتاب الإيمان برقم 19 .
(2) كل حديث صحيح يدعو إلى العزلة محمول أيضًا على من يفتن بدينه ، ويجبر على الردة .. ولا يملك المفتون أي إصلاح ، ولا يستطيع أي تغيير ، وهذه الظاهرة من علامات الساعة ؛ لأن الساعة حين تقوم ، تقوم وليس على الأرض من يقول : « اللّه ، اللّه » بل تقوم الساعة « على لُكَع بن لُكَع » أي لئيم بن لئيم كما جاء في الحديث .
(3) الشواهد كلها من كتاب « الإسلام والقضية الفلسطينية » للمؤلف ص : 83 - 85 .
وارجع إلى كتاب « حياة أبي بكر » للدكتور حسين هيكل .

الشاتية ؛ لفقد نبيهم ، وقلة عددهم ، وكثرة عدوهم .. » ، حتى وجد من المسلمين من قال لأبي بكر – رضي اللّه عنه – : « يا خليفة رسول اللّه : أغلق بابك ، والزم بيتك ، واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين » أي الموت .

ولكن أبا بكر – رضي اللّه عنه – لم يعتره اليأس ، ولم يستحوذ عليه القنوط .. وإنما واجه هذه الأحداث الجسام كلها بإيمان راسخ ، وعزيمة ثابتة ، وتفاؤل عظيم ..

هو الذي قال للدنيا قولته الخالدة : « أينقص الدين وأنا حي ؟ » .

وهو الذي قال لعمر – رضي اللّه عنه – حين جاء يعاتبه على قتال مانعي الزكاة : « مه يا عمر رجوتُ نصرتك ، وجئتني بخذلانك ، أجبار في الجاهلية ، وخوّار في الإسلام ؟!! ماذا عسيت أن أتألّفهم بسحرٍ مفتعل أم بشعرٍ يفترى ؟ هيهات هيهات !! مضى رسول اللّه ﷺ ، وانقطع الوحي ، فواللّه لأجاهدنّهم ما استمسك السيف في يدي ؛ فواللّه لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة ؛ فواللّه لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول اللّه ﷺ لقاتلْتهم عليه !! » .

فقال عمر : « ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح اللّه صدر أبي بكر للقتال ، فعلمتُ أنه الحق .. » .

وهو الذي أنفذ جيش أسامة – رضي اللّه عنه – وقال للمعارضين : « والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننتُ أن السباع تخطفني لأنفذتُ بعث أسامة كما أمر به رسول اللّه ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذتُه ، ما كنت أحلّ عقدًا عقده رسول اللّه ﷺ بيديه » .

ولم يزل أبو بكر – رضي اللّه عنه – يخطط ، ويجاهد ، ويرسل البعوث ، ويسهر على مصالح الرعية .. حتى استطاع أن يتغلّب على الصعاب ، وأن يقضي على الثوارت والفتن ، وأن ينتصر على المرتدين ، ومدعي النبوة ، ومانعي الزكاة ، ومبطلي الصلاة .. وأن يعيد للمسلمين عزتهم ، ولليائسين تفاؤلهم ، وللإسلام دولته ، وللخلافة هيبتها ..

وهكذا يصنع عظماء الرجال ، وأقوياء الإيمان !! ..

ب – من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لما استولى الصليبيون على كثير من البلاد الإسلامية ، والمسجد الأقصى ما يقارب قرنًا من الزمان ؟ حتى ظن الكثير من مسلمين وغير مسلمين أن لا أمل في انتصار المسلمين على الصليبيين ، وأن لا رجاء في ردّ أرض فلسطين مع المسجد الأقصى إلى حوزة المسلمين !! ..

ومن كان يظن أن هذه البلاد ستتحرر في يومٍ ما على يد البطل المغوار « **صلاح الدين** » في معركة حطين الحاسمة ، ويصبح للمسلمين من الكيان والقوة والعزة والسيادة .. حقًّا ما شرف التاريخ ؟!! .

وهكذا يصنع عظماء الرجال ، وأقوياء الإيمان !! .

ج – من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لما خرّب المغول والتتار العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، ونهبوا الأموال ، وداسوا القيم ، وفتكوا في الأنفس والأعراض فتكًا ذريعًا ؟!! . حتى قيل إن جبالًا شامخة ، وأهرامات عالية .. أقامها « هولاكو » من جماجم المسلمين !! . ومما قاله المؤرخ « ابن الأثير الجزري » في هول هذه الأحداث : « لقد بقيتُ عدة سنين مُعْرِضًا عن ذكر الحادثة استعظامًا لها ، كارهًا لذكرها .. فكنتُ أقدّم رِجْلًا وأؤخر أخرى ؛ فمن الذي يسهل عليه أن يكتب بيديه نعي الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمي لم تلدني !! ويا ليتني متّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا !! »[1] .

ومن كان يظن أن بلاد الإسلام – بعد هذا الذي حدث – ستتحرر في يوم ما على يد البطل المقدام « **قطز** » في معركة « عين جالوت » الحاسمة ، ويصبح للمسلمين من المجد والعظمة والرفعة .. ما فخرت به الأجيال ؟!!

وهكذا يصنع عظماء الرجال ، وأقوياء الإيمان !! .

« إن هذه الكوارث الثلاث التي وقعت في عصور مختلفة ، وانتفاضة الأمة الإسلامية بعدها ونهوض العرب ، يلتقي على نقطة واحدة ، وهي **وجود قيادة مؤمنة** ، راسخة العقيدة ، قوية الإيمان بوعد الله ونصره ، وبصلاح الإسلام ، وبالقوة الكامنة فيه ، شديدة التمسك بتعاليم الإسلام وآدابه وأخلاقه ، مجردة عن كل أنانية ، وعصبية جاهلية .. ويلتقي هؤلاء القادة على أنهم كلهم كانوا يدعون إلى الإسلام ، ويقاتلون بسيف محمد عليه الصلاة والسلام ، واستحقوا بذلك نصر الله ، وتأييده الخارق للعادة ، وظهرت المعجزة .. فقد قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ »[3] .

---

(1) ارجع إلى كتاب « الكامل » لابن الأثير ؛ لتقرأ الفظائع التي فعلها المغول والتتار بالمسلمين .
(2) سورة المجادلة الآية : 22 .
(3) من كتاب « المسلمون وفلسطين » للداعية الكبير الأستاذ « أبو الحسن الندوي » ص : 67 والآية من سورة الصافات رقم 173 .

إن التفاؤل بانتصار دين اللّه هو مقدمة الفوز والنصر ، وإن القوة المعنوية في كل أمة هي التي تدفع شبابها ورجالها إلى تحقيق المزيد من الانتصارات الخالدة في كل زمان ومكان .. واللّه سبحانه مع المتقين المخلصين المجاهدين ، الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، والحافظين لحدود اللّه .. ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [1] .

*** أما لأن الرسول عليه الصلاة والسلام بشّر أمة الإسلام بالعزة والسيادة ..**

فللأحاديث التي حدث بها من لا ينطق عن الهوى :

روى الشيخان وغيرهما عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » [2] ، وفي رواية : « لا يزال هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » ...

فهذه الأحاديث تدل دلالة قاطعة على وجود طائفة من المؤمنين ظاهرة على الحق حتى قيام الساعة .. وأن هذه الطائفة في صراع دائم مع الباطل ؛ وإذا خبا نور الحق يومًا فإنه لابد من إشعاعه وانطلاقته مرة أخرى .. فمن ظلمات اليأس ينبثق نور الأمل .. ومن دياجير القنوط يبزغ فجر التفاؤل !! ..

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين ، ولعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من جابههم ، ولا ما أصابهم من البلاء حتى يأتي أمر اللّه وهم كذلك » قالوا : يا رسول اللّه وأين هم ؟ قال : « ببيت المقدس » [3] .

وفي رواية البزار : عن أبي الدرداء قال : قال رسول اللّه ﷺ : « بينما أنا نائم رأيت عمود الكتاب احتُمل من تحت رأسي ، فظننت أنه مذهوب به ، فأتبعتُه بصري ، فعمد به إلى الشام ، ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام » [4] .

وروى أحمد والترمذي عنه عليه الصلاة والسلام : « طوبى للشام فإن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها » [5] .

---

(1) سورة القصص الآية : 5 . (2) اللؤلؤ والمرجان (2 / 263) برقم (1249 ، 1250) .
(3) البخاري كتاب المناقب عن معاوية برقم 3641 ، ومسلم كتاب الإيمان برقم 247 .
(4) انظر البزار رقم 3332 . (5) مسند الإمام أحمد 5 / 184 ، 185 والترمذي برقم 3954 .

من خلال هذه الأحاديث الصحيحة يتبين أن ساحة الجهاد لإقامة دولة الإسلام هي بلاد الشام ، وأكناف بيت المقدس ..

وهذه بشارة أخرى من رسول اللّه ﷺ أن الإسلام لابد أن يحكم ، وأن فلسطين لابد أن تتحرر ، وأن عز السيادة للمسلمين لابد أن يعود .. وها هي ذي الظواهر تلوح بالأفق تبشر بنصر قريب بإذنه تعالى .

وروى الدارمي وأحمد وابن أبي شيبة .. عن أبي قبيل قال : كنا عند عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولًا القسطنطينية أم رومية [1] ؟ فدعى عبد اللّه بصندوق له حِلَق ، قال : فأخرج كتابًا ، فقال عبد اللّه : بينما نحن حول رسول اللّه ﷺ نكتب إذ سئل رسول اللّه ﷺ أي المدينتين تفتح أولًا ؟ فقال : مدينة هرقل (يعني القسطنطينية) [2] .

وقد تحقق الفتح الأول على يد الخليفة العثماني السلطان « محمد الفاتح » رحمه اللّه عام / 1453 / م ، أي بعد / 800 / سنة من إخبار النبي ﷺ ، وسيتحقق الفتح الثاني لا محالة بإذنه تعالى ويسألونك متى هو ؟ ، فقل : عسى أن يكون قريبًا !!

وروى الإمام أحمد والبزار والطيالسي ..قال الهيثمي : « ورجاله رجال ثقات » :

عن النبي ﷺ أنه قال : « إن أول دينكم نبوّة ورحمة ، وتكون فيكم ما شاء اللّه أن تكون ، ثم يرفعها اللّه جلّ جلاله ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوّة ، تكون فيكم ما شاء اللّه أن تكون ثم يرفعها اللّه جل جلاله ، ثم تكون ملكًا عاضًا ، فيكون ما شاء اللّه أن يكون ، ثم يرفعه اللّه جلّ جلاله ، ثم يكون ملكًا جبريًا ، فيكون ما شاء اللّه أن يكون ، ثم يرفعه اللّه جلّ جلاله ؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل بالناس بسنة النبي ﷺ ،ويُلقي الإسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ساكن السماء ، وساكن الأرض ، لا تدع السماء من قطر إلا صبّته مدرارًا ، ولا تدع الأرض من نباتها ولا بركاتها شيئًا إلا أخرجته » [3] .

فالذي يبدو من التسلسل التاريخي أن الملك العاض قد انتهى بانتهاء السلطة العثمانية ، والآن جاء دور الملك الجبري ، ومظهره تلك الانقلابات الكثيرة التي توصّل أصحابها إلى الحكم بدون رأي الأمة ، وغصبًا عن إرادة الشعب ؛ دكتاتوريات بدأها

---

(1) القسطنطينية : هي بيزنطة أو « إستانبول » حاليًا ، وورمية : هي « روما » عاصمة إيطاليا اليوم .
(2) انظر سنن الدارمي 1 / 92 وبرقم 489 ، ومسند أحمد 2 / 176 ، ومجمع الزوائد 6 / 219 .
(3) رواه الإمام أحمد 4 / 273 ، والبزار رقم 1588 .

« أتاتورك » في تركيا ، وتتابعت في كل مكان .. ولكن دلائل اليقظة الإسلامية تبشر بأن ذلك لن يطول أبدًا ، ولابد أن يأتي اليوم الذي ستكون فيه الخلافة على نهج النبوة ، والحياة العامة على سنن الإسلام ، ولعل ذلك يكون قريبًا إن شاء اللّه .

وإني متفائل أن هذا كله سيتحقق غدًا بعونه تعالى على أيدي الدعاة ، وعزائم الشباب ، وجهاد العلماء ، وبذل الأغنياء .. وإن غدًا لناظره لقريب .

وروى الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر والشجر : يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود »[1] .

أخبر الصادق المصدوق في هذا الحديث أن اليهود يبلغون في زمن من الأزمنة الذروة في القوة والسيطرة ، وأنهم يتجمّعون في بقعة واحدة ، ثم يتسلّط عليهم المسلمون ، فيعملون بهم السيف قتلًا وسحقًا .. فينادي عليهم كل شيء حتى الحجر والشجر ..

وها هم اليهود اليوم يجتمعون في فلسطين ، وسيكون هلاكهم بإذنه تعالى على أيدي المؤمنين الصادقين ، الراكعين الساجدين ، الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، والحافظين لحدود اللّه ..

هذه المعجزة كما تحقّقت أوائلها في سيل التجمّع الذي تصطنعه اليوم إسرائيل ، فيستحقق أواخرها بمشيئة اللّه تعالى في حرب قادمة .. يقود جحافلها قادة مؤمنون ، وشباب مسلمون ، وجند صالحون .. سوف يعلم العالم نبأها بعد حين .

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم :

إذا كان اليأس – أخي الداعية – في دين اللّه حرامًا ..

وإذا كان التاريخ أثبتت صفحاته أن للأمم المغلوبة التي تتوق إلى المجد انتفاضات وانتصارات ..

وإذا كان الرسول ﷺ بشّر في إخباراته أن أمة الإسلام مهما أصابها من ضعف وتفكك .. ستبلغ قمة المجد ، وغاية القوة والسيادة ..

إذا كان الأمر كذلك فلماذا يتملّك الناس اليأس ، ويستحوذ عليهم القنوط ؟

ولماذا يعتري كثيرًا من المسلمين الخوفُ ، وينتابهم الجبنُ ؟

فعليك – أخي الداعية – أن تصحح للناس المسار ، وأن تبث فيهم روح الوعي

(1) البخاري كتاب الجهاد والسير باب 94 برقم 2929 ، ومسلم كتاب الفتن باب 18 برقم 82 .

والعزيمة والتفاؤل .. عسى أن ينهض المسلمون لبناء العزة ، وإقامة الوحدة ، وتحقيق الكيان .. من جديد **وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ..**

* * *

تلكم أهم الصفات النفسيّة التي ينبغي أن يتحلّى بها كل من يتصدّى للدعوة ، ويقف مواقف التبليغ والإرشاد ..

* **فبالإيمان بالله** يتحلّون بالشجاعة والكرم ومراقبة الله ، وتتوق نفوسهم إلى الشهادة والجنة ..

* **وبالإخلاص** يترفّعون عن المصالح والغايات ، ويقصدون بأعمالهم وجه الله سبحانه ..

* **وبالجرأة** يقولون قولة الحق أينما كانوا ، ولا يخشون في الله لومة لائم ..

* **وبالصبر** يصبرون على البلاء ، ويثبتون عند اللقاء ، ويتجلّدون أمام المكاره ..

* **وبالتفاؤل** ينطلقون في ميادين الدعوة والجهاد بابتسامة أمل ، ونفسيّة عزيز ، دون أن يتملكهم يأس ، أو يستحوذ عليهم قنوط ..

فما أحوج المسلمين إلى دعاة يتحلون :

بالإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع ولا يلين ..

وبالجرأة الصّادعة بالحق التي لا تعرف الخوف ولا الوجل ..

وبالصبر المستمر الدائب الذي لا يعرف الخور ولا الكلل ..

وبالتفاؤل البسّام الذي لا يعرف اليأس ولا التراجع ..

وفي الواقع ونفس الأمر أن هذه الصفات النفسيّة الخمسة هي من خصائص الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ومن مزايا الدعاة الذين يبلّغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحدًا إلا الله .. لأن أساس الإيمان القلب الذكيّ ، وأساس الإخلاص الفؤاد النقيّ ، وأساس الجرأة الشعور القويّ ، وأساس الصبر الإرادة الفتيّة ، وأساس التفاؤل النفس الطموحة ..

وهذه الصفات كلها لا تجتمع أشد ما تجتمع إلا في الشباب المؤمن الداعية .. الذين آمنوا بربهم ، واعتزوا بإسلامهم ، وانطلقوا في سبيل دعوتهم ، فحقق الله على أيديهم الخير ، ونفع بهم الأمم ..

ومن هنا كان الدعاة إلى اللّه قديمًا وحديثًا في كل مرحلة من مراحل التاريخ عماد نهضة الأمة الإسلامية ، وسر قوتها ، ومبعث عزتها وكرامتها ، وحامل لوائها ورايتها ، وقائد شبابها إلى المجد والنصر ..

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ .. ﴾ [1] .

فعلى الدعاة أن يدركوا جيدًا مسؤوليتهم ، ويعلموا المواصفات النفسية التي ينبغي أن يتصفوا بها إن أرادوا أن تكون أمة الإسلام عزيزة الوجود ، مهابة الجانب ، موفورة الكرامة ، قوية الكيان .. واللّه غالب علىأمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

(1) سورة الأنعام الآية : 90 .



سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(6)

روحانية الداعية

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد للّه رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق ، وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

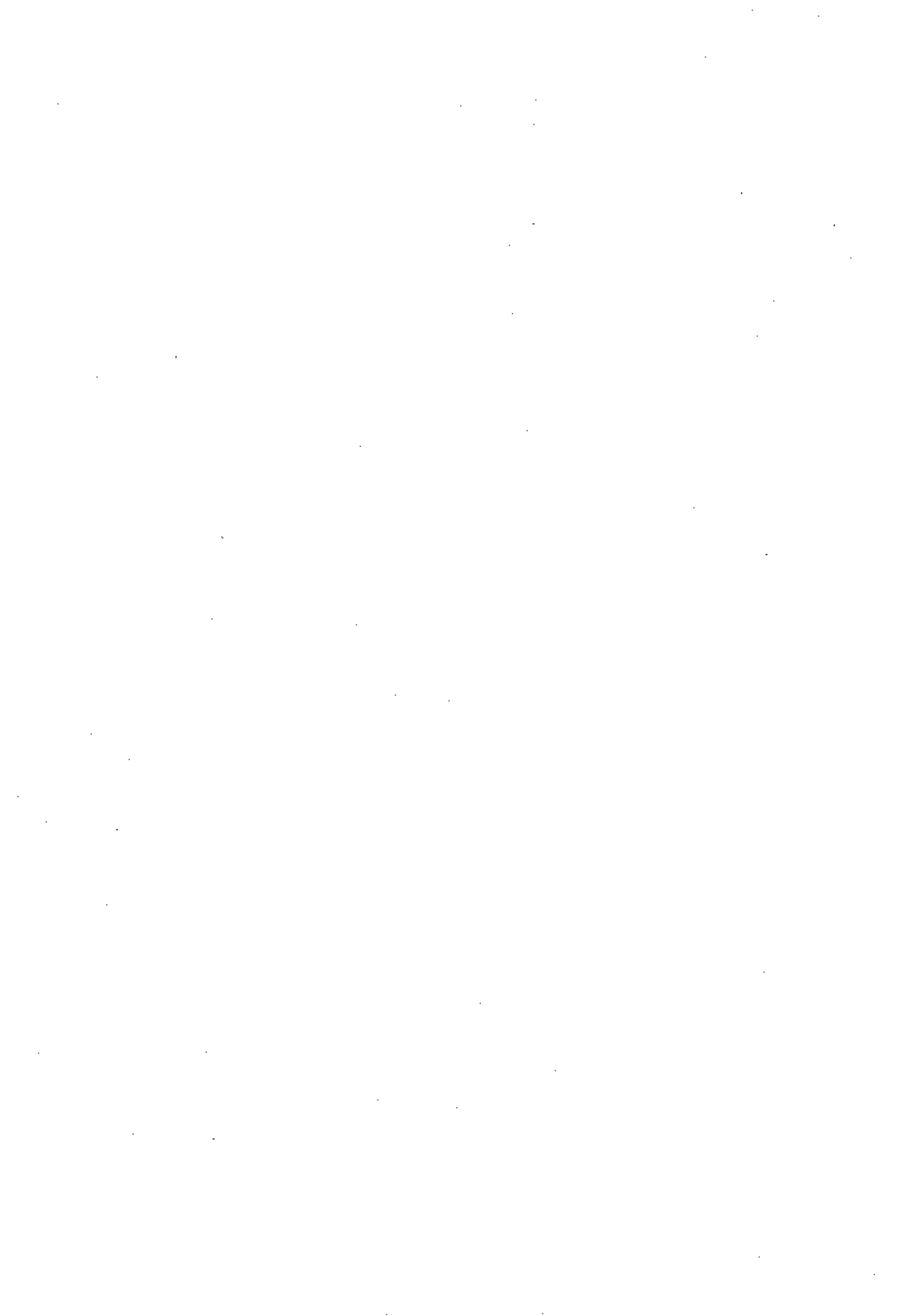
وبعد : فهذا الفصل السادس من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » وهو بعنوان : « **روحانية الداعية** » .

أقدمه لكم - إخوتي الدعاة - عسى أن يكون لكم منهاجًا لتكوينكم الروحي ، وإعدادكم التربوي .. ليكون تأثيركم أقوى ، وثقة الناس بكم أبلغ ..

واللّه لن يتِرَكُم أعمالكم .

المؤلف

عبد اللّه ناصح علوان



الفصل السادس

روحانية الداعية

بعد أن علمت - أخي الداعية - أن **الإيمان** ، **والإخلاص** ، **والجرأة** ، **والصبر** ، **والتفاؤل** .. هي أصول أساسية في تكوين الداعية النفسي ، وفي إعداده الدعوي .. وبعد أن عرفت أن هذه المواصفات لا يمكن أن تجتمع إلا في مؤمن ذاق حلاوة الإيمان ، وكرّس نفسه للإسلام ، ومضى إلى غايته حتى يأذن اللّه له بالنصر ، أو يلقى اللّه عز وجل وهو في طريق المحنة والصراع والمصابرة ..

بعد أن علمت كل هذا أتابع معك المسيرة على الدرب لأنقلك إلى محطة إذا وضعت رحالك فيها تنسمت نسائم الإيمان ، وتزوّدت بزاد التقوى ، وأشرقت نفسك بإشراقات الروحانية ، وأصبحت الإنسان الصالح ، والمؤمن التقي ، والمسلم الورع ، والرجل المخلص .. بل إذا مشيت ففي مشيتك هون ، وإذا تكلمت ففي كلامك تأثير ، وإذا عملت ففي عملك قدوة ، وإذا ظهرت ففي ملامحك جاذبية ، وإذا نظرت ففي نظراتك إشراق ..

وهذه المحطة إن أُحكم الأخذ عنها ، والتربية فيها ، والمجاهدة منها .. كانت مصدر فيوضات الداعية ، ومبعث إشراقاته الروحية ، ومواطن توجيهاته التربوية .. بل كانت الطاقة المولّدة لمداركه الباطنية ، ومحاسبته النفسية ، وانطلاقته الدعوية .. بل كانت المحرّك الأول لتحسّسه في المسؤولية ، والموجه الأفضل في سلوكه طريق الاستقامة ، والمنبّه الأكبر على الخطأ والاعوجاج ..

فإذا خلا الداعية من معالم هذه الروحانية الشاملة فقد خلت حياته من كل أثر وتأثير وعطاء ، وتخبّط في دياجير العُجْب والنفاق والرياء ، وتعثر في أوحال الغرور والأنانية والكبرياء ، وسعى جهده في أن يدعو لشخصه لا للّه ، وأن يبني أمجادًا لنفسه لا للإسلام ، وأن يعمل لدنياه لا للآخرة .

ومن هنا يكون الانزلاق ، ويكون السقوط ، وتكون الطامّة ..

فإذا كانت الروحانية بهذه الأهمية :

فما هو السبيل إليها ؟

وما هي الروافد التي تغذيها ؟

وما هو أثرها في البناء والإصلاح والتغيير ؟

كل هذه التساؤلات سوف تجد – أخي الداعية – الإجابة الشافية عليها ، بل تجد إن شاء الله ما ينير لك الطريق في الوصول إليها .. وعلى الله قصد السبيل ، ومنه نستمد العون .

* * *

● **أما ما السبيل إلى هذه الروحانية ؟**

فالقرآن الكريم في نظرته الكلية إلى الكون والحياة والإنسان قد وضح لنا المنهج العملي في إعداد الإنسان روحيًا ، وتكوينه إيمانيًا ، وتربيته نفسيًا :

قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ .

وقال سبحانه في سورة الحديد : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ ﴾ .

وقال جلّ جلاله في سورة الطلاق : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ .. ﴾ [1] .

فلنتأمل في هذه الآيات فماذا نجد ؟

نجد أن تقوى الله عز وجل هي أساس الفيوضات والأنوار والعطاء ..

فبتقوى الله عز وجل يُميّز المؤمن بين الغث والسمين ، ويفرّق بين الحق والباطل ..

وبتقوى الله جلّ جلاله يجعل الله للمتقي نورًا يمشي به في الناس ، فيهتدون بهداه ، ويستنيرون بنوره ..

وبتقوى الله سبحانه يجد المتّقي المخرج الآمن السليم مهما واجه من مآزق ، ومهما لقى من عقبات ..

يقول « سيد قطب » رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا .. ﴾ : « هَذا هو الزاد ، وهذه هي عدة الطريق .. زاد التقوى

(1) سورة الطلاق الآية : 2 - 3 .

التي تُحيي القلوب وتوقظها ، وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والتوقّي .. وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مدّ البصر ، فلا تغبشه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة .. ثم هو زاد المغفرة للخطايا ، الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء والقرار .. وزاد الأمل في فضل اللّه العظيم يوم تنْفد الأزواد ، وتقصر الأعمال .. إنها حقيقة : إن تقوى اللّه تجعل في القلب فرقانًا يكشف له منعرجات الطريق ، ولكن هذه الحقيقة – ككل حقائق العقيدة – لا يعرفها إلا من ذاقها فعلًا !

إن الوصف لا ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذوقوها !! .

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل ، والطرق تظل متشابكة في المنظر والفكر ، والباطل يظل متلبّسًا بالحق عند مفارقة الطريق ! وتظل الحجة تُفحِم ولكن لا تقنع ، وتُسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل ، ويظل الجدل عبثًا ، والمناقشة جهدًا ضائعًا .. **ذلك ما لم تكن هي التقوى** .. فإذا كانت ، استنار العقل ، ووضح الحق ، وتكشّف الطريق ، واطمأن القلب ، واستراح الضمير ، واستقرّت القدم وثبتت على الطريق !! ..

إن الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة .. **ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة** ، الهوى هو الذي ينشر الغبش ، ويحجب الرؤية ، ويُعمي المسالك ، ويُخفي الدروب .. والهوى لا تدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى .. تدفعه مخافة اللّه ، ومراقبته في السرّ والعلن .. ومن ثَمّ هذا الفرقان الذي ينير البصيرة ، ويرفع اللّبس ، ويكشف الطريق .. » [1] .

فإذا كان للتقوى هذه الأهمية البالغة .. فما هي حقيقتها ؟ وكيف الوصول إليها ؟

أما ما هي حقيقة التقوى ؟

فهي نتيجة حتمية ، وثمرة طبيعية للشعور الإيماني العميق الذي يتصل بمراقبة اللّه عز وجل ، والخشية منه ، والخوف من غضبه وعقابه ، والطمع بعفوه وثوابه ..

أو هي – كما عرفها العلماء – : « أن لا يراك اللّه حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك » .

أو هي – كما قال البعض – : « اتّقاء عذاب اللّه بصالح العمل ، والخشية منه في السرّ والعلن » .

ومن هنا كان اهتمام القرآن الكريم بفضيلة التقوى ، بل كان يأمر بها ، ويحض عليها

(1) ارجع إلى ظلال القرآن ج 3 ص : 1499 .

في كثير من الآيات البينات ، حتى أن القارئ لكتاب الله لا يكاد يمرّ على قراءة صفحة أو بضع آيات .. إلا ويجد نقطة التقوى منسابة في الذكر الحكيم هنا وهناك !! .

ومن هنا كان اهتمام الصحابة ، والسلف الصالح .. بالتقوى ، حيث كانوا يتحققون بها ، ويجتهدون لها ، ويسألون عنها .. فقد ثبت أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سأل « أبيّ بن كعب » عن التقوى ، فقال له : أما سلكت طريقًا ذا شوك ؟ قال : بلى ! قال : فما عملت ؟ قال : شمّرت واجتهدت ، قال : فذلك التقوى !! [1] .

وبناءً على هذا المعنى الذي أورده « أبيٌّ بن كعب » في إجابته لعمر – رضي الله عنهما – يقول « سيد قطب » رحمه الله في الظلال : « فذلك التقوى ، حساسية في الضمير ، وشفافية في الشعور ، وخشية مستمرة ، وحذر دائم ، وتوقٍّ لأشواك الطريق .. طريق الحياة .. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات ، وأشواك المطامع ، والمطامح ، وأشواك المخاوف والهواجس ، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك رجاء .. والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا ، وعشرات غيرها من الأشواك .. » [2] .

ويكفي التقوى فضلًا وتأثيرًا .. أنها منبع الفضائل الاجتماعية كلها ، والسبيل الوحيد في اتّقاء المفاسد والشرور والآثام .. بل هي الركن الأساسي في تكوين الفرد النفسي والخُلقي .. لمواجهته سرّاء الحياة وضرّاءها ، وتمييزه بين طيباتها وخبائثها ، وصبره على محنها ومصائبها ..

تلكم هي حقيقة التقوى ، وذلكم هو أثرها الفعال في تربية الأفراد ، وتكوين الجماعات ..

أما السبيل إلى التقوى ؟

فحسبنا أن نذكر أهمّ السبُل في إذكائها وتنميتها ، وترسيخها في قلب المؤمن ونفسيّته ، وتغلغلها في أعماق أحاسيسه ومشاعره .. عسى أن ينهج الدعاة نهجها ، ويأخذوا بأحسنها :

أ – المعاهدة :

الأصل فيها قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ .

(1 ، 2) ارجع إلى ظلال القرآن ج 1 ص : 40 .

وكيفية المعاهدة : أن يخلو المؤمن بنفسه بينه وبين ربه ويقول لها : إنك يا نفس أعطيت العهدَ للّه في الوقفات اليومية التي تقفين فيها بين يدي اللّه سبحانه ، وتناجينه بلسان عربي مبين : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .

أليس – يا نفس – في هذه المناجاة إقرار منك : على أن لا تعبدي إلا اللّه ، وأن لا تستعيني إلا به ، وعلى أن تلتزمي طريق اللّه المستقيم الذي لا يعتريه العوج ولا الالتواء .. ألا وهو طريق الإسلام . وعلى أن تحيدي عن طريق الذين ضلّوا وغضب اللّه عليهم من أهل الملل الأخرى ؟!!! .

فإذا كان الأمر كذلك فحذار – يا نفس – أن تخيسي بالعهد بعد أن جعلت اللّه عليك رقيبًا ، وحذار أن تتنكّبي عن الصراط الذي رسمه الإسلام بعد أن جعلت اللّه عليك شهيدًا ، وحذار أن تتبعي سبيل أقوام ضلّوا وأضلّوا .. بعد أن جعلت اللّه عليك كفيلًا ..

حذار – يا نفس – من الكفر بعد الإيمان ، وحذار من الضلال بعد الهدى ، وحذار من الفسوق بعد الالتزام .. من نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا ..

وبتقديري – أخي الداعية – أنك إذا شارطت نفسك كل يوم على أن تلتزم هذه المواثيق التي تعطيها كل يوم وليلة أكثر من سبع عشرة مرة ، ثم تحملها حملًا على الوفاء والتنفيذ .. فإنك – ولاشك – تتدرّج نحو التقوى ، وتسير في طريق الروحانية ، وتصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار ..

ب – المراقبة :

الأصل فيها قوله تبارك وتعالى في سورة الشعراء : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ ﴾ .

وقوله صلوات اللّه وسلامه عليه لما سئل عن الإحسان : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [1] .

والمراقبة معناها – كما دلت عليها الآية والحديث – : استحضار عظمة اللّه

(1) رواه مسلم كتاب الإيمان رقم (1) .

سبحانه في كل الأوقات والأحوال ، ومراقبته جلّ جلاله في السرّ والعلن ..

وكيفية المراقبة : أن يراقب المؤمن نفسه قبل البدء بالعمل ، وفي أثنائه .. هل كان تحرّكه للعمل والطاعة من أجل حظوظ النفس ، وابتغاء الثناء والذكر .. أم كان المحرّك لها هو مرضاة اللّه ، وابتغاء ثوابه ؟!! .

فإن كان للّه جلّ جلاله مشي فيها وأمضاها ، وإن كان لهوى النفس أحجم عنها وتركها ، وعقد النية والعزم على أن يستأنف طاعته فيما بعد على أسمى ما يكون من التجرد والإخلاص ورضوان اللّه سبحانه ..

ولعمري هذا هو الإخلاص بعينه ، والتجرد بذاته ، والتحرر الكامل من مزالق النفاق والرياء .. يقول الإمام الحسن البصري - رحمه اللّه - : « رحم اللّه عبدًا وقف عند (نيته) وهمّه ، فإن كان للّه مضى ، وإن كان لغيره تأخر .. » [1] .

ومراقبة العبد للّه أنواع : فمراقبته في الطاعة تكون بالتجرد والإخلاص ، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع .. ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب والشكر على النّعم ، ومراقبته في المصيبة تكون بالرضى بالقدر ، والتذرع بالصبر ...

وبتقديري - أخي الداعية - أنك إذا راقبت اللّه عز وجل على هذا المستوى من الملاحظة والمراقبة .. ثم عزمت على المضي فيها ، والمواظبة عليها .. فإنك - ولاشك - تتدرّج نحو التقوى ، وتسير في طريق الروحانية ، وتصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار ..

ج - المحاسبة :

والأصل فيها قوله سبحانه في سورة الحشر : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

والمحاسبة معناها - كما دلت عليها الآية - أن يحاسب المؤمن نفسه بعد مضي العمل .. هل قصد في عمله وجه اللّه ؟ هل داخله في طاعته شيء من الرياء ؟ هل اقترف إثمًا في سبحه في النهار ؟ هل أدى حقوق اللّه وحقوق العباد ؟ ..

واعلم - أخي الداعية - أن المؤمن كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار

(1) من كتاب « مختصر منهاج القاصدين » للمقدسي ص : 400 .

يشارط فيه نفسه ويعاهدها على إصلاح النية ، والمضي في الطاعة ، وتأدية الحقوق ، والتحرر من الرياء .. كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يخلو فيها إلى نفسه في آخر النهار ، ويحاسبها على جميع ما كان منها ، فإن رأى خيرًا حمد اللّه على ما سدّد ووفق وسأله التثبيت والمزيد .. ، وإن رأى غير ذلك تاب إلى اللّه وأناب ، وندم واستغفر ، وعاهده على أن لا يعود ، وسأل مولاه الحفظ والرعاية وحسن الخاتمة ..

ورضي اللّه عن عمر الفاروق حين قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيئوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ » [1] .

وحقيقة المحاسبة : أن ينظر المؤمن في رأس المال ، وفي الربح ، وفي الخسارة ، ليتبيَّن له الزيادة من النقصان على عادة التجار .

فرأس المال : هذا الدين وما اشتمل عليه من أوامر ونواهٍ وتكاليف وأحكام ..

والربح : فعل الطاعات ، وترك المنهيات ..

والخسارة : ارتكاب الذنوب والمعاصي والآثام ..

فحين ينظر المؤمن في رأس المال ، ويوازن بين الربح والخسارة ، ويتوب عمّا وقع فيه من أخطاء ، ويجتهد أكثر مما فعله من محاسن .. فيكون ممن حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا . ووزنوها قبل أن يوزنوا ، ونظروا ماذا يقدمون لغد .

وبتقديري – أخي الداعية – أنك إذا حاسبت نفسك على الصغيرة والكبيرة ، وعقدت العزم على أن تكون لك ساعة آخر النهار تخلو فيها بينك وبين ربك ؛ لتنظر ماذا تقدم ليوم المعاد ؟ .. فإنك – ولاشك – تتدرّج نحو التقوى ، وتسير في طريق الروحانية ، وتصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار .

د – المعاقبة :

الأصل فيها قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ .

والعقوبة معناها – كما تدل عليها الآية – أن المؤمن إذا حاسب نفسه ، فرأى منها تقصيرًا ، أو اقترفت ذنبًا ، فلا ينبغي أن يهملها ، فبالإهمال يسهل عليه مقارفة

(1) من كتاب « مختصر منهاج القاصدين » للمقدسي والآية من سورة الحاقة رقم 18 .

الذنوب ، ويعسر عليه فطامها عن المعاصي ، بل ينبغي عليه أن يعاقب نفسه عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده ، وفي ذلك زجر لها عن المخالفة ، وحمل على التقوى ، وأخذ بها نحو حياة فاضلة سليمة ..

وحين نقول : ينبغي عليه أن يعاقبها بعقوبة مباحة احتراز عن المعاقبة بعقوبة محرّمة ، كأن يعاقب نفسه بتعذيب عضو من أعضائه بالنار ، أو أن يغتسل من الجنابة في الصلاة في يوم شديد البرد ، أو يمتنع عن الطعام أو الشراب بشكل يؤدي إلى الهلاك .. فهذه العقوبات وما شابهها محظورة في الشرع ؛ لكونها تدخل في مضمون النهي القرآني : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [1] ، وفي مفهوم قوله جلّ جلاله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [2] .

وكان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يعطون القدوة في تقواهم ومحاسبتهم ، وفي إلزام أنفسهم بالعقوبة إذا قصروا ، وفي عزمهم على الطاعة إذا تساهلوا .. ولا بأس أن نذكر بعض النماذج والأمثال [3] .

روي عن عمر الفاروق - رضي الله عنه - : أنه خرج إلى حائط له (أي بستان) ثم رجع وقد صلى الناس العصر ، فقال : « إنما خرجت إلى حائطي ، ورجعت وقد صلى الناس العصر ، حائطي صدقة على المساكين » قال الليث : إنما فاتته في الجماعة .

وروي عنه أيضًا : أن شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان ، فلما صلاها أعتق رقبتين .

وحكي عن الصحابي الجليل « أبو طلحة » : أنه كان في الصلاة ، فمرت أمامه « قبّرة » (طائر كالعصفور) ، فتشاغل عن الصلاة في النظر إليها حتى نسي كم صلى ؟ فتصدّق بحائطه على المساكين ؛ عقوبة على نسيانه وانصرافه عن الخشوع !! .

ومما يذكره الرواة : أن تميم الداري - رضي الله عنه - نام ليلة لم يقم يتهجّد فيها للّه حتى أصبح ، فألزم نفسه سنة لا ينام ، يتهجد فيها بالعبادة ؛ عقوبةً لما صنع !! .

ومرّ حسان بن سنان ببيت قد بُني ، فقال : متى بُني هذا ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك !! . لأعاقبنّك بصوم سنة ، فصامها ؛ عقوبةً على تدخّله فيما لا يعنيه !! .

---

(1) سورة البقرة الآية : 195 . (2) سورة النساء الآية : 29 .

(3) هذه النماذج من كتاب « مختصر منهاج القاصدين » للمقدسي ص : 402 .

ولا بأس أن ينهج الداعية نهج السلف الصالح في محاسبة النفس ومعاقبتها إذا رأى نفسه مقصّرًا في مسؤولية ، ومتخلّيًا عن حق من حقوق اللّه أو العباد .. كأن يعاقب نفسه بالتصدق بمبلغ معين إذا قصّر مثلًا في صلاة الجماعة ، أو أن يعاقب نفسه بالصيام بأيام محددة إذا تكاسل عن صلاة التهجد ، أو أن يعاقب نفسه بركعات معدودة من صلاة النفل إذا تساهل في زيارة إخوانه الأُصفياء ..

وفي تقديري أن الداعية إلى اللّه إذا عاقب نفسه في حال التقصير بمثل هذه العقوبات .. فإنه - ولاشك - يتدرّج سريعًا نحو التقوى ، ويسير حثيثًا في طريق الروحانية ، ولابد أن يصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار .

هـ - المجاهدة :

والأصل فيها قوله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

والمجاهدة معناها - كما تدل عليها الآية - أن المؤمن إذا أخلد بحكم الكسل والاسترخاء ، والتثاقل إلى الأرض ، وأصبح لا يؤدي النوافل في حينها ، ولا الطاعات في أوقاتها : فعليه أن يجاهد نفسه على أن يؤدي طاعة النافلة أكثر مما كان يؤدّيها من قبل قسرًا وإلزامًا ، واندفاعًا وحماسًا .. حتى تصبح طاعاته في المستقبل عادة كريمة من عاداته ، وخلُقًا أصيلًا من أخلاقه ..

وحسبه قدوة في هذا الاعتياد ، وهذا التخلق الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - الذي كان - كما تروي عائشة - يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه ، ولما سألته رضي اللّه عنها : لِمَ تصنع هذا وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فأجابها عليه الصلاة والسلام بقوله : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ » [1] .

وتقول عائشة - رضي اللّه عنها - فيما رواه الشيخان - : « كان رسول اللّه ﷺ إذا دخل العشر (أي من رمضان) أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجدّ ، وشدّ المئزر » [2] .

وهذه المجاهدة في الإقبال على اللّه بالنوافل والطاعات قد أمر بها وحضّ عليها رسول اللّه - صلوات اللّه وسلامه عليه - في أكثر من حديث ، ليكون الدعاة

(1) اللؤلؤ والمرجان 3 / 285 برقم 1795 .

(2) البخاري كتاب فضل ليلة القدر ب 5 برقم 2024 ، ومسلم كتاب الاعتكاف رقم 7 .

والعلماء وورثة الأنبياء .. أول المتحققين بها ، والمبادرين إليها ..

فمن توجيهاته – عليه الصلاة والسلام – في هذا الصدد :

ما رواه البخاري عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « .. وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضتُ عليه ، وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني أعطيتُه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه » [1] .

وروى مسلم عن ربيعة بن كعب .. قال : كنت أبيتُ مع رسول اللّه ﷺ فآتيه بوَضوئه (أي الماء) ، وحاجته ، فقال : « سلني » فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : « فأعنّي على نفسك بكثرة السجود » [2] .

وروى الترمذي عن أبي صفوان .. قال : قال رسول اللّه ﷺ : « خير الناس مَنْ طال عمره ، وحسن عمله » [3] .

فانطلاقًا من هذه التوجيهات النبوية في المجاهدة ، وحمل النفس على الطاعة والتقرّب إلى اللّه .. مضى السلف الصالح في طريق المجاهدة ، وترويض أنفسهم عليها ، وكلما رأوا من أنفسهم تكاسلا أو تقصيرًا في أداء حق اللّه عليهم ولو نفلا هبّوا من رقدتهم جاهدين عازمين ، وساروا إلى اللّه منيبين خاشعين .. حتى يصلوا إلى أعلى مراتب اليقين ، وتشتروح قلوبهم نسمات الإيمان ، ويجدوا في قرارة وجدانهم حلاوة العبادة ، ولذة المناجاة ..

وإليك – أخي الداعية – طاقة من مآثرهم وأخبارهم [4] :

ورد عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – أنه فاتته صلاة في جماعة ، فأحيا الليل كلّه تلك الليلة .

قال بعض السلف : كنت إذا اعتراني فتور في العبادة نظرت إلى وجه « محمد ابن واسع » وإلى اجتهاده فعملتُ على ذلك أسبوعًا ..

وكان « عامر بن عبد قيس » يصلي كل يوم ألف ركعة .

---

(1) البخاري كتاب الرقاق 81 . ب التواضع 38 برقم 6502 .

(2) مسلم كتاب الصلاة فضل السجود رقم 226 . (3) رواه الترمذي كتاب الزهد برقم 2329 ، 2330 .

(4) من كتاب « مختصر منهاج القاصدين » ص : 403 - 404 .

وكان « الأسود بن يزيد » يصوم حتى يخضرّ ويصفرّ .

وحج « مسروق » فما نام إلا ساجدًا .

وكان « كرز بن وبرة » يختم كل يوم ثلاث ختمات .

وجاور « أبو محمد الجريري » بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ، ولم يستند إلى حائط ، ولم يمدّ رجله ، فقال « أبو بكر الكتاني » بما قدرت على هذا ؟ قال : « عَلِمَ اللّه صدق باطني ، فأعانني على ظاهري » .

ودخلوا على « زحلة العابدة » فكلموها بالرفق في نفسها ، فقالت : إنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غدًا ، واللّه يا إخوتاه ! لأُصليّنّ للّه ما أقلّتني جوارحي ، ولأصومنّ له في أيام حياتي ، ولأبكيّنّ ما حملت الماء عيناي !! .

هذا غيض من فيض مما ورد في جليل مجاهدتهم ، وكريم عبادتهم وطاعتهم ..

لو لم يكن لسلفنا الصالح إلا هذه المآثر والمكارم لكفتهم على مدى الزمان فخرًا وشرفًا وخلودًا !! ..

ولكن الذين يجاهدون أنفسهم على عبادة اللّه ، ويحملونها على المجاهدة .. عليهم أن يلحظوا في عملهم هذا أمرين هامين :

الأول – أن لا تكون عبادة النافلة على حساب الحقوق الأخرى ، كأن يقوم مثلًا بأداء حق اللّه في النوافل ، ويُهمل حق العيال بالنفقة ، أو حق النفس بحظوظها الحيوية للمبدأ الذي رسمه عليه الصلاة والسلام : « إن للّه عليك حقًّا ، وإن لنفسك عليك حقًّا ، وإن لأهلك عليك حقًّا ، فأعط كل ذي حقٍّ حقّه » رواه البخاري .

الثاني – أن لا يكلف نفسه في النوافل فوق طاقتها ، لقوله ﷺ – فيما رواه الشيخان – : « عليكم من الأعمال ما تطيقون ، فواللّه لا يَملّ اللّه حتى تَملّوا » .

وإذا وُجد من السلف من كان – يجتهد بالنوافل أكثر من حدود المعقول والاعتدال .. **فهذا محمول** : إما لمخالفة النفس هواها في خلودها إلى الاسترخاء والتقصير ؛ وإما التعرض لنفحات اللّه ورضوانه في أوقات عظيمة مخصوصة ، وإما لمنحهم اللّه الطاقة والقوة للنهوض بهذه الأعباء ، وإما لتوفيقهم في هذه المجاهدة بين الحقوق جميعًا ، وإما .. وإما ..

وبتقديري – أخي الداعية – أنك إذا جاهدت نفسك هذه المجاهدة ، وسرت طريق رسول الله ﷺ ، ونهج السلف الصالح .. فإنك – ولاشك – تتدرّج نحو التقوى ، وتسير في طريق الروحانية ، وتصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار ..

تلكم – إخوتي الدعاة – أهم السُّبُل في إذكاء روح التقوى ، وتنميتها في قلب المؤمن وروحه ، وفي تغلغلها في أعماق أحاسيسه ومشاعره :

فبالمعاهدة : تستقيمون على شريعة اللّه ..

وبالمراقبة : تستحضرون عظمة اللّه في السر والعلن ..

وبالمحاسبة : تتحررون من آفات النفس الأمارة ، وتؤدون حقوق اللّه والعباد ..

وبالمعاقبة : تفطمون نفوسكم عن المخالفة ، وتحملونها على المراقبة والمحاسبة ..

وبالمجاهدة : تجدّدون للنفس نشاطها ، وتميتون فيها خمولها واسترخاءها ..

بل بهذه السبل كلها .. تصبح التقوى عادة كريمة من عاداتكم ، وخُلُقًا أصيلًا من أخلاقكم ..

بل تصلون بمشيئة اللّه – إلى ذرى المكارم ، وقمة الفضائل ، وأعلى المنازل ..

بل تعطون القدوة في الأقوال ، والأسوة في الأفعال ، والمثل الأعلى في الروحانية ..

* * *

اما الروافد في تغذية الروحانية :

فيمكن تصنيفها إلى صنفين :

1 – روافد تتصل بالاستشعار النفسي .

2 – روافد ترتبط بالجانب العملي .

1 – أما ما يتصل بالاستشعار النفسي فهو :

دوام المراقبة للّه .

واستحضار الموت وما بعده .

واستعراض الآخرة وأحوالها .

ولا شك أن استشعار الداعية لكل هذه المعاني في نفسه وعقله .. مما يدفعه دائمًا إلى أن يكون مع المنهج الرباني فكرًا وتطبيقًا ؛ وأن يكون أبعد ما يكون عن اقتراف الذنب ، وارتكاب المعصية .. وأن يحسن العمل ويتقنه ، وأن يؤدي الحق ويقوم به .. وأن يندفع إلى ميادين الإصلاح والتغيير بعزم وهمة ومضاء ..

ولا بأس أن نقف – ولو قليلًا – لاستعراض هذه المعاني التي تغذّى روحانية الداعية ، والتي تجعل منه – إن استشعرها ونفّذها – إنسانًا ربانيًا ، ورجلًا برًّا تقيًا ، وعبدًا للّه صالحًا زكيًا ، وداعية إلى اللّه .. له في الأمة أثر ، وفي التاريخ ذكر ، وفي الأجيال قدوة !! .

أما عن مراقبة اللّه ودوامها : فيكفي الداعية حين يهمّ في أي عمل أن يعتقد في قرارة وجدانه أن اللّه معه يسمعه ويراه ، ويعلم سرّه ونجواه ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .. امتثالًا لقوله – عليه الصلاة والسلام – حين سأله السائل عن الإحسان : « **أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » رواه مسلم .

ويكون بهذا قد راقب اللّه على الدوام ، وحسنت أخلاقه ، وانصلح عمله ، وتغذّت روحه ، وتدرّج في معارج الكمال ..

وإليك – أخي الداعية – بعض النماذج في أثر دوام المراقبة في السلوك والمعاملة والأخلاق :

أ – يروي الإمام الغزالي في إحيائه : أنه كان عند « يونس بن عبيد » حُلَل مختلفة الأثمان ، منها : ضرب قيمة كل حلّة منه أربعمائة درهم ، وضرب كل حلّة مائتان ، فمرّ إلى الصلاة ، وخلّف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي ، وطلب حلّة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين ، فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها – أي بأربعمائة درهم – فمشى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلّته ، فقال للأعرابي : بكم اشتريت ؟ فقال : بأربعمائة ، فقال : لا تساوي أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردّها ، فقال : هذه تساوي في بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيتُها ، فقال له يونس : انصرف معي فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم ردّه إلى الدكان ، وردّ عليه مائتي درهم ، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله ، وقال : أما استحييت ؟ أما اتقيت اللّه ؟ تربح مثل الثمن ، وتترك النصح للمسلمين ؟ فقال : واللّه ما أخذها إلا وهو راضٍ بها ، قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟!! .

ب – وقال عبد اللّه بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه –

إلى مكة فعرسنا في بعض الطريق ، فانحدر بنا راعٍ من الجبل ، فقال له : يا راعي ، بعني شاة من هذا الغنم .

فقال : إني مملوك .

فقال له - اختبارًا : قل لسيدك أكلها الذئب .

فقال الراعي : فأين اللّه ؟

فبكى عمر - رضي اللّه عنه - ثم غدا مع المملوك ، فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة !! .

ج - كثير منا يعرفون قصة الأم مع بنتها : الأم تريد أن تخلط اللبن بالماء غشًّا له ، وطمعًا بالربح ، والبنت تذكّرها باللّه ، وإنذار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه .

الأم تقول : أين نحن من أمير المؤمنين ؟ إنه لا يرانا !! .

والبنت تقول : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فربّ أمير المؤمنين يرانا .

د - هذه امرأة في عصر الفاروق - رضي اللّه عنه - يغيب عنها زوجها فترة طويلة ، فتخيّم عليها كآبة الوحشة ، وتهجم عليها هواجس الوحدة ، ويثور في عرقها دم الأنوثة ، وينطلق فيها صوت الغريزة ، فلا يصدّها إلا حاجز الإيمان ومراقبة اللّه عز وجل على الدوام ..

وفي جنح الليل البهيم سمعها عمر - رضي اللّه عنه - تنشد :

لقد طال هذا الليل واسودّ جانبه وأرّقني ألا خليل ألاعبه

فواللّه لولا اللّه تخشى عواقبه لحرّك من هذا السرير جوانبه

وفي اليوم الثاني دخل عمر إلى ابنته حفصة ، وقال لها : كم تصبر الزوجة على زوجها ؟

قالت : أربعة أشهر .

فأرسل الخليفة العادل إلى قواده في جبهات القتال يأمرهم : ألا يحبسوا جنديًّا عن أهله أكثر من أربعة أشهر !! .

كانت فتنة بين استشعار هذه المرأة خشية اللّه ، وبين الدافع إلى الإثم والفاحشة ، فهمدت الدوافع وانتصر الإيمان !! .

وأما عن استحضار الموت وما بعده : فلاشك أن المؤمن حين يستحضر في مخيّلته أن الموت سوف يأتيه لا محالة ، وأنه سوف يسأل في وحدته لا محالة ، وأن القبر في حقه : إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران .. المؤمن حين يستحضر في مخيّلته كل هذا .. فإن قلبه يستشعر خوف اللّه عز وجل ، ومراقبته في السر والعلن .. بل يندفع بكليّته إلى العمل الصالح ؛ ليتزوَّد لهذا اليوم الموعود .. عسى أن يكون بجوار من أنعم اللّه عليهم : من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا .

وما أحسن ما قال بعضهم :

تزوّد للذي لابد منه … فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قومٍ … لهم زاد وأنت بغير زاد

من أجل هذا كان النبي ﷺ يأمر أبناء هذه الأمة أن يكثروا من ذكر الموت ، وقاطع اللذات ؛ فقد روى الترمذي عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : « أكثروا ذكر هاذم اللذات » [1] يعني الموت .

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يأمر بزيارة القبور ، ويحض على ارتيادها ..

روى مسلم عن بريدة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها » وفي رواية : « فَمَنْ أراد أن يزور القبور فليزُر فإنها تذكّر الآخرة » [2] .

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يربّي أصحابه على أن يستعدوا للموت ، وأن لايلهيهم الأمل .. روى البخاري عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – قال : أخذ رسول اللّه ﷺ بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر – رضي اللّه عنهما – يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » [3] .

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يأمر المسلم بالمسارعة في كتابة الوصية استعدادًا ليوم الرحيل ، روى الشيخان عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيتُه مكتوبة عنده » [4] ؛ قال ابن عمر : « ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول اللّه ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيّتي » .

---

(1) الترمذي كتاب الزهد ب (4) برقم 2307 .
(2) رواه مسلم كتاب الجنائز ب 36 برقم 106 . (3) رواه البخاري كتاب الرقاق ب 3 برقم 6416 .
(4) البخاري كتاب الوصايا 55 ، ب 1 برقم 2738 ، ومسلم كتاب الوصية 25 برقم 1 ، 2 ، 4 .

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يعتبر الذاكرين للموت هم أعقل الناس وأفضلهم ..

روى ابن أبي الدنيا والطبراني وابن ماجه والبيهقي .. عن ابن عمر أن رجلًا قال للنبي ﷺ : أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقًا » ، قال : فأيُّ المؤمنين أكْيَس ؟ (أي أعقل) قال : « أكثرهم للموت ذكرًا ، وأحسنهم لما بعده استعدادًا ، أولئك الأكياس »[1] .

والسلف - رضوان الله عليهم - كانوا أكثر ذكرًا للموت وعظة به[2] :

كان ابن عمر – رضي اللّه عنهما – إذا ذكر الموت انتفض انتفاضة الطير ، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون ، حتى كأنّ بين أيديهم جنازة .

وكان حامد القيصري يقول : « كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعدًّا ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملًا ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفًا ، فعلام تفرحون ؟ ! وما عسيتم تنتظرون الموت ؟! فهو أول وارد عليكم من أمر اللّه بخير ، أو شر ، فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا !! » .

وقال الحسن البصري : « فضح الموت الدنيا ، فلم يترك لذي لبّ فيها فرحًا ، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه ، وهان عليه جميع ما فيها » .

وروى المزني قال : دخلتُ على الشافعي في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلًا ، وللإخوان مفارقًا ، ولسوء عملي ملاقيًا ، ولكأس المنية شاربًا ، وعلى اللّه واردًا ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنّيها ، أم إلى النار فأعزّيها ؟ ثم أنشد :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ الرجا منك بعفوك سلّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنْتُه ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّةً وتكرُّما

وكان أبو الدرداء – رضي اللّه عنه – يقعد إلى القبور ، فقيل له لِمَ تفعل ذلك ؟ فقال : أجلس إلى قومٍ يذكّروني معادي ، وإن غبتُ عنهم لم يغتابوني .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل علي فقال : يا ميمون ، هذه قبور آباء بني أمية ، كأنهم لم

---

(1) رواه الطبراني في الصغير رقم 1008 والكبير رقم 13536 ، وابن ماجه برقم 4259 ، وانظر السلسلة الصحيحة رقم 1384 .
(2) الأمثلة من كتاب « مختصر منهاج القاصدين » ص : 412 - 424 .

يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلّت بهم المثُلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام مقيلًا في أبدانهم ؟ .. ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله تعالى !! ..

ألا فليتذكّر الدعاة إلى الله الموت وما بعده .. ؛ ليتزوّدوا من الدنيا بالعمل الصالح ، وليتدرّجوا بشكل دائم في معارج الروحانية ، وسُلّم الكمال ؛ وليصلوا إلى أعظمْ ما يصلون إليه في نيل رضى الله ، والاستعداد ليوم لقائه ؟!! .

وأما عن استعراض الآخرة وأحوالها : فلاشك أن المؤمن الداعية حين يستعرض المواقف التي يقفها أهل الجنة ، وأهل النار .. وحين يتعرّف على أحوالهم في المحشر : عند وضع الميزان ، ونشر الكتب ، واجتياز الصراط .. وحين يطّلع على حال من يدخل الجنة وما أعدّ الله له من نعيم مقيم ، وعلى حال من يدخل جهنم وما أعدّ له من شقاء وجحيم .. المؤمن الداعية حين يستعرض هذه الأحوال كلها .. فإنه يكون أكثر إخباتًا وخوفًا لله ربّ العالمين ، بل يندفع بكليته إلى العمل للآخرة ، ليكون من عداد الذين رضي الله عنهم ، ورضوا عنه ، ويحظى يوم العرض عليه بمقعد صدق عند مليك مقتدر بجوار الفئة الناجية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. وحسُن أولئك رفيقًا .

واليك - أخي الداعية - بعض أحوال أهل الآخرة :

الناس يحشرون حفاة عراة : روى الشيخان عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « يُحشر الناس حفاة عراة غُرْلًا [1] » قالت عائشة : فقلتُ : الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ !! قال : « الأمر أشدّ من أن يهمّهم ذلك » [2] .

الشمس تدنو من رؤوس الخلائق : روى مسلم عن المقدام – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُدْنَى الشمس يوم القيامة من الخَلْق حتى تكون منهم كمقدار ميل .. فيَكون الناس على قدر أعمالهم في العَرَق ، فمنهم من يكون إلى كَعْبَيْه ، ومنهم من يكون إلى ركبتَيْه ، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْه (وسطه) ، ومنهم من يُلْجِمُه العرق إلجامًا » ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه [3] .

تشهد الأرض على العبد ما عمله على ظهرها : روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [4] قال : « أتدرون ما

(1) غُرْلًا : أي غير مختونين . (2) البخاري كتاب الرقاق ب 45 برقم 6527 ، ومسلم كتاب الجنة ب 14 برقم 56 .
(3) مسلم كتاب الجنة ب 15 برقم 62 . (4) سورة الزلزلة الآية : 4 .

أخبارها ؟ » قالوا : اللّه ورسوله أعلم ، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأَمَةٍ بما عمل على ظهرها (أي من خير وشر) تقول : عمل كذا وكذا .. » [1] .

المواضع التي لا يذكُرُ فيها أحدٌ أحدًا : روى أبو داود والحاكم .. عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت ذكرتُ النار فبكيت ، فقال رسول اللّه ﷺ : « ما يبكيك ؟ » قلت : ذكرتُ النار فبكيتُ ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال : « أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا :

عند الميزان حتى يعلم أيخفّ ميزانه أم يثقل ؟

وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أو وراء ظهره ؟

وعند الصراط إذا وضع بين ظهراني جهنم حتى يجوز » أي يجتاز [2] .

تشهد الجوارح على ما فعله العبد : روى مسلم عن أنس قال : كنا عند رسول اللّه ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك ؟ » قلنا : اللّه ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه فيقول : يا ربّ ألم تُجِرْني من الظلم ؟ يقول اللّه : بلى ، فيقول العبد : إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهدًا إلا مني ؛ فيقول اللّه له : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا ، والكرام الكاتبين شهودًا .. قال : فَيَخْتِمُ على فيه ، ويقول لأركانه : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيقول : بعدًا لكُنّ وسحقًا ، فعنكن كنتُ أناضل .. » [3] .

وهذا ما بيّنه اللّه سبحانه في سورة يٰس حين قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

ما جاء في ظُلمة جهنم وسوادها : روى الترمذي وابن ماجه والبيهقي .. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت ، ثم أوقد عليها ألف حتى اسودّت ، فهي سوداء مظلمة » [4] .

ما جاء في أودية جهنم : روى ابن ماجه والترمذي والطبراني .. عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال : « إن في جهنم لواديًا تستعيذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم أربعمائة مرة أُعدّ للمرائين من أمة محمد ﷺ » [5] .

---

(1) ابن حبان 9 / 227 برقم 7317 والترمذي برقم 3353 ، ومسند الإمام أحمد 2 / 374 وغيرهم .

(2) أبو داود برقم 4755 ، والحاكم 4 / 578 ، ومسند الإمام أحمد 6 / 101 .

(3) الإمام مسلم كتاب الزهد رقم 17 .

(4) الترمذي برقم 2591 ، وابن ماجه برقم 4320 ، وانظر البيهقي في الشعب . (5) انظر الترغيب والترهيب 67/1 .

ما جاء في بُعْدِ قعر جهنم : روى مسلم عن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن عزوان – رضي اللّه عنه – فقال : إنه ذكر لنا أن الحجر يُلقَى من شفير جهنم (أي جانبها) فيهوي بها سبعين عامًا ما يدرك لها قعرًا ، واللّه لتُمْلأنّه .. أفعجبتم [1] ؟!! .

ما جاء في مقامع أهل النار : روى أحمد وأبو يعلى والحاكم .. عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أن مقمعًا من حديد جهنم وُضع في الأرض فاجتمع له الثقلان (الإنس والجن) ما أقلّوه من الأرض » ، أي ما استطاعوا حملة وزحزحته [2] .

ما جاء في قبح أهل النار : روى ابن أبي الدنيا موقوفًا عن عبد اللّه بن عمرو – رضي اللّه عنهما – قال : « لو أن رجلا من أهل النار أُخرج إلى الدنيا لمات أهل الدنيا من وحشة منظره ، ونتن ريحه » ثم بكى عبد اللّه بكاءً شديدًا .

ما جاء في شراب أهل النار : روى أحمد والترمذي والحاكم .. عن أبي أمامة – رضي اللّه عنه – عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ .. ﴾ [3] ، قال : يقرّب إلى فيه فإذا أدني منه شوى وجهه ، ووقعت فَرْوَةُ رأسه ، فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى يخرج من دُبرُه ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ .. ﴾ [4] ، ويقول : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ .. ﴾ [5] .

ما جاء في طعام أهل النار : روى الترمذي والنسائي وابن ماجه .. عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

فقال رسول اللّه ﷺ : « لو أن قطرة من الزقّوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » [6] .

ما جاء في ضخامة أهل النار : روى ابن ماجه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الكافر ليعظم حتى إن ضرسه لأعظم من أحد ، وفضيلة جسده على ضرسه كفضيلة جسد أحدكم على ضرسه » [7] .

---

(1) رواه الإمام مسلم كتاب الزهد برقم 14 .

(2) مسند الإمام أحمد 3 / 29 ، ومسند أبي يعلى 2 / 1388 ، والحاكم 4 / 600 .

(3) إبراهيم : 16 ، 17 . (4) محمد : 15 .

(5) مسند الإمام أحمد 5 / 265 ، وسنن الترمذي 4 / 705 برقم 2583 ، والحاكم 2 / 351 . والآية من سورة الكهف : 29 .

(6) سنن الترمذي 4 / 707 برقم (2585) ، وسنن ابن ماجه 2 / 1446 برقم (4325) . والآية من سورة آل عمران : 102 .

(7) انظر ابن ماجه 2 / 1445 برقم (4322) .

ما جاء في بكاء أهل النار : روى ابن ماجه وأبو يعلى .. عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود ، لو أرسلت فيها السفن لجرت »[1] .

أما عن أحوال أهل الجنة :

فيكفيهم فخرًا وشرفًا أن الله سبحانه أعد لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .. فقد روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عزَّ وجلَّ : أَعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ »[2] .

ويكفيهم عزًّا وكرامة أنهم مخلّدون فيها أبدًا بلا سقم ولا هرم ولا حرمان .. فقد روى مسلم والترمذي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي منادٍ : إن لكم أن تصحوّا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا[3] أبدًا ، ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ »[4] .

ويكفيهم غبطةً ونعيمًا أنهم ما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى وجه الله الكريم .. فقد روى مسلم والترمذي والنسائي عن صُهيب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنّة الجنة يقول الله عز وجل : تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ ألم تنجّنا من النار ؟ قال : فيُكشَف الحجاب ، فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربّهم » ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[5] .

فبعد أن تستعرض - أخي الداعية - أحوال أهل الشقاء في النار ، وأحوال أهل السعادة

---

(1) سنن ابن ماجه 2 / 1446 برقم (4324) ، وأبو يعلى بنحوه برقم (4135) .
(2) اللؤلؤ والمرجان 2 / 286 برقم (1798) . والآية من سورة السجدة آية : 17 .
(3) فلا تبأسوا : لا يحصل لكم بأس أو شقاء أو ضرر .
(4) رواه مسلم 2182 ، والترمذي 5 / 374 برقم 3346 . والآية من سورة الأعراف : 43 .
(5) رواه مسلم 1/ 163 ، والترمذي 5 / 286 . والآية من سورة يونس : 26 .
وذهب أكثر المفسرين إلى أن المقصود بالزيادة في الآية النظر إلى وجه الله الكريم .

في الجنة .. وبعد أن تتدبّر مصائر أولئك يوم الفزع الأكبر .. يوم يعرضون لاتخفى على اللّه منهم خافية .. فإنك – ولا شك – تصبح من الخاشعين المخبتين الأصفياء .. الذين يدعون اللّه رغبًا ورهبًا ، ويخشون ربهم سرًّا وعلنًا ، ويتدرّجون في منازل المتقين الأبرار ...

* * *

2 – أما ما يرتبط بالجانب العملي في تغذية الروحانية :

فإنه كثير ، بل يشمل حياة المسلم كلها ، وسوف نجتزئ في هذه العجالة أظهرها وأهمّها :

أولًا – أن يكثر من تلاوة القرآن الكريم مع التدبر الخاشع : لكون هذه التلاوة المتدبّرة الخاشعة جلاء البصائر الكليلة ، وشفاء الصدور العليلة .. فإذا لزم المؤمن التلاوة للقرآن الكريم في تمهّل ، وتدبّر ، وتخشّع .. انفتحت أغلاق قلبه ، وسطعت أنوار القرآن الكريم وبشاشته في آفاق نفسه .

وإلى هذا يدعونا اللّه تبارك وتعالى في سورة ص : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

وكان – عليه الصلاة والسلام – يديم تلاوة القرآن ، ويسأله سبحانه أن يجعل القرآن ربيع قلبه ، ونور بصره ، وجلاء حزنه ، وذهاب همه وغمّه .. فقد روى النسائي والترمذي والحاكم .. أنه ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك .. ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سمّيت به نفسك ، أو أنزلتَه في كتابك ، أو علّمتَه أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همّي .. ولا حول ولا قوة إلا باللّه » [1] .

ويكفي التالي للقرآن شرفًا وفخرًا أنه يأتي وقد تشفّع له يوم القيامة .. روى مسلم عن أبي أمامة عنه عليه الصلاة والسلام : « اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه » [2] .

ويكفي التالي للقرآن مجدًا وعظمة أنه مع السّفرة الكرام البَرَرة .. روى الشيخان عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به (أي حاذق) مع السفرة الكرام البَرَرة ، والذي يقرأ القرآن وَيَتَتَعْتَعُ فيه وهو

(1) انظر الترغيب والترهيب 2 / 616 ، ومجمع الزوائد 10 / 176 . (2) الإمام مسلم 1 / 553 برقم 804 .

عليه شاق له أجران » [1] .

ويكفي التالي للقرآن مثوبة وأجرًا أنّ له في كل حرف يقرؤه عشر حسنات .. روى الترمذي عن ابن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ حرفًا من كتاب اللّه فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الـم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » [2] .

والورد القرآني يختلف مقداره على حسب ظرف الأخ الداعية وحدود مسؤوليته .. والمهم ألا يمرّ به يوم بغير أن يقرأ شيئًا من كتاب اللّه تعالى .

وسنورد هنا أوجه تقسيم الورد القرآني عند سلفنا الصالح – كما جاء في كتاب المأثورات للإمام البنا ؛ ليأخذ منها الداعية ما يستطيع أن يفعله وينهض به :

(1) أقلّ مدة للختمة ثلاثة أيام ، وقد كرهوا أن يختم الإنسان في أقل من ثلاث وفي أكثر من شهر ؛ وقالوا : إن في الختم في أقلّ من ثلاث إسراعًا لا يعين على التفهّم والتدبر ، وفي الختم في أكثر من شهر إسرافًا في هجر التلاوة .

روى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص – رضي اللّه عنهما – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لم يفقه من قرأ القرآن في أقلّ من ثلاث » [3] .

(2) الحدّ الوسط أن يختم كل أسبوع إذا تمكن من ذلك ، وقد أمر رسول اللّه ﷺ عبد اللّه بن عمرو أن يختم في كل أسبوع مرة كما ثبت في صحيح البخاري ومسلم .

وكذلك كان جماعة من الصحابة – رضوان اللّه عليهم – يفعلون : كعثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وعبد اللّه بن مسعود ، وأبي بن كعب .

(3) وإذا لم يستطع أن يختم كل أسبوع لأعمال كثيرة يقوم بها ، فللأخ الداعية أن يقرأ حسب مقدرته بحيث لا يمضي يوم يمرّ به بغير تلاوة ، واللّه المستعان ، وهو الموفق .

ثانيًا – مصاحبة النبي ﷺ في سيرته العطرة : لكونه – صلوات اللّه وسلامه عليه – الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، والأنموذج الكامل .. للإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان .. وصدق اللّه العظيم القائل في سورة الأحزاب : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ

(1) اللؤلؤ والمرجان 1 / 154 برقم 461 ، وكذلك سنن أبي داود برقم 1454 . (2) سنن الترمذي 5/ 175 برقم 2910 .
(3) سنن أبي داود (1390) ، والترمذي (2946) ، وابن ماجه 1 / 428 برقم 1347 .

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

والداعية هو أولى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في كل جانب من جوانب عظمته .. سواء ما يتعلق بالعبادة والزهد ، أو ما يرتبط بالتواضع والحلم ، أو ما يختص بالقوة والشجاعة ، أو ما يتصل بالسياسة والثبات على المبدأ .

ومن أظهر ضروب التأسي بالنبي ﷺ هو جمعه العظيم بين الدين والدنيا ، والعبادة والحياة ، والتزكية والجهاد دون الإخلال في أي جانب من هذه الجوانب كلها .

يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام في كتابه « بطل الأبطال » ص 48 : « .. وإن الذي يلفت النظر في ظاهرة تعبّده عليه الصلاة والسلام هو ذلك الجمع الغريب بين العبادة التي بلغ أعلى مراتبها ، وبين القيام على أمور الدنيا ، وشؤون الدعوة ، وقضايا الجهاد .. كان يناضل أمّة بأكملها ، يسوس دولة فتية في وجه العالم ، يوفد إلى الملوك ويدعوهم ، ويستقبل الوفود ويكرمهم ، ويبعث السرايا ويقودها ، ويجادل من حوله من أهل الأديان وأهل السلطان ، ويهيئ للنصر ، ويحتاط للهزيمة ، ويبعث العمال ، ويجبي الأموال ويقسمها بنفسه ، ويقول : « إن لم أعدل فمن يعدل ؟ » ويشرع للناس دين الله ، فيفصّل المجمل من الوحي ، ويوضّح الغامض ، ويرسم السّنن ، فيخرّج من الأصل فروعه ، ويردّ ما لم يطلعه الله عليه إلى ما أطلعه الله عليه ، وهو في كل ذلك يؤدي العمل اليومي الذي ينوء به أبطال هذه الدنيا ؛ وبين هذه الهموم والمشاغل يتجلّى النبي ﷺ الناسك العابد بالليل والنهار أعظم انقطاعًا إلى الله ممن انقطعوا إليه في الصوامع وفي رؤوس الجبال .. ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من بطل الأبطال ﷺ مثلًا قائمًا بنفسه في تاريخ البشرية منقطع النظير .. » .

بعد هذه اللفتة الكريمة في توفيق النبي ﷺ بين الدين والدنيا ، والعبادة والحياة :

فليتأسّ الداعية **بعبادة** النبي ﷺ ، وليضع نصب عينيه أنه – عليه الصلاة والسلام – كان يقوم الليل كله إلا قليلًا ، بل كان يتهجد من الليل حتى تتورّم قدماه .

فليسدّد الداعية ، وليقارب ، وليجتهد بالنوافل ما استطاع إلى ذلك سبيلًا .

وليتأسّ **بزهده** وليضع نصب عينيه أنه – صلوات الله وسلامه عليه – ما شبع من خبز بُرّ (حنطة) ثلاثة أيام تباعًا منذ قدم المدينة حتى مضى لسبيله .. ولو أراد أن يشبع لفعل .. فليسدد الداعية وليُقارب ، وليستعفف عن مباهج الحياة وزينتها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا .

وليتأس **بتواضعه** ﷺ ، وليضع نصب عينيه أنه ﷺ كان يجلس على الأرض ، ويأكل مع الخادم ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم في مهنة أهله ، ويجيب دعوة الحر والخادم والأمة ، ويجلس حيث ينتهي به المجلس .

فليسدّد الداعية ، وليقارب ، وليخفض جناحه للمؤمنين ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وليتأسّ **بحلمه** ﷺ وليضع نصب عينيه قوله ﷺ بعد فتح مكة لمن أمعنوا في اضطهاده ، وأخرجوه من بلده ، وتآمروا على قتله ؛ : « يا معشر قريش : ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

فليسدّد الداعية وليقارب ، وليصفح الصفح الجميل ما استطاع إلى ذلك سبيلًا .

وليتأسّ **بثباته على المبدأ** ﷺ ، وليضع نصب عينيه ثباته النادر ، وجرأته المتناهية .. من مشركي قريش حين قال لعمه هذه الكلمات الخالدات : « واللّه يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يظهره اللّه أو أهلك دونه » .

فليسدّد الداعية وليقارب ، وليقل كلمة الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلًا .

وليتاسّ **بقوته الجسدية** ﷺ ، وليضع نصب عينيه كيف صرع ركانة ثلاث مرات ؟ وكيف صفع تحدّي أبي بن خلف في أحد ؟ وكيف لجأ إليه الصحابة لتفتيت الصخرة العاتية في الخندق ؟

فليسدّد الداعية وليقارب ، وليأخذ بأسباب القوة الجسدية ما استطاع إلى ذلك سبيلًا .

وليتأسّ **بشجاعته الفائقة** ﷺ ، وليضع نصب عينيه موقفه العظيم في حُنين حين تحدّى الدنيا بشجاعته الرائعة حين قال :

أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب

فليسدد الداعية وليقارب ، وليقتحم معارك الوغى ببسالة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا .

وهكذا حين يكون الداعية مع رسول اللّه ﷺ في سيرته المطهرة ، وشمائله الكريمة .. يسير معه حيثما سار ، ويجلس معه حيث جلس ، ويستمع إلى لطائف وعظه حين يخطب ويتحدث ، ويتأسّى برقّة مناجاته لربّه في جوف الليل وخلوات النهار ، ويتأثر ببطولاته الفائقة في حومة الوغى وساحات الجهاد ..

حين يصحب الداعية النبي ﷺ هذه المصاحبة الوجدانية العميقة ، ويكون مع

الرسول ﷺ حيثما كان .. يلين قلبه بشفافية روحه ﷺ ، وتصفو نفسه بصفاء نفسه عليه الصلاة والسلام ، ويستبين له النهج الصالح ، والغاية العليا من الحياة ، ويتدرّج شيئًا فشيئًا نحو الكمال والروحانية ، ويصبح الإنسان السويّ ، والمؤمن التقي ، والمسلم الناضج .. الذي يشار إليه بالبنان .

ثالثًا – مصاحبة الأخيار من أصحاب القلوب وأهل المعرفة بالله : لاشك أن الداعية هو أولى من غيره في صحبة المتقين الأخيار ، ومعاشرة أصحاب القلوب وأهل المعرفة بالله ، وذلك لسببين :

الأول – لكون الشرع أمر بصحبتهم وملازمتهم .

الثاني – لاكتساب التقوى والروحانية والنصح منهم .

أما لكون الشرع أمر بصحبتهم وملازمتهم :

فلقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [1] .

ولقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي » [2] .

ولقول جماعة من السلف : « اصحب من ينهضك حاله ، ويدلّك على الله مقاله » .

ومن فضائل الصحبة الخالصة ، والمحبة الصادقة .. أن المرء مع من أحب ولو كان المحبوب دونه تقى وعلمًا ومنزلة .. بل يكون معه في الجنّة إن شاء الله .. وذلك لما روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : « المرء مع من أحبّ » ، وفي رواية : قيل للنبي ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « المرء مع من أحبّ » [3] .

وللصفوة المختارة من أهل المعرفة بالله علامات :

من علاماتهم : التزامهم أمر الشرع بإخلاص نيّة ، وصدق طاعة ، واستمرارية عمل .

ومن علاماتهم : أن لا تظهر منهم معصية أو بدعة أو أية مخالفة شرعية .. لكونهم المتبعين الملتزمين الأطهار .

ومن علاماتهم : الاشتغال بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس .

---

(1) سورة التوبة الآية : 119 . (2) أبو داود (4832) ، والترمذي (2395) . (3) اللؤلؤ والمرجان 3 / 206 .

ومن علاماتهم : القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوة إيمان وشجاعة نفس .

ومن علاماتهم : أن تظهر مسحة التقوى ، ونضارة الإيمان على وجوههم وملامحهم .

ومن علاماتهم : الاهتمام بشؤون المسلمين ، والتحمّس لقضاياهم .

ومن علاماتهم : التحرك الصادق لمسؤولية الدعوة ، والتحمس المخلص لقضايا الإصلاح والجهاد والتغيير .. فإذا وجد الداعية دعاة حق ، وهداة خير ، وأئمة هدى ، هذه مواصفاتهم ، وتلك علاماتهم .. فليحرص على صحبتهم وملازمتهم والتمسك بهم وحضور مجالسهم .. دون تهاون أو تقصير . ورحم اللّه من قال :

تمسّك إن ظفرت بذيل حرّ ... فإن الحرّ في الدنيا قليل

وليحذر الداعية مصاحبة الأدعياء من دعاة السوء الذين يُسْقطون عن أنفسهم وعن أتباعهم أحيانًا التكاليف الشرعية ، ويعطلون أحكام الإسلام ، ويؤوّلون النصوص على نقيض ما تحتمل ، ويسيرون في سلوكهم وتوجيههم على غير هدي الشريعة ومنهج السلف .. لكون أولئك لا يدعون إلا لبدعة ، ولا يوجهون إلا إلى ضلال ، ولا يأمرون إلا بباطل .

قال تعالى في سورة النور : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

أما لاكتساب التقوى والروحانية والنصح منهم :

فلاشك أن الداعية إلى اللّه إذا صحب هؤلاء النماذج من أهل التقوى والمعرفة باللّه .. فإنه يكتسب منهم التقوى ، ويرتشف من حالهم ومقالهم معين الروحانية ، بل يأخذ منهم كل ما ينفعه من أمور دينه ودنياه وآخرته ، بل يسير في اطّراد سيرًا حثيثًا نحو النضج والكمال والمعرفة باللّه .. وكما يقولون : الصاحب ساحب ، لا تقل لي : من أنت ؟ بل قل لي : من تصاحب ؟ تعرف من أنا !! .

وإلى هذا أشار النبي ﷺ في الحديث الذي رواه ابن حبان : « المرء على دين خليله ؛ فلينظر أحدكم من يخالل » [1] .

ومن المعلوم بداهة أن صحبة الأخيار توجه إلى الخير والهدى ، وأن صحبة الفجار

(1) أخرجه أبو داود في الأدب (4823) ، والترمذي في الزهد (2379) ، وأحمد 2 / 303 و 434 ، والحاكم 4 / 171 . انظر شرح السنة 13 / 70 .

توجه إلى الشر والضلال !!

ورحم اللّه من قال :

عن المرء لا تَسْأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وكم سمعنا عن شباب مبتدئين سلكوا طريق الدعوة إلى اللّه فصاحبوا الأخيار من أهل التقوى والقلوب والمعرفة باللّه .. ؛ فاكتسبوا منهم كل ما يرفع من مستواهم الإيماني والخلقي والعلمي والدعوي .. ؛ فأصبحوا بعد فترة وجيزة من كبار المرشدين والدعاة الذين يشار إليهم بالبنان ، كأمثال الشهيد سيد قطب ، والمرحوم حسن الهضيبي ، والشهيد عبد القادر عودة ، والشهيد الشيخ محمد فرغلي ، والشهيد كمال السنانيري .. وعشرات غيرهم ممن تخرجوا من مدرسة الإمام الشهيد **حسن البنا** .. فأصبح لهم هذا الأثر ، وكان لهم هذا الذكر ، وبقيت لهم في الأجيال هذه القدوة ؟!! .

وكذلك المرحوم الشيخ **مصطفى السباعي** المؤسس الأول للحركة الإسلامية في سورية ، فقد تخرج على يديه المئات من الشباب المؤمن الواعي .. فأصبحوا بفضل صحبته وتوجيهه مصابيح هداية ، وأئمة إصلاح .. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا . ولا ننسى مدرسة الشيخ الوقور المرحوم **أبي الأعلى المودودي** ، والداعية الكبير الشيخ **أبي الحسن الندوي** ، وعشرات غيرهم ، الذين اكتسب منهم الدعاة والعلماء والشباب التقوى والعلم والروحانية ، والارتباط بالدعوة ، والتحمّس للإسلام ، والجهاد لإعلاء كلمة اللّه . فسوف يبقون في تاريخ الإنسانية أعلامًا ، هادين للركب ، ورمزًا للجهاد ، ومنارات متلألئة في بحار الظلمات .. ما أحوج الداعية إلى مصاحبة هؤلاء النماذج من أئمة الهدى ، وقادة الإرشاد .. ؛ ليصل إلى مراتب الروحانية والإخلاص والعمل في سبيل اللّه .. ؛ بل ليسير على الدرب سيرهم ، وينهج في الدعوة نهجهم ، ويسلك في الأثر والتربية الروحية والإصلاح مسلكهم .. وما ذلك على اللّه بعزيز .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

رابعًا – مداومته على ذكر اللّه عز وجل في كل الأوقات والأحوال : هذه المداومة على ذكر اللّه جاء الأمر بها ، والحض عليها في كثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية :

فمن هذه الآيات :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. ﴾ [1] .

(1) سورة البقرة الآية : 152 .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ [1] .

﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ ﴾ [2] .

ومن هذه الأحاديث :

« مَثَل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيّ والميت » [3] .

« ليبعثنّ اللّه أقوامًا يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء » فجثا أعرابي على ركبتيه ، فقال : يا رسول اللّه حَلِّهم (صفهم) نعرفهم ، قال : « هم المتحابون في اللّه من قبائل شتى ، وبلاد شتى يجتمعون على ذكر اللّه يذكرونه » [4] .

وفي الحديث القدسي : « أنا عند حسن ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأٍ خير منهم ، وإن تقرّب مني شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا ، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربتُ منه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولة » [5] .

والذكر معناه : استحضار عظمة اللّه سبحانه في جميع الأحوال .. سواء أكان هذا الاستحضار ذهنيًا ، أو قلبيًا ، أو لسانيًا ، أو فعليًا ، ويشمل الفعل : التلاوة ، والعبادة ، والعلم ..

وهذا المعنى للذكر هو ما بينه القرآن الكريم والرسول ﷺ في مناسبات كثيرة :

● **ففي المعنى الذهني** يقول القرآن الكريم في سورة النور : ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ ﴾ .

فاستحضار عظمة اللّه ومراقبته قائمة مستمرة حتى في التعامل التجاري ، وتعاطي البيع والشراء ..

● **وفي المعنى القلبي** يقول القرآن الكريم في سورة الرعد : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾ .

---

(1) الأحزاب : 41 ، 42 . (2) النساء : 103 .

(3) رواه البخاري كتاب الدعوات برقم (6407) . (4) انظر مجمع الزوائد 10 / 77 .

(5) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان 3 / 219 برقم 1713 .

فاستحضار عظمة اللّه مستقرة في القلب ، متغلغلة في النفس .. يجد المؤمن حلاوتها وسكينتها في الحنايا والضلوع ..

● **وفي المعنى اللساني** فكل الآيات والأحاديث التي تأمر المؤمن بذكر اللّه عز وجل يدخل في مضمونها ذكر اللّه باللسان دخولًا أوليًا ؛ لأن اللفظ هو أول ما يحتمله ، والأمر هو أول ما يدل عليه .. ومما يؤكد هذا حديث أبي هريرة – فيما رواه ابن ماجه وابن حبّان – عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إن اللّه عز وجل يقول : أنا مع عبدي إذا هو ذكرني ، وتحركت بي شفتاه » [1] .

وفي رواية الترمذي عن عبد اللّه بن بسر أن رجلًا قال : يا رسول اللّه إن شرائع الإسلام قد كثرت علي ، فأخبرني بشيء أتشبّث به ؟ قال : « لا يزال لسانك رطبًا بذكر اللّه » [2] ، **ويدخل في الذكر اللساني** : كل الأدعية والمأثورات التي صحّت روايتها عن النبي ﷺ ، وأثِرَت عن أصحابه الكرام ، والسلف الصالح – رضي اللّه عنهم – سواء ما يتعلق بأدعية الصباح والمساء ، أو أدعية الطعام والشبع ، أو أدعية السفر والإقامة ، أو أدعية الدخول والخروج ، أو أدعية النوم واليقظة ، أو أدعية التهجد والظواهر الكونية ... كما يدخل في الذكر اللساني كل الاستغاثات الإلهية ، والاستغفارات الربانية .. التي ذكرها القرآن ، ورُويت عن نبينا عليه الصلاة والسلام [3] .

● **وفي المعنى الفعلي الذي يشتمل التلاوة** : يقول اللّه سبحانه في سورة الحجر : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ .

والمقصود بالذكر في الآية القرآن الكريم .

● **وفي المعنى الفعلي الذي يشمل العبادة** : يقول اللّه سبحانه في سورة الجمعة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [4] .

والمقصود بالسعي إلى ذكر اللّه في الآية صلاة الجمعة .

● **وفي المعنى الفعلي الذي يشمل العلم** : يقول اللّه سبحانه في سورة الأنبياء : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾ .

(1) سنن ابن ماجه 2 / 1246 (3792) ، وانظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان 2 / 90 .

(2) سنن الترمذي (3375) .

(3) من المراجع للأدعية والأذكار : « كتاب الأذكار » للإمام النووي ، « المأثورات » للإمام البنا ، أو أي كتاب جمع بين طيّاته الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ .

(4) سورة الجمعة الآية : 9 .

والمقصود بأهل الذكر في الآية المختصون من العلماء .

أعرفت – أخي الداعية – أن الذكر لا يقتصر على حالة واحدة ، ولا يختص بطقوس معينة ، وإنما يشمل أمورًا كثيرة سبق ذكرها وتعدادها من ذهن وقلب ولسان وفعل ؟!! .

فاجتهد – أخي الداعية – على المداومة على ذكر اللّه ؛ لترتفع بنفسك إلى أعلى مراتب الروحانية ، وليكون لك شرف المناجاة للحضرة الإلهية .. عسى أن تكون هذا المسلمَ العابد الذاكر المخْبِت الخاشع الذي لا تدنسه معصية ، **ولا يهمّ بفاحشة** .. وهذا – واللّه – غاية التقوى والصلاح والخلُق القويم .

خامسًا – بكاؤه في خلواته من خشية اللّه : ولاشك أن الداعية حين يخلو إلى ربّه ويستعرض بينه وبين نفسه ذنوبه السابقة واللاحقة ، ويتذكر جهنم وأحوالها ، والآخرة وأهوالها .. ويمرّ بخاطره على الموت وما بعده ، ويوازن بين عمله وعمل السابقين الأولين .. فإن قلبه يخفق ، ونفسه ترتجف ، وعينه تدمع .. فيقبل بعد هذه التذكرة إلى ربه تائبًا منيبًا مستغفرًا ذاكرًا حافظًا لحدوده ، متبعًا لأوامره ، منتهيًا عن نواهيه .. بل يكون من السابقين إلى الخيرات ، والمقبلين على الطاعات ، والمخبِتين للّه ربّ العالمين ..

واعلم – أخي الداعية – أن البكاء يكون نتيجة الخوف ، الخوف من ماذا ؟

الخوف من الموت قبل التوبة .. الخوف من الاستدراج بالنعم الذي يؤدي إلى سوء الخاتمة .. الخوف من سكرات الموت ونزع الروح .. الخوف من سؤال الملكين وعذاب القبر .. الخوف من الحساب والعبور على الصراط .. الخوف من النار وأهوالها .. الخوف من حرمان الجنة ونعيمها ...

وأعظم من ذلك : أن يخاف الرياء حين يتعبّد ، والعُجب حينَ يشتغني ، والنفاق حين يخالط ، والكبْر حين يتزيّن ، والغرور حين تأتيه الدنيا .. إلى غير ذلك من أمراض القلوب ، وآفات النفوس .. وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربّه ، ولذلك قال ﷺ – كما ثبت في الصحيح – : « أنا أعرفكم باللّه وأشدّكم له خشية » [1] ، وقال تعالى في سورة فاطر : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [2] .

وإذا عرف الإنسان نفسه ، وخشي ربه .. تملّكه الخوف ، وفاض أثره على قلبه ،

(1) كشف الخفاء ومزيل الإلباس 1/ 231 وله شاهد من لفظه عند البخاري انظر صحيح البخاري (7301) .
(2) سورة فاطر الآية : 28 .

ثم ظهر الأثر على جوارحه ، فتغيّر لونه ، وارتجفت أعضاؤه ، ودمعت عيناه .. ولم يكن له شغل إلا المراقبة للّه ، والمحاسبة لنفسه ، والمجاهدة لشيطانه .. ولم يكن له همّ سوى أن يتقي اللّه في الخطرات والخطوات ، والكلمات .. وبهذا تصلح حاله ، وتستقيم أعماله ، ويتدرّج نحو الكمال ، ويصل إلى أعلى مراتب الروحانية ..

وإليك – أخي الداعية – فضل البكاء من خشية اللّه :

أ – **إنهم في ظل اللّه يوم القيامة** : روى الشيخان : « سبعة يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ... » ومن جملتهم : « ورجل ذكر اللّه خاليًا ففاضت عيناه » [1] .

ب – **إنهم في مأمن من عذاب اللّه** : روى الترمذي عن ابن عباس قال : سمعت رسول ﷺ يقول : « عينان لا تمسّهما النار : عين بكت من خشية اللّه ، وعين باتت تحرس في سبيل اللّه » [2] .

ج – **إنهم في كنف المحبة الإلهيّة** : روى الترمذي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ : « ليس شيء أحبَّ إلى اللّه من قطرتين وأثرين : قطرة من دموع في خشية اللّه ، وقطرة دم تُهْرَاقُ في سبيل اللّه ، وأما الأثران : فأثَر في سبيل اللّه (أي في الجهاد) وأثر في فريضة من فرائض اللّه (أي صلاة الجماعة) » [3] .

د – **إنهم في عفو اللّه ومغفرته** : روى ابن حبان والبيهقي عن العباس بن عبد المطلب – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا اقشعرَّ جلد العين من خشية اللّه تحاتّت عنه ذنوبه (أي تناثرت) كما يتحاتّ عن الشجرة اليابسة ورقها » [4] .

ولو نقبنا في سيرة النبي ﷺ ، وفي حياة الصحابة والسلف .. لرأينا الصور الصادقة ، والنماذج الصالحة .. في إخباتهم للّه ، وبكائهم من خشيته ، واستشعارهم بجبروته وعظمته ..

وإليكم بعض الصور والنماذج :

1 – روى الشيخان عن ابن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : قال لي النبي ﷺ : « اقرأ عليّ القرآن » قلت : يا رسول اللّه أقرأ عليك القرآن وعليك أُنزل ؟ قال :

---

(1) اللؤلؤ والمرجان 1 / 216 (610) .

(2) سنن الترمذي 4 / 175 (1639) ، وانظر شرح السنة للبغوي 10 / 355 .

(3) سنن الترمذي 4 / 190 (1669) ، والطبراني 8 / 280 .

(4) انظر الترغيب والترهيب 4 / 266 ، ومجمع الزوائد 10 / 310 .

« إني أحبّ أن أسمعه من غيري » ، فقرأتُ عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ ، قال : « حسبك الآن » (أي يكفيك) ، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان !! [1] .

2 – وروى مسلم عن أنس قال : قال أبو بكر لعمر – رضي اللّه عنهما – بعد وفاة رسول اللّه ﷺ : انطلق بنا إلى أمّ أيمن نزورها كما كان رسول اللّه ﷺ يزورها ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند اللّه تعالى خير لرسول اللّه ﷺ ؟ قالت : ما أبكي أني لا أعلم أن ما عند اللّه خير لرسول اللّه ﷺ ، ولكنني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها !! [2] .

3 – روى البخاري .. أن عبد الرحمن بن عوف – رضي اللّه عنه – أُتي بطعام وكان صائمًا فقال : قتل مصعب بن عمير – رضي اللّه عنه – وهو خير مني ، فلم يوجد له ما يكفّن فيه إلا بردة إن غُطّيَ بها رأسه بدتْ رجلاه ، وإن غُطّي بها رجلاه بدا رأسه ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسِط ، قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام !! [3] .

4 – وروى البيهقي والأصبهاني عن أنس قال : تلا رسول اللّه ﷺ هذه الآية : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [4] فقال : « أوقد عليها ألف عام حتى احمرّت ، وألف عام حتى ابيضّت ، وألف عام حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهيبها » قال : وبين يدي رسول اللّه ﷺ رجل أسود فهتف بالبكاء ، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال : من هذا الباكي بين يديك ؟ قال : رجل من الحبشة وأثنى عليه معروفًا ، قال : « فإن اللّه عز وجل يقول : وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي لا تبكي عين في الدنيا من مخافتي إلا أكثرتُ ضحكها في الجنة » [5] .

5 – روى ابن أبي الدنيا موقوفًا عن عبد اللّه بن عمرو قال : « لو أن رجلا من أهل النار أُخرج إلى الدنيا لمات أهل الدنيا من وحشة منظره ونتن ريحه » ثم بكى عبد اللّه بن عمرو بكاءً شديدًا [6] .

فاجتهد – أخي الداعية – على أن تخلو خلوات بينك وبين ربك ، وأن تذكر

---

(1) اللؤلؤ والمرجان 1 / 155 (463) .
(2) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة (103) .
(3) صحيح البخاري كتاب المغازي (4045) .
(4) التحريم : 6 .
(5) انظر الترغيب والترهيب 4 / 234 .
(6) انظر الترغيب والترهيب 4 / 483 .

الموت وما بعده ، وأن تستعرض الآخرة وأهوالها ، وأن تحاسب نفسك ، وتسألها : ماذا قدمت لهذا اليوم الموعود ؟ عسى أن تأخذك الخشية ، ويملكك البكاء .. فتكون ممن استأهلوا الاستظلال في ظل عرش الله يوم القيامة ، وممن نجوا من عذاب الله يوم الفزع الأكبر ، وممن شملهم عفو الله ومغفرته في اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ، وممن غمرتهم المحبة الإلهية في الدنيا والآخرة .. وممن تدرّجوا أيضًا في مدارج الكمال ، وارتفعوا في معارج الروحانية ، وبلغوا مقام الصديقين والشهداء والصالحين .. وحسن أولئك رفيقًا ..

سادسًا – حرصه على التزوّد من عبادة النافلة على الدوام : ومما يقرب العبد إلى الله ، ويَجْعَلُه في حظوة من محبة الله ورضوانه ، ويرفعه إلى منازل الصديقين الأبرار .. مواظبته الدائمة على عبادة النافلة كلما سنحت له فرصة من ليل أو نهار ..

فلنستمع إلى ما ورد في الشرع في فضل عبادة النافلة وأجر المتعبّدين الأصفياء :

قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ .

روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام : « ... ومن تقرّب إليّ شبرًا تقرّبتُ إليه ذراعًا ، ومن تقرّب إلي ذراعًا تقرّبتُ إليه باعًا ، وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلتُ إليه أهرول » [1] .

وروى البخاري عنه ﷺ : « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه ... » [2] .

وروى مسلم عنه ﷺ : « ما من عبد مسلم يصلّي للّه تعالى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة تطوعًا من غير الفريضة إلا بنى الله له بيتًا في الجنة » [3] .

والمقصود بالنافلة : عبادة التطوع من غير الفريضة سواء أكانت العبادة صلاة أو صومًا أو صدقة أو حجًا ..

ولا بأس أن أسوق لك – أخي الداعية – نماذج من عبادة النفل في الصلاة والصوم والصدقة والحج لأهمية هذه العبادات على سائر الطاعات عسى أن تنتهجها لنفسك ، وتقوم على تنفيذها كلما سنحت لك فرصة من وقت :

---

(1) سبق تخريجه ص 192 .
(2) صحيح البخاري كتاب الرقاق ب 38 (6502) .
(3) صحيح مسلم كتاب المسافرين (103) .

أ - نافلة الصلاة :

1 - **صلاة الضحى** : روى مسلم عن أبي ذر - رضي اللّه عنه - أن رسول اللّه ﷺ قال : « يصبح على كل سُلامَى من أحدكم صدقة .. ، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » . وروى مسلم عن عائشة - رضي اللّه عنها - قالت : « كان رسول اللّه ﷺ يصلي الضحى أربعًا ويزيد ما شاء » .

وروى مسلم عن أم هانئ أن النبي ﷺ صلّى ثماني ركعات [1] ..

فيؤخذ من هذه الروايات الثلاثة أن أقل صلاة الضحى ركعتان ، وأوسطها أربع ، وأكثرها ثمان ، فليختر المتنفل ما شاء .

ويبدأ وقتها بعد طلوع الشمس بنصف ساعة إلى ما قبيل الظهر بساعة .

2 - **صلاة الأوّابين** : وهي ست ركعات بعد صلاة المغرب ؛ لما روى ابن ماجه عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - أن النبي ﷺ قال : « من صلّى بعد المغرب ستّ ركعات لم يتكلم بينهن بسوء ، عَدَلْنَ له بعبادة اثنتي عشرة سنة » [2] .

3 - **ركعتا تحية المسجد** : روى مسلم عن أبي قتادة أن رسول اللّه ﷺ قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين » [3] .

4 - **ركعتا سنة الوضوء** : روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ لبلال - رضي اللّه عنه - : « حدثني بأرجى عمل عمِلْتَه في الإسلام ، فإني سمعتُ دفّ نعليك (أي صوته) بين يدي في الجنة » ، فقال : ما عملتُ عملًا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورًا في ساعة ليل أو نهار إلا صلّيت بذلك الطُّهور ما كتب لي أن أصلّي [4] .

5 - **صلاة الليل** : روى الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » [5] .

وروى الترمذي عن أبي أمامة عن رسول اللّه ﷺ قال : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين ، وهو قربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة للإثم » [6] .

وروى الترمذي عن عبد اللّه بن سلام - رضي اللّه عنه - عن النبي ﷺ قال : « أيها

(1) الأحاديث السابقة عن صلاة الضحى رواها الإمام مسلم في كتاب صلاة المسافرين ب (13) .
(2) سنن ابن ماجه (1167) . (3) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين ب (11) .
(4) رواه البخاري في كتاب التهجد ب (17) برقم (1149) .
(5) سنن الترمذي (438) . (6) سنن الترمذي (3549) .

الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام .. تدخلوا الجنة بسلام »[1] .

وأقل صلاة الليل ركعتان ، وأفضلها ثمانية ، ولا حد لأكثرها ، وهي أفضل النوافل على الإطلاق ؛ لكونها أقرب إلى الأخلاص ، وأبعد عن الرياء ..

6 - **صلاة التراويح** : وهي عشرون ركعة بعشر تسليمات في كل ليلة من ليالي رمضان ، تُصلّى بجماعة بعد صلاة فرض العشاء ؛ لما روى البيهقي عن السائب بن يزيد - رضي اللّه عنه - قال : كانوا يقومون على عهد عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - في شهر رمضان بعشرين ركعة ، وكانوا يقومون بالمئين ، وكانوا يتوكّؤون على عصيّهم في عهد عثمان - رضي اللّه عنه - من شدة القيام .

هذا عدا عن السنن الراتبة التي تُصلّى قبل الفريضة أو بعدها :

روى الشيخان عن ابن عمر - رضي اللّه عنهما - قال : صليتُ مع رسول اللّه ﷺ ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد الجمعة ، وركعتين بعد العشاء[2] .

وروى البخاري عن عائشة رضي اللّه عنها أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعًا قبل الظهر ، وركعتين قبل الغداة (أي قبل فريضة الصبح)[3] .

وروى الشيخان عن عبد اللّه بن مغفل - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ : « بين كل أذانين صلاة ، بين كل أذانين صلاة ، بين كل أذانين صلاة »[4] .

المراد بالأذانين في الحديث : الأذان والإقامة ، والمراد بالصلاة : السنة الراتبة .

ب - نافلة الصوم :

الأصل في فضيلة صوم النفل ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي اللّه عنه - أن النبي ﷺ قال : « ما من عبد يصوم يومًا في سبيل اللّه إلا باعد اللّه بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا »[5] .

وصوم النفل أنواع :

1 - **صيام يوم عرفة** : روى مسلم عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال : « صيام يوم عرفة أحتسب على اللّه أن يكفّر السنة التي قبله ، والسنة التي بعده »[6] .

---

(1) سنن الترمذي (2485) . (2) اللؤلؤ والمرجان 1 / 142 برقم (423) .
(3) صحيح البخاري كتاب التهجد ب 34 برقم (1182) . (4) اللؤلؤ والمرجان 1 / 161 برقم (480) .
(5) صحيح مسلم كتاب الصيام ب (31) برقم (167) . (6) صحيح مسلم كتاب الصيام ب (36) برقم (196) .

2 - **صيام يوم عاشوراء وتاسوعاء** : وهما التاسع والعاشر من شهر محرم ؛ لما روى مسلم عن أبي قتادة : « صيام عاشوراء أحتسب على اللّه أن يكفر السنة التي قبله » [1] .

وروى الإمام أحمد عنه ﷺ : « صوموا يوم عاشوراء ، وخالفوا اليهود ، وصوموا يومًا قبله أو يومًا بعده » [2] .

وبناءًا على هذه الرواية : يصح للصائم أن يضم إلى عاشوراء اليوم التاسع ، أو اليوم الحادي عشر مخالفة لليهود .

3 - **صيام ست من شوال** : روى مسلم عن أبي أيوب الأنصاري - رضي اللّه عنه - أنه ﷺ قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر » [3] .

4 - **صيام ثلاثة أيام البيض** : روى الترمذي عن أبي ذر - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا صمت من الشهر ثلاثة أيام فصم : ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » [4] .

والمقصود بالشهر : الشهر القمري ، وسميت هذه الأيام بيضًا ؛ لكون القمر في هذه الأيام أشد نورًا وبياضًا .

5 - **صيام الاثنين والخميس** : روى الترمذي أنه ﷺ كان يصومهما ، وسئل عن ذلك فقال : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس ، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم » [5] .

6 - **صيام يوم وإفطار يوم** : وهو صيام داود عليه السلام ؛ لما روى البخاري عن عبد اللّه بن عمر - رضي اللّه عنهما - أن رسول اللّه ﷺ قال : « صم يومًا وأفطر يومًا ، فذلك صيام داود عليه السلام ، وهو أعدل الصيام » [6] .

إلى غير ذلك من هذه الأيام والشهور التي ثبت صومها في السنة النبوية ..

والصيام هو من العبادات التي تروّض المؤمن على الإخلاص ، وتبعده عن الرياء ؛ لأن الصائم المتنفّل لا يعلم بصومه إلا اللّه وحده ، وهو وحده الذي يثيب الصائمين بما يستحقونه من أجر ومثوبة ..

---

(1) صحيح مسلم كتاب الصيام ب (36) برقم (196) .
(2) مسند الإمام أحمد (1 / 241) .
(3) صحيح مسلم كتاب الصيام ب (39) برقم (204) .
(4) سُنن الترمذي (3 / 134) برقم 761) .
(5) سنن الترمذي 3 / 122 برقم (747) ؟
(6) صحيح البخاري برقم (3418) .

ج - نافلة الصدقة :

هي من النوافل التي يحظى صاحبها بالأجر العظيم الذي لا يعرف مداه إلا اللّه وحده .. قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ . وهي ممن يخلفها اللّه عز وجل ، ويبارك فيها ، ويغدق على العبد من أبواب فضله بسبب بذلها وعطائها .. قال تعالى في سورة سبأ : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [1] . وروى الشيخان عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلَفًا » [2] .

ويكفي صدقة النافلة خيرًا وشرفًا أنها تحرر المؤمن من الشح والبخل ، وتروّضه على البذل والإنفاق والإيثار .. قال تعالى في سورة الحشر : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

د - نافلة الحج والعمرة :

ومن النوافل التي تقرب العبد من اللّه وتكفّر عنه الخطايا ، وتدخله الجنّة .. نافلة الحج والعمرة ؛ فإنهما معراج الفضائل ، وسلّم المكرمات ، ومبعث الروحانيات ..

وإليك – أخي الداعية – الثمرة التي يجنيها الحاج والمعتمر :

روى الشيخان عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « مَنْ حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » [3] .

روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » [4] .

وروى مسلم عن عائشة – رضي اللّه عنها – أن رسول اللّه ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يُعتق اللهُ فيه عبدًا من النار من يوم عرفة » [5] .

وروى الشيخان عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – أن النبي ﷺ قال : « عمرة في رمضان تعدل حجّة معي » [6] .

(1) سورة سبأ الآية : 39 .
(2) اللؤلؤ والمرجان 1 / 208 برقم (591) .
(3) اللؤلؤ والمرجان 2 / 76 برقم (856) .
(4) اللؤلؤ والمرجان 2 / 76 برقم (855) .
(5) صحيح مسلم كتاب الحج ب (79) .
(6) اللؤلؤ والمرجان 2 / 52 برقم (786) .

إذا كان هذا – أخي الداعية – أجر العابدين ، ومثوبة المتنفّلين الخاشعين .. فاجتهد على أن تتزوّد بالنافلة على الدوام ؛ لتحظى بالمثوبة والأجر يوم العرض الأكبر ، وتكون ممن شملك اللّه جل جلاله بالمحبة والرضوان والمغفرة .. وتكون أيضًا ممن ارتقوا سلّم الكمال ، وارتفعوا في معارج الطهر والروحانية .

* * *

تلكم – إخوتي الدعاة – أهم الروافد التي تمدّ النفس الإنسانية بالطاقة الروحية ، وتزوّد القلب بفيوضات الطهر والصفاء .. بل هي التي تجعل منكم نماذج طيبة صالحة في الإخلاص والتقوى ، والأثر والتأثير ، والمجاهدة والمثابرة ..

ولقد رأيتم من هذه الروافد ما كان شعورًا نفسيًا ويشمل :

* دوام المراقبة للّه ..

* استحضار الموت وما بعده ..

* استذكار الآخرة وأحوالها ..

ومن هذه الروافد ما كان تطبيقًا عمليًا ويشمل :

* تلاوة القرآن الكريم مع التدبر والخشوع ..

* مصاحبة النبي ﷺ في سيرته العطرة ..

* مصاحبة الأخيار من أهل المعرفة باللّه ..

* المداومة على ذكر اللّه عز وجل في كل الأوقات والأحوال ..

* البكاء في الخلوات من خشية اللّه ..

* التزوّد من عبادة النافلة على الدوام ..

فبتقديري أن الدعاة إذا أخذوا يرتشفون من معين الروحانية على الدوام ، ويستسقون من روافدها باستمرار .. فإن نفوسهم تشرق بنور الصفاء ، وقلوبهم تتفجر بينابيع الإخلاص ، وأرواحهم تحلّق في سماء الطهر والإلهام .. بل يعطون لمن يكتسب منهم ، ويتتلمذ عليهم ، ويلتقي معهم .. المثل الأعلى في صدق الحديث ، وحسن الفعال ، وقوة التأثير ، واطراد الفائدة ، وشمول التغيير ، وامتداد الإصلاح .. ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [1] .

(1) سورة يونس الآية : 58 .

أما عن أثر الروحانية في البناء والإصلاح والتغيير

فأقول وباللّه التوفيق وعليه الاعتماد :

إنَّ الداعية حين تمتلئ نفسه بتقوى اللّه ، وحين يستحضر في قلبه مراقبته وعظمته ، وحين يواظب على التلاوة تدبرا وخشوعًا ، وحين يكون مع النبي ﷺ تخلّقًا واقتداءً ، وحين يصاحب الأخيار من أهل القلوب والمعرفة باللّه ؛ أخذًا منهم واكتسابًا ، وحين يذكر اللّه عز وجل على الدوام تثبيتًا واطمئنانًا ، وحين يستمر في عبادة النافلة تقربًا وخشوعًا ..

الداعية حين يكون بهذه الأحوال ، وهاتيك المجاهدات .. فإذا خطب أو تحدث أو دعا إلى اللّه .. رأيت الإيمان يبرق من خلال عينيه ، والإخلاص يشرق من تقاسيم وجهه ، والصدق يتدفق من حنان صوته ، وخشوع لهجته ، وإشارة يده .. بل كلامه يسري في القلوب ، ويبدّد ظلام النفوس .. كما يسري الماء القراح البارد في النفوس العطشى ، وكما يُبدّد النور الساطع موجات الظلام .. أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم يهتدي الخلق ، وبدعوتهم يستجيب الناس ، وبموعظتهم تخفق القلوب ، وتذرف العيون ، وبتذكيرهم يتوب العاصي ، ويهتدي الضال !! .

ثم ماذا عن روحانية الداعية في الفهم والاستنباط ؟

حين تشرق نفس الداعية بالروحانية ، وتتصل باللّه ، وتتدفق بالتقوى .. فيُكشَفُ له من المعاني ، ويفتح له من الأسرار ما لا يدركها إلا الموهوبون الأتقياء ..

كان عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه – يقدّم عبد اللّه بن عباس – رضي اللّه عنهما – ويعرف له فضله ومكانته في فقه القرآن ، وتفسير آياته على حداثة سنه .. وكان يدخله مع أشياخ بدر ، وهم المعروفون بالسابقة والفضل ؛ فأحسّ عمر كأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لِمَ يدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله ؟ قال ابن عباس : فدعاني ذات يوم ، فأدخلني معهم ، فما رأيتُ أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم !! .

فقال عمر : ما تقولون في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ ؟ .

فسكت بعضهم ولم يقل شيئًا ، وقال بعضهم : أُمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا !! [1] .

(1) ولاشك أن هذا التفسير مستقيم جدًّا مع ظاهر الآية .

فالتفت إلى ابن عباس فقال له : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ قال : فقلت : لا . قال : فما تقول ؟

قلت : هو أجل رسول اللّه ﷺ ، أعلمه اللّه إياه وأخبره به ، فقال : إذا جاء نصر اللّه والفتح .. وذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا !! .

فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول [1] ..

فابن عباس ، وعمر الفاروق – رضي اللّه عنهما – رأيا من السورة إشارة غير ظاهرة ألا وهي قرب أجل رسول اللّه ﷺ ، وهذه الإشارة لا يكشفها إلا من أوتي إلهامًا وإشراقًا وفهمًا ..

وإن المرجح لهذا الفهم الذي فهمه عمر وابن عباس هو ما جاء في صحيح مسلم : كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول **قبل أن يموت** : « سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك » ، فقالت عائشة : قلت : يا رسول اللّه ، ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها ؟ قال : « جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتُها قلتُها » ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ... ﴾ [2] إلى آخر السورة .

وقد يكون معنى الآية واضحًا ، ولكن العقول أحيانًا لا تنتبه إليه ، فيظهر للفقيه الفاهم من الآية حسن التوجيه ، وروعة التأويل ما يجلي إشراقة المعنى ، وجمال الاستدلال ..

من ذلك : شكا بعض الناس « **عاصم بن زياد** » إلى علي بن أبي طالب – كرم اللّه وجهه – لأنه لبس الخشن من الثياب ، وترك الطيب من الطعام ، وغَمَّ أهله ، وأحزن ولده .. فقال : ائتوني به ، فلما رآه عبس في وجهه ، وقال : ويلك يا عاصم ؟!! . أترى اللّه أباح لك النّعم وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على اللّه من ذلك ؟! . أما سمعته يقول : ﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ .. ﴾ حتى قال : ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [3] ؟ واللّه ، إن إظهار نعمة اللّه أمام الناس بكثرة الاستعمال والفعال ، أحبّ من إظهارها بكثرة الحديث والمقال ، وقد سمعته يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾ [4] .

وهذا التفات رائع من علي رضي اللّه عنه .. كم مرة قرأنا قوله تعالى : ﴿ يَخۡرُجُ

---

(1) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير ب (4) برقم (4970)
(2) صحيح مسلم كتاب الصلاة ب (42) برقم (220) .
(3) سورة الرحمن الآيات : 19 - 22 . (4) سورة الضحى الآية : 11 .

مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ؟ فلم نقف على شيء فيها حتى وقف « أبو الحسن » كرم اللّه وجهه يستنبط ويوجّه ويقول : أرأيت أن اللّه خلق هذه النعم وأباحها لك وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على اللّه من ذلك .. وهذا الربط العظيم الملهم بين سورة الرحمن وسورة الضحى حيث ربط بين قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ربطًا لا يرد على بال إنسان ليستنبط هذا الحكم الموفق .. هذا الحكم مفاده : (أن إظهار فضل اللّه عمليًا باستعمال نعمه ، أحب إليه من إظهاره بالتحدث عنه فقط ..) [1] .

روى البخاري أن عليًا – كرم اللّه وجهه – سئل مرة : هل خصّكم رسول اللّه ﷺ بشيء من العلم دون الناس ؟ فقال : « لا ، والذي خلق الحبّة ، وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه اللّه عبدًا في كتابه » [2] .

فالداعية الرباني يعطى من الفهم والاستنباط في كتاب اللّه ما لم يعطه أحد من الناس لعظم صفائه ، وسمو روحانيته ، وإشراقة قلبه ، وطهر نفسه ، والنور الذي يسعى بين يديه ..

ولنستقْرِ التاريخ عن سيرة أولئك في الإصلاح والتأثير :

لاشك أن الداعية الرباني حين يكون على هذا المستوى العظيم من التقوى والفهم والروحانية ، وحين يتحلّى بهذه القيم العالية من الإخلاص والصدق وحرارة الإيمان والدعوة .. فإنه ينطلق في ميادين الدعوة والتبليغ والجهاد .. هاديًا مبلغًا ، وداعيًا إلى اللّه صادقًا ، ومجاهدًا في سبيل اللّه ملخصًا .. حتى يرى أمة الإسلام قد ثابت إلى رشدها ، وجنود الباطل قد هُزموا ، وولّوا الأُدبار ، وراية الحق قد خفقت فوق الرايات جميعًا .. فعندئذ يفرح لنصر اللّه له ، وتأييده إياه ..

ولنستمع إلى ما يقوله كبار العلماء المحققين في الماضي والحاضر عن هؤلاء الدعاة الروحانيين ، والمرشدين الربانيين في تأثيراتهم التربوية والإصلاحية ، ومواقفهم البطولية والجهادية ؛ لنتعرف على الأثر الذي تركوه ، والإصلاح الذي فعلوه ، والتغيير الذي أوجدوه :

● يقول الشيخ الجليل « **محمد أبو زهرة** » رحمه اللّه : وكذلك (التربية الروحية) كما قال الأستاذ « فودة » في عصورنا المتأخرة كان لها مزايا ، وكان لها آثار واضحة ، فالمسلمون في غرب إفريقيا ، وفي وسطها ، وفي جنوبها ، كان إيمانهم ثمرة من ثمرات (التربية الروحية) .

(1) قصة عاصم مع الإمام علي من كتاب « تذكرة الدعاة » للأستاذ الخولي ص : 221 .
(2) صحيح البخاري كتاب العلم ب (40) برقم (112) .

والإمام السنوسي الكبير عندما أراد أن يصلح بين المسلمين اتجه أول ما اتجه إلى أن نهج منهاجًا (روحيًا تربويًا) وكان منهاجه في ذاته عجيبًا غريبًا ، فإنه اتخذ المريدين ، ثم أراد أن يجعل من هؤلاء رجال أعمال ، ولذلك أنشأ الزوايا وأول زاوية أنشأها في جبل ، ثم انتقل بزواياه في الصحراء .. وهذه الزوايا كانت واحات عامرة في وسط الصحراء ، وبعمل رجالهم وقواتهم .. استنبط الماء ، وجعل فيها زرعًا وغراسًا وثمارًا .

ووجههم وعلمهم الحرب والرماية حتى أقضوا مضاجع الإيطاليين أكثر من عشرين سنة عندما عجزت الدولة العثمانية عن أن تعين أهل ليبيا .

(واستمرت المقاومة السنوسية بهذه الزوايا إلى أن أذل الله الدولة الإيطالية ..) [1] .

● ويقول الأستاذ « **صبري عابدين** » في ندوة لواء الإسلام : « .. والواقع أن (المرشدين الربانيين) ينشرون الإسلام في العالم ، وأذكر لكم أنه منذ خمسين عامًا كتب الشيخ البكري كتابًا ذكر فيه نقلًا عن المبشرين يقول : « إن هؤلاء يقولون : ما ذهبنا إلى أقاصي آسيا إلا وجدنا (المرشد) يسبقنا إليها ، وينتصر علينا .. رأيت على حدود الحبشة ، والسودان ، وأريتريا ، بعثة سويدية للتبشير ، ووجدتُ إلى جانبهم أكواخًا أقامها (المرشدون) ، وأفسدوا على المبشرين السويديين إقامتهم أربعين سنة .. » [2] .

● ويقول الداعية الكبير « **أبو الحسن الندوي** » في كتابه « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ص 249 عن العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني : « كان يحضر مجلسه نحو سبعين ألفًا ، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى ، وتاب على يديه من الأشقياء أكثر من مائة ألف ، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه ، فدخل فيهم خلق لا يحصيهم إلا الله ، وصلحت أحوالهم ، وحسن إسلامهم ، وظل الشيخ يربّيهم ، ويشرف عليهم وعلى تقدمهم ، وأصبح هؤلاء الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان ، ثم يجيز الشيخ كثيرًا منهم ممن يرى فيهم النبوغ ، والاستقامة ، والمقدرة على التربية .. **فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله ، ويربّون النفوس ، ويحاربون الشرك ، والبدع ، والجاهلية ، والنفاق** .. فتنتشر الدعوة الدينية ، وتقوم ثكنات الإيمان ، ومدارس الإحسان ، ومرابط الجهاد ، ومجامع الأخوّة في أنحاء العالم الإسلامي ..

(1 – 2) من مجلة لواء الإسلام : العدد الثاني عشر ، غرة شعبان 1389 هـ ، الموافق 1960 م .

وقد كان لخلفائه وتلاميذه ، ولمن سار سيرتهم في الدعوة ، وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلته .. فضل كبير في المحافظة على روح الإسلام ، وشعلة الإيمان ، وحماسة الدعوة والجهاد ، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات ..

ولولاهم لابتلعت المادية التي كانت تسير في رحاب الحكومات والمدنيات هذه الأمة ، وانطفأت شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها ، وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الإسلام في الامصار البعيدة التي لم تغزُها جيوش المسلمين ، أو لم تستطع إخضاعها للحكم الإسلامي ، **وانتشر الإسلام في أفريقيا السوداء ، وفي أندونيسيا ، وجزر المحيط الهندي ، وفي الصين ، وفي الهند** .. » .

● ويقول أستاذنا الكبير الشيخ « **محمد راغب الطباخ** » رحمه اللّه في كتابه « الثقافة الإسلامية » ما نصه : « ومن جليل أعمال أصحاب (الإرشاد والتربية) وآثارهم الحسنة في الأمة الإسلامية أن الملوك والأمراء متى قصدوا الجهاد ، كان الكثير من هؤلاء بإيعاز أو بغير إيعاز ، يحرضون أتباعهم على الخروج إلى الجهاد ، ولعظيم اعتقادهم فيهم ، وانقيادهم لهم ، كانوا يبتدرون إلى الانتظام في سلك المجاهدين ، فيجتمع بذلك عدد عظيم من أطراف ممالكهم ، وكثيرًا ما كان أولئك يرافقون الجيوش بأنفسهم ويدافعون ويحرضون فيكون ذلك سببًا للظفر والنصر .. » .

● ويقول الكاتب الإسلامي المشهور الأمير « **شكيب أرسلان** » رحمه اللّه في كتابه « حاضر العالم الإسلامي » تحت عنوان : « نهضة الإسلام في إفريقيا وأسبابها » : « .. وفي القرن الثامن عشر ، والتاسع عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع (المدرستين) : **القادرية ، والشاذلية** ..

فالقادرية : هم أحمس مبشري الدين الإسلامي في غربي إفريقيا من « السنيغال » إلى « بنين » التي بقرب مصبّ « نهر النيجر » ، وهم ينشرون الإسلام بطريق سلمية بالتجارة والتعليم .. فيلقّنون صغار الزنج الدين الإسلامي أثناء التعليم ، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس ، والقيروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر .. فيتخرجون من هناك طلبة مجازين ، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان .. » .

وتحدث عن **شيخ المدرسة القادرية** فقال : « وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني الموجود في جيلان من فارس ، (مرشدًا) عظيمًا زكيّ النشأة .. وله أتباع لا يحصى عددهم ، ووصلت طريقته إلى أسبانيا ، فلما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز المدرسة إلى فاس ، وبواسطة أنوار هذه المدرسة زالت البدع من بين البربر ، وتمسكوا بالسنة والجماعة ، كما أن هذه المدرسة هي التي اهتدى على يديها زنوج غربي إفريقيا .. » .

وتحدث عن المدرسة الشاذلية وإمامها فقال : « .. وأما الشاذليين فنسبتها إلى « **أبو الحسن الشاذلي** » الذي أخذ عن « عبد السلام بن مشيّش » وعبد السلام الذي أخذ عن « أبو مدين » وهي من أوليات المدارس التي أدخلت التربية الروحية في المغرب ، ومركزها في مراكش ، وكان من أشياخها « **العربي الدرقاوي** » الذي أوجد عنه مريديه حماسة دينية امتدت إلى المغرب الأوسط ، وكان لأتباعه أثر كبير ، ودور فعال في مقاومة الاستعمار الفرنسي .. » .

● وإن نسينا فلا ننسى تأثير العالم الرباني الشيخ « **جمال الدين** » على حفيد جنكيز خان المسمى : « تغلق تيمورخان » الذي أسلم وأسلم من معه جميعًا ، ولإسلامه قصة ذكرها سماحة الشيخ « أبي الحسن الندوي » في كتابه « رجال الفكر والدعوة في الإسلام : « أسلم سلطان « كاشغر » الذي كان يسمى « **تغلق تيمورخان** » عام 1347 - 1363 م على يد الشيخ « جمال الدين » الذي جاء من بخارى .. وكان من خبره أنه كان مع رفقة له في رحلته ، فمروا بأرض السلطان التي كان قد حماها للصيد وهم لا يشعرون ، وأمر بهم السلطان فأُوثقوا ، وعُرضوا عليه ، وقال وقد استشاط غضبًا : كيف دخلتم في حماي من غير إذن ؟ قال الشيخ : نحن غرباء ، ولم نشعر بأننا نمشي في أرض ممنوعة !! ولما علم السلطان إنهم إيرانيّون ، قال في احتقار وسخرية : حتى الكلب أفضل من الإيرانيين !! قال الشيخ : صدق السلطان لولا أن اللّه أكرمنا بالدين الحق لكنّا أذلّ من الكلاب ، وتحيّر الملك ومضى للصيد ، وبقيت الكلمة تشغل فكره ، وأمر بعرضهم عليه بعد الصيد .

ولما رجع خلا بالشيخ جمال الدين وقال : فسّر لي ما قلت ، وأخبرني ما تعني بالدين الحق ؟!! وفسّر الشيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيرًا رائعًا رقّ له قلب السلطان ، وصور له الكفر تصويرًا بشعًا هائلًا فزع منه السلطان ، وأيقن أنه على ضلال وخطر ، ولكن السلطان رأى أنه لو أعلن الإسلام لما استطاع أن يدخل قومه جميعًا في الإسلام ، ورجا الشيخ أن ينتظر حتى إذا سمع أنه ولي المُلْك ، وجلس على أريكة الحكم زاره وقد يكون في ذلك الخير !! .

ولكن الشيخ جمال الدين رجع إلى بلاده ، ومرض مرضًا شديدًا ، ولما حضرته الوفاة دعا ولده « رشيد الدين » وقال له : إن « تغلق تيمورخان » سيكون في يوم من الأيام ملكًا عظيمًا ، فإذا سمعت بذلك تزوره ، وتقرئه مني السلام ، وتذكره بما

وعدني به من اعتناق الإسلام بعد أن يتولى الملك ..

ولما تولى « تغلق تيمورخان » الملك بعد أبيه ، دخل الشيخ « رشيد الدين » في المعسكر لينفذ وصية أبيه .. ولكن الجند منعوه من الدخول ، وظل يومًا يؤذن بصوت عالٍ قريبًا من خيمة السلطان في الصباح الباكر ، فطار نوم الملك وغضب ، وطلب الشيخ « رشيد الدين » ، وحضر الشيخ ، وبلّغ الملك تحية والده « جمال الدين » وكان السلطان على ذكر منه ، فنطق بالشهادتين ، وأسلم ، ثم نشر الإسلام في رعيته ، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد « جغتاي بن جنكيز خان » بعد أن اعتنقوا البوذية فترة طويلة من التاريخ !! »[1] .

حدث كل هذا على أعقاب غزو التتار العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري ، وقد أثخنوه جراحًا وقتلًا ، ولم يتركوا فيه إلا روحًا ضعيفة ، ونَفَسًا خافتًا ، وفي هذا الوقت بالذات قلّ سيف الجهاد والمقاومة ، فأصبح لا يؤثر ولا يعمل ، وقد أغمده المسلمون يأسًا وقنوطًا ، واعتقد الناس بأن التتار لا يمكن إخضاعهم ، وأن العالم الإسلامي قد كتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج ، وأن الإسلام لا مستقبل له ولا كيان .. وقد شاء الله أن يهيئ زمرة من العلماء الربانيين ، والدعاة المخلصين الصادقين .. فأصبحوا يتسرّبون في هؤلاء الغلاظ الشّداد الهمج .. يفتحون قلبوهم للإسلام ، ويغذّون مداركهم بالحق .. حتى تفتحت القلوب والعقول .. وصار القوم يدخلون في دين الله أفواجًا ، ولم يمض على زحفهم على العالم الإسلامي ، وإذلالهم له كثير من الزمان حتى أسلم جلّهم .. وصاروا من حماة الإسلام ، وحَمَلَة رايته ، وكان منهم فقهاء ودعاة ومجاهدون ..

والفضل في هذا - كما سبق ذكره - يرجع إلى هؤلاء المرشدين الربانيين ، والدعاة المخلصين الذين أنقذوهم من الوثنية والهمجية ، وعلموهم كيف تُحترم كرامة الإنسان ؟

وكيف يتحررون من الكفر والضلال ؟ وكيف يدخلون في حظائر العبودية والإيمان ؟ وما ذاك إلا بفضل إشراقتهم الروحية ، ودعوتهم الربانية ، ومجاهداتهم التبليغية والإصلاحية .. فجزاهم الله عن الإسلام أفضل الجزاء ، ورفعهم في الدار الآخرة مقامًا عليًا .

(1) من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للأستاذ الندوي ص : 250 - 253 وقد نقل الأستاذ الندوي قصة إسلام « تغلق تيمورخان » عن « ارنولد » صاحب كتاب « الدعوة إلى الإسلام » ص : 256 .

هذا غيض من فيض مما كان لهم في تاريخ الإنسانية أثر ، وفي الأجيال المتعاقبة قدوة ، وفي عبر العصور ذكر .. ولو أردنا أن نستقصي أخبار هؤلاء الذين أثّروا وأصلحوا وغيّروا .. لرأيناهم أكثر من أن يحصوا ، وأعظم من أن يستقصوا ..

بل إنهم كثير وكثير .. كأمثال **الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام الشافعي ، والإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام الحسن البصري ، والإمام الفضيل بن عياض ، والإمام معروف الكرخي ، والإمام الجنيد البغدادي ، والإمام حجة الإسلام الغزالي ، والإمام جلال الدين الرومي ، والإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام أبو يزيد البسطامي ، والإمام سهل التستري ، والإمام النورسي ، والإمام حسن البنا ..**

وعشرات غيرهم ، بل مئات .. فهؤلاء الأئمة الربانيون هم الذين حملوا خلال العصور إمامة الدعوة ، ورسالة الإصلاح ، ومسؤولية الهداية .. وهم الذين جمعوا بين العبادة والجهاد ، ووفّقوا بين حق اللّه وحق العباد ، وهم الذين أعلنوا صوت الهدى والحق أمام المستبدين الظالمين ، ووقفوا ببسالة فائقة أمام المستعمرين الغاشمين ، وهم الذين جدّدوا بدعوتهم وصحبتهم ميثاق الإسلام ، وأدخلوا الناس في الإسلام فقهًا وعملاً بعد أن دخلوا فيه وراثة وعادة ، وأذاقوا مريديهم وتلامذتهم حلاوة الإسلام ، ولذة الإيمان بعد أن كانوا دمىً وهياكل لا تشعر ولا تحسّ .. وهم الذين أخرجوا أصنافًا من البشرية من سلطان الهوى ، ورقّ الشهوات ، واستحواذ حب الدنيا .. إلى نور الحق ، وهدى الإسلام ، ولذة الطاعة والمناجاة .. وهؤلاء هم الذين ربطوا الحق بشريعة اللّه ، لا بأشخاصهم الفانية ، ينتظرون ما يحكم الشرع لهم أو عليهم ، يقبلون الانتقاد إذا أخطأوا ، والمناصحة إذا زلّوا .. اعتقادًا منهم أنهم بشر يصيبون ويخطئون ؛ لأنهم يؤمنون أنّ العصمة لا تكون إلا للأنبياء ، وأن التنزيه عن المعصية لا يكون إلا للملائكة ، ورحم اللّه الإمام مالك حين وقف مرة أمام قبر الرسول ﷺ وقال قولته المشهورة الخالدة : « ما منا إلا مَنْ رَدّ ورُدّ عليه إلا صاحب هذا القبر » وأشار إلى قبر النبي ﷺ .

ومن المواقف الخالدة التي كان يقفها العلماء الربانيون من الشرع والحق موقف المرشد التركي الشيخ « **سعيد النورسي** » الملقّب بـ « بديع الزمان » ، هذا الموقف يتلخص أنه حين أحسّ مرة أن من بين طلابه ومريديه من يذهب في تقديسه وتعظيمه حدًّا عظيمًا ، ويربط معالم الحق بشخصه الفاني ، قال لهم موصيًا وموجّهًا

وناصحًا : « إيّاكم أن تربطوا الحق الذي أدعوكم إليه بشخصي الفاني ، ولكن عليكم أن تبادروا فتربطوه بينبوعه الأقدس : كتاب اللّه ، وسنة نبيه ﷺ ، ولتعلموا أنني لست أكثر من دلال على بضاعة الرحمن جلّ جلاله ، ولتعلموا أني غير معصوم ، قد يفرط مني ذنب ، أو يبدُو مني انحراف ، فيتشوّه مظهر الحق الذي ربطتموه بي بذلك الذنب أو الانحراف ، وارتكاب الآثام أو صارفًا لهم عن الحقّ بما شوّهه واختلط به من انحرافي وآثامي .. » [1] .

فالمرشد الذي يدّعي لنفسه الحفظ والعصمة فهو جاهل دعيّ .

والمرشد الذي يقصر المريد على إرشاده ، ويصرفه عن تأثير القرآن الكريم وتلاوته .. فهو جاهل دعيّ .

والمرشد الذي يصانع المريد بأن يسكت عن معصيته إذا عصى .. فهو جاهل دعيّ .

والمرشد الذي يقصر الإسلام على تزكية النفس ، ويعطل أحكام الجهاد .. فهو جاهل دعيّ .

والمرشد الذي ينافق الحكام ، ويسكت عن منكرهم ، ويتصدر في مجالسهم .. فهو جاهل دعيّ ..

فاحرص – أخي الداعية – أن تكون من الدعاة الروحانيين الواعين ، والهداة الربانيين الصادقين المخلصين .. عسى أن يهدي اللّه على يديك الخلق الكثير ، وعسى أن يكون لك في الوجود الأثر الأكبر في الإصلاح والتغيير ، وعسى أن تكون في الإنسانية شمس هداية ، وقمر إشراق ، ومشعل إيمان ، ومبعث هدى وإشعاع .. وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *

● **بعد أن علمت – أخي الداعية** – أن الطريق إلى الروحانية هي تقوى اللّه عز وجل وأن السبيل إلى التقوى :

المعاهدة : التي بها تستقيم على شرع اللّه .

والمراقبة : التي بها تستحضر عظمة اللّه .

(1) من كتاب « تربية الأولاد في الإسلام » للمؤلف ص : 630 .

والمحاسبة : التي بها تتحرر من آفات النفوس .

والمعاقبة : التي بها تفطم نفسك عن المخالفة .

والمجاهدة : التي بها تجدّد للعبادة نشاطها .

وبعد أن علمت أن الروافد في تغذية الروحانية :

1 - **شعورك النفسي** الذي يتصل :

بدوام المراقبة للّه .

وباستحضار الموت وما بعده .

وباستعراض الآخرة وأحوالها .

2 - **وسلوكك العملي** الذي يرتبط :

بتلاوة القرآن الكريم الدائمة مع التدبر والخشوع .

وبمصاحبة النبي ﷺ في شمائله العطرة وسيرته المعطاءة .

وبمصاحبة الأخيار من أصحاب القلوب وأهل المعرفة باللّه .

وبالمداومة على ذكر اللّه عز وجل في كل الأوقات والأحوال .

وبالبكاء من خشية اللّه في المحاسبات النفسية وفي الخلوات .

وبالتزود من عبادة النافلة على الدوام .

* **وبعد أن علمت أثر الروحانية :**

في مجالات البناء والإصلاح والتغيير .

وفي فهم الآيات القرآنية في استنباط التأويل والتفسير .

فما عليك بعد هذا إلا أن تضاعف النشاط ، وتعقد الهمة ، وتبذل الجهد .. لتكون من عداد أولئك الذين تحققوا بالروحانية : قولًا وعملًا ، وتطبيقًا وتنفيذًا ، سلوكًا وأخلاقًا ، محاسبة ومجاهدة ، مراقبة ومعاهدة .. بل لتكون من الذين رضي اللّه عنهم ورضوا عنه ، ومن الذين يحبهم اللّه ويحبونه ، ومن الذين لقوا ربهم في مجمع من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .. وحسن أولئك رفيقًا .

وبالتأكيد - أخي الداعية - إذا تدرّجت فعلًا في سلّم التقوى ، وتصعّدت حقيقةً في معارج الروحانية ، وسلكت عازمًا مسالك الربانيين الأبرار .. فسوف تكون إن

شاء اللّه إنسانًا مؤمنًا مخلصًا برًّا تقيًّا متوازنًا مستقيمًا .. في مشيتك هون ، وفي وجهك إشراق ، وفي سمتك جلال ، وفي ملامحك جاذبية ، وفي وعظك تأثير ، وفي فعلك قدوة ، وفي معاملتك استقامة ، وفي موقفك نبل ، وفي حديثك اتزان ، وفي سلوكك خلُق ..

فانزل – أخي الداعي – محطة الروح كلما داهمتك الخطوب ، وخدعتك المظاهر ، وفتنتك زهرة الحياة الدنيا ، ومسّك طائف من الشيطان ، وخشيت الانزلاق في مزالق النفاق والرياء .. فانزل هذه المحطة ؛ لتستروح نسائم الإيمان ، ولتعبّ من منابع اليقين ، ولتتزوّد من زاد التقوى ، ولترتشف من سلسبيل الروحانية ..

أتدري من أجل ماذا ؟

من أجل أن تنتصر على نفسك الأمّارة إذا وسوست لك بسوء .

من أجل أن تحبط مكائد الشيطان إذا زيّن لك المنكر .

من أجل أن لا تغرّك فتنة الحياة الدنيا إذا ركنت إليها .

من أجل أن تتحرر من مزالق النفاق ، والرياء ، والعجب ، إذا وقفت على حافّتها .

من أجل أن تتذكر الموت ، وما بعده في مواطن الغفلة والإخلاد إلى الأرض .

من أجل أن لا تقف مواقف التهم في مزالق الحرام أو الشبهة .

من أجل أن تستقيم على شرع اللّه سرًّا وعلنًا .

من أجل أن يثق الناس بك ويستجيبوا لك .

من أجل أن تفيض على من تدعوهم برًّا وخيرًا ورشادًا ..

من أجل أن يرى الناس فيك سيماء الصالحين ، وملامح الربانيين ..

من أجل أن تترك في العالمين الأثر ، وفي الأجيال القدوة .

وعلى العموم – أخي الداعية – هذه المحطة الروحية هي مبعث فيوضاتك وعطائك ، وهي مصدر فقهك ومحاسبتك لنفسك .. بل هي الجهاز والمولّد لطاقتك الإيمانية ، وإشراقتك الروحية ، ومحاسبتك الباطنية ، ومراقبتك الربانية ، وانطلاقتك الدعوية ...

فإذا خلت نفسك – أخي الداعية – من معالم هذه الروحانية فقد خلت حياتك من الطاقة التي تعطي ، ومن النور الذي يهدي ، ومن الإخلاص الذي يؤثر ، ومن المراقبة التي تسدّد ، ومن التقوى التي تذكّر ... وظلّ باطنك فارغًا خَرِبًا ، وظاهرك باهتًا ممسوخًا .. لا يُرَى منه بصيص من نور ، ولا لمعة من إشراق ، ولا لمحة من وقار .. بل تنقلب إلى إنسان دخيل متطفّل أناني .. لا تُريد في الحقيقة أن تدعو إلى اللّه ، ولا أن تقصد في عملك وجه اللّه ، وإنما تريد أن تدعو لشخصك ، وأن تبني الأمجاد لنفسك .. وهذا مكمن الخطر ، وموطن الداء !! ..

فكن – أخي الداعية – على هذا المستوى اللائق من الروحانية الخالصة التي سبق ذكرها والتفصيل عنها .. عسى أن تقوم بمهمتك الدعوية على أحسن وجه ، وعسى أن ينفع اللّه بك الناس ، وعسى أن تحدث التغيير في المجتمع الذي تبلّغ فيه ، وفي الأمة التي تنتمي إليها ، وعسى أن يحقق اللّه عِزَّ الإسلام ، ومجد المسلمين على يديك وما ذلك على اللّه بعزيز .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [1] .

---

(1) سورة ق الآية : 37 .

سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(7)

أخلاقية الداعية

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد للّه ربّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق ، وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا هو الفصل السابع من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » ، وهو بعنوان : « **أخلاقية الداعية** » .

أقدمه لكم - إخوتي الدعاة - عسى أن يكون منهاجًا لسلوككم الاجتماعي ، وتعاملكم الدعوي .. واللّه سبحانه وليّ العاملين المخلصين .

المؤلف

عبد اللّه ناصح علوان



الفصل السابع

أخلاقية الداعية

بعد أن علمت – أخي الداعية – أن الروحانية هي أمر لابد منه ، ولا غنى عنه للذين يريدون أن يُزكّوا أنفسهم ، وينفعوا بالدعوة إلى اللّه غيرهم ، ويحدثوا إصلاحًا وتغييرًا في مجتمعهم .. وبعد أن عرفت أن الروحانية هي مصدر الفيوضات ، ومبعث العطاء ، وأساس الإشراق ، وزاد التقوى ، وموئل الإخلاص ، ومعقد الهمة ، ومعين المجاهدة .. بعد أن تدبّرت هذا كله ، وعقدت النية والعزم على أن تكون من الأتقياء الأبرار ، والدعاة الأخيار .. أتابع معك المسيرة ؛ لأنقلك أخي الداعية – إلى مدرسة أخرى إذا انتسبت إليها ، وتدرّجت في مراحل فصولها ، ودرست بإحكام واستيعاب جلّ محاضراتها ومناهجها ، وطبّقت عمليًا وسلوكيًا كلّ ما تعلمته منها .. كنت بحق الداعية الموفق الناجح الذي له في ميدان التبليغ شأن ، وفي مجال الدعوة أثر ، وفي نطاق المجتمع إصلاح !! .

هذه المدرسة التي أرشدك أن تنتمي إليها ، وتتلقّى عنها ، وتتخرّج فيها .. هي مدرسة « **السلوك والأخلاق** » ، ولا بأس – أخي الداعية – أن أعطيك فكرة موجزة عنها ، لتعرف شيئًا عن حقيقة منهجها ، وعن الغرض من الانتساب إليها ، وعن الأثر الذي تحدثه في المجتمع بعد أن تتخرّج منها ..!!..

* **أما عن حقيقة منهج هذه المدرسة :**

فإن الداعية إلى اللّه هو أولى من غيره بالتحلّي بأخلاق الإسلام : من صدق وأمانة ، وحلم وعفو ، وتواضع وتياسر ، وكرم وسخاء ..

وهو أولى من غيره بأن يتخلّى عن الكذب والمنافقة ، والغضب والانفعال ، والكبر والاستعلاء ، والبخل والمشاححة ..

وبالاختصار فإن حقيقة المنهج كلمتان : التحلّي بالفضائل ، والتخلّي عن الرذائل .

* **وأما عن الغرض من الانتساب إليها :**

فهو تقويم أخلاق الداعية ، وتعديل سلوكه الاجتماعي ، وتهذيب تعامله الدعوي .. لتكون أخلاقه – بعد التخرج – على وفق ما جاء في القرآن الكريم ، ويكون سلوكه

على مقتضى ما أمرت به الشريعة ، ويكون تعامله على هدي النبي ﷺ .

وإذا كان كذلك فإن الناس يستجيبون له ، وينجذبون إليه ، ويثقون به ، وتنشرح قلوبهم لهدى اللّه جلّ جلاله ...

* **وأما عن أثرها في المجتمع بعد التخرّج :**

فلاشك أن الداعية حين يتحلى بمكارم الأخلاق ، ويتخلى عن سفاسفها ورذائلها .. فإن أثره في التغيير كبير ، وإن إيجابيته في المجتمع عظيمة ..

يكفيه أثرًا وتغييرًا أنه أحدث انقلابًا وتصحيحًا في المفاهيم الخاطئة ، والتصورات المقلوبة ..

يكفيه أثرًا وتغييرًا أنه ردّ هذه الأمة إلى اللّه ، وأخذ بزمام أبنائها إلى حظيرة الإسلام ..

يكفيه أثرًا وتغييرًا أنه اقتلع جذور اليأس من نفوس الشباب ، وغرس فيهم روح الأمل والتفاؤل ..

يكفيه أثرًا وتغييرًا أنه حرّك النفوس نحو الدعوة وفتح القلوب للجهاد من أجل إعلاء كلمة الله .

يكفيه أثرًا وتغييرًا أنه عرّف جيل الإسلام الطريق الأمثل الذي يوصلهم إلى العزة والقوة والسيادة .. إلى غير ذلك من هذه الآثار والتغييرات التي يحققها اللّه سبحانه على يد الدعاة المخلصين ، والهداة الربانيين ، والعلماء المتخلّقين بأخلاق الإسلام ..

* * *

هل الأخلاق قابلة للتغيير ؟

قبل أن أبين حقيقة المنهاج الأخلاقي الذي ينبغي أن يلتزمه الداعية ، ويتحلّى به على طول الزمن .. يحسن أن أردّ على شبهة أثارها من قبل بعض الفلاسفة الأخلاقيين في الغرب ، وأشهرهم : « **شوبنهاور** » الفيلسوف الألماني ، و « **سبينوزا** » الفيلسوف الهندي ، و « **ليفي بريل** » الفيلسوف الفرنسي ؛ ويثيرها من بعد بعض أدعياء العلم ، أو بعض الذين في قلوبهم مرض ، الذين لا يرجون للبشرية هدىً ولا إصلاحًا ، ولا يريدون للإنسانية خيرًا ولا أخلاقًا .. !! .

هذه الشبهة تتلخص في أن الناس يولدون أخيارًا أو أشرارًا كما يولَدُ الحَمَل وديعًا ، والنمر مفترسًا ، وأنه لا يمكن تغيير الشر الكامن في الإنسان ، كما أنه لا يمكن تغيير

الخير المتأصّل فيه !! .

هذه الشبهة في الحقيقة منقوضة شرعًا ، ومنقوضة عقلًا ، ومنقوضة واقعًا وتجربة ..

* **أما أنها منقوضة شرعًا** : فلقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [1] أي طريق الخير وطريق الشر .

وقوله سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [2] .

وقوله جلّ جلاله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [3] .

ولقوله عليه الصلاة والسلام – فيما رواه البخاري – : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه » [4] .

فهذه النصوص بمجموعها تفيد أن الأخلاق قابلة للتغيير ، وأن للتربية وعامل البيئة أثرها الأكبر في التعديل التقويم والاتجاه ..

* **أما أنها منقوضة عقلًا** : فلأن الله سبحانه أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، وأمر الدعاة .. من أجل ماذا ؟

ولماذا تهتم الحكومات في وضع المناهج والقوانين ، وتشرف على تأسيس المدارس والمعاهد والجامعات ؟

ولماذا تقوم وزارات التعليم والتربية على تعيين المعلمين والمختصين من علماء الاجتماع ، وأساتذة التربية والأخلاق ؟!! .

أليس ذلك من أجل التعليم والتأديب والتخليق وتقويم الاعوجاج ؟
أليس من أجل أن يكون الإنسان مستقيمًا متوازنًا صالحًا للحياة ؟
أليس من أجل أن يتحلّى الإنسان بالفضائل ويتخلّى عن الرذائل ؟
أليس من أجل أن يكون الإنسان كفئًا كريمًا قويًّا مشارًا إليه بالبنان ؟
أليس من أجل أن تُستأْصَل في الإنسان جذور الشر ويحلّ محلها بذور الخير ؟
فهل أحد من الناس يكابر في هذه الحقيقة ؟ وهل لعاقل أن يجادل فيها ؟

---

(1) سورة البلد الآية : 10 . (2) سورة الشمس الآيات : 7 - 10 . (3) سورة الإنسان الآية : 3 .
(4) صحيح البخاري كتاب الجنائز ب (92) برقم (1385) .

* **أما أنها منقوضة واقعًا وتجربة : فللأمور التالية :**

أ – من الملاحظ في « **عالم الإنسان** » أن إنسانًا ما عاش طويلًا في بيئة الضلال والفساد ، وبلغ فيه الإجرام والشقاء كل مبلغ ، وقد أذاق المجتمع من وبال شروره ، وويلات شقائه ؛ وإذ برفيق صالح ، أو مربٍّ مؤثر ، أو داعية مخلص .. نقله من رهدة الشقاء إلى روضة السعادة ، وانتشله من بيئة الفجار إلى عالم الأخيار .. وهذا كثير وكثير في عالم الواقع .

ب – ومن الملاحظ في « **عالم الحيوان** » أن الإنسان وُفّق في كل عصوره إلى نقل طباع الحيوان من النفور إلى الإلف ، ومن الصعوبة والحزونة إلى السلاسة والانقياد .. حتى إن الإنسان ليرقّص الخيل ، ويلاعب الطير ، ويعلّم الجوارح .. فإذا كان هذا هو الشأن في غرائز العجماوات التي لا تعقل ، فكيف بالغرائز الإنسانية التي أثبت « **علم النفس المقارن** » أنها أسلس قيادًا ، وأعظم مرونة ؛ بسبب قبولها للمزج والتعديل والتقويم ؟!

ج – ومن الملاحظ في « **عالم النبات** » أن البذرة حين يضعها الزراع في أرضٍ خصيبةٍ ، ويتعهدها بالماء والسماد ، ويحميها من الحشرات والطفيليات .. ثم لا يزال يلاحقها في تهذيب أشواكها ، وتقويم أغصانها .. فإن هذه البذرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها ، ويقطف الإنسان من ثمارها ، ويتفيّأ ظلالها ، ويستغلّ خيراتها على مدى الزمان والأيام .

أما إذا كتب لهذه البذرة نصيبها من التقصير والإهمال .. لا تغذّيها تربة ، ولا يرويها ماء ، ولا تلاحق بالتهذيب لأشواكها ، والتقويم لأغصانها .. فإنها لا تؤتي أُكُلها ، ولا تُعطي زهرًا ولا ثمرًا ، بل تصبح عما قليل هشيمًا تذروه الرياح .

فكذلك النفس الإنسانية وما فيها من قابليات واستعدادات ، وسجايا وجِبِلات .. حينما نتعهدها بالأخلاق ، ونمدّها بالعلوم ، ونرفدها بالعمل الصالح .. فإنها تنشأ على الخير ، وتدرُج على الكمال .. أما إذا أهملناها وتركناها للأيام حتى علاها صدأ الجهل ، وغشيها عدوى خلطاء السوء ، وتراكمت عليها أنقاض العادات الذميمة .. فإنها – ولاشك – تنشأ على الشر والفساد والإباحية ..

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن دعوى الذين يقولون : إن الطباع الإنسانية من شر أو خير لا يمكن تغييرها ولا

تعديلها هي في الحقيقة دعوة باطلة ينقضها الشرع ، ويردّها العقل ، ويكذبها الواقع والتجربة والمشاهدة ، ويبطلها الجمهرة الكبرى من علماء النفس والتربية ، وفلاسفة الأخلاق والاجتماع .. بل اعتبروا آراء « شوبنهاور » و « سبينوزا » و « ليفي بريل » ومن ذهب مذهبهم .. من شذوذ الأقاويل ، وأفسد الآراء !! .. ونجتزئ في هذا المجال بعض ما قاله الإمام الغزالي في إحيائه في الرد على من يزعم أنه لا يمكن تغيير الخير أو الشرّ ، الكامن في الإنسان .

يقول رحمه اللّه : « والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ، فإن عُوّد الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وإن عُوّد الشرّ وأُهمل إهمال البهائم .. شقي وهلك ، وصيانته بأن يؤدّبه ويهذبه ويعلّمه محاسن الأخلاق .. » .

فالإمام الغزالي – رحمه اللّه – يركّز على قابلية الإنسان للخير والشر ، ويُلِحّ على الأبوين أن يقوما بدورهما في إصلاح الولد وهدايته وتربيته .. ؛ لينشأ في المجتمع إنسانًا صالحًا سويًّا .. كما عليهما أن لا يُهملاه حتى لا يصبح في الأمة مجرمًا شقيًّا .. فعلى الداعية أن يعرف هذه الحقيقة حين يريد أن يقوم بدوره في ترسيخ دعائم الخلق الفاضل في سلوكه وطبعه وسائر معاملاته .. وأن يقوم بدوره أيضًا في إصلاح المجتمع ، وهداية الإنسانية ، وتقويم اعوجاج المنحرفين من البشر .

* * *

أصول الأخلاق الفاضلة في الدعاة :

الإسلام بتشريعه الشامل ، ونظرته الكلية في إصلاح النفس البشرية .. وضع أمام الناس – ولاسيما الدعاة منهم – منهجًا خلقيًّا يتولى تقويم طباعهم إلى الأحسن ، وتعديل أمزجتهم إلى الأفضل ، وتهذيب أخلاقهم إلى الأكمل .. حتى إذا تقوّمت طبائعهم ، وتعدّلت أمزجتهم ، وكملت أخلاقهم ، وخالطوا الناس .. أَنِسوا بهم ، وانجذبوا إليهم ، وقويت روح المودة والمحبة فيما بينهم ، وعاشوا في المجتمع إخوانًا متآلفين متراحمين ..

والدعاة إلى اللّه هم أولى من يتحقق بهذا المنهج ، بل هم أوجب من غيرهم في القيام على تنفيذه وتطبيقه ؛ لكون طبيعة الرسالة التي يبلّغونها الناس تتطلب منهم الخلطة والاجتماع ، وتحمّلهم أمانة التبليغ والدعوة .. فإن لم يكونوا على المستوى اللائق من الخلق الفاضل ، والصفات الحميدة .. فالناس لا يقبلون دعوتهم ، ولا ينجذبون إليهم .. بل ينفرون منهم ، وينفضّون عنهم ، وربما تصل الأمور إلى ردود

في الفعل ، وانحرافات في السلوك ..

ولكن ما هي أهم أصول هذا المنهج الأخلاقي ؟

الأصول هي على الترتيب التالي :

1 - خلق الصدق :

الصدق في الداعية هو أسُّ الفضائل ، ومنبع الثقة ، ومبعث التأثير ، وثمرة الإخلاص .. وقد حض اللّه عز وجل على الصدق ، وامتدح الصادقين :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [1] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [2] .

وقال جلّ جلاله مادحًا سيدنا إبراهيم عليه السلام ومبيّنًا ما دعا به ربّه : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [3] .

والنبي صلوت اللّه وسلامه عليه قد حضّ على الصدق ، وأفصح عن مصير الصادقين ، وعلو منزلتهم عند اللّه عز وجل :

روى الشيخان وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البرّ ، والبرّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند اللّه صديقًا .. » [4] .

والصدق في حدّ ذاته ملازم للإيمان ، ومرتبط بالتقوى ، بل لا يمكن أن يجتمع إيمان وكذب في قلب مؤمن أبدًا ، وهذه الحقيقة وضحها النبي ﷺ حين سئل مرة – كما روي الإمام مالك : أيكون المؤمن جبانًا ؟ فقال : « نعم » ، فقيل له : أيكون بخيلًا ؟ فقال : « نعم » ، فقيل له : أيكون المؤمن كذابًا ؟ فقال : « لا » [5] بل قرر عليه الصلاة والسلام في أكثر من مناسبة أن الكذب من آيات النفاق ، وشارات الشقاوة والانحراف .

فإذا كان هذا هو الشأن في المسلم العادي .. فما بالك بالداعية الذي هو محلّ قدوة ، والمنظور إليه في كل مكان على أنه صاحب رسالة ، ورجل دعوة ؟!!

---

(1) سورة التوبة الآية : 119 . (2) سورة مريم الآية : 54 . (3) سورة الشعراء الآيتان : 83 ، 84 .

(4) اللؤلؤ والمرجان (3/198) برقم (1675) ، وسنن أبي داود كتاب الأدب ب (87) ، وسنن الترمذي برقم (1971) .

(5) موطأ الإمام مالك كتاب الكلام ب (7) برقم (19) .

فتحقق الداعية بالصدق من ألزم الواجبات ، بل هو من أعظم المسئوليات ..

وها هو ذا رسول اللّه ﷺ حين كلفه اللّه عز وجل بتبليغ الدعوة أعطى للدعاة في كل زمان ومكان المثل الحيّ في سلوكه واستقامته ، والأسوة الحسنة في صدقه وأمانته ..

فحسبه عليه الصلاة والسلام فخرًا وشرفًا أن أجمعت قريش قبل الرسالة وبعدها على أنه الصادق الأمين ، بل عُرِفَ ﷺ بهذه الخصال ، واشتهر بها على لسان العامة والخاصة في الجاهلية والإسلام :

روى ابن هشام في سيرته عن النضر بن الحارث أن مما ذكره لقومه عن بعض أوصافه عليه الصلاة والسلام : « **هو أصدقكم حديثًا** » .

ومما ذكره البخاري عن هرقل أنه سأل أبا سفيان – ولم يكن أسلم بعد – عن محمد ﷺ قائلًا : وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أجابه أبو سفيان : لا !! .

فقال هرقل : « **أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّه** » [1] .

وروى البخاري في كتاب التفسير أن النبي ﷺ حين بدأ يجهر بالدعوة سأل الناس : « لو أخبرتُكُم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتُم مصدقيّ » ؟ قالوا جميعًا : ما جرّبنا عليك كذبًا [2] ...

فما عليك – أخي الداعية – إلا أن تتأسّى بسيّد الدعاة ﷺ في أمانته وصدقه ، لتُعْرَف بين مَنْ تدعوهم إلى الإسلام بالصادق الأمين ، والداعية الصالح المستقيم .. إن شاء اللّه .

والصدق الذي يتحلّى به الداعية أنواع :

* **صدق مع اللّه** ، ويكون بإخلاص العبودية له ، والاستعانة به ، والتسليم لجنابه فيما ينوب ويروع ..

* **وصدق مع الرسالة المُنَزَّلة** ، ويكون بدقّة النقل ، وأمانة التبليغ ، وإظهار الحق ..

* **وصدق مع الناس** ، ويكون بالتزام العهد ، وصدق الدعوة ، واستقامة التعامل ..

* **وصدق مع الدعوة** ، ويكون بمتابعة التبليغ ، ومواصلة الجهاد ، واستمرارية العمل ..

---

(1) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي ب (6) برقم (7) .
(2) صحيح البخاري كتاب التفسير ب (111) برقم (4971) .

* **وصدق مع النفس** ، ويكون بملازمة الإخلاص ، وتجديد الثقة ، وترسيخ روح التفاؤل ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون ممّن تحلّى **بخلُق الصدق** ؛ لتكون المحبّة لك قوية ، والثقة بك عظيمة ، وتأثيرك في الناس بالغًا مداه ..

* * *

2 - خُلُق الأمانة :

الأمانة صفة خلقية رائعة تنمّ عن معدن طيب ، وأصل كريم ، وتربية فاضلة .. وتعبّر عن خلق عظيم ، وسلوك سامٍ ، وصفة راقية ..

فالداعية إلى اللّه هو أولى الناس بالتحلّي بها ، والتحقق بمعناها ، والتشبّع بروحها ، والافتخار بسمعتها .. ليكون في الناس محل ثقة ، ومثار إعجاب ، وموضع تقدير ومحبة ..

وأعني بالأمانة الائتمان على ثلاثة أمور :

الأول : أمانة المال .

الثاني : أمانة التحدث .

الثالث : أمانة التبليغ .

● **وأعني بأمانة المال** : أداء الحق إلى صاحبه سواء أكان هذا الحق دينًا أو وديعة أو التزامًا أو زكاةً .. لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا .. ﴾ [1] .

وقد بين عليه الصلاة والسلام أن الأمانة من مستلزمات الإيمان وأن من لا أمانة له لا إيمان له .

فقد روى أحمد والبزار والطبراني .. عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : ما خطبنا رسول اللّه ﷺ إلا قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » [2] .

ومن تحذيراته صلوات اللّه وسلامه عليه لهذه الأمة أن جعل الخيانة من سيماء الكفر ، وشارات النفاق .. فقد روى الشيخان عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – أن رسول اللّه ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » [3] .

---

(1) سورة النساء الآية : 58 .

(2) مسند الإمام أحمد 3 / 135 ، وكشف الأستار عن زوائد البزار برقم (100) ، والطبراني (8 / 230) .

(3) اللؤلؤ والمرجان 1 / 12 برقم (38) .

ومن ترغيباته ﷺ لهذه الأمة أن جعل الأمانة طريق الفوز وسبيل الجنة .. فقد روى أحمد وابن حبان والحاكم .. عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : « اضمنوا لي ستًّا أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدّوا إذا ائتمنتم .. »[1] الحديث .

● **وأعني بأمانة التحدث** : أن يلتزم الداعية الدقة والأمانة والصدق بكل خبر يرويه ، أو حديث يمليه ، أو سؤال يوجه إليه .. لما روى البخاري في الأدب المفرد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثًا هو لك مصدّق ، وأنت له به كاذب »[2] .

فلا يجوز للداعية أن يخون أيّ جانب من جوانب الرواية ، ونقل الأخبار ، والتحدث إلى الناس ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] .

وإذا اشتهر الداعية بين الناس بالكذب .. يسقط اعتباره ، وتذهب مهابته ، ويصبح هملا من سقط المتاع ..

● **وأعني بأمانة التبليغ** : أن يبين للناس ما وجب عليه تبليغه ، فلا يجوز له شرعًا أن يكتم ما أنزل الله من البينات والهدى ، ولا يصح له في دين الله أن يؤوّل النصوص على نقيض ما تحتمل .. فإذا فعل شيئًا من هذا بأن كتم علمًا وجب عليه تبليغه ، أو أوّل نصًّا وجب عليه توضيحه .. فيكون خائنًا لأمانة العلم ، كاتمًا للحق .. فيستأهل – إن فعل هذا – غضب الله ولعنته وعقابه ..

ونستمع إلى ما يقوله الله جل جلاله عن هؤلاء الذين يخونون الشرع ، ويكتمون العلم ، ويسكتون عن الحق :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ .. ﴾[4] .

وقال سبحانه في السورة نفسها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .. ﴾[5] .

---

(1) مسند الإمام أحمد 5 / 233 ، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان 1 / 245 والحاكم 4 / 358 .

(2) الأدب المفرد (393) ، وكذا مسند الإمام أحمد 4 / 183 ، وانظر شرح السنة 13 / 158 .

(3) سورة الأنفال الآية : 27 . (4) سورة البقرة الآية : 159 . (5) سورة البقرة الآية : 174 .

والنبي صلوات اللّه وسلامه عليه قد أكد أن كتمان العلم من الخيانة ، وأن من يكتم علمًا ينفع اللّه به الناس فقد استحق جهنم :

روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – أن النبي ﷺ قال : « تناصحوا في العلم ، فإن خيانة أحدكم في علمه أشدّ من خيانته في ماله ، وإن اللّه مسائلكم » [1] .

وروى أصحاب السنن – إلا أبا داود – وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار » [2] .

وفي رواية ابن ماجه : « من كتم علمًا مما ينفع اللّه به الناس في أمر الدين ألجمه اللّه يوم القيامة بلجام من نار » [3] .

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا يحقرنّ أحدكم نفسه » ، قالوا : يا رسول اللّه : وكيف يحقّر أحدنا نفسه ؟ قال : « يرى أمرًا للّه عليه فيه مقال ، ثم لا يقول فيه ، فيقول اللّه عز وجل يوم القيامة : ما منعك أن تقول في كذا وكذا ، فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإياي كنت أحق أن تخشى ؟!! » [4] .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون ممن تحلّى بخلُق الأمانة ، لتكون المحبة لك قوية ، والثقة بك عظيمة ، وتأثيرك في الناس بالغًا مداه ..

* * *

3 - خلُق الحلم :

الحلم معناه أن يكتم المؤمن غيظه ، وأن يصل من قطعه ، وأن يعفو عمن ظلمه ، وأن يُحسن إلى من أساء إليه .. ولقد وردت هذه المعاني للحلم في أكثر من آية في كتاب اللّه عز وجل :

قال تعالى : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [5] .

قال سبحانه : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [6] .

قال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [7] .

---

(1) المعجم الكبير 11 / 270 برقم (11701) . (2) انظر الترغيب والترهيب 1 / 121 ، ومجمع الزوائد 1 / 163 .
(3) سنن ابن ماجه (265) . (4) سنن ابن ماجه (4008) .
(5) سورة آل عمران الآية : 134 . (6) سورة الأعراف الآية : 199 . (7) سورة فصلت الآية : 34 .

والداعية إلى اللّه هو أولى من غيره في ضرورة التحلّي بخلُق الحلم والعفو وكظم الغيظ .. حتى يستطيع أن يجذب القلوب إليه ، وأن يحبب الناس فيه ، وأن يدفع أبناء الأمة الإسلامية إلى الدين الحق ، والتزام هدى اللّه جلّ جلاله ..

وكم يخطئ الذين يأخذون الناس بالشدّة ، ويعاملونهم بالقسوة ، ويسلكون معهم سبيل الفظاظة والعنف !

عدا أنهم أعطوا الصورة المشوهة عن أخلاق الدعاة ، وجانبوا سبيل التأسّي بالنبي ﷺ في مرآة حلمه ، وعفوه الجميل .. فإنهم أيضًا أحدثوا ردود الفعل في نفوس من يدعونهم .. وربما أدت بهم هذه الردود النفسيّة إلى أسوأ المسالك ، وأخطر الانحرافات !! .

ويخطئ من يظن أن الحلم عجز ، وأن العفو ضعف ، وأن الإعراض عن الجاهل خوف وخور .. فهذه حجج يلجأ إليها اللئام ، ويتبجّح بها الجاهلون .. الذين تأخذهم العزة بالإثم ، ولا يُريدون أن يتحلّوا بأخلاق الإسلام ، ولا أن يتأسّوا بسيرة صاحب الخلقُ العظيم عليه الصلاة والسلام !! ..

والذي يريد أن يَسْبِرَ روح الحقيقة ، وأن يتفحصّ ماهية الأمور .. يجد أن ضبط النفس عند الغضب ، والاحتكام إلى العقل في صورة الانفعال هو من شارات القوة ، ومن مقتضيات البطولة في حياة المسلم حيثما كان ؛ وإلى هذه الصفة البطولية الرائعة أشار نبي الإسلام – صلوات اللّه وسلامه عليه – حين وقف مرة ليبين من هم الأشدّاء ، ومن هم الذين يتصفون بالبطولة والرجولة .

روى الإمام مالك في موطئه أنه عليه الصلاة والسلام وقف مرة بين أصحابه وقال : « **ليس الشديد بالصُّرَعَة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** » [1] .

والإسلام رغم أنه يعطي للنفس الإنسانية حقها في مقابلة السيئة بمثلها [2] .. استجابةً لغريزة حب الانتقام والانتصار التي ركّبها اللّه في الإنسان .. رغم كل هذا – يدعو المسلم في حال الإساءة إليه أن يرتفع إلى مستوى المثالية فيعفو ويصفح ويعرض عن الجاهلين .. قال سبحانه : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] .

فالداعية هو أحق من غيره بالاتصاف بالمثالية .. حتى يعطي للناس قدوة في حلمه وعفوه ، وضبط نفسه عند الغضب .. ثم بالتالي .. حتى يستجيب الناس له ،

(1) موطأ الإمام مالك 2 / 906 برقم (12) ، وانظر اللؤلؤ والمرجان (3 / 199) برقم (1676) .
(2) الآية : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى الآية : 40) .
(3) سورة النور الآية : 22 .

ويتأثرون به ، وينجذبون إليه ، ويلتفون حوله ، ويستمعون إلى مواعظه وإرشاداته ..

وقد أرشد اللّه هذه الأمة بما خاطب به نبيه عليه الصلاة والسلام أن الفظاظة وغلظة القلب .. تسبّب النفور ، وتورث العداوة ، وتقضي على روح تقبّل الخير في الناس ، وتعزل الدعاة عن العامة ، وتؤخر مسيرة الدعوة ، وتفجّر طاقة اليأس والقنوط في الإنسان ..

قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ... ﴾ (1) .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون ممّن تخلّق **بخلُق الحلم** لتكون المحبّة لك قويّة ، والثقة بك عظيمة ، وتأثيرك في الناس بالغًا مداه .

* * *

4 - خلُق التواضع :

المقصود بالتواضع : أن يمشي المؤمن بين الناس هونًا ، وأن يخفض جناحه لمن يلقاه ، وأن يرضى أن يأكل ما حضر من طعام ، ويلبس ما تيسر له اللباس ، ويجلس كيف تّم له الجلوس ، ويمتزج مع من يلتقي من البشر .. دون أن يأخذه شيء من كِبْر ، أو تداخله بقية من عُجْب ، أو تساوره نظرة من استعلاء ..

وإلى هذه المعاني من التياسر والتواضع دعا القرآن الكريم المؤمنين بالتحقق بها ، والعمل بأحسنها ، والسير على منهجها ليكوّنوا الجماعة الرائدة المتماسكة ، والأمة الخيّرة التي أخرجت للناس . فاستمع – أخي الداعية – إلى ما يقرّره القرآن الكريم لهذه الأمة :

قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ (2) .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (3) .

وقال جل جلاله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ .. ﴾ (4) .

وقال عز من قائل : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ .. ﴾ (5) .

(1) سورة آل عمران الآية : 159 . (2) سورة الفرقان الآية : 63 . (3) سورة الحجر الآية : 88 .
(4) سورة المائدة الآية : 54 . (5) سورة الكهف الآية : 28 .

وفي الدعوة إلى التواضع، وتخلّق المؤمنين به، والتحلّي بمعانيه يقول عليه الصلاة والسلام: « إن اللّه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحد على أحد »[1].

ويقول: « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد اللّه عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد اللّه إلا رفعه اللّه »[2].

وما أحسن ما قال بعضهم في تبيان فضل التواضع:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجوّ وهو وضيع

وقال آخر:

إذا شئت أن تزداد قدرًا ورفعة فكُنْ متواضعًا واترك الكِبْرَ والعُجْباَ

فإذا كان هذا - أخي الداعية - فضل التواضع والمتواضعين فاحرص على أن تكون من الذين تواضعوا للّه، عسى اللّه سبحانه أن يفتح بك قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًّا، وعيونًا عميًا .. وعسى أن ترى أمة الإسلام قد ثابت إلى رشدها، وقبلت هدي ربها، وعادت خير أمة أخرجت للناس ..

ولاشك أن الداعية إلى اللّه عز وجل إذا تزود بالعلم، وتحلى بالحلم، وتخلق بالتواضع .. وعرف كيف يشد القلوب إليه؟ وكيف يجبب الناس فيه؟ وكيف يقوي ثقة الأمة به؟ ..

لاشك أنه يستطيع أن يقوم بدوره في الإصلاح والتغيير، ويستطيع أن يهدي أمة بأسرها، وأن يصلح مجتمعًا بأكمله، وأن يعيد لأمة الإسلام عزتها وكرامتها تحت الشمس ..

ومن صور التواضع: أن يبدأ الداعية من يلقاه بالسلام، وأن يخالط العامة في مجتمعاتهم، وأن يصاحب الفقراء في مجالسهم، وأن ينبسط للناس حين يجتمع بهم، وأن يأكل ما حضر من الطعام، وأن يرضي أن يلبس ما تيسّر من اللباس، وأن يمشي على الأرض هونًا، وأن لا يكون من المتكلّفين ...

فاحرص - أخي الداعية - على أن تكون ممن تخلّق **بخلّق التواضع**، لتكون لك المحبّة قوية، والثقة بك عظيمة، وتأثيرك في الناس بالغًا مداه ..

---

(1) صحيح مسلم كتاب الجنة ب (64)، وسنن أبي داود (4895).
(2) صحيح مسلم كتاب البر والصلة، باب استحباب العقود والتواضع، والترمذي (2346).

5 - **خلُق الكَرَمَ :**

الكرم صفة نفسية كريمة ، وشعور اجتماعي نبيل .. ينمّ عن صدق إيمان ، وصفاء سريرة ، وطهارة نفس .. ويدلّل على حسن سيرة ، ومكارم خُلق ، وأصالة تربية ..

ويكفي الكريم شرفًا أنه من الإيمان بمكان .. روى الشيخان عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – عن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه .. » [1] .

ويكفيه كرامة أن الملائكة تصلّي عليه ، روى الأصبهاني عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « الملائكة تصلّي على أحدكم مادامت مائدته موضوعة » [2] .

ويكفيه منزلة أن اللّه سبحانه يدخله الجنة ، روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من أقام الصلاة وآتي الزكاة ، وصام رمضان ، وقرى الضيف دخل الجنة » [3] .

ويكفيه غبطة أن ملكًا في السماء يدعو له بالخلف والبركة ، روى الشيخان عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا » [4] .

فإذا كان هذا فضيلة الكرم ، ومنزلة الكرماء .. فاحرص – أخي الداعية على أن تتخلّق بهذا الخلق النبيل ، وأن تتحلّى بهذه الخصلة الحميدة .. أتدري لماذا ؟

من أجل أن تتأسّى بالنبي ﷺ في شمائله العطرة لكونك من ورثة النبوة ..

من أجل أن يجد الناس فيك القدوة بالكرم والسخاء ..

من أجل أن يروا فيك الزهد بالمال والإقبال على الآخرة ..

من أجل أن تعرف الدنيا أن الغنى غنى النفس لا غنى المتاع الزائل ..

من أجل أن تجذب أبناء الأمة إلى الهدى وتحببهم في الإسلام ..

ومن المعلوم أن الإنسان عبد الإحسان ، وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، ورحم اللّه من قال :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(1) اللؤلؤ والمرجان 1 / 10 .
(2) انظر الترغيب والترهيب 3 / 372 .
(3) المعجم الكبير للطبراني 12 / 137 برقم (12692) .
(4) سبق تخريجه ص 201 .

روى مسلم عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : ما سئل رسول اللّه ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه ، وقد جاءه رجل ، فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع إلى قومه ، فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وإن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها [1] .

فبالكرم وبالسخاء – أخي الداعية – تملك النفوس ، وتنفتح لك القلوب ، وتفجّر في المجتمع طاقة الهداية ، وتكون سببًا في إصلاح الناس وشدّهم إلى الإسلام ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون ممن تخلّق بخلُق الكرم والسخاء ، لتكون لك المحبّة قوية ، والثقة بك عظيمة ، وتأثيرك في الناس بالغًا مداه .

* * *

تلكم أهم الأصول الخلقية في تكوين الدعاة :

فبخلق **الصدق** يعتقدكم الناس ..

وبخلق **الأمانة** يثقون بكم ..

وبخلق **الحلم** تجذبون قلوبهم ..

وبخلق **التواضع** تملكون نفوسهم ..

وبخلق **الكرم** تشدّونهم إلى الإسلام ..

ولاشك – أن الداعية – حين يتحلّى بالصدق والأمانة ، وحين يتخلّق بالحلم والتواضع ، وحين يتصف بالكرم والسخاء .. يكون قد ارتفع إلى المستوى اللائق في حُسن الخلق ، وطيب المعاملة ، والإحسان إلى الناس .. بل يكون له في مجتمعه شأن وأيّ شأن ؟ في الأثر والإصلاح ، وفي الهداية والتغيير ..

وهذا كله في عموم قوله عليه الصلاة والسلام في كلّ ما وجه إليه من طيب معاملة ، وكل ما أمر به من حسن خُلق :

روى الترمذي عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : سئل رسول اللّه ﷺ عن أكثر ما يُدخل الجنة ، قال : « تقوى اللّه وحسن الخلق » [2] .

---

(1) صحيح مسلم كتاب الفضائل ب (14) برقم (59) . (2) سنن الترمذي (2004) .

وروى الترمذي أيضًا عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلُقًا ، وخياركم خياركم لنسائهم خلقا » [1] .

وروى أبو داود عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » [2] .

ألا فليتحلّ الدعاة بأصول مكارم الأخلاق إن أرادوا الخير لأنفسهم ، والهداية لأمتهم ، والعزة لدينهم ، والسيادة لدولتهم .. واللّه سبحانه لن يتِرَ أعمال العلماء الصادقين ، ولن يُضيّع جهود الدعاة المخلصين ؟!! .

لأنه القائل : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [3] .

* * *

نماذج خالدة من أخلاق سيد الدعاة :

بعث اللّه محمدًا ﷺ ليكون لأمة الإسلام على مدار التاريخ الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة .. وللبشرية خلال العصور السراج المنير ، والقمر الهادي ..

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [4] .

وقال جل جلاله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [5] .

وقد وضع اللّه في شخص محمد ﷺ الصورة التطبيقية الكاملة لمنهج الإسلام ، وأخلاق القرآن .. لترتشف الإنسانية جيلاً بعد جيل على مدى التاريخ معين المكارم ، وينبوع الفضائل ، وسلسبيل العظمة ..

سُئلت السيدة عائشة رضي اللّه عنها – كما روى مسلم – عن خلُق رسول اللّه ﷺ فقالت : « لقد كان خلقه القرآن » [6] ..

---

(1) سنن الترمذي (1162) . (2) سنن أبي داود (4798) .

(3) سورة النساء الآية : 69 . (4) سورة الأحزاب الآية : 21 . (5) سورة الأحزاب الآية : 45 ، 46 .

(6) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين ب (18) برقم (139) .

إنها لإجابة دقيقة مختصرة شاملة من أمّ المؤمنين ، ضمّت في معانيها منهج القرآن الشامل ، ومبادئ الأخلاق الفاضلة .. حقًّا إن النبي ﷺ كان الترجمان الحيّ لفضائل القرآن ، والصورة المتحركة لمبادئه الخالدة !! .

من يستطيع أن يحوم حول هذا الحمى ، أو يصل إلى نقطة من بحره العظيم ؟

يكفيه عليه الصلاة والسلام فخرا وشرفًا وخلودًا .. أن يعلن عن نفسه أن اللّه سبحانه صنعه على عينه ، واصطفاه لنفسه ، وأدّبه فأحسن تأديبه .. ليكون دائمًا كالعافية للأبدان ، والشمس للأكوان ، والبدر في سماء الإنسانية ..

روى العسكري وابن السمعاني عن النبي ﷺ أنه قال : « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » [1] .

ومن ظواهر هذه العناية الربانية ، والتأديب الإلـهي : أنه ﷺ لم يقترف إثمًا من آثام الجاهلية ، بل كان معروفًا بين عشيرته بالمتعفّف الطاهر ؛ وكانت الجاهلية تلقّبه بالصادق الأمين ؛ وهي التي قالت له في مجمع كبير من الناس : **(ما جرّبنا عليك كذبًا)** [2] ؛ وأنه استطاع بفطانته وحسن سياسته .. أن يضع لقومه الحلّ الأفضل في وضع الحجر الأسود ، بل استطاع أن يجنّب القبائل المختلفة وقوع حرب طاحنة مدمّرة لا يعلم مداها إلا اللّه العليّ القدير .

ويكفيه صلوات اللّه وسلامه عليه فخرًا وشرفًا وخلودًا أن وصفه اللّه عز وجل بهذا الوصف الرائع ، ونعته بهذا النعت الخالد : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [3] ..

وإليك – أخي الداعية – صورًا حيّة من هذا الخلق العظيم ، والملاطفة الرائدة :

أ – روى البخاري عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : بال أعرابيّ في المسجد ، فقام الناس ليوقعوا فيه ، فقال النبي ﷺ : « دعوه ، وأريقوا على بوله سَجْلا (دلوًا) من ماء ، فإنما بعثتم ميسّرين ، ولم تبعثوا معسّرين » [4] .

ب – روى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبي أمامة – رضي اللّه عنه – أن غلامًا شابًّا أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي اللّه أتأذن لي في الزنى ؟ فصاح الناس به ..

فقال النبي ﷺ : « قرّبوه ، ادنُ » ، فدنا حتى جلس بين يديه ..

فقال عليه الصلاة والسلام : « **أتحبّه لأمك ؟** » . قال : لا ، جعلني اللّه فداك .

---

(1) انظر كنز العمال (31895) وفيض القدير (1 / 224) . (2) سبق تخريجه ص 225 .
(3) سورة القلم الآية : 4 . (4) صحيح البخاري كتاب الأدب ب (80) برقم (6128) .

قال عليه الصلاة والسلام : « فكذلك الناس لا يحبّونه لأمهاتهم » . « **أتحبه لابنتك ؟** » قال : لا ، جعلني اللّه فداك . قال ﷺ : « فكذلك الناس لا يحبّونه لبناتهم » .

« **أتحبه لأختك ؟** » . قال : لا ، جعلني اللّه فداك . قال عليه الصلاة والسلام : « فكذلك الناس لا يحبّونه لأخواتهم » .

وزاد الراوي ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة .. وهو يقول في كل واحد : لا ، جعلني اللّه فداك ، والنبي ﷺ يقول : « كذلك الناس لا يحبونه .. » .

ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال : « اللهم طهرّ قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصّن فرجه » فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنى [1] !! .

جـ – وروى مسلم أن معاوية بن الحكم السّلمي حدّث يومًا فقال : بينا أنا أصلي مع رسول اللّه ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت : يرحمك اللّه ، فرماني القوم بأبصارهم فقلتُ : واثُكْلَ أمّياه !! .. ما شأنكم تنظرون إلي ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتُهم يصمّتونني سكتّ ، فلما صلّى عليه الصلاة والسلام – فبأبي هو وأمي – ما رأيت معلّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه ، فواللّه ما كهرني [2] ، ولا ضربني ، ولا شتمني .. وإنما قال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح ، والتكبير ، وقراءة القرآن .. » [3] .

أما عن تواضعه عليه الصلاة والسلام :

فقد أجمع من عاصر النبي ﷺ واجتمع به وعاين رسالته .. أنه صلوات اللّه وسلامه كان يبدأ أصحابه بالسلام ، وينصرف بكليته إلى محدثه صغيرًا كان أو كبيرًا ، وكان آخر من يسحب يده إذا صافح ، وإذا أقبل جلس حيث ينتهي بأصحابه المجلس ، وكان يذهب إلى السوق ، ويحمل بضاعته ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يتكبر أن يعمل عمل الأجير والصانع .. سواء أكان في بناء مسجده الشريف أو في حفر الخندق .. وكان يجيب دعوة الحرّ والعبد والأمة ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم في مهنة أهله ، وكان يَعْقِل بعيره ، ويأكل مع الخادم ، ويقضي حاجة الضعيف والبائس ، ويجلس على الأرض ...

---

(1) مسند الإمام أحمد 5 / 256 و 257 . (2) كهرني : انتهرني .

(3) صحيح مسلم كتاب المساجد ب 7 برقم (33) .

وكيف لا يكون عليه الصلاة والسلام بهذا الوضع الفذّ ، والتياسر الجمّ .. وقد أنزل اللّه عليه قوله : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (1) .

أما عن حلمه صلوات الله وسلامه عليه :

فقد بلغ ﷺ أعلاه ؛ سواء حلمه فيما كان يلقاه من جفوة الأعراب ، أم فيما عامل به - بعد النصر - غطرسة الأعداء .

● أما عن حلمه فيما كان يلقاه من جفوة الأعراب فحسبي أن أذكر هذا المثل من أمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى : روى الشيخان عن أنس - رضي اللّه عنه - قال : كنتُ أمشي مع رسول اللّه ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذةً شديدة ، فنظرتُ إلى صَفْحَة عاتق (2) النبي ﷺ ، وقد أثَّرت به حاشية البُرْد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مُرْ لي من مال اللّه الذي عندك ، فالتفتَ إليه فضحك ثم أمر له بعطاء (3) .

وأما عن حلمه فيما عامل به غطرسة الأعداء بعد أن أمكنه اللّه منهم فحسبنا أن ننظر إلى معاملته لأهل مكة الذين أسرفوا في إيذائه ، وأمعنوا في اضطهاده ، وأخرجوه من بلده ، وتآمروا على قتله ، وقذفوه بكل بهتان من قول الزور .. لتتجلّي لكل ذي عينين نفسه الكريمة في مرآة عفوه ، وصفحه الجميل .. (انظروا إليه فاتحًا في جيش كبير لم تر جزيرة العرب مثله يكتسح مكة ، وتطؤها خيله .. انظروا إليه والبلاد في رحمته يشملها عفوه ، والسادة والزعماء الذين عتوا في الأرض ، وفعلوا مع الرسول ﷺ الأفاعيل .. يُجزون بالبر والإحسان ، ويعاملون بالعفو والصفح الجميل ، وحكام الأرض لا تعرف لأمثالهم غير قطع الرؤوس ..) (4) .

فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن جمعهم ، وأمّنهم ، ومنّاهم .. وقال لهم : « ما ترون أني فاعل بكم » ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » !! .

وكيف لا يكون عليه الصلاة والسلام في هذه المنزلة من العفو والحلم وقد أنزل اللّه عليه في محكم تنزيله : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (5) ؟

أما عن كرمه ﷺ :

فكان عليه الصلاة والسلام يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، وكان أجود ما

---

(1) سورة الشعراء الآية : 215 . (2) صفحة العاتق : ما بين العنق والكتف . (3) اللؤلؤ والمرجان 1 / 225 .
(4) من كتاب « بطل الأبطال » للمرحوم عبد الرحمن عزام ص : 55 . (5) سورة الأعراف الآية : 199 .

يكون في رمضان .. وسبق أن ذكرنا ما رواه مسلم عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : « ما سئل رسول اللّه ﷺ علىٰ الإسلام شيئًا إلا أعطاه ، وقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع إلى قومه ، فقال : يا قوم ، أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر . وإن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها !! [1] ..

وعن أنس أيضًا : « ما سئل رسول اللّه ﷺ شيئًا قط ، فقال : لا » [2] .

وكيف لا يكون – عليه الصلاة والسلام – في هذا الخلُق من الكرم والسخاء وقد أنزل الله عليه في مُحكم كتابه ؟! : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [3] .

وهذا الذي ذكرناه من خلق النبي ﷺ ، ونماذج عنه في الحلم والتواضع والكرم .. ما هو في الحقيقة إلا رشفة من فيض عظمته صلوات اللّه وسلامه عليه ، وغرفة يسيرة من بحر كمالاته عليه الصلاة والسلام !! .

هل يستطيع أحد أن يحصي فضائل هذا النبي العظيم ، وأن يحيط بجوانب عظمته كلها . بعد أن وصفه اللّه بهذا الوصف الخالد : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [4] وبعد أن قال عن نفسه : « أدّبني ربّي فأحسن تأديبي » [5] ؟

ورحم اللّه من قال :

دع ما ادّعته النصاري في نبيّهم   واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرفٍ   وانسب إلى قدره ما شئت من عِظَمِ
فإن فضل رسول اللّه ليس له   حدٌّ فيُعربَ عنه ناطق بِفَمِ
فمبلغ العلم فيه أنه بَشَر   وأنه خير خَلْقِ اللّه كلّهِم

وإذا كان اللّه سبحانه قد خصّ نبيّه – عليه الصلاة والسلام – بهذا الخلقُ العظيم ، وميّزه بهذه الأسوة الحسنة .. فمن الطبيعي أن تنجذب له القلوب ، وأن تتأسّى به النفوس ، وأن يجد الناس في شخصية النبي ﷺ المثل الأعلى في كل ما يرتبط بحياتهم الدينية والدنيوية والاجتماعية ..

---

(1) سبق تخريجه ص 231 . (2) صحيح مسلم كتاب الفضائل ب (14) برقم (56) .
(3) سورة البقرة الآية : 272 . (4) سورة القلم الآية : 4 . (5) سبق تخريجه ص 235 .

وكان من نتيجة هذا الانجذاب والمحبة والتأسّي :

أن الذين عاينوا عصر النبي ﷺ ، وشُغِفوا به حبًّا وإيمانًا كانوا لا يصبرون إذا لم تكتحل عيونهم برؤيا النبي ﷺ ومشاهدة محيّاه ، روى البغوي عن ثوبان مولى النبي ﷺ وكان شديد الحبّ للرسول عليه الصلاة والسلام ، قليل الصبر عن مفارقته ، فأتاه ذات يوم ، وقد تغير لونه ، فقال له رسول اللّه ﷺ : « ما غيّر لونك ؟ » .

فقال ثوبان : يا رسول اللّه ما بي مرض ولا وجع ، غير أني إذا لم أرك استوحشتُ وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرتُ الآخرة فأخاف أن لا أراك ، لأنك ترفع مع النبيين ، وإني إن دخلتُ الجنة فأنا في منزلة أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدًا ، فنزلت هذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [1] .

ومن نتائجها : أنهم آثروا محبة النبي ﷺ على محبتهم لأنفسهم ..

ومن ذلك : قصة زيد بن الدّثنة كما روها البيهقي عن عروة قال : « لما أخرج المشركون زيد بن الدّثنة من الحرم ليقتلوه بالتنعيم ، وقد اجتمع في الطريق « خبيب ابن عديّ الأنصاري ، وزيد بن الدّثنة » ، فتواصيا بالصبر والثبات على ما يلحقهما من المكاره ؛ قال أبو سفيان – وهو يومئذ مشرك – قال لزيد بن الدّثنة : أنشدك باللّه يا زيد : أتحب أن محمدًا الآن مكانك ، وتضرب عنقه ، وأنك في أهلك ؟!! .

فقال له زيد : واللّه ما أحبّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكة وأني جالس في أهلي !!

فقال أبو سفيان : « ما رأيتُ أحدًا يحبّ أحدًا كحبّ أصحاب محمد محمدا » [2] !!

فقد آثر زيد أن يقتل ، ولا يصاب رسول اللّه ﷺ بأقل شيء من الأذى .

قال الحافظ الزرقاني : وفي رواية : أنهم ناشدوا خبيبًا ، فقال : « واللّه ما أحبُ أن يفديني رسول اللّه ﷺ بشوكة في قدمه » .

ومن ذلك : ما رواه البيهقي وابن إسحاق : أن امرأة من الأنصار قد قُتل أبوها

(1) انظر الدر المنثور 2 / 182 والآية من سورة النساء : 69 .
(2) انظر البداية والنهاية 4 / 65 .

وأخوها وزوجها شهداء يوم أحد ، فقالت لما أُخبرت بذلك : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ (تسأل عن سلامته) قالوا : خيرًا هو بحمد الله كما تُحبّين !! . فقالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأته قالت : « كل مصيبة بعدك جلَلَ » (أي بعد سلامتك هيّنة) [1]!! . من هذا المنطلق الوجداني من الحب والولاء والتفاني .. تعلّق أصحاب رسول الله ﷺ بنبيهم ، وتأسّوا بقائد دعوتهم .. لأنهم وجدوا فيه المثل الأعلى في كل شيء ، ولا سيما المكارم الخلقية التي ملكت عليهم عقولهم ومشاعرهم .. وهكذا تعمل الأسوة الحسنة عملها في النفوس ، وتترك أثرها الطيب في التربية والإعداد ..

صور حيّة من أخلاق الصحابة والسلف :

والرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان .. الذين تربوا في مدرسة الأخلاق الإسلامية ، ورضعوا من لبانها ، وتعلّموا على يد أساتذتها .. قد أعطوا للأجيال المتعاقبة خلال العصور القدوة الحسنة في حسن أخلاقهم ، وكريم معاملتهم ، ونبل حلمهم وتواضعهم وسخائهم ..

فاسمع – أخي الداعية – إلى هذه النماذج الحيّة الخالدة التي ضمها التاريخ في ثناياه :

ففي مجال التواضع :

1 – روى الحاكم عن طارق : خرج عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى الشام ، فأتوا على مخاضة (مستنقع ماء) ، وعمر على ناقة له ، فنزل وخلع خفّيه فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته فخاض .

فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين : أنت تفعل هذا ؟ ما يسرّني أن أهل البلد استشرفوك (رأوك) .. فقال أوّهْ (كلمة تضجر) ولو يقول ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالًا (عبرة) لأمة محمد ؛ « إنا كنا أذلّ قوم فأعزّنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » [2] .

2 – وجاء في المنتخب عن الدينوري عن الحسن قال : خرج عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في يوم حار واضعًا رداءه على رأسه ، فمرّ به غلام على حمار ..

فقال عمر : يا غلام احملني معك !! .

فوثب الغلام عن الحمار وقال : اركب يا أمير المؤمنين ..

---

(1) انظر مجمع الزوائد 6 / 115 . (2) المستدرك للحاكم 1 / 61 .

قال عمر : لا ، « اركب أنت وأركب أنا خلفك ، تريد أن تحملني على المكان الوطيء (الناعم) ، وتركب أنت على الخشن ؟ !! » .

فركب عمر خلف الغلام ، فدخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه !! ..

3 – وأخرج ابن سعد في طبقاته ، وأحمد ، وغيرهما .. عن عبد اللّه الرومي قال : كان عثمان – رضي اللّه عنه – يَلي وضوء الليل بنفسه ، فقيل له : لو أمرتَ بعض الخَدَم فكفوك ؟ فقال : لا ، إن الليل لهم يستريحون فيه .

4 – وأخرج ابن سعد عن أبي بكر – رضي اللّه عنه– أنه كان قبل الخلافة تاجرًا ، وكان يحلب للحيّ أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحيّ : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى ، لعمري لأحلبنّها لكم ، وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلتُ فيه (يقصد الخلافة) عن خلُق كنتُ عليه ، فكان يحلب لهم !! .

5 – وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن صالح بيّاع الأكسية عن جدّته قالت : رأيتُ عليًا – رضي اللّه عنه – اشترى تمرًا بدرهم ، فحمله في ملحفته ، فقال له رجل : أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ .

قال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل !! .

6 – وأخرج ابن سعد في طبقاته عن ثابت قال : كان سلمان الفارسي أميرًا على المدائن ، فجاء رجل من أهل الشام من بني تيم ، معه حمل تين ، وعلى سلمان (سراويل عجمية) ، وعباءة ..

فقال الرجل لسلمان وهو لا يعرفه : تعال احمل – يحسبه حمالًا – فحمل سلمان ، فرآه الناس فعرفوه ، فقالوا : هذا الأمير !! ..

فقال الرجل : لم أعرفك .

فقال له سلمان : لا ، حتى أبلغ منزلك ، قد نويتُ فيه نية فلا أضعه حتى أبلغه بيتك !! ..

7 – وقال قتادة : « من أُعطي مالًا ، أو جمالًا ، أو ثيابًا ، أو علمًا .. ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالًا يوم القيامة » اهـ .

8 – وأخرج ابن عبد الحكم في سيرة « عمر بن عبد العزيز » : أن عمر بن عبد العزيز كان جالسًا مرة مع بعض أصحابه ، فغُمّ على الحاضرين السراج فقام عمر

وأصلحه بنفسه . فقال له أحد الجالسين : لو نحن كفيناك المؤنة يا أمير المؤمنين ؟!! فقال عمر قولته الخالدة : قمتُ وأنا عمر ، ورجعتُ وأنا عمر !! .

وفي مجال الحلم :

1 – جاء في أسباب النزول للسيوطي : أن قريبًا لأبي بكر – رضي اللّه عنه – اسمه « مسطح » ، كان يعيش على إحسان أبي بكر وكفالته ، لم يتورّع عن الخوض في عرض عائشة – رضي اللّه عنها – لما أشاع المنافقون عليها ما أشاعوا في حادثة الإفك ، وكأن مسطح قد نسي أو تناسى حق الإسلام ، وحق الإحسان ، وحق القرابة .. مما أثار حفيظة أبي بكر ، ودفعه أن يحلف أن لا يصله ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] .

فعفا عنه أبو بكر – رضي اللّه عنه – وصفح ، وعاد إلى عطائه الأول قائلًا : أحبُّ أن يغفر اللّه لي . رغم الإساءة البالغة التي وجهها إليه مسطح !! .

2 – وروى البخاري عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – قال : لما قدم « عيينة ابن حصن » نزل على ابن أخيه « الحرّ بن قيس » ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر – رضي اللّه عنه – إذ كان من قرّاء أصحاب مجلس أمير المؤمنين ومشاورته ..

فقال عيينة لابن أخيه الحرّ : استأذن لي على أمير المؤمنين ، فاستأذن له ، فلما دخل قال : هيه يا ابن الخطاب ، فواللّه ما تعطينا الجَزْل (أي ما نستحقه من العطاء) ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر ، حتى همّ أن يوقع به .

فقال الحرّ بن قيس : يا أمير المؤمنين ، إن اللّه يقول : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [2] ، وإن هذا من الجاهلين ، فواللّه ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافًا عند كتاب اللّه عز وجل !! [3] .

3 – وجاء في كتاب « مختصر منهاج القاصدين » للمقدسي : أن زين العابدين علي بن الحسين – رضي اللّه عنهما – خرج مرة إلى المسجد فسبّه رجل ، فقصده

(1) سورة النور الآية : 22 . (2) سورة الأعراف الآية : 199 .

(3) صحيح البخاري كتاب التفسير ب 5 برقم (4642) .

غلمانه ليضربوه ويؤذوه ، فنهاهم زين العابدين ، وقال لهم : كفّوا أيديكم عنه ، ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال : يا هذا أنا أكثر مما تقول ، وما لا تعرفه مني أكثر مما عرفته ، فإن كان لك حاجة في ذكره ذكرته لك !! .

فخجل الرجل واستحيا .. فخلع زين العابدين قميصه ، وأمر له بألف درهم !! ..

فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشابّ ولد رسول الله ﷺ .

وجاء أيضًا : أن غلامه كان يصبّ له الماء بإبريق مصنوع من خَزَف (من طين) ، فوقع الإبريق على رجل زين العابدين ، فانكسر ، وجرحت رجله ، فقال الغلام على الفور :

يا سيدي : يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ ﴾ ..

فقال زين العابدين : « ولقد كظمتُ غيظي » !! .

ويقول : ﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ .

فقال زين العابدين : « لقد عفوتُ عنك » !! .

ويقول : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [1] .

فقال زين العابدين : « أنت حرّ لوجه الله » !! ..

4 – وجاء « في المختصر .. » للمقدسي : أن رجلًا أسمع معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – كلامًا شديدًا ، فقيل له ، فقال : إني لأستحيي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي .

5 – جاء في كتاب « تربية الأولاد .. » للمؤلف : قال عبد الله بن طاهر : كنت عند المأمون يومًا فنادى الخادمَ : يا غلام .. فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيًا وصاح : يا غلام .

فدخل غلام تركي وهو يقول : أما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح : يا غلام .. يا غلام .. إلى كم يا غلام ؟!! .

فنكّس المأمون رأسه طويلًا – فما شككتُ في أن يأمرني بضرب عنقه – ثم نظر إليّ فقال : يا عبد الله ، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ، ساءت أخلاق خدمه ، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لنحسّن أخلاق خدمنا ..!!

6 – وجاء في « المختصر .. » للمقدسي : أن رجلًا شتم عديّ بن حاتم وهو

(1) سورة آل عمران الآية : 134 .

ساكت ، فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقي عندك شيء فقله قبل أن يأتي شباب الحي .. فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا ..!!

7 – وجاء في « المختصر .. » أيضًا : أن عمر بن عبد العزيز رحمه اللّه دخل المسجد مرة في الظلمة ، فمر برجل نائم ، فعثر به (أي أصابه برجله) ، فرفع الرجل رأسه وقال : أمجنون أنت ؟

فقال عمر : لا ، فهمّ به الحرس ، فقال عمر : مه ، إنما سألني أمجنون ؟ فقلتُ : لا .

8 – وجاء في « المختصر .. » كذلك : أن إبراهيم بن أدهم خرج إلى بعض البراري مرة ، فاستقبله جندي فقال : أين العمران ؟ فأشار ابن أدهم إلى المقبرة ، فضرب الجندي رأسه فشجّه ، فلما أُخبر أنه ابن أدهم ، جعل يقبل يده . ويعتذر .. ، فقال ابن أدهم معلّقًا على هذا الحادث : إنه ضرب رأسي ، سألتُ اللّه له الجنة ؛ لأني علمتُ أني أُوجر بضربه إياي ، فلم أحبّ أن يكون نصيبي منه الخير ، ونصيبه مني الشرّ !! .

وفي مجال الكرم :

1 – روى الحاكم في المستدرك : أن معاوية بن أبي سفيان – رضي اللّه عنه – بعث بثمانين ألف درهم إلى عائشة – رضي اللّه عنها – وكانت صائمة ، وعليها ثوب خَلِق (أي قديم) ، فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين .. ولم تُبْق منه شيئًا ، فقالت لها خادمتها : يا أمّ المؤمنين : ما استطعت أن تشتري لنا لحمًا بدرهم تفطرين عليه ، فقالت أم المؤمنين : يا بنيّة لو ذكرتني لفعلت !! [1] .

2 – قال « محمد بن إسحاق » : « كان أناس بالمدينة يعيشون ، ولا يدرون من أين يعيشون ؟ ومن يعطيهم ؟ فلما مات زين العابدين بن الحسين – رضي اللّه عنهما – فقدوا ذلك ، فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به .. ولما مات وجدوا في ظهره أثر حمل الجراب (أي الكيس) إلى بيوت الأرامل والمساكين » .

3 – وجاء في كتاب « الأخوة .. » للمؤلف : وكان الليث بن سعد ذا غلّة سنوية تزيد على سبعين ألف دينار ، ويتصدق بها كلها .. حتى قالوا : إنه لم تجب عليه زكاة قطّ ، واشترى مرة دارًا بيعت بالمزاد ، فذهب وكيله يتسلّمها ، فوجد فيها أيتامًا وأطفالًا صغارًا ، سألوه باللّه أن يترك لهم الدار ، فلما بلغ ذلك الليث أرسل إليهم ان

(1) المستدرك للحاكم 4 / 13 .

الدار لكم ، ومعها ما يصلحكم كل يوم !! .

4 - وجاء في كتاب « عبد اللّه بن المبارك » لعثمان جمال : أن عبد اللّه بن المبارك الإمام المحدّث .. كان كثير الصدقات .. فكانت صدقاته تبلغ في السنة أكثر من مائة ألف دينار ..

خرج مرة إلى الحج مع أصحابه ، فاجتاز ببعض البلاد ، فمات طائر ، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك ، وسار أصحابه أمامه ، وتخلّف هو وراءهم ، فلما مرّ بالمزبلة إذا جارية خرجت من دار قريبة منها ، فأخذت ذلك الطائر الميت ، فسألها عن ذلك ، فأخبرته أنها وأخاها فقيران لا يعلم بهما أحد ، ولا يجدان شيئًا ..

فأمر ابن المبارك بردّ الأحمال ، وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار . فقال له : عُدّ منه عشرين دينارًا تكفينا إلى « مرو » وأعطها الباقي .. فهذا أفضل من حجّنا في هذا العام ، ثم رجع فلم يحجّ !! .

5 - وروى الطبراني في الكبير أن عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها في صرّة ، ثم قال لغلامه : اذهب بها إلى **أبي عبيدة بن الجراح** ، ثم تشاغل في البيت ساعة ، حتى تنظر ما يصنع ؟ فذهب بها الغلام إليه .. فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذا في بعض حاجتك ، فقال أبو عبيدة : وصل اللّه عمر ورحمه ، ثم قال : تعالى يا جارية : اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان .. حتى أنفدها ..

ورجع الغلام إلى عمر ، فأخبره ، فوجده قد أعدّ مثلها **لمعاذ بن جبل** ، فذهب بها إليه ، فقال : يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذا في بعض حاجتك ، فقال معاذ : رحم اللّه عمر ووصله ، تعالى يا جارية : اذهبي إلى بيت فلان بكذا .. وإلى بيت فلان بكذا .. فاطلعت امرأة معاذ على ما فعل زوجها ، وقالت : نحن واللّه مساكين فأعطنا ، فلم يبق في الخرقة إلا ديناران ، فرمى بهما إليها !! .

ورجع الغلام إلى عمر فأخبره بما رأى ، فسرّ بذلك فقال : « **إنهم إخوة بعضهم من بعض** » [1] .

6 - وجاء في كتاب « حياة الصحابة » للكاندهلوي : أصاب الناس قحط وشدّة في عهد عمر بن الخطاب - رضي اللّه عنه - وكانت قافلة من الشام مكوّنة من ألف جمل عليها أصناف الطعام واللباس قد حلّت لعثمان رضي اللّه عنه .

فتراكض التجار عليه يطلبون أن يبيعهم هذه القافلة ، فقال لهم : كم تعطونني

(1) المعجم الكبير للطبراني 20 / 33 برقك (46) ، وانظر حلية الأولياء (1 / 237) ، ومجمع الزوائد (3 / 125) .

ربحًا ؟ قالوا : خمسة في المائة .. قال : إني وجدتُ من يعطيني أكثر .. فقالوا : ما نعلم في التجار من يدفع أكثر من هذا الربح ؟

فقال عثمان : إني وجدتُ من يعطيني على الدرهم سبعمائة فأكثر ، إني وجدتُ الله يقول : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] .

ثم قال : أشهدكم – يا معشر التجار – أن القافلة وما فيها من بُر ودقيق ، وزيت وسمن ، وثياب وحُلَل .. قد وهبتُها لفقراء المدينة ، وأنها صدقة للمسلمين !! ..

7 – وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو (قلّ طعام عيالهم) جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم بالسويّة ، فهم مني وأنا منهم » [2] .

9 – ذكر الإمام الغزالي في إحيائه : عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – قال : أُهدي إلى رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ رأس شاة ، فقال : فلان أحوج إليه مني ، فبعث به إليه ، فبعث هو أيضًا إلى آخر يراه أحوج منه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة .. !! [3] ..

هذا غيض من فيض مما ذكره التاريخ في كريم مآثرهم ، وجميل محامدهم .. وقد تحقق في الرعيل الأول من صحابة رسول اللّه ﷺ ومن تبعهم بإحسانٍ إقامةُ المجتمع الفاضل الذي كان حلم المفكرين ، وأمنية الفلاسفة منذ القدم !! .

وكيف لا ، وهم عاينوا عصر الرسالة النبوية ، فارتشفوا من معينها العذب ، وارتووا من سلسبيلها الصافي ؟

وكيف لا ، والقاضي يجلس بينهم سنتين ولا يختصم إليه اثنان ؟

وكيف لا ، وقد حققوا فيما بينهم معاني الأخوة الإسلامية في أجلى معانيها ؟

وكيف لا ، وقد جعلوا القرآن لحياتهم هدى ونورًا ، ومبادئ الإسلام لمعاملاتهم منارًا ونبراسًا ؟

وإليكم ما قاله الصحابي الجليل عبد اللّه بن مسعود – رضي اللّه عنه – كما روى

---

(1) سورة البقرة الآية : 261 . (2) اللؤلؤ والمرجان 3/ 171 برقم (1626) . (3) انظر المستدرك للحاكم 2/ 482 .

القرطبي – في تعداد فضائل الرعيل الأول من الصحب الكرام – رضي اللّه عنهم – ووجوب التأسي بأفعالهم الحميدة ، وأخلاقهم الكريمة : « من كان متأسيًا فليتأسّ بأصحاب رسول اللّه ﷺ ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، وأقومها هديًا ، وأحسنها حالًا .. اختارهم اللّه لصحبة نبيّه ﷺ ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على على الهدى المستقيم » .

ولاشك أن عصري : التابعين ، وتابعي التابعين هما في المرتبة الثانية في الفضل والقدوة والمآثر ، والخيرية ، ومكارم الأخلاق .. بعد عصر الصحابة ؛ لقوله ﷺ – كما ثبت في الصحيح – : « **خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** .. » [1] .

وما زالت الأجيال المسلمة في كل زمان ومكان يرون في جيل الصحابة ومن تبعهم بإحسان .. القدوة الصالحة في الصدق والأمانة ، في الحلم والعفو ، في التواضع والتياسر ، في الكرم والسخاء ، في الملاطفة ومكارم الأخلاق .. وما زال العلماء والدعاة وحَمَلة الرسالات .. في كل عصر وجيل يستقون من معين فضائلهم ، ويستضيئون بنور مكارمهم ، وينهجون في الخلق القويم نهجهم ، ويسيرون في بناء المجد سيرهم .. لكونهم خير القرون هديًا ، وأفضل العصور قدوة !! ..

* * *

أعرفت – أخي الداعية – أن المدرسة التي أرشدتك أن تنتمي إليها ، وتتلقّى عنها ، وتتخرّج فيها .. هي مدرسة « **السلوك والأخلاق** » ؟

- ولقد عرفت أن أصول المنهج في هذه المدرسة :

أن تتحلّى **بخلق الصدق** لتكون في المجتمع من الصدّيقين الصالحين ..

وأن تتحلّى **بخلق الأمانة** لتكون في الأمة من المؤتمنين الموثوقين ..

وأن تتحلّى **بخلق الحلم** لتجذب إليك قلوب الشاردين الحائرين ..

وأن تتحلّى **بخلق التواضع** لتمتلك به نفوس الناس أجمعين ..

وأن تتحلّى **بخلق الكرم** ليتأسّى بك تلامذة الدعوة من الشباب المخلصين ..

(1) من كتاب « الأخوة الإسلامية » للمؤلف ص : 62-64 ، والحديث رواه الترمذي (2302) ، وانظر فتح الباري (6/7) .

● ثم سلطتُ الأضواء على سيرة صاحب الخلق العظيم صلوات اللّه وسلامه عليه من أجل ماذا ؟

من أجل أن تتأسى بخلقه العظيم ، وشمائله المعطاءة ..

من أجل أن تسير على قدم النبوة في الصدق ، والحلم ، والتواضع ، والكرم ..

من أجل أن تتطلع دائمًا إلى المثل الأعلى ..

من أجل أن تتدرّج دائمًا في سلّم الكمال ..

من أجل أن تكون على صلة مستمرة مع الحبيب الأعظم ﷺ ..

● ثم وجهت الأنظار إلى سيرة الصحابة والسلف من أجل ماذا ؟

من أجل أن تتعرّف على أخلاقية الذين تربوا في مدرسة النبوة ..

من أجل أن تنهج في الخلق نهجهم ، وتسير على الدرب مثلهم ..

من أجل أن تعرف لهم فضلهم ، وتتّبعهم في آثارهم ..

من أجل أن تكون على شاكلتهم خلقًا وكرمًا ، وحلمًا وتواضعًا ..

من أجل أن تعيد إلى الدنيا خُلُق الجدود الأماجد ، وسيرة الآباء الصالحين الأبطال ..

● أتدري ماذا تترك من أثر إذا كنت على هذه الصفات ، وتحلّيت بمكارم الأخلاق ؟

تردّ هذه الأمة إلى اللّه ، وتأخذ بزمام أبنائها إلى حظيرة الإسلام ..

تعيد لأمة الإسلام مجدها التليد ، وعزتها السابقة ، وتاريخها الخالد ..

تحرّك النفوس الهوامد نحو الدعوة ، وتفتح القلوب المغلقة لإعلاء كلمة اللّه ..

تقتلع جذور اليأس من قلوب الشباب ، وتغرس فيها روح الأمل والتفاؤل ..

تحدث انقلابًا عظيمًا في المفاهيم الخاطئة عن الدعوة ، والتصورات المقلوبة عن الإسلام ..

بل تستطيع أن تفعل كل شيء إن أنت أخلصت ، وتخلّقت ، وثابرت ، وجاهدت في اللّه حق جهاده .. وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *

وقبل أن أختم هذا الفصل أذكرك بحقيقتين هامتين لهما كل الارتباط في سلوك المرشد ، وأخلاقية الداعية ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين :

الحقيقة الأولى - التحلّي بالرفق :

لأن اللّه سبحانه يحب الرفق في الأمر كله . فقد روى الشيخان عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه رفيق يحب الرفق في الأمر كلّه » .

ولأن اللّه سبحانه يعطي على الرفق من الأجر والمثوبة .. ما لا يُعطي على سواه ، فقد روى مسلم عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « إن اللّه رفيق يحب الرفق ، ويُعطي على الرفق ، ما لا يُعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه » [1] .

ولأن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه .. روى مسلم عن أم المؤمنين عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلا شانه » [2] .

فإذا كان للرفق هذه المزية ، وهذه المكرمة ، فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون مع الناس ليّنًا ، ومع من تدعوهم إلى الإسلام رفيقًا .. لتكون لك المحبة قويّة ، والثقة بك عظيمة ، وتأثيرك في الناس بالغًا مداه ..

ويحضرني في هذه المناسبة قصة [3] واعظ دخل على أبي جعفر المنصور مرة ، فأغلظ عليه في الكلام ، فقال أبو جعفر : يا هذا : ارفق بي ؟ أرسل اللّه سبحانه من هو خير منك إلى من هو شرّ مني ، أرسل اللّه موسى إلى فرعون فقال له : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [4] .

فخجل الرجل على ما بدر منه ، وعرف أنه لم يكن أفضل من موسى عليه السلام ، وأن أبا جعفر لم يكن شرًّا من فرعون !! ..

وصدق اللّه العظيم القائل : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ... ﴾ [5] .

---

(1) صحيح مسلم كتاب البر والصلة ب (77) . (2) صحيح مسلم كتاب البر والصلة ب (78) .
(3) القصة من كتاب « أخلاقنا الاجتماعية » للمرحوم الشيخ مصطفى السباعي .
(4) سورة طه الآية : 44 . (5) سورة آل عمران الآية : 159 .

الحقيقة الثانية - الامتناع عن الغضب :

هذه الحقيقة بيّنها النبي ﷺ لأصحابه حين كان يربيهم على مكارم الأخلاق ، ويبين لهم المنهج الصحيح في حسن التعامل ، وتكوين الشخصية الإسلامية ..

أخرج محمد بن نصر المروزيّ أن رجلًا جاء إلى رسول اللّه ﷺ من بين يديه ، فقال : يا رسول اللّه ما الدين ؟ قال : « حسن الخُلُق » .

فأتاه من قبل يمينه ، فقال : يا رسول اللّه ما الدين ؟ قال : « حسن الخُلُق » .

ثم أتاه من قبل شماله ، فقال : ما الدين ؟ فقال : « حسن الخُلُق » .

ثم أتاه من ورائه فقال : يا رسول اللّه ما الدين ؟

فالتفت إليه عليه الصلاة والسلام وقال : « أما تفقه ؟ هو أن لا تغضب » !! [1] .

وحسن الخلق بهذا المعنى هو من مكّملات الإيمان ، وذلك لما أخرج أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا » [2] .

إذا وضعت – أخي الداعية – نصب عينيك هاتين الحقيقتين :

– الترفّق بالناس حين تدعوهم .

– الامتناع عن الغضب حين تجتمع بهم ..

تكون فعلًا ممن حسنت أخلاقهم ، وتعدّل سلوكهم ، وتهذّب تعاملهم .. بل تكون من الدعاة الموفقين الذين يشار إليهم بالبنان ، وتتوجّه إليهم الأنظار في كل مكان .. فبدون الرفق لا يكون لك في الناس استجابة ولا تأثير ..

وبدون التحلّم وضبط النفس عند الغضب لا يكون لك في المجتمع إصلاح ولا تغيير .. فكم سمعنا عن علماء ودعاة .. كانوا قمّة في العلم ، وبحرًا في السخاء ، ومثلًا أعلى في الصدق والاستقامة ، ولكن .. حين تجرّدوا من الرفق واللين والأناة ، واتصفوا بالغضب والحدّة والانفعال .. نفر الناس منهم ، وانفضوا عنهم ، وتخلّوا عن دعوة اللّه عز وجل ..

---

(1) انظر الترغيب والترهيب (3 / 405) .

(2) سنن أبي داود (4682) ومسند أحمد (2 / 250) وانظر مجمع الزوائد (4 / 303) .

بل ربما ساروا نتيجة ذلك في طريق ردود الفعل .. الذي يوصلهم إلى أسوأ النتائج ، وأقبح المفاسد ، وأخسّ الغايات ؟؟!!...

وصدق اللّه العظيم القائل في محكم تنزيله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ .. ﴾ [1] .

وصدق رسول اللّه ﷺ القائل حين سأله الرجل عن حسن الخلق : « هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .. » [2] .

أما أن الداعية – كما ألمحنا في الفصل الأول – هو أولى من غيره بضرورة التخلّي عن الكذب ، والنفاق ، والغضب ، والعجب ، والغرور ، والكبر ، والبخل .. ففي فصل « **العقبات التي تعترض الداعية** » سوف يكون الكلام وافيًا بتوفيق اللّه عن كل هذه الأمراض الباطنية ، والآفات النفسيّة ، والمزالق الشيطانية .. بل سوف تجد – أخي الداعية – العلاج الناجع لهذه الأمراض ، والبلسم الشّافي لهذه الآفات ، والقدم الثابتة لهذه المزالق ..

اللهم هيئ لهذه الأمة دعاة مخلصين ، وهداةً صادقين .. يتحلّون باللين والرفق والأناة .. ويتّصفون بالصدق والأمانة والتقوى ، ويتميّزون بالحلم والتواضع والسخاء .. إنه بالإجابة جدير .

---

(1) سورة آل عمران الآية : 159 .
(2) رواه ابن مردويه بسند حسن وانظر مسند الإمام أحمد (3 / 438) .



سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(8)

ثقافة الداعية

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد للّه رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق ، وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا هو الفصل الثامن من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » وهو بعنوان « **ثقافة الداعية** » .

أقدّمه لكم – إخوتي الدعاة – عسى أن يكون لخطواتكم الدعويّة زادًا فكريًّا يشبع حاجتكم فيما تواجهونه من تحدِّيات ، وما ترونه على الساحة من حوار الأفكار ، وصراع المبادئ ..

وأريد – أيها الإخوة – أن أنبّه إلى أمر هام يختص بي وبكم ، ومفاده : أني جعلت محور هذا الفصل ، ومصدره الأساسي كتاب أخي وزميلي في الدراسة الداعية الكبير الشيخ **يوسف القرضاوي** حفظه اللّه وأمدّ في عمره ، وكتابه الذي أشرتُ إليه هو « **ثقافة الداعية** » ، وقد جعلت كتابه هذا محور بحثي لسببين هامين :

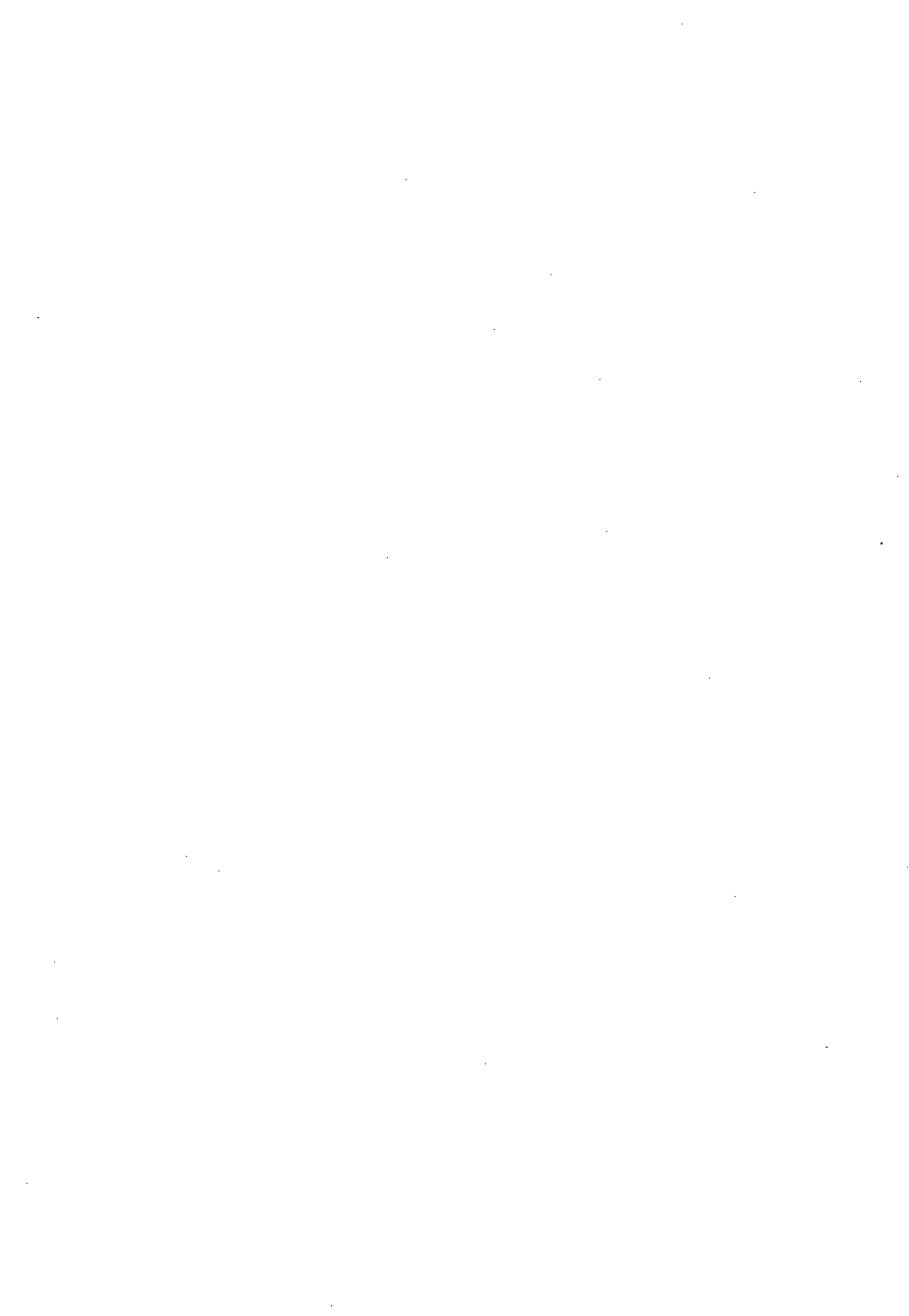
الأول : لاستيعابه الشامل كل ما يهمّ الداعية من فكر وما يتطلع إليه من ثقافة ..

الثاني : لنسبة الفضل إلى أهله باعتبار أن الأستاذ القرضاوي سبقني في معالجة هذا البحث جزاه اللّه عن الإسلام والمسلمين خيرًا .

علمًا أنني أضفت ما رأيت إضافته ، واختصرتُ ما رأيت اختصاره ، وحذفتُ ما رأيتُ حذفه ، وعدّلت ما رأيت تعديله .. حتى جاء البحث شاملًا مكتملًا مختصرًا مشذّبًا ..

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين ..

عبد اللّه ناصح علوان



الفصل الثامن

ثقافة الداعية

إذا كانت الأخلاق الفاضلة - كما سبق الحديث عنها - هي من الصفات البارزة في الدعاة ومن ملامح شخصيتهم الاجتماعية حين يندمجون في الناس .. فإن تزودهم بالعدّة الفكرية والثقافة الدعوية .. هي من أبرز خصائصهم ، ومن أظهر ملامح نضجهم وقوة شخصيتهم ، ومن المسلَّم به لدى ذوي العقول والبصائر أن الذي لم يكن عنده علم ولا ثقافة كيف يعطي غيره ؟ وكيف ينفع أمته ؟ وكيف يقوم بدوره في الإصلاح والتغيير ؟ وكيف يستطيع أن يؤثر في الناس ؟ أو على الأقل كيف يكون محل ثقة واحترام إذا عُرِفَ في الأمة أنه جاهل لم يتثقف ولم يتعلم ؟!! فاقد الشيء لا يعطيه أبدًا والحوض الفارغ لا يفيض على غيره ، ومن لم يملك نصاب الزكاة كيف يعطي ؟ وكيف يُزكّي ؟ ولقد أحسن الداعية العالم الدكتور « يوسف القرضاوي » حين عدّد في كتابه « ثقافة الداعية » أنواع الثقافات التي يجب أن يتزوّد بها الداعية إن أراد أن يكون داعية موفقًا ، له في المجتمع احترام ، وفي الأمة أثر ..

وها أنا ذا أنقل ما كتبه الدكتور القرضاوي باختصار مع بعض التصرف ، عسى أن يستفيد الدعاة من بحثه القيّم ، ومعالجته الموفّقة ..

الأستاذ القرضاوي قسّم الثقافات التي يحتاجها الداعية إلى ستة أقسام وهي مرتبة كما يلي :

1 - الثقافة الإسلامية .

2 - الثقافة التاريخية .

3 - الثقافة الأدبية واللغوية .

4 - الثقافة الإنسانية .

5 - الثقافة العلمية .

6 - الثقافة الواقعية .

* * *

1 – الثقافة الإسلامية

إن أول ما يلزم الداعية المسلم من عدة فكرية أن يتسلّح بثقافة إسلامية ثابتة الأصول باسقة الفروع ، تؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها .

ونعني بالثقافة الإسلامية : الثقافة التي محورها الإسلام ، وهي على الترتيب التالي :

أ - القرآن الكريم وتفسيره :

القرآن الكريم هو المصدر الأول للإسلام ، وبالتالي هو الركن الأساسي للثقافة الإسلامية .

كل تعاليم الإسلام يجب أن ترجع في أصولها إلى القرآن الكريم : العقائد ، والمفاهيم ، والقيم ، والموازين ، والعبادات ، والشعائر ، والأخلاق ، والآداب ، والقوانين ، والشرائع .. كل هذه قد وضع القرآن أسسها ، وأرسى دعائمها ، وجاءت السنة ، فبينت ، وفصّلت ، وأقامت عليها بنيانًا شامخًا لا تنال منه الليالي والأيام .

وقد حوى القرآن الكريم من حقائق الغيب ، وحقائق النفس ، وحقائق الحياة ، وحقائق الاجتماع الإنساني ، وبيّن من سنن اللّه تعالى ، ومن آياته في الأنفس والآفاق ما لا يستغني بَشَرٌ عن معرفته ، والاهتداء به .

وقد صاغ هذا كله في أسلوب معجز هو « نور من الكلام أو كلام من نور » لا يوصف إلا بأنه ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [1] .

وصفه اللّه بأنه نور ، والنور من طبيعته أن يُضِيء ويهدي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [2] .

كما وصفه بأنه روح ، والروح من طبيعته أن يحرّك ويحيي ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [3] .

ولهذا كان شأن المؤمنين المهتدين بالقرآن أن يوصفوا بالحياة وبالنورانية معًا ؛ لانتصارهم على الموت الذي هو الكفر وعلى الظلام الذي هو الجهل ، يقول تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ؟ ﴾ [4] .

---

(1) سورة هود الآية : 1 .
(2) سورة النساء الآية : 174 .
(3) سورة الشورى الآية : 52 .
(4) سورة الأنعام الآية : 122 .

وينبغي للداعية أن يحفظ من القرآن الكريم قدر ما يستطيع ، بل يحسن بالداعية أن يحفظ القرآن كله ، ويستظهره متى تيسّرت له أسباب ذلك ، ليكون أقدر على استحضاره والاستشهاد به في كل مناسبة ممكنة ، فالقرآن بحر لا ينفد ، ومعين لا ينضب لإعداد الدعاة . بل إن مما يلزم الداعية الموفق أن يحسن تلاوة القرآن بإتقان وترتيل كما أمر اللّه ، وأن يدرس من أحكام التجويد ما يصحح به قراءته ، حتى يتلوه بخشوع وتأثر وحزن ، فإن وجد بكاءً بكى ، وإلا تباكى ...

وعلى الداعية أن يحذر : من الانحراف والتحريف ، وسوء التأويل لآيات الكتاب ، وحملها على معانٍ تخرجها عما أراد اللّه بها ، وإليك - أخي الداعية - طرفًا من هذا الانحراف والتحريف :

1 - **إخضاع النصوص للواقع الزمني** ، وإن كان مخالفًا لأحكام الإسلام ، كما رأينا ذلك في محاولات تسويغ نظام الفائدة في البنوك عند سطوة النظام الرأسمالي في البلاد الإسلامية ، ومثلها محاولات تبرير التأميم للشركات الخاصة ، والمصادرة للملكيات المشروعة بعد ذلك أيام سطوة الاشتراكية !! ..

2 - **تجزئة النصوص وتفكيكها ، وعدم معرفة واقعها وسبب نزولها** ، مثل من يفسر قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ [1] دون أن يضم إليها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [2] .

فدلّت الآية الثانية على أن ما زاد على رأس المال فهو ربا ، قليلًا كان أو كثيرًا ، أما عبارة ﴿ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ ﴾ في الآية الأولى فهي وصف لبيان الواقع الذي كان عليه الجاهليون قبل الإسلام في تعاملهم بالربا ، وليس قيدًا لإباحة الربا القليل ، كما تقول للتجار الجشعين : لا تحتكروا الضروريات لتربحوا مائتين في المائة ، فهذا بيان لواقعهم ، وليس معناه أنهم إذا احتكروا الطعام ونحوه ليربحوا مائة أو خمسين.. كان ذلك حلالا ؛ لأن الإسلام حرّم الاحتكار سواء كان الربح الذي يأتي عن طريقه قليلًا أو كثيرًا ؟!! .

---

(1) سورة آل عمران الآية : 130 .
(2) سورة البقرة الآيتان : 278 ، 279 .

3 – **اتباع المتشابهات وترك المحكمات** ، وهذا أصل من أصول الزيغ والضلال كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ ... ﴾ [1] .

فالضالون الذين في قلوبهم زيغ وانحراف – كما بينت الآية – يجرون وراء المتشابهات ، متمسكين بما يظهر لهم منها موافقًا لأهوائهم .. كالقائلين بوحدة الوجود [2] مثلًا فإنهم يحتجون لبدعتهم وضلالهم بمتشابهات القرآن والحديث ، فيذكرون مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [3] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ ﴾ [4] ، وبالحديث الذي رواه الشيخان : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل » .

وأغفل هؤلاء أن الدين كله بقرآنه وسنته ينادي بأن في الوجود ربًّا ومربوبًا ، وخالقًا ومخلوقًا ، وكونًا ومكوّنًا ، فثنائية الوجود من بدهيات الدين وضرورياته التي لا تحتاج إلى استدلال وإقامة برهان ..

ولو أنهم أنصفوا فردّوا المتشابهات إلى المحكمات ، وبعبارة أخرى : ردّوا المحتملات إلى البيّنات الواضحات للاح لهم الحق واضحًا وضوح الصبح لذي عينين .

أما علم التفسير : فهو من أهم العلوم على الإطلاق ؛ لكونه يُعين على فهم المراد من كلام اللّه تعالى بقدر الطاقة البشرية وقد دُوّن في تفسير القرآن الكريم مئات ومئات من الكتب والمجلّدات منها ما طبع ، ومنها ما يزال مخطوطًا ، من كتب التفسير ما يذهب أصحابها **مذهب الرواية** ، ويسمى « التفسير بالمأثور » ، وأشهرها « تفسير ابن جرير الطبري » و « تفسير ابن كثير الدمشقي » ...

ومن كتب التفسير ما ينحو أصحابها **منحى الدراية** ، ويسمى « التفسير بالرأي » ، وهذا النوع من التفسير يتلوّن بلون مذهب صاحبه ، وينطبع بطابع عصره وثقافته وتخصّصه .. فإن كان يغلب عليه اللغة والنحو والبلاغة والاعتزال فيأتي تفسيره

---

(1) سورة آل عمران الآية : 7 .

(2) القائلون بوحدة الوجود طائفة منحرفة عن الإسلام تدعي أن الخالق والمخلوق وحدة متكاملة وأصل واحد فلا انفصال ولا انفصام بينهما ؛ تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا .

(3) سورة الفتح الآية : 10 .

(4) سورة الأنفال الآية : 17 .

مصبوغًا بصبغة اللغة ، والنحو ، والمباحث البلاغية ، والآراء الاعتزالية .. كتفسير « الكشاف » للزمخشري . وإن كان يغلب عليه الفقه ، والأحكام التشريعية ، والآراء المذهبية .. فيأتي تفسيره مصبوغًا بصبغة الفقه والأحكام وعرض الآراء .. كتفسير القرطبي للإمام القرطبي ؛ وإن كان يغلب عليه الاسترسال في مسائل العقيدة ، والتنقيب عن أسرار الكلمات وما وراء المعاني .. فيأتي تفسيره مصبوغًا بصبغة الإلهيات والإرشادات وأسرار المعاني كتفسير الألوسي للإمام الألوسي ..

ويحسن بالداعية أن لا يكتفي بكتاب واحد من كتب التفسير القديمة أو الحديثة .. بل عليه أن يقتبس من كل كتاب خير ما فيه ، ولبّ ما يتميز به ، ويحترز مما فيه من آراء ومذاهب مخالفة لعقيدة السلف ، ومذهب أهل السنة والجماعة ؛ بل ينبغي عليه أن يأخذ بالحكمة التي تقول : « كل بشر غير معصوم يؤخذ من كلامه ويترك » .

وأريد أن أوصي كل من يقرأ أي كتاب من كتب التفسير هذه الوصايا :

1 – الاهتمام بلباب التفسير :

وذلك بالإعراض عن الحشو والفضول والاستطراد ، والتطويل في المجادلات الكلامية ، والخلافات الفقهية ، والمباحث النحوية ، والنكات البلاغية .. وغير ذلك من ألوان الثقافات التي شغلت حيّزًا ضخمًا من كتب التفسير ، حتى حجبت قارئها عن إدراك أسرار كلام اللّه تعالى ، وهذا ما جعل « أبا حيان » يقول عن التفسير الكبير أو « مفاتيح الغيب » للإمام الرازي كلمته المشهورة « فيه كل شيء إلا التفسير » لكثرة استطراداته في العلوم الحديثة أكثر مما اهتم بالتفسير ذاته ؛ لذا يجب على الداعية حين يقرأ التفسير أن يهتم ببيان المراد من كلام اللّه تعالى قبل الجري وراء القيل والقال ، وإضاعة الجهد والوقت فيما لا طائل تحته .. كما عليه أن يلتفت إلى ما في التفسير من تعقيبات ذوي القلوب الحية مما يُعدّ من روح التفسير لا من مادته .

مثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [1] .

لبعض المفسرين من أرباب البصائر والقلوب لفتات إشراقية في تفسير الآية ، هذه اللفتات

(1) سورة التوبة الآية : 111 .

تحرك القلوب إليها ، وتحيي العزائم الميتة ، بما فيها من حرارة الصدق ، وصفاء الإخلاص ..

ومن ذلك قول الحسن البصري وقتادة تعليقًا على الآية : « بايعهم اللّه فأغلى ثمنهم » .

وقول شمر بن عطية : « ما من مسلم إلا وللّه في عنقه بيعة وفّى بها أو مات عليها » ثم تلا الآية .. هذا ما ينبغي للداعية أن يحرص عليه ، ويستظهره ، ويستزيد منه ..

2 - الإعراض عن الإسرائيليات :

يمكن أن نصنف الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما جاء مؤكدًا للقرآن الكريم .

القسم الثاني : ما جاء مخالفًا له .

القسم الثالث : ما جاء مسكوتًا عنه .

أما ما جاء مؤكدًا للقرآن الكريم فيجوز نقله وروايته والاستشهاد به ؛ لحديث البخاري عن عبد اللّه بن عمر مرفوعًا : « بلّغوا عني ولو آية ، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النار » [1] ، كقصص الأنبياء مع أقوامهم ، وأحوال اليوم الآخر ، وغيرها ..

أما ما جاء مخالفًا للقرآن وللشريعة بشكل عام فلا يصح روايته والاستشهاد به على أنه حق ثابت ، ووحي منزل كقولهم : عزير ابن اللّه ، وأنهم شعب اللّه المختار ، ولن تمسّهم النار إلا أيامًا معدودة . وكقولهم على الأنبياء بما لا يتفق مع عصمتهم وما لا يليق بهم .. علمًا بأن القرآن الكريم سجّل على أهل الكتاب عامة ، واليهود خاصة تحريفهم لكتبهم ، وقولهم على اللّه بغير علم ، وإن منهم لفريقًا ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] وإنهم ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [3] إلى آخر ما دمغهم اللّه تعالى به من صفات السوء .

أما ما جاء مسكوتًا عنه ، ولم يعلم في الشرع صحته أو نفيه .. فلا نصدقه ولا نكذبه ، وإن كان يجوز لنا حكايته والتحدث عنه لا على سبيل الاستدلال ، وإنما على سبيل الحكاية ونقل الخبر .. لعموم قوله ﷺ : « حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج .. » [4] .

---

(1) رواه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ب (50) برقم (3461) .

(2) سورة البقرة الآية : 75 . (3) سورة المائدة الآية : 13 . (4) سبق تخريجه .

من هذا القبيل : أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى – عليه السلام – من أي شجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياها اللّه لإبراهيم عليه السلام ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة .. إلى غير ذلك مما أبهمه اللّه تعالى في القرآن مما لا فائدة في ذكره ، ولا مصلحة في التفصيل فيه .

وقد عقّب العلامة الشيخ « أحمد محمد شاكر » – رحمه اللّه – في كتابه « عمدة التفاسير » ، فقال وأحسن فيما قال : (إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه أو كذبه شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن ، وجعله قولًا أو رواية في معنى الآيات ، أو تعيين ما لم يعين فيها ، أو تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر ؛ لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام اللّه ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مُبَيّنٌ لمعنى قول اللّه سبحانه ، ومفصّل لما أُجمل فيه ، وحاشا للّه ولكتابه من ذلك !! .

وإن رسول اللّه ﷺ – إذْ أذِن بالتحدث عنهم – أمرنا أن لا نصدّقهم ولا نكذّبهم ، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب اللّه ، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟ اللهم غفرًا ..) ا هـ .

وفي تقديري : أن إباحة التحدث عن بني إسرائيل في الحديث محمولة على القضايا التي تتصل بإثبات الرسالة ، والتبشير بالنبوة ، وتأكيد معالم الإسلام .. أما أن يكون التحدث عن كل ما يتصل بشرعتهم ، وعن كل ما يتعلق بعقيدتهم ودياناتهم .. على سبيل الأفضلية والاستحسان فلا يقول به أحد سلفًا وخلفًا ، بل جاء التحذير منه ، والنهي عنه في كثير من المواقف التي يقفها النبي ﷺ مع أصحابه :

أ – روى الإمام أحمد عن جابر : أن عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه – أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ ، قال : فغضب وقال : « أتتهوّكون [1] فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا اتباعي » [2] .

ب – وأخرج عبد اللّه في المصنف ، والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف عليه السلام في كَتِف ، فجعلت تقرؤه عليه ، والنبي ﷺ يتلوّن وجهه ، فقال : « والذي نفسي بيده ، لو أتاكم يوسف وأنا بينكم

(1) أتتهوّكون : أي تتشككون في ملتكم . (2) مسند الإمام أحمد 3 / 387 .

فاتبعتموه وتركتموني ضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظي من الأمم »[1] .

ج – وأخرج الفريابي ، والدارمي ، وأبو داود ، وابن جرير .. عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكَتِف قد كتبوا فيها ما سمعوه من اليهود ، فقال رسول اللّه ﷺ : « كفى بالمرءِ حمقًا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيرهم إلى غيرهم » ، فنزلت هذه الآية : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

ومن الكلمات البليغة المعبرة عن الإنكار والسخط على الاستدلال بالإسرائيليات ، ووجوب تنزيه القرآن الكريم عنها .. كلمة لابن عباس رواها البخاري في صحيحه ..

فقال ابن عباس : (يا معشر المسلمين : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذي أنزله اللّه على نبيه أحدث أخبار اللّه ، تقرؤونه محضًا لم يشب ! وقد حدثكم اللّه أن أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب اللّه وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند اللّه ليشتروا به ثمنًا قليلًا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا واللّه ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم !!)[3] اهـ .

3 – الحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة :

وإذا كان على الداعية أن يحذر من الإسرائيليات التي تتنافى مع قدسية التشريع ، وعصمة الأنبياء .. فإن عليه كذلك أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة التي تتنافى أيضًا مع حقائق التشريع ، وعصمة الأنبياء .

مثال ذلك : ما نقله كثير من المفسرين في قصة « زينب بنت جحش » وزوجها الأول « زيد بن حارثة » وما جاء في شأنها في سورة الأحزاب ، وعتاب اللّه لرسوله في هذا الشأن ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[4] .

---

(1) انظر مصنف عبد الرزاق الصنعاني (20061) .

(2) سنن الدارمي مقدمة (42) برقم (481) . وانظر الدر المنثور (5/ 148) وجامع بيان العلم (2/ 41) والآية من سورة العنكبوت الآية : 51 .

(3) صحيح البخاري كتاب الشهادات ب (29) برقم (2685) .

(4) سورة الأحزاب الآية : 37 .

فقد جعلت الروايات من سبب نزول هذه الآية قصة حبّ عاطفي تخيله متخيّل ، أو افتراه مفترٍ .. زعم أن زينب ظهرت للنبي ﷺ يومًا بعد زواجها من زيد ، فرآها فتعلّق قلبه بها ، ورجع وهو يردّد : سبحان مقلّب القلوب ، ولكنه كتم هذا الحبّ حتى نزلت الآية !! ..

وهذا الكذب المفترى لا دليل في الآية عليه ، ولم تصحّ به رواية ، كما لا تسنده دراية .. ومع هذا تعلّق به المستشرقون والمبشرون ، وجعلوا منه قصة عشق غرامية ، يتخذون منها وسيلة لطعن محمد ﷺ ، وحجتهم في ذلك أن ذلك منقول في بعض كتب التفاسير .

ومثل ذلك : ما يذكره بعض المفسرين عن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ﴾ [1] .

فمما ذكروه : أن الرسول ﷺ قرأ ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ .. ﴾ [2] بمحضر من المشركين والمسلمين ، فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [3] ألقى الشيطان على لسانه : « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لتُرتجى » ففرح بذلك المشركون ، ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون .

قال ابن العربي : إن جميع ما ورد في القصة باطل لا أصل له ؛ وقال ابن إسحاق : هي من وضع الزنادقة .

وقال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح .

وقال القاضي عياض : هذا حديث لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم ... وما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [4] فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه ؟!! [5] .

---

(1) سورة الحج الآية : 52 .
(2) سورة النجم الآية : 1 .
(3) سورة النجم الآية : 19 - 20 .
(4) سورة النجم الآية : 2 - 4 .
(5) ارجع إلى كتبه الرازي في تفسيره ، وما كتبه ابن كثير ، وما كتبه ابن العربي .. في تفسير قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي .. ﴾ من سورة الحج ، فإن فيها الردّ القاطع .

ومثل هذه الروايات الموضوعة ، أو الضعيفة المتهافتة .. يفتح لها المستشرقون صدورهم ، ويأخذونها مُسلِّمين ، لأنها توافق هواهم ، وتخدم فكرتهم التبشيرية ، في حين يردّون - كثيرًا - الروايات الصحيحة إذا عارضت اتجاههم .

4 - الحذر من الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة :

ومما ينبغي أن يحذر منه الداعية : الأقوال الضعيفة بل الفاسدة في بعض الأحيان ، وقد تكون هذه الأقوال صحيحة النسبة إلى قائليها من جهة الراوية ، ولكنها ضعيفة أو مردودة من جهة الدراية ومقاصد التشريع ، وليس هذا بمستغرب مادامت صادرة من غير معصوم ، فكل بشر يصيب ويخطئ ، وهو معذور في خطئه إذا كان بعد تحرٍّ واجتهاد ، واستفراغ للوسع في طلب الحق .

ولقد رأينا شيخ المفسرين الإمام أبا جعفر الطبري - على جلالة قدره ، ومنزلة كتابه في التفسير - يختار أحيانًا تأويلات في التفسير ضعيفة ، بل هي غاية في الضعف كتفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [1] بأن معناها : « قيّدوهن » من هَجَر البعير إذا شدّه بالهِجار ، وهو القيد الذي يقيد به ، والمراد : تقييد النساء لإكراههن على ما تمنّعن عنه .. بينما المعنى المتبادر للذهن والذي يدل عليه ظاهر اللفظ : « الهجر : أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ، ويوليها ظهره » كما نقل ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وكتفسيره أيضًا (أي الطبري) لآيات المائدة :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [2] .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [3] .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [4] .

يقول الإمام الطبري : إنها في أهل الكتاب .

صحيح أنها نزلت في أهل الكتاب مما يدل عليه السياق ، ولكن - كما يقول علماء الأصول - العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ وقد ذُكرت آيات المائدة هذه مرة عند « حذيفة بن اليمان » ، فقال رجل : إن هذا في بني إسرائيل ، فقال

---

(1) سورة النساء الآية : 34 .
(2) سورة المائدة الآية : 44 .
(3) سورة المائدة الآية : 45 .
(4) سورة المائدة الآية : 47 .

حذيفة : نِعْمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ، ولهم كل مرّة !! ويقصد : كيف يوصف بنو إسرائيل بالكفر أو الظلم أو الفسق إذ لم يحكموا بما أنزل اللّه عليهم ، ولا توصفون أنتم بذلك إذا لم تحكموا بما أنزل اللّه عليكم ؟!! .

فما على الداعية أو المفسّر إلا أن يتجنّب في تفسيره هذه الأقوال والآراء مهما تكن مكانة قائلها .. حتى لا تعطي لأعداء الإسلام الفرصة في الطعن في مبادئ الإسلام الخالدة .. لأن الحق دائمًا – كما يقول الإمام علي – كرّم اللّه وجهه – لا يقاس بالرجال ، وإنما يقاس الرجال بالحق .

* * *

ب - السنة النبوية وكتبها :

السنة النبوية هي المصدر الثاني لشريعة الإسلام ، وبالتالي هي الركن الأساسي لثقافة الداعية ..

والسنة – كما هو معلوم – هي شارحة القرآن ، والمبيّنة له ، والمفصّلة لما أجمله .. وفيها يتمثل التفسير النظري ، والتطبيق العملي لكتاب اللّه ، قال تعالى يخاطب رسوله ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [1] .

وقال جلّ جلاله : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ .. ﴾ [2] .

والسنة النبوية تشمل : أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته وأوصافه وسيرته ، فهي سجل حافل لحياته وجهاده ﷺ في سبيل دعوته .. صوت من جوامع الكلم ، وجواهر الحكم ، وكنوز المعرفة ، وأسرار الدين ، وحقائق الوجود ، ومكارم الأخلاق ، وروائع التشريع ، وخوالد التوجيه ، ودقائق التربية ، وشوامخ المواقف ، وآيات البلاغة .. ثروة طائلة هائلة ، لا تنفد على كثرة الإنفاق ، ولا تبلى جدّتها على طول الزمن والأيام ، ولا يستغني داعية يريد أن يحدّث ، أو يدرّس ، أو يحاضر أو يخطب أو يكتب .. عن الرجوع إلى هذا المعين الفيّاض ، والمنهل العذب ؛ ليستقي منه – بقدر ما يتسع واديه – فيرتوي ويروي ، ويأخذ ويعطي ، ويمتلئ ويفيض .

(1) سورة النحل الآية : 44 .

(2) سورة النحل الآية : 64 .

ثم ماذا عن كتب السنة ؟

في الحقيقة أن كتب السنة كثيرة جدًّا ، ولكن ينبغي للداعية أن يقدم ما هو الأهم منها مثل : **الكتب الستة** ، **ومسند الدارمي** ، **وموطأ مالك** ، **ومسند أحمد** ..

ولبعض هذه الكتب مختصرات يمكن أن تكفي من لم تسعفه الهمة والوقت بقراءة الأصول ذاتها ، وأهم هذه المختصرات هي :

– **التجديد الصريح للزبيدي** : وهو مختصر للبخاري حذف منه المكرّرات والمعلّقات والأسانيد .

– **مختصر صحيح مسلم للمنذري** : قام على تحقيقه ناصر الدين الألباني .

وهناك كتب جامعة عملت على جمع هذه الكتب أو بعضها مثل :

– **جامع الأصول لابن الأثير** : جمع فيه أحاديث الأصول الخمسة : الصحيحين ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، وجعل سادسها موطأ مالك بدلًا من سنن ابن ماجه [1] .

– **مجمع الزوائد للهيثمي** : جمع فيه زوائد مسانيد الإمام أحمد ، والبزار ، وأبي يعلى ، ومعاجم الطبراني الثلاثة ، وهو مطبوع في عشرة أجزاء ، والمراد زوائد هذه الكتب على الكتب الستة على اعتبار ابن ماجه منها .

وقد قام أحد علماء الحديث في القرن الحادي عشر – وهو العلامة : محمد بن محمد سليمان الروداني المتوفى بدمشق 1094 هـ بجهد مشكور في الجمع بين كتابي ابن الأثير والهيثمي ، وأضاف إليهما « زوائد الدارمي ، وابن ماجه » ، فكان هذا الكتاب بحق موسوعة حديثية جمعت أكثر من عشرة آلاف حديث نبوي من أربعة عشر كتابًا ، وسمى كتابه « **جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد** » .

وهناك لون آخر من تجميع الأحاديث وهو التجميع حسب أوائل الحديث ، وفقًا لترتيب الحروف الهجائية من ذلك :

– « **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير** » **للحافظ السيوطي** .

– « **الفتح الكبير بزيادة الجامع الصغير** » **للحافظ السيوطي** ، وقد أضاف إليه زيادات ضمها الشيخ النبهاني .

---

(1) لأن في سنن ابن ماجه كثيرا من الضعف ، بل فيه بعض الأحاديث الموضوعة .

- « **الجامع الكبير** » **للحافظ السيوطي** ، الذي حاول أن يجمع فيه كل ما وصل إليه من كتب الحديث ، وقد رتبه الشيخ « علاء الدين على المتقي » من علماء الهند على الأبواب والموضوعات في كتابه الذي سماه « كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال » .

وثمت كتب أخرى متخصصة هدفها تجميع نوع معين من الأحاديث من ذلك :

- كتاب « **الأذكار** » للإمام النووي .
- كتاب « **الكلم الطيب** » لشيخ الإسلام ابن تيمية .
- كتاب « **الأدب المفرد** » للإمام البخاري .
- كتاب « **شعب الإيمان** » للإمام البيهقي .
- كتاب « **رياض الصالحين** » للإمام النووي .
- كتاب « **الترغيب والترهيب** » للحافظ المنذري .
- كتاب « **عمدة الأحكام** » للحافظ المقدسي
- كتاب « **بلوغ المرام من أدلة الأحكام** » للحافظ ابن حجر .
- كتاب « **الإلمام** » للإمام ابن دقيق العيد .

وإلى جانب هذه الأنواع من الكتب توجد كتب الشروح ، وهي كتب مهمة نافعة ، ولا يستغني عنها داعية أو عالم .. وهي مفاتيح لمن أراد أن يفتح مغاليق ما أشكل عليه من الأحاديث ، وهي مصابيح تنير الطريق لمن يريد معرفة ما تتضمنه الأحاديث النبوية من أحكام وآداب وتشريع وتوجيه .. ولا يسع عالماً أن يُعرض عن هذه الثروة ويبدأ وحده من جديد ، فهذا منافٍ لمنطق العلم ، ومنطق العقل ، ومنطق التاريخ ..

من هذه الكتب :

أ – **شروح البخاري** : مثل : عمدة القاري للعيني ، وإرشاد الساري للقسطلاني ، وفتح الباري لابن حجر .

ب – **شروح مسلم** ، وأبرزها : شرح النووي ، وشرح الأبيّ والسنوسي .

ج – **شروح أبي داود** مثل : « معالم السنن » للخطابي ، و « تهذيب السنن »

لابن القيم ، و « عون المعبود » للديانوي ، و « بذل المجهود » للسهارنغوري .

د – **شروح الترمذي** مثل : « عارضة الأحوذي » لابن العربي ، و « تحفة الأحوذي » للمباركفوري ..

هـ – **شروح النسائي** مثل : تعليقات « السيوطي » و « السندي » على السنن الكبرى .

و – **شروح الموطأ** ، مثل : « المنتقى » لأبي الوليد الباجي ، و « تنوير الحوالك » للسيوطي ، و « المسوَّى » للدهلوي ، و « أوجز المسالك » لمحمد زكريا الكاندهلوي .

ز – **شروح المسند** ، مثل : « الفتح الرباني » لأحمد عبد الرحمن البنا ، وتعليقات أحمد محمد شاكر على بعض الأجزاء .

ح – **شروح مشكاة المصابيح** المسمى « مرقاة المفاتيح » للشيخ علي القاري ، و « مرعاة المفاتيح » للمباكفوري .

ط – **شروح الجامع الصغير** مثل : « فيض القدير » للعلامة المناوي ، و « السراج المنير » للعزيزي .

ي – **شروح الأربعين النووية** ، **والخمسين الرجبية** ، وأعظم شروحها : هو شرح ابن رجب الذي سماه « جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم » .

ك – **شرح رياض الصالحين** ، وهو المسمى « دليل الفالحين » في أربعة مجلدات .

ل – **شرح أحاديث الأحكام** مثل : « الإحكام » شرح « عمدة الأحكام » لابن دقيق العيد ، و « نيل الأوطار » : شرح « منتقى الأخبار » للعلامة الشوكاني ، و « سبل السلام » : شرح « بلوغ المرام » للعالم الصنعاني .

كما ينبغي على الداعية أن يهتم بكتب « **غريب الحديث** » ، وهي التي تُعنى بشرح المفردات ، والجُمل الغريبة في الحديث مثل : « غريب الحديث » لأبي عبيد ، و « الفائق في غريب الحديث » للزمخشري ، و « النهاية في غريب الحديث والأثر » لابن الأثير ، و « مشارق الأنوار » للقاضي عياض ..

تنبيهات لابد منها :

1 – **الحذر من وضع الأحاديث في غير موضعها** : وعلى الداعية كذلك أن يحذر من

سوء الفهم للأحاديث الصحاح والحسان التي وردت في كتب السنة .. فحرّفها بعض الناس عن مواضعها ، وتأوّلوها على غير تأويلها ، وبعدوا بها عمّا أراد اللّه ورسوله .

من ذلك : رأينا بعض الناس في العصر الحديث يتخذ من الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في قصة تأبير النخل - وهو قوله ﷺ - « أنتم أعلم بأمور دنياكم » [1] ، مستندًا لعزل التشريع الإسلامي في المجالات الاقتصادية والسياسية ونحوها ، بزعم أن الرسول ﷺ فوّض لنا تنظيم أمر دنيانا ، وشؤون حياتنا بهذا الحديث .

والحديث إنما يقصد بأمر دنيانا : الشؤون الفنية المتعلقة بالوسائل والكيفيات ، مثل شؤون الزراعة والصناعة ونحوها ، مما تُرك لعقول الناس واجتهادهم .. ولو كان الأمر كذلك كما يتقوّلون - لما أنزل اللّه أطول آية في كتابه لتنظيم شأن دنيوي اقتصادي وهو كتابة الدَّيْن ، ولما جاءت مئات النصوص من الآيات والأحاديث تنظم علاقات الناس في حياتهم الدنيوية والاقتصادية ..

ومن ذلك أيضًا : استشهاد بعض الناس « بأحاديث الفتن وفساد آخر الزمان » وقولهم : إن الشرّ قد عم ، وأن سبيل الفساد قد طمّ ، وأن لا سبيل إلى الخلاص ، وأن لا أمل في الإصلاح ، وأن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ إلى الأسوأ .. إلى أن تقوم الساعة ..

ولعل أقرب مثل يذكر هنا حديث « بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء » [2] وهو حديث صحيح رواه مسلم وغيره ، فمن الناس من يتخذ من هذا الحديث سندًا وحجة له في القعود عن واجب الدعوة إلى الإسلام ، وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

فهل يتصور أن الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه قال هذا الحديث ، ليثبّط عزائم أمته عن الدعوة والجهاد والعمل لدينهم ، وليطفئ جمرة الأمل في قلوبهم ؟!

لا ، وألف لا .. إنما أراد أن يحذرهم ؛ لينتبهوا ، أو ينبّههم ؛ ليحذروا .. حتى يتفادى السائرون السقوط و الاصطدام بالغير !! .

وفي بعض الروايات عن غير مسلم : قيل : ومن الغرباء يا رسول اللّه ؟ قال : « الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي » [3] .

ففي هذه دعوة صريحة إلى إصلاح ما أفسد الناس من منهج النبوة ، والعمل الجادّ لردّ الشاردين إلى الطريق المستقيم .

---

(1) انظر صحيح مسلم كتاب الفضائل برقم (141) .
(2) صحيح مسلم كتاب الإيمان (232) . (3) سنن الترمذي (5 / 18) برقم (2630) .

هؤلاء الغرباء الذين عناهم عليه الصلاة والسلام بالحديث ليسوا طائفة مترهّبة منعزلة ، بل هم طائفة قائمون على الحق يؤدون دور الصحابة في بدء نشأة الإسلام ، فقد كانوا غرباء ولم تثنهم غربتهم عن الدعوة والعمل والجهاد .. وإن كان من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم !! .

فالحديث دعوة إلى البناء والإيجابية ، وليس إلى اليأس أو الفرار من الميدان بدعوى فساد الزمان .

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

2 – **الحذر من دعاة التشكيك في الأحاديث الصحيحة** : وعلى الداعية كذلك أن يكون واعيًا لحملات التشكيك التي شنَّها خصوم الإسلام من مبشرين ، ومستشرقين ، وعملاء ملاحدة .. على الحديث والسنة ؛ والتي أثرت – ويالالأسف – في بعض من ينتمون إلى الإسلام بأسمائهم وأنسابهم ومَن عمل الغزو الفكري عمله في رؤوسهم ، حتى رأينا منهم من ينكر السنة أصلًا ، ومنهم من يطعن في كرام الصحابة ، ومنهم من يشكك في دواوين السنة الأصلية حتى صحيح البخاري ، ومنهم من يردّ الأحاديث الصحاح المشهورة اتباعًا للهوى ، ومنهم من يفسر الأحاديث على مزاجه هو ؛ ليتخذ من ذلك وسيلة للطعن عليها ، والتشهير بها ، ومنهم من يردّد شبهات المستشرقين والمبشرين ترديد الببغاوات وهو لا يدري أو يدري ..

ولقد صادف هذا الغزو التبشيري الاستشراقي فراغًا ثقافيًا ، وتخلفًا فكريًا بالنسبة لمصادر الإسلام وثقافته ، فتمكّن وعشعش وفرّخ .. وتطاول الجهل بعنقه ورأسه ليفرض نفسه على الأحاديث المتفق عليها ، المتلقّاة بالقبول من الأمة ، ليردّها بجرأة وقحة .

حتى زعم بعضهم أن حديث : « بني الإسلام على خمس .. » [1] وهو من المعلوم من السنة بالضرورة حيث يحفظه الخاصة والعامة ، والصغير والكبير ، والرجل والمرأة .. زعم هذا أنه من وضع المستعمرين .. لأنه لم يذكر الجهاد .

وردّ آخرون حديث : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيختبئ اليهودي وراء الحجر .. فيقول الحجر : يا عبد الله أو يا مسلم ، هذا يهودي ورائي ، فتعال فاقتله » [2]،

(1) هذا حديث صحيح متفق على صحته رواه البخاري كتاب الإيمان ب (1 ، 2) ، ومسلم كتاب الإيمان رقم (16) والترمذي كتاب الإيمان ب (3) ، والنسائي كتاب الإيمان ب (13) .

(2) حديث صحيح فقد رواه البخاري كتاب الجهاد والسير ب (94) برقم (2926) ، ومسلم كتاب الفتن ب (18) رقم (82) ، ومسند أحمد (2 / 417) .

وزعموا أن هذا الحديث يثبط المسلمين عن الجهاد لأنه يدفعهم إلى الانتظار حتى يتكلم الحجر أو الشجر ليدل على اليهود .. ونسوا أن هذا الحديث من المبشرات في استئصال اليهود حين يدخل المسلمون المعركة باسم الإسلام والعبودية للّه .

وردّ ثالث حديث : « بئس أخو العشيرة .. » [1] لظنه أن هذا من المداهنة أو النفاق ، ناسيًا أن هناك فرقًا بعيدًا بين المداراة التي لا يستغني عنها حكيم ، وبين المداهنة التي لا يلجأ إليها إلا منافق أو ضعيف .. ومن الكتب التي يستفاد منها ردّ الحملة التبشيرية على السنة وكشف عوارها :

1 – السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د . مصطفى السباعي .

2 – السنة قبل التدوين د . عجاج الخطيب .

3 – الأنوار الكاشفة (في الرد على كتاب أبي رية) . أ . عبد الرحمن اليماني .

4 – الحديث والمحدثون د . محمد أبو زهو .

5 – دفاع عن أبي هريرة د . عجاج الخطيب .

6 – دفاع عن السنة د . محمد أبو شهبة .

3 – **الحذر من الأحاديث الموضوعة والواهية** : وعلى الداعية أيضًا أن يحذر من الأحاديث الواهية والمنكرة بل الموضوعة .

وقد حذر علماء السنة من رواية الحديث الموضوع إلا مع التنبيه عليه ، وبيان أنه موضوع ليحذر منه قارئه أو سامعه ؛ قال الإمام النووي : (تحرم رواية الحديث الموضوع مع العلم به في أي معنى كان ، سواء الأحكام والقصص والترغيب والترهيب وغيرها – إلا مبيّنًا ، أي مقرونًا ببيان وضعه ؛ وذلك لما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن سمرة بن جندب مرفوعًا : « من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » [2]) .

وقد تخصص لهذه الأحاديث من علماء الأمة من كشف عوارها ، ووضح باطلها ، وفضح عورات الوضّاع المزيفين ، وقد قيل للإمام عبد اللّه بن المبارك : هذه الأحاديث

(1) الحديث صحيح رواه البخاري كتاب الأدب ب (38 ، 48) ، ومسلم كتاب البر ب (73) ، وأبو داود (4792) ، ومسند أحمد (6 / 38) .

(2) صحيح مسلم المقدمة ب (1) .

الموضوعة ! .. فقال : تعيش لها الجهابذة (أي يكشف عوارها العلماء الأفذاذ) .

وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزي : (لما لم يُمكن أحد أن يدخل في القرآن ما ليس منه ، أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول اللّه ، ويضعون عليه ما لم يقل ، فأنشأ اللّه علماء يذبّون عن النقل ، ويوضحون الصحيح ، ويفضحون القبيح ، وما يُخلي اللّه منهم عصرًا من الأعصار ..) .

وإذا كان اللّه سبحانه قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتبديل إلى يوم البعث والدين .. فتكفّله جلّ جلاله لحفظ السنّة من الدسّ والوضع تبعٌ لذلك .. ذلك لأن السنّة النبويّة مؤكّدة للقرآن الكريم ، ومكمّلة له ، ومفصّلة لما أُجمل فيه ..

وباستطاعة كل مسلم أن يرجع إلى أيّ مصدر من مصادر السنّة ، ليعرف بيقين درجة الحديث من حيث الصحة أو الضعف أو الوضع .. بما لا يقبل الالتباس أو الشكّ ..

ومن فضل اللّه على هذه الأمة أن حفظ لها مصادرها التشريعية من حين أن بزغ فجر الإسلام إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، حفظ لها هذه المصادر لأنه سبحانه تفضّل بحفظها بوعده القاطع في قرآنه المنزّل على قلب رسوله المرسل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] .

ونحن لا ننكر أن كثيرًا من الأحاديث الواهية والموضوعة قد تسللت إلى كثير من الكتب في مختلف العلوم من التفسير والتصوف والرقائق ، حتى في بعض كتب الفقه والأحكام .. ومن ثم دخلت على كثير من الدعاة – وبخاصة ذوو الطابع الشعبي منهم – آفة الاستشهاد بهذا النوع من الأحاديث لما فيها من الغرائب والمبالغات التي ترضي أذواق العوام ، وتثير إعجابهم ..

وكثيرًا ما يستند هؤلاء إلى ما اشتهر من أن الأحاديث الضعيفة تجوز روايتها في فضائل الأعمال ، ومجال الترغيب والترهيب .. ونحو ذلك .

علمًا أن العلماء الذين أجازوا الاستشهاد بالضعيف في فضائل الأعمال لم يفتحوا الباب على مصراعيه ، وإنما وضعوا شروطًا ثلاثة [2] :

1 – ألا يكون الحديث شديد الضعف حيث يكون واهيًا قريبًا من الموضوع .

---

(1) سورة الحجر الآية : 9 .

(2) وضع هذه الشروط الثلاثة الإمام ابن حجر العسقلاني : انظر : تدريب الراوي للسيوطي ، الجزء الأول .

2 – أن يندرج تحت أصل شرعي معمول به ، ثابت بالقرآن الكريم أو السنة الصحيحة .

3 – ألا يعتقد عند الاستشهاد به ثبوته عن النبي ﷺ ، بل يعتقد الاحتياط ، وبناءً على الشرط الثالث لا يجوز للمستشهِد أن يضيف الحديث الذي استشهد به إلى النبي ﷺ بصيغة الجزم والقطع ، بل عليه أن يقول : رُوِيَ عن كذا ، أو نُقِلَ عن كذا ، أو ورد عن كذا .. وما أشبه من صيغ التضعيف والتمريض ، وأما قوله : قال رسول الله كذا .. فمردود وغير جائز وغير لائق ..

ومن هذا يتبين أن أحدًا من علماء الأمة لم يفتح الباب على مصراعيه لرواية الأحاديث الضعيفة ، بل اشترطوا الشروط الثلاثة المذكورة ، فضلًا عن الشرط الأساسي وهو : **أن يكون في فضائل الأعمال ونحوها ، مما لا يترتّب عليه حكم شرعي** .

وأنصح الداعية أن يرجع إلى الكتب التالية لمعرفة تحقيق أي حديث شكّ في صحته ، أو تبين له وضعه :

1 – كتاب « **الإحياء** » للإمام الغزالي مع تخريج أحاديثه للحافظ العراقي ، وهو مطبوع متداول ، ومراجعته ضرورية لطالب العلم ..

2 – قراءة مقدمة كتاب « **الترغيب والترهيب** » للمنذري ، التي بين فيها أنواع الأحاديث التي يذكرها ، والمصطلحات التي يستخدمها لبيان درجاتها قوة وضعفًا ، حتى لا ينقل الضعيف الشديد الضعف ، وهو يحسب أنه حسن أو صحيح ، لجهله بإصطلاح صاحب الكتاب .

3 – كتاب « **فيض القدير** » أو المختصر « **التيسير** » للمناوي الذي رمز لما جاء في « الجامع الصغير » للسيوطي بـ (ص) للصحيح ، و (ض) للضعيف .

4 – كتاب تخريج أحاديث « **الكشاف** » للحافظ ابن حجر .

5 – كتاب تخريج أحاديث « **الهداية** » للإمام الزيلعي .

6 – كتاب « **المقاصد الحسنة** » للإمام السخاوي .

7 – كتاب « **تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث** » لابن الديبع الشيباني .

8 – كتاب « **كشف الخفاء ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الحديث على ألسنة**

الناس » للعجلوني ، وهو أجمعها وأوفاها ، وهو مرتب على حروف المعجم .

9 – كتاب « **التفسير** » لابن كثير ، لكون ابن كثير حافظًا متقنًا ناقدًا ، يعنى بتخريج ما يورده ، والتعقيب عليه – غالبًا – بالتوثيق أو التضعيف .

ومن الكتب المهمة أيضًا التي لا يستغني عنها داعية أو طالب علم ... **كتب الموضوعات أي الكتب التي جمعت في طيّاتها الأحاديث المختلقة المفتراة على رسول الله ﷺ وهي مرتبة كما يلي :**

1 – كتاب « **الموضوعات** » لابن الجوزي .

2 – كتاب « **اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة** » للإمام السيوطي .

3 – كتاب « **تحذير الخواص من أكاذيب القُصّاص** » للإمام السيوطي .

4 – كتاب « **المنار المنيف في الصحيح والضعيف** » لابن القيم .

5 – كتابا « **الموضوعات الكبرى** » و « **الموضوعات الصغرى** » للشيخ علي القاري .

6 – كتاب « **تنزيه الشريعة المرفوعة من الأحاديث الشنيعة الموضوعة** » لابن عراق .

7 – كتاب « **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة** » للإمام الشوكاني .

8 – كتاب « **الأسرار المرفوعة** » للشيخ اللكنوي .

فعليك – أخي الداعية – اقتناء هذه الكتب جميعًا ، ومطالعتها ، والاستفادة منها .. لتكون عندك الحصيلة الكافية في معرفة أي حديث من حيث صحته أو حسنه أو ضعفه أو وضعه ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

* * *

ج - السيرة النبوية واهميتها :

على الداعية أن يوجه عناية خاصة للجزء العملي من السنة ، وهو الذي يتعلق بسيرة النبي ﷺ ، وهديه في كافة شؤون الدين والدنيا ..

ففي هذه الناحية العملية من سنته ﷺ نجد الإسلام مجسّمًا في حياة بشر ، ونجد القرآن الكريم مشخّصًا في أخلاق إنسان .. ، ولما سئلت السيدة عائشة – رضي الله عنها – عن خُلُقه ﷺ قالت : « كان خلقه القرآن » [1] أي أنه كان نموذجًا حيًّا للفضائل

---

(1) سبق تخريجه ص (234) .

والأخلاق التي دعا إليها القرآن فإذا كان الإسلام يدعو إلى العدل ، ويجعله إحدى قيمه العليا ، ومبادئه الأساسية ، ويقاوم الظلم بكل صوره .. فإن حياة النبي ﷺ العامة ، وسيرته الكريمة مثال ناطق لتحقيق العدل في جميع المجالات : العدل مع النفس ، والعدل مع الأسرة ، والعدل مع الأقارب ، والعدل مع الأصدقاء ، والعدل مع الأعداء ، وهكذا كل ما يمكن من صور العدل ومظاهره ، والأمثلة التطبيقية لهذه الأنواع من العدل موفورة في سيرته ﷺ ، لا يعجز الداعية عن استخراجها من كتب الحديث والسيرة .

وقس على ذلك مبدأ الشورى ، وخلق الصدق ، والأمانة ، والوفاء ، والصبر ، والسخاء والشجاعة ، والرحمة ، وغيرها .. فإن سيرة النبي ﷺ هو التطبيق الرائع لهذه الأخلاق .

ولهذا ينبغي للداعية الموفق - بعد أن يذكر موضوعه معززًا بالآيات والأحاديث النظرية - أن يؤيِّدها بمواقف من السيرة العملية .

فمن كان يتحدث عن **خلُق التواضع** مثلًا ، فلا يحسن به أن يكتفي بسرد الآيات والأحاديث في فضل التواضع والتياسر .. حتى يذكر تواضعه ﷺ في أهله وفي أصحابه ، فقد كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويطحن بالرحاة مع الجارية والغلام ..

ويجلس مع صحابته كواحد منهم ، حتى يأتي القادم الغريب فلا يعرفه من بينهم ، ولا يميز نفسه عنهم في حضر أو سفر ، حتى اختار مرة أن تكون مهمته جمع الحطب لإنضاج الطعام لهم ، وأبى في غزوة بدر أن يركب وصاحباه يمشيان ، وقد عرضا عليه ذلك راضيين قائلًا : « ما أنتما بأقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر » [1] .

ولعل من النافع هنا أن نذكّر الإخوة الدعاة بأن للسيرة مصادر شتى غير كتب السيرة الرسمية المعروفة مثل : « **سيرة ابن هشام** » وشرحها للسهيلي المسمى « **الروض الأنف** » أو « **السيرة الحلبية** » ونحوها .. فلابد من الانتفاع بتلك المصادر كلها ما أمكن ذلك .

من هذه المصادر :

1 - القرآن الكريم وتفاسيره وبخاصة المأثور منها .

2 - كتب الحديث ، فهي كما تتضمن أقوال النبي ﷺ تتضمن أيضًا أفعاله وتقريراته وأوصافه الخَلْقية والخُلُقية ، ومن ذلك : مراحل دعوته وجهاده وغزواته ومواقفه ، وهي سجل حافل لحياته كلَها ..

(1) مسند الإمام أحمد (1 / 411) .

3 - كتب الشمائل والهدي النبوي مثل : « **الشمائل المحمدية** » للترمذي ، و « **الشفاء** » للقاضي عياض ، و « **زاد المعاد في هدي خير العباد** » لابن القيم ..

4 - كتب التاريخ العام مثل : تواريخ الطبري ، وابن الأثير ، وابن كثير ، ففي كل منها فصول ضافية عن السيرة النبوية ، ولا سيما « ابن كثير » وقد فُصلت السيرة من تاريخه ، وطبعت محققة مستقلة .

5 - كتب « **دلائل النبوة** » ، وهي التي تُعنى بما ظهر على يديه ﷺ من الآيات والخوارق ، وما نبأ به من الغيوب .

6 - وأخيرًا كتب في السيرة مستحدثة كتب فيها أعلام الكتّاب والمحققين في العصر الحديث من أظهرها : « **خاتم النبيين** » للشيخ محمد أبو زهرة ، و « **فقه السيرة** » للشيخ محمد الغزالي ، و « **فقه السيرة** » للشيخ سعيد رمضان البوطي ، وغيرها من الكتاب الهامة .

* * *

د - علم التوحيد :

لا نريد بدراسة هذا الفن دراسة منظومات المتأخرين في علم التوحيد وشروحها مثل « الجوهرة » ونحوها ، ولا دراسة « العقائد النسفية » وما يتبعها من شروح وحواش ، ولا دراسة المطولات الكلامية مثل شرح المقاصد أو شرح المواقف وما شابهها .

فلم يعد كثير من مباحث هذه الكتب يحتاج إليه العقل المعاصر أو يستسيغه ، ولم يعد يكفي للردّ على شبهات الفلسفة الحديثة ، وما تثيره من مشكلات فكرية واعتقادية ..

لهذا يجب توفير الجهد الذهني الضخم الذي يبذل في هضم هذه الكتب ، وحلّ ألغازها .. لما هو أجدى في الدفاع عن العقيدة وتثبيتها ، ومواجهة تحدّيات أعداء الإسلام ومؤامراتهم ..

فالذي نريده من دراسة العقيدة الإسلامية مراعاة ما يلي :

1 - أن يكون كتاب اللّه عز وجل ، وما يبيّنه من صحيح السنة هو المصدر الفذّ للعقيدة الإسلامية المنشودة ، بعيدًا عن الشوائب والزوائد والفضول .. وبهذا تبقى العقيدة على صفائها ووضوحها وبساطتها ، ولا نجعل آراء مدرسة معينة أصْلًا يُحمل القرآن عليه ، وتُجرّ الآيات لتأييده .

2 – أن نتبع منهج القرآن الكريم في مخاطبة العقل والقلب معًا من أجل تكوين الإيمان الصحيح الثابت ، فبناء العقيدة على العقل وحده كما هو اتجاه الفلاسفة ، أو على القلب وحده كما هو اتجاه الصوفية .. لا يتفق مع شمول المنهج الإسلامي الذي يقوم الإيمان فيه على اقتناع العقل ، وانفعال القلب ، وصدق الإرادة ..

3 – الاهتمام بأدلة القرآن الكريم التي ذكرها لإثبات معتقداته ، وإقناع مدعوّيه ، والرد على خصومه .. مثل : أدلة القرآن على وجود اللّه التي أشار إليها ابن رشد في كتابه « مناهج الأدلة » والعقاد في كتابه « اللّه » والشيخ الجسر في كتابه « قصة الإيمان » وغيرهم ؛ وكذلك أدلته على التوحيد ، وعلى البعث ، وعلى نبوة محمد ﷺ .. وكلها أدلة عقلية برهانية صريحة وليست خطابية كما وَهِم بعض المتكلمين .

4 – الاستفادة من ثقافة العصر ، وخصوصًا في ميادين العلوم البحتة كالفلك والطب والفيزياء وعلم الحيوان والنبات .. لتأييد قضايا العقيدة وتثبيتها ، كما فعل ذلك كثير من المؤلفين في زماننا من المسلمين والأجانب مثل : صاحب « العلم يدعو إلى الإيمان » ، وأصحاب « اللّه يتجلّى في عصر العلم » ، وصاحب « الطب محراب الإيمان » ، ومؤلف « اللّه والعلم الحديث » ، ومؤلف « الإسلام يتحدّى » ، وكتاب « اللّه جل جلاله » للشيخ سعيد حوّى ..

5 – أن نتبنَّى طريقة السلف فيما وصف اللّه به نفسه من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تأويل ولا تعليل ، وهي الطريقة التي انتهى إليها أساطين علم الكلام من الأشاعرة وغيرهم .. فما وجدوا بدًّا سوى أنْ يقرّوا بطريقة القرآن فيما وصف اللّه به نفسه ، وفيما يليق بجلاله إثباتًا ونفيًا .. ، يقول الإمام فخر الدين الرازي في كتابه « أقسام الذات » : (لقد تأملت المناهج الفلسفية ، والطرق الكلامية .. فلم أرها تشفي عليلًا ، أو تروي غليلًا ، ورأيت خير الطرق طريقة القرآن : أقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ، وأقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ، ومن جرّب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي) .

6 – نتتبع شبهات المبشرين والمستشرقين والشيوعيين وغيرهم من خصوم الإسلام وتلاميذهم ، والردّ عليها ردًّا علميًّا فكريًّا مركّزًا بلسان العصر ، ومنطق الحجة ، وسلاح العلم .. حتى لا تبقى شبهة لمتشكك ، أو حجة لمعترض ..

* * *

هـ - الفقه وأصوله :

ولابد للداعية من قدر مناسب من الثقافة الفقهية ، بحيث يعرف أهم الأحكام الشرعية في العبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحوال الشخصية .. وما لم يعرفه أو يستحضره يكون قادرًا على مراجعة حُكمه في مصادره ومظانّه الموثّقة ، وذلك مهم للداعية من عدة نواحٍ ليستطيع أن يجيب السائلين عن شؤون العبادة ، وقضايا الزواج والطلاق ، وأحكام الحلال والحرام ، وأصول البيع والشراء والتعامل الاقتصادي .. مما يكثر الناس السؤال عنه ، ويلجأون عادة إلى الدعاة يلتمسون منهم الفتوى في ذلك ، فمن لم يكن متضلّعًا من الفقه سكت أو تهرّب وفي ذلك إضعاف لموقفه وتأثيره .. أو أفتى بغير علم ، وهذه هي الطامة والضلال المبين كما هو حديث الصحيحين عن ابن عمر مرفوعًا : « إن اللّه لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبْقِ عالم اتّخذ الناس رؤوسًا جهّالًا ، فسُئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلّوا وأضلّوا » .

ولاشك أن الداعية إذا كان متمكنًا بالفقه استطاع أن يصحح ما يقابله من أخطاء ، وأن يقوّم ما يواجهه من انحرافات في ضوء الأحكام الشرعية ..

وكذلك يعمل جاهدًا على تطعيم عظاته ودروسه بالأحكام المهمة التي يحتاج إليها الناس في وقتها ، فإن تحدّث مثلًا عن الزكاة أو الصيام أو الحج أو غيرها .. لم يقتصر حديثه على محض الترغيب والترهيب ، بل يحرص على إعطاء سامعه أو قارئه خلاصة الأحكام الأساسية لكل منها بأسلوب سهل قريب مقبول ..

فالداعية الناجح هو الذي يعظ الناس ويفقههم ، بحيث لا يطغى وعظه على فقهه ، ولا فقهه على وعظه .. فهذا يكون أكثر تشويقًا ، وأحسن جاذبية في ميادين التبليغ والدعوة إلى اللّه .

ونوصي الداعية هنا بعدة أمور :

1 – أن يحرص على ربط الأحكام بأدلتها من الكتاب والسنة والقياس والإجماع .. لأن الدليل يكسو الحكم أو الفتوى نورًا وجمالًا ، ويعطيه قوة قناعة واستجابة ..

ويمكنه هنا الانتفاع بكتاب « أحكام القرآن » للجصاص وابن العربي ، وكتاب « آيات الأحكام » للشيخ السايس والشيخ الصابوني عدا عن كتاب « تفسير أحكام القرآن » للقرطبي ..

ويمكنه أيضًا الانتفاع بكتب فقه الحديث مثل : « الإحكام » لابن دقيق العيد ، و « نيل الأوطار » للشوكاني ، و « سبل السلام » للصنعاني ، و « فقه السنة » للشيخ سيد سابق .. ويمكن أيضًا الانتفاع بكتب الفقه مثل : « المغني » لابن قدامة الحنبلي ، و « المجموع » للنووي الشافعي ، و « الاستذكار » لابن عبد اللّه المالكي ، و « المحلّى » لابن حزم الظاهري ، و « البدائع » في الفقه الحنفي ..

وعلينا أن لا ننسى الانتفاع بكتب الشيخين الجليلين : « الفتاوى .. » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، و « زاد المعاد » لابن القيم .. وكذلك الانتفاع بكتاب « الفقه على المذاهب الأربعة » للجزيري ..

2 – وإذا كان الداعية ملتزمًا بمذهب من المذاهب الفقهية المتبوعة المعتمدة .. فلا يمنعه هذا من التعرف على أدلة مذهبه ليطمئن قلبه ، ولا مانع شرعًا من ترك المذهب ، واعتناق مذهب آخر معتمد إن رأى ضرورة ذلك ، ورحم اللّه من قال : « من قلّد عالمًا لقي اللّه سالمًا » .

وإذا كان أهلًا للنظر في الأدلة ، واستوفت فيه شروط الترجيح .. فلا بأس أن يترك بعض مسائل المذاهب ، ويأخذ بأحكام مذهب آخر ؛ لكونها أنهض دليلًا ، وأقوى حجة ..، وهذا ما يعرف بالاجتهاد الجزئي عند علماء الفقه والأصول .

3 – ويحسن بالداعية أن يتعرف على المذاهب الأخرى ، وبخاصة التي يتبعها بعض من يدعوهم ، فإن كان مالكيًا وهو في بيئة حنبلية ، أو كان شافعيًا وهو في بيئة حنفيّة .. مثلًا ، فينبغي له أن يلمّ بأهم ما يتميز به مذهب البلد عن مذهبه ، حتى لا ينكر على الناس ما لا يجوز أن ينكر ؛ لأن المنكر لا يمكن أن نقول عنه إنه منكر إلا إذا اتُّفق على إنكاره ، أما إذا كان الحكم في حدود الاجتهاد ووجهات النظر .. فلا يجوز أن نسمي الحكم المخالف منكرًا ..

فلا يجوز للداعية مثلًا إن كان حنفيَّ المذهب أن ينكر وهو في خطبة الجمعة على من يدخل المسجد ويصلي ركعتين خفيفتين بحجة أن الفقه الحنفي يمنع [1] من الصلاة والإمام يخطب ؛ لأن الإمامين الجليلين الشافعي ، وابن حنبل يجيزان لمن يدخل المسجد والإمام

---

(1) للحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – : أن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أحدكم المسجد والإمام يخطب ، فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ الإمام » ، وللأحناف أدلة أخرى غير هذا الدليل ..

يخطب أن يصلي ركعتين تحية المسجد ؛ لحديث جابر الذي رواه مسلم وأحمد وأبو داود قال : جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر ، فقعد سليك قبل أن يصلي ، فقال له النبي ﷺ : أركعت ركعتين ؟ قال : لا ، قال : قم فاركعهما »[1] .

ومما ينصح به الداعية أن يقرأ - على الأقل - كتابًا في الفقه المقارن مثل : « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » لابن رشد ..

4 - ينبغي على الداعية أن يقتدي بالقرآن والسنة في تعليل الأحكام ، وبيان حكمتها ومعقوليتها وثمراتها في الأنفس والحياة ، وربطها بواقع الحياة حتى تقع من النفس موقع القبول .

وقد وجدنا القرآن الكريم يذكر الحِكَم والمنافع من وراء العبادات ذاتها ، مع أن الأصل في العبادات التعبد والاستسلام لأمر الله تعالى ، كقوله تعالى في الصلاة : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾[2] ، وكقوله في الزكاة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[3] ، وكقوله في الحج : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾[4] ...

فإذا كان هذا في الأمور التعبدية ، فكيف بغيرها من المعاملات وشؤون الحياة ؟

فهذا مطلوب في كل حين ، ولكن طلبه في عصرنا ألزم ، والحاجة إليه أوكد .. على أن يكون التعليل وبيان المعقولية والحكمة مطابقًا للواقع والحياة ، وشاملًا للدين والدنيا والآخرة ..

ثم ماذا عن علم أصول الفقه ؟

ولابد للداعية أن يُلّم بعلم أصول الفقه حتى يعرف الأدلة المتفق عليها وهي : الكتاب والسنة ، والتي اتفق عليها جمهورهم وهي : القياس والإجماع ، والتي اختلفوا فيها بعد ذلك كالاستحسان ، والاستصلاح ، والاستصحاب ، وشرع من قبلنا ، وقول الصحابي ، وما إلى ذلك مما تفرقت فيه وجهات النظر ..

وإذا كان الكتاب والسنة هما الأصلين والمصدرين الأساسيين ، فكيف نستنبط منهما الأحكام ؟ ومن يجوز له الاستنباط ومن لا يجوز ؟ ومن يجوز له التقليد ومن لا يجوز ؟ .

ولابد للداعية - إن كان أهلًا للنظر - أن يعرف الراجح من المرجوح ؛ ليأخذ بالراجح

---

(1) صحيح مسلم كتاب الجمعة رقم (59) ، ومسند الإمام أحمد (3 / 297) وأبو داود (1115) .
(2) سورة العنكبوت الآية : 45 . (3) سورة التوبة الآية : 103 . (4) سورة الحج الآية : 28 .

بعد جهد واستيعاب ، ويعذر الآخرين بالمرجوح ، أو يقنعهم إن استطاع دون أن يحدث في ذلك ضجة ، أو يسبب فرقة أو فتنة .. وليكن شعاره في اختلاف وجهات النظر :

(نعمل فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه) .

وليس من الضروري للداعية أن يقرأ المطولات في الأصول ، فهذا شأن المتخصّص ، وحسبه أن يقرأ ما يعطيه فكرة ملائمة مثل « جنة الناظر » لابن قدامة ، و « إرشاد الفحول » للشوكاني .

ومن كتب المحدثين في الأصول : كتاب « أصول الفقه » للشيخ الخضري ، و « علم أصول الفقه » للشيخ خلّاف وهو أحسن ما كُتب بأسلوب العصر .

ويحسن للداعية تتمة لهذا أن يعرف نبذة عن تاريخ الفقه الإسلامي ، ونشأة المذاهب وتطورها ويكفي في هذا : « تاريخ التشريع » للخضري ، و « خلاصة تاريخ التشريع » لخلّاف .

* * *

و - علم التربية وآداب السلوك :

ولابد للداعية أيضًا من قدر مناسب من الثقافة السلوكية التي تبحث الجانب الأخلاقي والعاطفي في تكوين المسلم ، وإعداده روحيًا وتربويًا وسلوكيًا .. وتبحث أيضًا دراسة آفات النفوس ، ومداخل الشيطان إليها ، وكيفية وقايتها وعلاجها .. وتبحث كذلك تقوية صلة العبد بالله ، وكيفية تغذيتها والسبيل إليها ، والوصول إلى أعلى مراتبها ...

وعلينا أن نلحظ في هذا العلم أمرين هامين :

الأول – الانحراف :

لا ينكر المتخصصون لدراسة هذا العلم أن بعض الذين دخلوا في سلك التصوف ، واهتموا بعلاج آفات النفوس قد أثرت فيهم عوامل أجنبية من مسيحية أو هندية أو فارسية أو يونانية .. إلى جوار العوامل الإسلامية أيضًا ، وأنها قد دخلت فيهم على مر الأزمان أفكار غريبة من شتى المصادر المذكورة وغيرها ، حتى وجد من يُنسب إلى التصوف من يقول : **بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود** [1] .

(1) فكرة وحدة الوجود تقوم على أنه لا خالق ولا مخلوق بل هما شيء واحد وإن تعدّدت الأسماء والمسميات ، وفكرة الحلول تقوم على أن الله سبحانه حلّ في الأجسام كحلول من يعتقد أن الله حلّ في علي رضي الله عنه ، وفكرة الاتحاد تقوم على اتحاد إرادة الله بإرادة العبد ، ويعبرون عن هذا بالفناء .. وهذا الاعتقاد كفر وضلال ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

وكان لبعضهم كلام عن « قدم النور المحمدي » ، وكلام عن تربية المريد أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل ، وأن يعتقد في شيخه العصمة ، وأن يعترف لشيخه بكلّ شيء حتى بخاطرة السوء .. هذا عدا عن بعض غلوّ بعض المتصوفة في الزهد إلى حدّ خروجهم عن وسطية الإسلام إلى رهبانية النصارى .. إلى غير ذلك من هذه الانحرافات الاعتقادية والفكرية والسلوكية ..

لهذا ولغيره ، وقف كثير من الحريصين على التمسك بالسنة موقف الريبة بل الخصومة من التصوف وتراثه ورجاله ، وأعلن بعضهم حربًا على التصوف كله ، قديمه وحديثه ، سنيه وبدعيه ، وحمّلوه أوزار كل الانحرافات الاعتقادية والسلوكية التي ابتلي بها المسلمون في القرون الأخيرة ، وبالتالي دَعوا إلى نبذ هذا التراث وهجره ؛ خشية ما يتخلّله من مفاهيم لا تتلاءم مع أنظمة الإسلام ، ولكن هذه النظرة لا تتفق مع الموضوعية والمنهج العلمي ، ولا تتلاءم مع موازين الشريعة في تقييم الرجال ، والتعرّف على حقائق الأشياء ..

والذي نريد أن نؤكد عليه في هذا المجال :

أولًا – أن التصوف الفلسفي كله مرفوض من أساسه ، وإذا مرّ عليه الداعية في طور الدراسة فإنما يمرّ للردّ عليه ، وتبيان فساده ومنافاته للإسلام ، ونريد بالتصوف الفلسفي التصوف القائم على فكرة « الحلول » و « الاتحاد » و « وحدة الوجود » ...

ثانيًا – وجِد من المتصوّفة من نُسب إليهم فكرة « الحلول » و « وحدة الوجود .. » ولكن هم في الواقع برآء مما اتُّهموا به ، ونُسب إليهم .. ونحن لا يمكن أن نتهم إنسانًا بالكفر إلا إذا أقرّ به باللفظ الواضح الصريح ، أو قامت البيّنة على كفره وفساد اعتقاده .. أما أن نأخذه بالشبهة أو الظن فإن الظن – في نظر الشرع – لا يغني من الحق شيئًا .

ثالثًا – يجب أن ننتقي من التصوف ما يخدم العقيدة الإسلامية ، والأخلاق الإسلامية ، وندع كل ما فيه شائبة أو ريبة ، وننتفع في ذلك بمن نقد الصوفية كأمثال : ابن الجوزي في كتابه « تلبيس إبليس » ، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « الفتاوى » ؛ للاستئناس بما كتبوه في نقدهم لما ذهب إليه بعض المتصوفة من مخالفات شرعية .

الثاني - الاستقامة :

لا ينكر المتخصصون لدراسة هذا العلم أيضًا أن كثيرًا ممن دخلوا في سلك التصوف ، واهتموا بعلاج آفات النفوس قد أعطوا القدوة العملية في كريم أخلاقهم ،

وجميل استقامتهم وسلامة فكرهم واعتقادهم وتوجيههم .. وعلى رأس أولئك الشيخ عبد القادر الكيلاني ، والشيخ سهل التستري ، والشيخ بشر الحافي ، والشيخ أبو الحسن الشاذلي ، والشيخ أبو يزيد البسطامي ، والشيخ الجنيد ... وعشرات غيرهم ممن كان لهم في التاريخ ذكر ، وفي الأجيال قدوة ..

ولا بأس أن ننقل طائفة من أقوالهم ليتبين لكل ذي عينين وبصيرة مدى التزامهم واستقامتهم :

● يقول الإمام العارف عبد القادر الكيلاني في كتابه « الفتح الرباني » ص 29 : (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة ، طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ) .

ويقول : (تركُ العبادات زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية ، لا تُسقَط الفرائضُ بحال من الأحوال) .

● ويقول الإمام سهل التُسْتَري رحمه اللّه : (أصول طريقتنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكفّ الأذى ، وتجنّب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق) [1] .

● ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه اللّه : (إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن اللّه تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها في جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة) [2] .

● ويقول أبو يزيد البسطامي رحمه اللّه : (لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى تربّع في الهواء فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة) [3] .

● ويقول الإمام الرباني الجنيد رحمه اللّه : (مذهبنا هذا مقيّد بأصول الكتاب والسنة ، الطرق كلها مسدودة على الخلْق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ) [4] .

كما نرى أن من الإنصاف أن نبين أن في التراث الصوفي – على ما فيه من بعض المآخذ – فوائد لا تُنكر ، وإليك – أخي الداعية – أهمّها :

(1 ، 2) من كتاب « التصوف الإسلامي والإمام الشعراني » للدكتور طه عبد الباقي سرور ص : (70 - 75) .
(3) من كتاب « شرح الطريقة المحمدية » للشيخ عبد الغني النابلسي ص : 175 ج 1 .
(4) شرح الحكم لابن عجيبة ج 1 ص : 76 .

1 – إنه يجمع كثيرًا من أقوال الصالحين ، وحِكَم الزهاد والعبّاد ، ومآثر أهل التقوى والبصيرة .

2 – إن فيه لفتات روحية مشرقة في فهم الآيات والأحاديث والتعليق عليها لا توجد عند غيرهم .

3 – إن للمتصوفة من الممارسات والتجارب في إصلاح الباطن ، وعلاج آفات النفوس ، وتقويم اعوجاج السلوك .. ما لا يوجد عند طائفة أخرى .

4 – إن في أقوالهم ومواعظهم حرارة وحيوية يلمسها قارئها ، ولعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية ، والرياضة الروحية التي يعانونها ، وليست النائحة كالثكلى .

5 – إن الصوفية الأوائل الذين وضعوا أسس التصوف ، ومهّدوا طريقه ، رفضوا كل محاولة لإخراجه عن الشرع ، وأبوا إلا تقييده بالقرآن والسنة .. وقد استشهدنا بطائفة من أقوالهم في هذا المعنى [1] .

6 – إن من أئمة الدعوة السلفية من تكلّم في التصوّف وألّف فيه ، وردّ على باطله ، وأشاد بما فيه من حق ، كما يتضح ذلك في رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية : مثل : « العبودية » و « التحفة العراقية في الأعمال القلبية » ، ورسالة « الفقراء » وغيرها من الفتاوى والرسائل والبحوث التي ظهرت في مجلدين في مجموع فتاويه :

أحدهما : تحت عنوان « **التصوف** » المجلد الحادي عشر .

ثانيهما : تحت عنوان « **علم السلوك** » المجلد العاشر .

وكذلك مؤلفات تلميذه المحقّق العلامة ابن القيم الجوزية في ذلك ، وهي كثيرة منها : « طريق الهجرتين » و « عدّة الصابرين » ، و « الداء والدواء » ، وأعظمها : « مدارج السالكين شرح منازل السائرين » في ثلاثة مجلدات ...

وأنصح الداعية بالإضافة إلى الكتب التي سبق ذكرها أن يقتني الكتب التربوية السلوكية التالية :

1 – إحياء علوم الدين للغزالي .

2 – الرقائق للإمام عبد الله بن المبارك .

---

(1) انظر كتاب « مدارج السالكين » ج 2 ص 264 لابن القيم .

3 – رسالة المُسْتَرْشِدِين للحارث المحاسبي .

4 – منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي .

* * *

ز - النظام الإسلامي :

ومن أهم ما ينبغي للداعية أن يدرسه دراسة وعي وفهم وهضم النظامُ الإسلاميُّ أو شمولية مبادئ الإسلام ، أو فلسفة الإسلام التشريعية .

ونعني بهذا دراسة الإسلام خالصًا غير مشوب ، متكاملًا غير مجزأ .. الإسلام باعتباره مذهبًا متميزًا ، ونظامًا كاملًا للحياة : الحياة الفردية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة المادية ،والحياة المعنوية .. ولا يغني عن هذه الدراسة للإسلام المتكامل دراسة العلوم الإسلامية من التفسير والحديث والفقه والتوحيد ونحوها ؛ لأنها لا تعطي نظرة عامة للإسلام في الكون والحياة والإنسان ، وإنما تعطي نظرات متفرقة لجوانب معينة ، كلٌّ على حدة ، دون أن يكون بينها أي ارتباط أو تنسيق ..

وإن الخطر على فهم الإسلام فهمًا صحيحًا يتمثل في عدة أمور يجب التحرز منها :

1 – أن يُزاد على الإسلام ، ويلصق به ما ليس منه من رواسب الديانات السابقة ، وثنيّة ومحرفة ، وشوائب النّحل والمذاهب شرقية كانت أو غربية .. وذلك بعد أن أكمله اللّه للأمة ، وأتمّ عليها به النّعمة ، والكامل لا يقبل الزيادة كما لا يقبل النقص ، ولهذا شدّد الرسول ﷺ التحذير من الإحداث والابتداع في الدين .

2 – أن ينقص من الإسلام ما هو من أجزائه وصلب كيانه ، أو يأخذ بعضه دون بعض ، كما فعل بنو إسرائيل بدينهم ، آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض .. وفي هذا العصر قامت محاولات لتجزئة الإسلام ، أو إهدار بعض تعاليمه ، كالذين يريدون الإسلام عقيدة بغير شريعة ، أو عبادة بلا جهاد ، أو دينًا بلا دولة ، أو سلامًا بلا حرب ، أو زواجًا بلا طلاق ... والإسلام – كما هو معلوم – وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة ولا الانقسام ..

3 – أن تشوّه تعاليم الإسلام في العقيدة أو العبادة أو الأخلاق أو التشريع .. فتعرض على غير حقيقتها ممسوخة مشوّهة محرّفة ، بفعل الجهل أو الهوى أو الغرض .. كما شُوّهت فكرة القضاء والقدر في العقيدة ، أو فكرة الجمع في العبادة ، أو فكرة الزهد في الأخلاق ، أو فكرة الطلاق وتعدد الزوجات في نظام الأسرة ، أو

فكرة الجهاد في نظام الدولة ، أو فكرة الحدود في نظام العقوبات ..

4 - أن يختل التوازن بين قيم الإسلام وتعاليمه ، فيعطي بعضها دون حقه ، ويأخذ بعضها الآخر أكثر من حقه ، ويقدم ما يستحق التأخير ، ويؤخر ما يستحق التقديم .. فلا توضع الفروع موضع الأصول ، ولا تحتلّ النوافل مكان الفرائض ، ولا تقدم أعمال الجوارح على أعمال القلوب .. بل يوضع كل شيء في مرتبته دون غلوّ ولا تقصير ، وإلا اضطربت المعايير ، واختلّت المقاييس ..

ومن هنا ينبغي عند دراسة النظام الإسلامي ، أو الكتابة فيه تفادي هذ الأخطار الأربعة : من الزيادة فيه ، أو النقص منه ، أو التشويه له ، أو الإخلال بتوازنه .

فبناء على ما ذكر ينبغي أن يدرس نظام الإسلام على هذه الصورة :

أ - خالصًا مصفّى من الشوائب والفضول والزيادات التي ألصقت به على مر العصور ، ويجب العودة إلى نقاء الإسلام الأول المتمثل بالقرآن والسنة ، وسيرة الصحابة والسلف الصالح قبل أن تظهر الفرق وتطرأ البدع ، وتتفاقم الفتن ..

ب - شاملًا متكاملًا غير مبتور ولا مجزّأ ، ولا محذوف منه .. بعقائده وتصوّارته ، بشعائره وعباداته ، بأخلاقه وآدابه ، بنظمه وتشريعاته : الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والمدنية ، والجنائية .. مع وجوب الربط بينها ، وشدّها جميعًا إلى أصل أصولها ، وأسس بنائها وهو توحيد اللّه .

ج - سليمًا كاملًا ، مبرءًا من تشويه المشوّهِين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية للإسلام ، مع العناية بتوثيق الدليل ، وحسن التعديل ، والاهتمام بإبراز خصائص الإسلام : ربانيته ، شموليته ، عالميته ، وسطيّته ، توازنه ، واقعيته ..

د - متوازنًا منسقًا واضح التقاسيم ، محدّد المفاهيم ، مرتّب التعاليم ، بحيث يقدّم فيه الأهم على المهم ، والمهمّ على غير المهم ، وتوضع مبادئه وأحكامه في مراتبها الشرعية : العقيدة قبل العمل ، والعبادة قبل المعاملة ، والفرائض قبل النوافل ، والكبائر قبل الصغائر ، والأركان قبل غيرها .

وينبغي أن يُستفاد من كتابات المعاصرين من رجالات الفكر الإسلامي في أنحاء العالم الإسلامي ممن يُشهد لهم برسوخ العقيدة ، وسعة الأفق ، وعمق الفكر ،

وغزارة الثقافة ، والإخلاص للدعوة والإسلام .. وممن لم يتأثروا بالغزو الفكري ، وكتابات أعداء الإسلام من فَجَرَة المستشرقين والمستغربين ..

ونرشح لذلك بعض الكتب والكتّاب على سبيل المثال لا الحصر ، وإن كان كل بشر يؤخذ من كلامه ويُردُّ إلا المعصوم صلوات اللّه وسلامه عليه .

أولًا – في مجال العقيدة والأسس الفكرية :

1 – مبادئ الإسلام	أبو الأعلى المودودي
2 – العقائد الإسلامية	حسن البنا
3 – خصائص التصور الإسلامي	سيد قطب
4 – قصة الإيمان ..	نديم الجسر
5 – قصة الهداية	عبد اللّه علوان
6 – نظام الإسلام : العقيدة والعبادة	محمد المبارك
7 – الإسلام يتحدى	وحيد الدين خان
8 – اللّه جل جلاله	سعيد حوى
9 – الرسول ﷺ	سعيد حوى
10 – عقيدة المسلم	محمد الغزالي
11 – حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد
12 – الإيمان والحياة	يوسف القرضاوي
13 – اللّه يتجلّى في عصر العلم	نخبة من رجالات الفكر في العالم

ثانيًا – في مجال العبادة والشعائر :

1 – الأركان الأربعة	أبو الحسن الندوي
2 – العبادة في الإسلام	يوسف القرضاوي
3 – الصلاة وأسرارها وحكمتها ..	حسن الترابي

ثالثًا – في مجال الأخلاق والتربية :

1 – ربانية لا رهبانية	أبو الحسن الندوي

2 – خلق المسلم	محمد الغزالي
3 – دستور الأخلاق في الإسلام	محمد عبد الله دراز
4 – تربية الأولاد في الإسلام	عبد اللّه علوان
5 – السلوك الاجتماعي في الإسلام	حسن أيوب
6 – منهج التربية الإسلامية	محمد قطب

رابعًا – في مجال التشريع والنظام الاجتماعي :

1 – العدالة الاجتماعية في الإسلام	سيد قطب
2 – خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي	محمود أبو السعود
3 – منهاج الإسلام في الحكم	محمد أسد
4 – نظام الاقتصاد في الإسلام	محمد المبارك
5 – الاقتصاد الإسلامي مدخل ومنهاج	عيسى عبده إبراهيم
6 – المجتمع المتكافل في الإسلام	عبد العزيز الخياط
7 – التكافل الاجتماعي في الإسلام	عبد اللّه علوان
8 – تعدد الزوجات في الإسلام	عبد اللّه علوان
9 – نظام الرق في الإسلام	عبد اللّه علوان
10 – حرية الاعتقاد في الإسلام	عبد اللّه علوان
11 – اشتراكية الإسلام	مصطفى السباعي
12 – الفكر الإسلامي المعاصر	محمد البهي
13 – الثروة في ظل الإسلام	البهي الخولي
14 – فقه الزكاة	يوسف القرضاوي
15 – مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام	يوسف القرضاوي
16 – غير المسلمين في المجتمع الإسلامي	يوسف القرضاوي
17 – التشريع الجنائي الإسلامي	عبد القادر عودة
18 – أحكام الذميين والمستأمنين في الشريعة	عبد الكريم زيدان

19 – الفرد والدولة في شريعة الإسلام عبد الكريم زيدان

20 – المجتمع الإنساني في ظل الإسلام محمد أبو زهرة

21 – نظام الحكم في الإسلام محمد عبد اللّه المغربي

22 – نظرية الإسلام وهديه في السياسة والدستور ....أبو الأعلى المودودي

23 – الربا والاقتصاد الإسلامي أبو الأعلى المودودي

24 – الحجاب أبو الأعلى المودودي

25 – مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي حسن البنا

26 – الإسلام (أربعة أجزاء) سعيد حوى

27 – شريعة الإسلام يوسف القرضاوي

28 – حكم الإسلام في وسائل الإعلام عبد اللّه علوان

29 – عقبات الزواج وطرق معالجتها عبد اللّه علوان

30 – الأخوة الإسلامية عبد اللّه علوان

إلى غير ذلك من هذه الكتب الفكرية المتنوعة التي تبحث أنظمة الإسلام ومبادئه الشاملة ..

وعلى العموم أقترح عليك – أخي الداعية – أن تقرأ لمشاهير الكتّاب ، وأعلام الدعاة في العالم الإسلامي ، وإليك طائفة منهم على سبيل المثال لا الحصر :

1 – للإمام الشهيد حسن البنا

2 – الأستاذ الشهيد سيد قطب

3 – الأستاذ محمد قطب

4 – الأستاذ أبو الأعلى المودودي

5 – الأستاذ أبو الحسن الندوي

6 – الأستاذ علي الطنطاوي

7 – الأستاذ سعيد حوى

8 – الأستاذ فتحي يكن

9 – الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي

10 – الأستاذ المرحوم مصطفى السباعي

11 – الأستاذ يوسف القرضاوي

12 – الأستاذ يوسف العظم

13 – الأستاذ محمد البهي

14 – الأستاذ أنور الجندي

15 – الأستاذ حسن أيوب

16 – الأستاذ عبد الكريم زيدان

وعشرات غيرهم ممن لا يحضرني أسماؤهم .

لابد للداعية إذن أن يقف على أرض صلبة من دراسة العلوم الإسلامية ومصادرها وأصولها .. دراسة وعي وهضم وتذوّق ، ثم يستطيع أن ينفع بها ، وأن يُخْرِج منها شرابًا سائغًا مختلفًا ألوانه ، فيه شفاء للناس .

2 – الثقافة التاريخية

ومن الثقافة اللازمة لمن نصَّب نفسه للدعوة الثقافةُ التاريخية ، والاطلاع على وقائع التاريخ على حقيقتها ..

فالتاريخ هو ذاكرة البشرية ، وسجلّ أحداثها ، وديوان عبرها ، والشاهد العدل لها أو عليها ، ويهمنا في ذلك تاريخ الإسلام والأمة الإسلامية خاصة ، وتاريخ الإنسانية بصفة عامة ، أعني المواقف الحاسمة منه ، والملامح الرئيسية فيه ..

وإنما يحتاج الداعية إلى التاريخ :

● لأن التاريخ يوسع آفاقه في اطلاعه على أحوال الأمم ، وتاريخ الرجال .. فقد يرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنن اللّه في المجتمعات بلا محاباة ولا جور ؟ وكيف ترقى الأمم وتهبط ، وكيف تقوم الدول وتسقط ، وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم ، وكيف تحيا الحضارات وتموت ، وكيف ينجح القادة ويفشلون ، وكيف تنام القلوب وتصحو ...

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [1] .

● ولأن التاريخ أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم ، فهو مرآة مصقولة تتجلّى فيها عاقبة الإيمان والتقوى ، ونهاية الكفر والفجور ، وجزاء الشاكرين لأنعم اللّه ، وعقوبة الكافرين بها .. وكيف يجني من يغرس الخير ، ويحصد من يزرع الشوك ؛ ولذا عني القرآن الكريم بذكر قصص السابقين ، وتواريخ الغابرين ، لما فيها من عِبَر بليغة ، وعظات حية .. كما قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [2] .

وكثيرًا ما يعقّب القرآن على نهاية الأمم تعقيبات تُبرز ما وراءها من دروس وعِبَر ..

---

(1) سورة الحج الآية : 46 .
(2) سورة ق الآيتان : 36 - 37 .

مثل قوله بعد قصة ثمود : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [1] .

ويقول القرآن بعد قصة موسى عليه السلام وفرعون : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴾ [2] .

والداعية يحتاج إلى أن يستشهد للمعاني والقيم التي يدعو إليها بأحداث التاريخ ، ومواقف الأبطال ، وأحوال الأمم .. فهذا أعون على تثبيتها في العقول والقلوب ..

● ولأن التاريخ كثيرًا ما يعين على فهم الواقع الماثل ، ولا سيما إذا تماثلت الظروف ، وتشابهت الدوافع ، وهذا ما جعل العرب قديمًا يقولون : « ما أشبه الليلة بالبارحة » ، وجعل الغربيين يقولون : « التاريخ يعيد نفسه » ، بل القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى حين أشار إلى تشابه الأقوال عند تشابه البواعث .. وذلك في مثل قوله تعالى عن المشركين وطلبهم الآيات الكونية من رسول اللّه ﷺ كقولهم : ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ [3] ، فردّ اللّه عليهم حين طلبوا هذا الطلب الذي يُقصد منه التعجيز : ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [4] .

ونودّ أن ننبّه الداعية الذي يطالع التاريخ إلى الحقائق التالية :

أ – أن يستخرج المغزى الأخلاقي للتاريخ ، واتجاهات الأحداث فيه ، وحصادها الناطق بلسان الحال ؛ وأن يستنبط منه رؤوس العبر ، ومواقع العظمة .. لا أن يستكثر من الجزئيات ، ويُسهب بالتفصيلات والوقائع ..

ب – أن يكون ذا وعي يقظ للوقائع التاريخية التي تخدم موضوعه ، وتعمق فكرته ، وتقدم لها الشواهد الحيّة .. وليس من اللازم أن يجد هذه الوقائع في كتب التاريخ المتخصصة ، بل كثيرًا ما يلتقطها بحسه الواعي من مصادر قد لا يلتفت إليها كثيرًا رجال التاريخ ، فقد يلتقطها من القرآن الكريم فيما قصّ علينا من أخبار الأمم ، وقد يلتقطها من كتب الحديث والآثار .. وقد يلتقطها من بعض كتب الأحكام مثل كتاب « الخراج » لأبي يوسف ، وكتاب « الأموال » لأبي عبيد ، وقد يلتقطها من كتب الأدب ، أو كتب الحسبة ، أو كتب الرحلات ، أو كتب الفتاوى .. أو غيرها .

---

(1) سورة النمل الآيتان : 52 - 53 . (2) سورة الأعراف الآية : 137 . (3 ، 4) سورة البقرة الآية : 118 .

ج – أن يعني بسيَر الرجال ، ومواقف الأبطال ، وبخاصة العلماء ، والدعاة ، والمرشدون الربانيون ، والأئمة المجتهدون .. وفي تاريخنا ثروة من السّيَر تتمثل فيها الأسوة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، وتبرز الشخصية المسلمة مجسّدة في مواقف وأعمال .. كما نلمس ذلك في كتب الطبقات والتراجم ، ونجد ذلك في « وفيات الأعيان » و « طبقات ابن سعد » و « تهذيب التهذيب » و « حلية الأولياء » و « صفة الصفوة » ...

د – أن يهتم بربط الحوادث والوقائع بأسبابها وعللها المعنوية والأخلاقية ، فالذي يطالع تاريخنا الإسلامي بعمق ، ويتأمل سيره بدقة ، يجد أن المدّ والجزر ، والامتداد والانكماش والنصر والهزيمة ، والازدهار والذبول ، والغنى والفقر .. كلها ترتبط بمقدار صلة الأمة بالإسلام أو انفصالها عنه ، وقربها من تعاليمه أو بعدها عنها ، وحسبنا أن ننظر نظرة عَجلى إلى عصر الراشدين ، أو عصر عمر بن عبد العزيز ، أو عصر الرشيد ، أو عصر نور الدين وصلاح الدين .. لنرى تمسكًا بالدين أو رجعة إليه ، ونرى ثمارها عزًّا وازدهارًا ، والعكس بالعكس في عصور أخرى ..

هـ – أن يكون محور التاريخ الإسلامي هو الإسلام نفسه دعوة ورسالة ، وأثره في تربية الأجيال ، وتكوين الأمة المسلمة ، وإقامة الدولة الإسلامية ، وبناء الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، وتأثير الإسلام في العالم كله ، وقدرته على الانتشار عند القوة ، والمقاومة عند الضعف ، واستطاعته التأثير في الناس ليعتنقوه عن رضئ واختيار – كما تم ذلك مع السلاجقة والتّتار – واختزانه أيضًا كل أسباب الحيوية ، وطاقات القوة لإمداد أمة الإسلام بروح الجهاد ، وعنصر المقاومة .. لإثبات الذات ، واستعادة المجد ..

وينبغي للداعية أن يركز على الحقائق التاريخية التالية :

1 – يجب إبراز الجاهلية العالمية والعربية بكل أفكارها ، وتصوراتها ، ودعواتها وأساليبها .. بلا إفراط ولا تفريط .

ذلك أن النزعات التبشيرية ، والاستشراقية ... تريد أن تُلبس الجاهلية الحاضرة لبوسًا حسنًا ، مضخّمة ما كان لها من حسنات ، متغاضية عما عجّت به من مثالب ، وقد طرب لذلك القوميون ، وخصوصًا من العرب ، فحرصوا على عرض الجاهلية العربية مبرّأة من كل عيب .. كما يبدو ذلك في دراسة التاريخ والأدب ، وما سمي « المجتمع العربي » .. متجاهلين كل التجاهل ما كان عليه العرب قبل

الإسلام من فساد العقائد ، والأخلاق ، والأنظمة ، والتقاليد !! .

ورضي اللّه عن عمر الذي قال : « إنما تنقض عرا الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية » .. وهذا بشرط ألا يمسّ ذلك ما تميزت به أمة العرب ، ولغة العرب ، وأرض العرب .. من خصائص ومزايا رشحتها لحمل الرسالة الإسلامية الخالدة إلى الناس .. ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [1] .

2 – ينبغي الاهتمام بحركات الإصلاح والتجديد في تاريخ الإسلام ، وبرجال التجديد الذين يبعثهم اللّه بين حين وآخر ليجدّدوا لأمة الإسلام أمر دينها ، أيًّا كان لون هؤلاء الرجال واتجاههم ، فقد يكون منهم الخلفاء كعمر بن عبد العزيز ، أو السلاطين والأمراء كنور الدين الشهيد ، وصلاح الدين ، أو الفقهاء كأبي حنيفة والشافعي .. أو الدعاة والمصلحون كالغزالي ، وابن تيمية ، ومحمد بن عبد الوهاب ، وحسن البنا .. وقد يكون المجدّد فردًا ، أو جماعة ، أو مدرسة إصلاحية .. يبرز بها اتجاه في الإصلاح له سماته وخصائصه ..

3 – كما يجب الالتفات إلى دور الإسلام ورجاله وأثره في حركات المقاومة والتحرير التي ظهرت في العالم الإسلامي ، منذ وطئت أرضه جيوش الاستعمار ، فرغم المكر الصليبي ، ومحاولات التخدير والتضليل .. لم يسلم الاستعمار من المقاومة الباسلة في كل بلد دخله ، وأريقت الدماء ، وسقط الشهداء تلو الشهداء .. ولم تزل المقاومة على مر الزمن حتى كان التحرير ، وكان الإسلام وعلماؤه ودعاته .. وراء هذا الجهاد للاستعمار بريطانيًا كان أو فرنسيًا أو إيطاليًا أو أسبانيًا كأمثال الشيخ ابن باديس في الجزائر ، والشيخ عمر المختار في ليبيا ، والشيخ العربي الدرقاوي في المغرب ، والشيخ عز الدين القسّام في فلسطين .. ومئات غيرهم ، وقد شهد بذلك مؤرخون غربيّون مثل « برنارد لويس » في كتابه « الغرب والشرق الأوسط » .

وعلى الداعية أن يحذر في المجال التاريخي أمرين هامين :

● **الأول - أن يحذر الروايات التاريخية التي دُوّنت بلا تمحيص ولا تحقيق ..**

ليس كل ما تحويه كتب التاريخ صحيحًا مائة في المائة .. فكم حوت مراجع التاريخ من مبالغات وتشويهات وتحريفات تكذّبها الحقائق الثابتة بالاستقراء أو بالموازنة بالأدلة الناصعة في مصادر أخرى ؟!! .

(1) سورة الأنعام الآية : 124 .

وكم لعبت الأهواء والعصبيات السياسية والدينية والمذهبية دورها في كتابة التاريخ وفي رواية وقائعه ، وتلوين أحداثه ، وتصوير أبطاله مدحًا أو ذمًّا ، إيجابًا أو سلبًا ! وخصوصًا إذا علمنا أن التاريخ يكتبه عادة المنتصرون الغالبون ، والغَلَبة لها بريق وأضواء كثيرًا ما تغْشَى أعين المؤرخين عن سوءات الغالبين ، في حين تُضَخَّم أخطاء المغلوبين ، وتطمس فضائلهم عن قصد أو غفلة .

وإذا نظرنا إلى تاريخنا الإسلامي الذي يتعلق بأمثل عصور الإسلام وأفضلها وهو تاريخ العصور الأولى التي شهد لها الرسول ﷺ بالخيريّة ، والتي انتشر فيها الإسلام في الآفاق ، وانتشرت معه لغته وفقهه ، واتّسع فيها تعلّم كتابه ، وسنة نبيّه ، وهو تاريخ عصر الصحابة ومن تبعهم بإحسان .. إذا نظرنا إلى هذا التاريخ وجدناه قد ظُلم وشُوّه في كتب التاريخ أي ظلم وتشويه ؟!! ثم يجيء المعاصرون ليأخذوا من تلك الكتب بِعُجَرها وبُجَرها ، وبغثّها وسمينها .. ، ويقولون : نحن لم نَحِدْ عن الطريقة العلمية الموضوعية ، فمصدرنا فيما ننقل من نصوص تاريخية : الواقدي ، أو الطبري ، أو ابن الأثير .. نعزو فيما نأخذ إلى جزء كذا ، صفحة كذا ، طبعة كذا ..

هكذا يصنع المستشرقون ، وهكذا يفعل أساتذة التاريخ في الجامعات ، وهكذا يسير الذين يكتبون عن التاريخ ممن يريدون أن يشوّهوا تاريخنا الناصع ، ويطعنوا بعظمائنا الأفذاذ ..

كان لزامًا على علماء الإسلام ، ورجال الاختصاص ، وأهل التحقيق .. في كل زمان ومكان أن يكلفوا أنفسهم في البحث عن النصوص التاريخية ، والتحقّق من أسانيدها ، والعوامل السياسية التي أثّرت فيها .. ولا سيما المطاعن التي سدّدت لجيل الصحابة ومن تبعهم بإحسان ..

لنأخذ أهم هذه المصادر القديمة وأشهرها وهو : تاريخ الطبري .

لقد كانت الفكرة المهيمنة على الطبري عند كتابة تاريخه هي التجميع والتسجيل ، دون الانتقاء أو التمحيص للأسانيد أو الوقائع المرويّة ؛ فمن كان عنده خبر ذوبال نقله عنه ، ودوّنه منسوبًا إليه ، وإن كان راوي الخبر من الضعفاء أو المتهمين أو المتروكين .. وإنما دفعه إلى ذلك حب الاستقصاء ، والخوف من أن يفوته بإهماله شيء من العلم ولو من بعض النواحي ..

هذا عذر الطبري .. **وله أيضًا عذران آخران :**

أولهما : أنه يروي الحوادث بسندها إلى مَنْ رواها ، ويرى أنه إذا ذكر السند فقد

بريءٌ من المسؤولية ، ووضعها على عاتق مَنْ روى ، وقد قيل : « من أسند فقد حمّل » أي حمّلك البحث في سنده ، وكان هذا مقبولًا في زمنه حيث يستطيع العلماء أن يعرفوا رجال السند ، ويحكموا لهم أو عليهم .

ومن هنا قال الطبري في مقدمة تاريخه : (.. فما كان في كتابي هذا مما يستنكره قارئه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة ، ولا معنىً في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يُؤْتَ ذلك مِنْ قِبَلنا ، وإنما أُتي من قِبَل بعض ناقلة إلينا ، وإنما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا ..) .

وبهذا حمّل الطبري رواته التبعة ، وحمّل بالتالي دارس كتابه أن يفتش عنهم في كتب الرجال ومصادر الجرح والتعديل .. ليعلم – بعد الدراسة – مَنْ هو موثوق ، ومن هو مضعّف ، ومن هو متروك .

فممن روى عنهم الطبري مثلًا : الواقدي كذّبه جماعة من أئمة الحديث ، مَنْ قَبِله لم يقبله بإطلاق .

وكذلك روى عن هشام بن محمد الكلبي وأبيه ، وهما متهمان بالكذب .

وأيضًا روى عن سيف بن عمر التميمي الذي كان يضع الحديث ، ويروي الموضوعات عن الأثبات ، اتُّهم بالزندقة ، وضعّفه غير واحد .

وغير هؤلاء كثيرون من المجروحين المتروكين عند أئمة الجرح والتعديل من علماء الحديث ، وإن كان رجال التاريخ والأخبار يروُون عنهم ، ويستندون إليهم .

ومن أجل هذا لا يقيم المحققون وزنًا لروايات « الإخباريين » ، ولا يعتمدون عليها ، ويعيبون من ينقل عنها في كتب العلم المعتبرة ؛ ولهذا نجد الإمام النووي يقول في كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر النمري : (إنه من أحسن الكتب المؤلفة في الصحابة وأكثرها فوائد لولا ما شانه بذكر ما شَجر بين الصحابة ، وحكايته عن الإخباريين) .

والعذر الثاني : للطبري في عدم تمحيص ما رواه في تاريخه : أن الموضوع في التاريخ لا يترتب عليه حكم شرعي من تحليل ، أو تحريم ، أو إيجاب ، أو غير ذلك .. مما يتعلق به علم الفقه ، كما أنه لا يتصل ببيان كلام الله أو كلام رسوله كما في علم التفسير أو علم الحديث ..

ولا غرو أن وجدنا الطبري الذي كان إمامًا جليل القدر في التفسير والحديث والفقه .. يدقق ويحقق فيما يتصل بهذه العلوم المذكورة ، ولكنه يترخّص ويتساهل في أمر التاريخ ، قائلًا في تسويغ ذلك : (إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج) ويقصد الاحتجاج بالأحكام الشرعية .

وغفر اللّه للإمام الطبري ، فإن هذا التساهل شوّه تاريخ فجر الإسلام ، وأساء إلى موضوعية التحقيق والمناهج العلمية ، وفتح باب الاعتذار نفسه لمن بعده ، فأخذوا عنه كما أخذ عمّن قبله ، وأدّوا إلى مَنْ بعدهم كما أدّى هو إليهم .. ومن ثم نرى أن ابن الأثير ، وأبا الفداء (ابن كثير) وغيرهم ، يعتمدون على الطبري ، ثم جاء المعاصرون والمستشرقون وبعض الذين في قلوبهم مرض .. فاعتمدوا على هؤلاء ، واعتبروا ذلك علمًا وتحقيقًا ومنهجًا علميًا موضوعيًا !! ولا عجب أن قام فقيه كبير ، وإمام جليل في القرن السادس الهجري هو القاضي « أبو بكر بن العربي » بالدفاع عن الصحابة ، وتحقيق مواقفهم بعد وفاة الرسول ﷺ تحقيقًا علميًا موضوعيًا ، وذلك في كتابه القيم : « **العواصم من القواصم** » الذي أخرج الجزء الخاص منه بالصحابة وحققه وعلّق عليه بإفاضة : العلامة المحقق : الأستاذ محب الدين الخطيب رحمه اللّه ، وجزاهما عن الإسلام خيرًا ، وإن خير ما كُتب فيما وقع بين الصحابة من مشكلات ، وما ذكر عنهم من تحقيقات كتاب « **معاوية بن أبي سفيان** » – رضي اللّه عنه – للكاتب المحقق العالم الأستاذ « منير الغضبان » حفظه اللّه ، وكذلك كتاب « **الدولة الأموية** » للأستاذ المحقق « يوسف العش » .

● **الثاني - على الداعية أن يحذر التفسيرات المشوّهة للتاريخ من قِبل أعداء الإسلام ..**

في عصرنا اليوم الذي هو عصر الأهواء والعصبيات والتيارات الفكرية يتعرض تاريخنا الإسلامي لتفسيرات مشوّهة مغرضة من قِبل أناس قلبوا الحقائق ، وحرّفوا الكَلِمَ عن مواضعه ، وإليك – أخي الداعية – نماذج من هذا القلب والتشويه :

فالمستشرقون والمبشرون .. حين يبحثون في التاريخ يخدمون به فكرة بيّتوها عن محمد ﷺ ودينه وأصحابه ، فمحمد عند هؤلاء ليس برسول اللّه ، والإسلام ليس بدين اللّه ، وأصحابه ليسوا إلا عصابات من المغامرين المتنافسين على الدنيا ، المتعطشين لإراقة الدماء ، المكرهين الأمَمَ بالقوة على الإسلام .. لا يعتقدون بدين سوى

اليهودية والنصرانية ، أما الإسلام في زعمهم نسخة محرّفة منهما ، وتعليم بشر ، حتى الحضارة الإسلامية فإنها طبق الأصل عن حضارة اليونان والرومان .. ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ .

وفي سبيل هذا يغفلون أحداثًا قيّمة ، ويضخّمون أحداثًا تافهة ، ويعتمدون أخبارًا ضعيفة أو مكذوبة ، يتصيّدونها من أي كتاب ، ولو كان كتاب « الأغاني » للأصفهاني .

ويوجهون هذا كلّه توجيهًا مغْرضًا مسمومًا يؤيد اعتقادهم السابق عن الإسلام وكتابه ورسوله وأصحابه وأمته .. كأمثال المبشرين : جرجي زيدان ، وفيليب حتي ، وسلاَمة موسى ..

والماركسيون الشيوعيون .. يفسرون التاريخ – وفقًا لفلسفتهم المعروفة – تفسيرًا ماديًّا طَبقيًّا ، ويحاولون أن يطبقوا ذلك على نشأة الإسلام وظهوره ، ويسفُّون في ذلك غاية الإسفاف ، ويحمّلون الوقائع والأحداث ما لا تحتمل ، ويقسّمون الصحابة – رضي اللّه عنهم – إلى يمين ويسار ، ويديرون صراعًا موهومًا بينهم ..

وكثيرٌ من كتّاب المسلمين أنفسهم – ويالَلأسف – يخلعون على حوادث التاريخ ، ومواقف رجاله ما عرفوه وخبروه من ألاعيب السياسة ، ومواقف رجالها في هذا .. ويتخيّلون العلاقة بين عمر وخالد ، أو بين عثمان وعلي ، أو بين علي ومعاوية وطلحة والزبير .. رضي اللّه عنهم جميعًا من أمثال العلاقة بين الطامحين والطامعين من رجالات الأحزاب ، وتجّار السياسة في عصرنا ، ويفسّرون المواقف والأحداث تبعًا لهذا التصوّر الظالم ، والمتجنّي على هذا الجيل المثالي الذي لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله بل عقمت أم التاريخ أن تلد جيلًا مثل هؤلاء !! .

والقوميون من العرب .. يوجهون التاريخ الإسلامي كلّه وجهة قومية بحتة ، فالإسلام في نظرهم انتفاضة عربية أو وثبة من وثبات العبقرية .. ورسول الإسلام صلوات اللّه وسلامه عليه بطل قومي ، جادت به أمة العرب على الإنسانية !! ..

فمن الطبيعي بعد هذا التفسير المشوّه للتاريخ أن يغدو أبطال الإسلام ، وعلماؤه ، ورجالاته الكبار على مدار الزمن في نظر هؤلاء أبطالاً عربًا ، وأن تُسَمّى الحضارة الإسلامية أيضًا « حضارة عربية » ..

وذلك لقطع الصلة بين العرب وبين الإسلام .. علمًا بأنه لولا الإسلام لما كان للمسلمين في التاريخ بطولات ولا حضارة ولا أمجاد .. ورحم اللّه الفاروق عمر أمير المؤمنين القائل فيما رواه الحاكم : (نحن قوم أعزنا اللّه بالإسلام ، فمهما ابتغينا

العزة بغير ما أعزنا اللّه به أَذَلَّنا اللّه) .

فعلى الداعية أن يحذر مثل هذه التشويهات والتفسيرات للتاريخ الإسلامي ، بل عليه أن يُحذِّر الجيل المسلم من أن يقعوا في شراكها ، ويتأثروا بمفاهيمها ..

* * *

3 – الثقافة اللغوية والأدبية

وإذا كانت الثقافة الإسلامية لازمة للداعية في الدرجة الأولى ، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك ؛ لكونها مقومة للسان ، مُحسّنة للتعبير ، محبّبة للسامع ..

● **واللغة بمفرداتها ونحوها وصرفها** لازمة لسلامة اللسان ، وصحة الأداء ، وجودة التعبير .. فضلًا عن حسن أثرها في السامع ، فالأخطاء اللغوية – إن لم تُحَرِّف المعنى ، وتشوّه المراد – يمجّها الطبع ، وينفر منها السمع ..

وانظر – أخي الداعية – كم يقشعرّ جلدك ، ويتأذّى سمعك حين تسمع داعية ينصب المرفوع ، ويرفع المنصوب ، ولا يفرّق بين الفاعل والمفعول .. فلا يكاد يُنهي كلمة من كلماته إلا أصابك ذهول ووهلة ، أو لطمك – ولطم الخليل وسيبويه معك – لطمة أيَّ لطمة !! ..

وشر ما يكون ذلك إذا كان اللحن في كتاب اللّه تعالى ، أو سنّة رسوله ﷺ .

مثال ذلك : ذكر القرطبي في تفسير الآية الثالثة من سورة براءة أن أعرابيًا قدم المدينة المنوّرة فقال : من يُقرئني مما أنزل على محمد ﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [1] فقرأها عليه بالجر « رسولِه » ، فقال أيضًا أبرأ من رسوله !! فاستعظم الناس الأمر وبلغ عمر – رضي اللّه عنه – فدعاه فقال : يا أعرابي أتبرأ من رسول اللّه ﷺ ؟ فقال يا أمير المؤمنين : قدمتُ المدينة فأقرأني رجل سورة براءة ، فقلت : إن يكن اللّه بريئًا من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر : ما هكذا الآية يا أعرابي قال : فكيف يا أمير المؤمنين ؟! فقرأها عليه بالضم « ورسولُه » ، فقال الأعرابي : وأنا واللّه أبرأ مما برئ اللّه ورسوله منه ، فأمر عمر ألا يُقرئ الناس إلا عالم بلغة العرب .

● **والأدب بشعره ونثره وأمثاله وحِكمه ووصاياه وخطبه** .. مهم جدًّا للداعية ؛ يثقف به لسانه ، ويجوّد أسلوبه ، ويرهف حسّه ، ويوقفه على أبواب من العبارات الرائقة ، والأساليب

---

(1) سورة التوبة الآية : 3 .

الفائقة ، والصور المعبّرة ، والأمثال السائرة ، والحكم البالغة ، ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التي يستخدمها الداعية في محلّها فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه .. وفي طليعة ذلك القرآن الكريم المعجز للبشر في أسلوبه وبيانه ، وكذلك السنة النبوية التي تحاكي إعجاز القرآن الكريم في جمال تعبيرها وبلاغتها ..

ومما يؤكد هذه المعاني الشواهد التالية :

جاء في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود : « إن من البيان لسحرًا ، وإن من الشعر لحكمة » .

وسمع النبي ﷺ الشعر من أكثر من شاعر ، واستجاده واستزاد منه ، وكان من أصحابه شعراء معروفون مثل : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد اللّه بن رواحة .. رضي اللّه عنهم ، وأذن لحسان – رضي اللّه عنه – أن يذود عن الإسلام بلسانه وشعره ، ويردّ عن رسول اللّه ﷺ هجو شعراء قريش ، وكان يقول له : « اهجُهم وروح القدُس معك ، إن كلامك أشدّ عليهم من وقع النبْل » .

وروى مؤرخو الأدب كثيرًا من الشعر للخلفاء الراشدين ، وخصوصًا لعليّ كرّم اللّه وجهه ، فقد روي عنه كثير من الشعر الجيد البليغ ، كما رووا أيضًا لكثير غيرهم .

ومن لم يقل الشعر منهم فقد رواه ورغّب في روايته :

فعن عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه – قال : (علّموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل ، وروّوهم ما جمل من الشعر) . وقالت عائشة رضي الله عنها : (روُّوا أولادكم الشعر ؛ تعذب ألسنتهم) .

وقال المقداد بن الأسود : (ما كنتُ أعلم أحدًا من أصحاب رسول اللّه ﷺ أعلم بشعر ولا فريضة (علم المواريث) من عائشة رضي اللّه عنها) .

وكان عبد اللّه بن عباس – رضي اللّه عنهما – من أروى الناس للشعر ، حتى حكوا أنه كان يحفظ رائية عمر بن ربيعة ، وكان يستند إلى الشعر في تفسيره للقرآن ، كما يعرف ذلك من محاورته لنافع بن الأزرق .

ويروى أن زيادًا بعث بولده إلى معاوية – رضي اللّه عنه – فكاشفه عن فنون من العلم ، فوجده عالمًا بكل ما سأل عنه ، ثم استنشده الشعر فقال : لم أرْوِ منه شيئًا ، فكتب معاوية إلى زياد يقول له : ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فواللّه إن كان العاقّ

ليرويه فيبرّ ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل ...

وهذا يدلنا على مقدار ما للأدب عامة ، وللشعر خاصة من تأثير في النفس البشرية ، كما يدلنا على أن العناية بالأدب ، والتضلّع منه ، والاطلاع على مصادره ، والحرص على ترديد فوائده ، والاستفادة منها عند الحاجة أمر لازم للداعية الناجح الموفق .

ولنضرب على ذلك مثلًا :

هب أنك تتحدث إلى الناس عن حقوق القرابة ، وصلة الرحم ، وذكرت من الشواهد ما تيسّر من الكتاب والسنة ، أفلا يكون مما يوسّع أفق حديثك ، ويزيده تأثيرًا على تأثير أن تذكر بعض ما حفلت به كتب الأدب في ذلك من شعر ونثر ..

فمن ذلك : قول علي رضي اللّه عنه : (أكرم عشيرتك ؛ فإنهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير) .

ومن ذلك : قول طرفة في معلّقته :

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهنّد

وقول الآخر :

أخاك أخاك إن مَنْ لا أخًا له   كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه   وهل ينهض البازي بغير جناح ؟

وقول الحماس :

وإن الذي بيني وبين بني أبي   وبين بني عمي لمختلف جدًّا

إذا أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم   وإن هدموا مجدي بنيتُ لهم مجدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهمو   وليس كبير القوم مَنْ يحمل الحقدا

وقول الآخر :

قومي همو قتلوا أُمَيْمَ أخي   فإذا رميتُ يصيبني سهمي

فلئن عفوتُ لأعفَون جَلَلا   ولئن رميتُ لأُوهنن عظمي

حتى الطرائف والمُلَح الأدبية يجد الداعية الموفق لها مكانها ووقتها ، فينتفع بها ، ليثبت بها معنى معينًا ، أو ليروّح بها عن سامعيه .. كما قيل : (إن القلوب تملّ كما

تملّ الأبدان ، فابتغُوا لها طرائف الحكمة) .

وكثيرًا ما استعار أهل المحبة للّه أشعار المدح والثناء .. فاستعملوها في أغراضها الربانية ، ولم يلتفتوا إلى المناسبة التي قيل بها الشعر ..

وقد أنشأ أبو فراس الحمداني أبياتًا من قصيدة يخاطب بها أميره وابن عمه سيف الدولة ، فنقلها الصالحون إلى مخاطبة الحقّ جلّ جلاله ، وهي قوله :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الودّ فالكل هينٌ وكل الذي فوق التراب تُراب

ولكن على الداعية أن يتجنّب أشعار الفُحش ، وطرائف الغيبة ، ومُلَح التعريض بالناس ؛ حتى لا يقع في مخالفات شرعية ، أو يثير في النفوس أحقادًا نفسية ، أو يسبّب في الأمة انقسامات اجتماعية ..

* * *

4 – الثقافة الإنسانية

ونعني بها أن يلّم الداعية إلمامًا مناسبًا بأصول ما يُعرف الآن باسم « العلوم الإنسانية » مثل : علم النفس وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وعلم الفلسفة ، وعلم الأخلاق ، وعلم التربية ، وعلم الجغرافيا ..

وإنما أوصينا الداعية بالإلمام بهذه العلوم لعدة أسباب :

● لأن موضوعها له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة ، أو قل : إن موضوعهما واحد وهو الإنسان : الإنسان في الماضي أو الحاضر ، الإنسان فردًا أو مجتمعًا ، الإنسان ريفيًا أو متحضرًا ، الإنسان أميًا أو متعلمًا ، الإنسان مفكرًا أو مقلدًا ، الإنسان حيث كان وكيف يكون .

● ولأن الإلمام بهذه العلوم يعين على فهم الناس ، وبخاصة الذين تثقفوا بهذه العلوم ، وأصبحت جزءًا من تكوينهم الفكري ، وإعدادهم الثقافي .. والداعية مأمور شرعًا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأن يبيّن لهم بلسان ثقافتهم ؛ ليفهموا عنه ، ولا يستطيع ذلك ما لم يكن بينه وبينهم قاسم مشترك من الثقافة ، يقرّب المسافة ، ويزيل الفجوة العقلية والنفسية بين عالم الدين والمثقفين بالعلوم الحديثة .

● ولأن لهذه العلوم في كثير من الأحيان رشحات ضارة على الثقافة المعاصرة ، وسموما تنفثها في شتى المجالات ، لا يكاد يسلم منها كتاب أو مجلة أو صحيفة أو إذاعة أو غيرها ، ومن لم يعرف مصادر هذه الرشحات والسموم لم يستطع أن يقاومها بأسلوب علميّ رصين بل لعلها – في بعض الأحيان – تتسلّل إلى نفسه ، وتؤثر في فكره وقلبه ولسانه وهو لا يشعر ، ولهذا قيل : عرفت الشر لا للشر لكن لتوقّيه ..

والإمام الغزالي – رحمه اللّه – الذي سُمّي بحجة الإسلام لو لم يكن عارفًا بالفلسفة الإغريقية ، والفلسفة اليونانية ، وغيرهما من الفلسفات التي سادت في عصره .. ولو لم يكن مطلعًا على سموم هذه الفلسفات وتأثيرها على الفكر الإسلامي وقتئذٍ ، لما أخرج لنا كتابه « تهافت الفلاسفة » الذي ردّ فيه على كثير من مفاهيم الفلسفة الباطلة التي أثرت ببعض المسلمين .

وإليكم هذا المثل فيما يستفيده الداعية من دراسة هذه العلوم :

حينما يقف الداعية ليتحدث إلى الناس عن موضوع « أثر التدين في بناء الأمم » مثلًا ، يمكن أن يستشهد بما قام به علماء النفس المحدثون من تجارب نفسية في بناء الشخصية الإنسانية على أساس التدين والإيمان .

من هذه الشواهد : ما سجله الطبيب النفسي الأمريكي الكبير المشهور الدكتور « هنري لنك » في كتابه « العودة إلى الإيمان » ، وقد طبع كتابه إلى ما قبل سنوات (47) مرة في أمريكا ، وقد أجرى أكثر من (ثلاثة وسبعين ألف) اختبار نفسي على عشرة آلاف نفس ، خرج منها بنتيجة هامة هي : (أن كل من يعتنق دينًا ، أو يتردّد على دار العبادة ، يتمتع بشخصية أقوى ، وهو أفضل ممن لا دين له ، ولا يزاول أية عبادة ..) .

ومن هذه الشواهد أيضًا : ما قرره الدكتور « كارل لونج » في كتابه « الرجل العصري يبحث عن روح » : « إنه لم يجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر ، لا ترجع في أساسها إلا عن افتقاد الإيمان ، والخروج على تعاليم الدين ، ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه ، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة .. » .

ويستطيع الداعية بعد هذه الاستشهادات العلمية ، والتجارب الواقعية .. أن يردّ على الذين يزعمون أن الدين أفيون الشعوب ، مخدّر للشخصية الإنسانية ..

ومما يدعم هذا : ما قاله الفيلسوف الأمريكي الشهير « وليم جيمس » : « إن

أعظم علاج للقلق هو الإيمان حقًّا ولا شك » .

ومن المؤيدات : ما نقله « ديل كارينجي » عن الدكتور « أ ، أ ، بريل » قوله : « إن المرء المتدين حقًّا لا يعاني مرضًا نفسيًّا قط » .

ويعقّب على ذلك « كارينجي » نفسه بقوله : « وعندي أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظًا من نوع جديد ، فهم لا يحضوننا على الاستمساك بالدين توقّيًا لعذاب الجحيم في الدار الآخرة فحسب ، وإنما يوصوننا بالدين توقيًا للجحيم المنصوب في هذه الدنيا : جحيم قرحات المعدة ، والانهيار العصبي ، والجنون ، والانتحار ... » .

* * *

وأريد في هذا المجال – أخي الداعية – أن أقف قليلًا عند **علم الفلسفة** :

إن الداعية الواعي حين يلمّ بالفلسفة واتجاهاتها المادية والروحية ، والوضعية والمثالية ، وبتاريخ الفكر الإنساني عامة والإسلامي خاصة يفيد من وراء دراستها جوانب عدة **أذكر لك أهمّها** :

● أن يتمكن من فهم الأفكار والفلسفات التي غزت كثيرًا من عقول أبناء المسلمين اليوم ، وأصبح لها دعاة وعلماء ومروّجون في قلب ديار الإسلام من أساتذة الجامعات ، ورجال الأدب ، والثقافة ، والإعلام .. فهذا تقدمي ، وآخر ماركسي ، وثالث وجودي ، ورابع لا منتمي .. إلى غير ذلك من المدارس الغربية أو الشرقية ، الواقعية أو المثالية ، اليمينية أو اليسارية .. تختلف اتجاهاتها وتتفق على محاربة الإسلام .. فهذه المدارس لا نستطيع مقاومتها فكريًّا ما لم نحسن فهمها وتصوّرها ودراستها .. وقديمًا قال أهل النظر : « الحكم على الشيء فرع من تصوّره » .

● أن يتمكن من الردّ على الفكر المخالف للإسلام بسلاح الفكر نفسه ؛ لأن الردّ على المخالفين بأدلة القرآن والحديث لا يصلح لهؤلاء ؛ إذ هم لا يؤمنون بهما .

وهذا ما فعله الإمام الغزالي – رحمه الله – في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابيه : « نقد المنطق » و « درء تعارض العقل والنقل » .. ولولا هضم هذين الإمامين للأفكار الفلسفية في عصرهما ما استطاعا نقضها من القواعد .

وهذا ما يجب أن يصنعه كل داعية للإسلام مع الأفكار الوافدة الهدّامة .

● أن يعرف – بدراسة تاريخ الفكر – الأصول والمنابع لكثير من التيارات الفلسفية ،

والمذاهب الفكرية الحديثة كالمادية ، والشيوعية ، والوجودية .. وهذا يعين الأخ الداعية على تقويمها ونقدها نقدًا علميًا مستوعبًا ، كما يعرف الجذور التاريخية لكثير من التحريفات التي دخلت على الأديان الكتابية ذاتها كما يتضح ذلك من فكرة التثليث ، والصلب ، والفداء ، والبنوّة للّه ، وإلى ذلك يشير القرآن بقوله في أهل الكتاب : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ .. ﴾ [1] .

● – أن ينتفع بما يجده من نتاج العقل ، وثمار الحكمة ، مؤيدًا لما معه من حق خالص جاء به الوحي ، وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه : « الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها » [2] .

ولا عجب أن يتفق العقل والنقل ، ويتعانق الدين والفلسفة ، ويلتقي نور الفطرة بنور الوحي الصادق .. بل الواجب أن يلتقي العقل الصريح ، والنقل الصحيح لا محالة ؛ لأن كليهما من آثار رحمة اللّه بعباده ، وبرّه بهم ، ونعمته عليهم ، وآثاره تعالى لا تتناقض ، فإن بدا لنا شيء من التناقض بين العقل والنقل ، فلابدّ أن يكون النقل غير صحيح ، أو العقل غير صريح ، وهذا ما وضّحه وبرهن عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه الآنفة الذكر .

ولاشك إنه حين يكتب عن أصول الفلسفة وتاريخها ، ومشكلاتها الكبرى ، وتياراتها المعاصرة .. مختصّون إسلاميون تتميز هذه الفلسفة بالنضج والأصالة ، والإيمان العميق بما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق ، وتتحرّر من سيطرة أي غزو فكريّ دخيل ، بل تظهر الحقائق بأجلى صورها ومعانيها [3] .

* * *

أما عن علمي التربية والأخلاق : فهما من العلوم الإنسانية التي ينبغي للداعية أن يلّم بهما وتختص **فلسفة الأخلاق** بالبحث عن الخير والشر كما هو معلوم .

ومن الكتب النافعة في علم الأخلاق :

---

(1) سورة التوبة الآية : 30 .　　(2) الترمذي (26878) وابن ماجه (4162) .

(3) من أفضل ما كتب في ذلك : « الدين » للدكتور محمد عبد اللّه دراز : « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » « الفكر الإسلامي الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربي » « تهافت الفكر المادّي التاريخي » هذه الكتب كلها للدكتور محمد البهي ، « قصة الإيمان بين العلم والفلسفة » للشيخ نديم الجسر ؛ « التفكير الفلسفي في الإسلام » « الإسلام والعقل » للدكتور عبد الحليم محمود ؛ « نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام » « ومناهج البحث عند مفكري الإسلام » علي سامي النشار .

« الفلسفة الخُلقية » للدكتور توفيق الطويل .

« المشكلة الأخلاقية والفلاسفة » ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ أبو بكر هلال .

« مباحث في فلسفة الأخلاق » للدكتور محمد يوسف موسى .

« كلمات في مبادئ علم الأخلاق » للدكتور عبد اللّه دراز .

« تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه .

« دستور الأخلاق في القرآن » للشيخ الدكتور محمد عبد اللّه دراز .

ولابد للداعية أيضًا من الاستفادة **بعلوم التربية** ، وخبرات المربين ، وتجاربهم العديدة المتنوعة في مجالات تعليم الكبار والصغار ، والانتفاع من أصول التربية وطرائقها في حسن توجيه المخاطبين ، وإيصال المعرفة إليهم ، وكيف يمكن التأثير في عقولهم وعواطفهم ، وإثارة حوافز الخير في نفوسهم ، ومطاردة نوازع الشرّ بين جنوبهم ، مع وجوب الاحتراز من النزعات الهدّامة ، والشطحات المتطرفة في الفلسفات التربوية الحديثة والمعاصرة .. والاستفادة أيضًا بما سطرته الأقلام الإسلامية ، وأبرزته في كل مجال من مجالات التربية ، ومن الكتب النافعة في هذا الباب :

« فلسفة التربية الإسلامية » للدكتور عمر التومي الشيباني .

« في أصول التربية الإسلامية » للدكتور عبد الغني عبود .

« من الأصول التربوية في الإسلام » للدكتور عبد الفتاح جلال .

« منهج القرآن في التربية » للأستاذ محمد شديد .

« منهج التربية الإسلامية » للأستاذ محمد قطب .

« نحو التربية الإسلامية » للأستاذ أبي الحسن الندوي .

« تربية الأولاد في الإسلام » للشيخ عبد اللّه ناصح علوان .

* * *

5 – الثقافة العلمية

نعني بكلمة « العلم » مفهومها الشائع : ما قام على الملاحظة والتجربة ، وخضع للقياس والاختبار ، أو بعبارة أوضح : ما كان تحت نطاق الحسّ ، وتجارب المخبر ، مثل : علوم الفيزياء ، والكيمياء ، والأحياء ، والفلك ، والطب ، والتشريع ، وغيرها .

ولا نريد للداعية أن يتعمق في دراسة هذه العلوم ، فإن هذا غير مقدور عليه ، والعمر لا يتسع ، والطاقة لا تحتمل ، والمعارف لا تنتهي ..

إنما نريد أن يطالع بعض الكتب الميسرة منها ، مما يعدّ لغير المتخصصين ؛ ولابد أنه درس طرفًا من هذه العلوم في المرحلتين : الإعدادية ، والثانوية دراسة تمكنه من متابعة الفكر العلمي ولو بقدر فيما بعد .

والثقافة العلمية – أخي الداعية – **مهمة في عصرنا للمثقفين عامة ، وللدعاة خاصة ، وذلك لعدة أسباب :**

أ – إنها مهمة لفهم الحياة المعاصرة ، وقد أصبح العلم شريانها ، والمحرّك لكثير من أمورها ، فما من بيت إلا دخلته آثار العلم الحديث من كهرباء ، وأجهزة ، وأدوات .. حتى بيوت العبادة ، ولا يحسن بالداعية أن يعيش في دنيا يسيّرها العلم ، ويدير رحاها ، ولا يدرك الأوّليات والأساسيات لهذا العلم .

ب – إن بعض ما يعزى إلى العلم يتخذ وسيلة للتشكيك في الدين مثل : « نظرية النشوء والارتقاء » في الكائنات الحيّة التي تعرف بنظرية التطور « لدارون » وغيره ، فلابد من معرفة الأدلة العلمية في الردّ على هذه النظرية حتى يستطيع الداعية أن يبيّن للناس حقيقتها ، وأدلّة بطلانها علميًا ، فلا يتأثر أحد بالدعايات الكاذبة [1] .

ج – إن من الحقائق العلمية ما يمكن للداعية استخدامه في تأييد الدين ، وتوضيح مفاهيمه ، ونصر قضاياه ، والذبّ عنه ، بدفع شبهات خصومه ، ومفتريات أعدائه ..

كيف يستخدم العلم في تأييد الدين ؟

1 – عن طريق العلم يضع الداعية النقاط على الحروف في الظواهر التي تدلّ على اللّه لمواجهه الماديين والملاحدة ، فيقيم الأدلّة ، ويدحض الشبهات بوساطة فروع العلم المتنوّعة : من رياضيات ، وفلك ، وفيزياء ، وكيمياء ، وأحياء ، وطبّ وغيرها .

كالاستشهاد بحقائق علمية أوردها « كريسي موريسون » في كتابه « العلم يدعو إلى الإيمان » ؛ وأوردها ثلاثون عالمًا أمريكيًا في كتاب « اللّه يتجلى في عصر العلم » ؛ وأوردها الدكتور « أحمد زكي » في كتابه « مع اللّه في السماء » ؛ وأوردها

---

(1) ارجع إلى كتابنا « شبهات وردود » تجد فيه ما يشفي الغليل في الرد على النظرية دينيًا وعلميًا .

الشيخ « سعيد حوّى » في كتابه « اللّه جل جلاله » ؛ وأوردها الدكتور « خالص كنجو » في كتابه « الطب محراب الإيمان » .. وكتب كثيرة غيرها .

2 - عن طريق العلم يستطيع أن يؤيد الداعية كثيرًا من الأحكام الشرعية ، ببيان ما اشتملت عليه من جلب المصالح للناس ، ودرء المفاسد عنهم .. وبذلك يزداد الذين آمنوا إيمانًا ، ويتثبّت المرتابون إن حصل لهم شكٌّ في كمال الشريعة ، وصلاحيتها للزمن .

فمثلًا يستطيع علم الطب أن يعطينا صورة واضحة لما تجنيه « أمّ الخبائث الخمر » على شاربها من أضرار جسمية ، ونفسيّة ، وعقلية .. على الفرد والمجتمع .. ومثل ذلك : المخدّرات ، والتدخين ، وأكل لحم الخنزير ، والزنى ...

وكذلك يستطيع علم الأحياء ، ووظائف الأعضاء ، وعلم الطبّ ، وغيره ، أن يبين لنا حقيقة الفوارق الفطرية بين الذكر والأنثى ، وأن هذا التفاوت لم يكن عبثًا ، وأنه من الخير لكلا الجنسين ، وللجماعة كلها .. أن يكون لكل منهما عمله الذي يتناسب مع حدود استطاعته ، وقابليّة فطرته [1] .. وبهذا يتلاقى منطق العلم مع منطق الدين الذي هو منطق الفطرة السليمة .

3 - وثمّة مجال آخر يمكننا فيه استخدام حقائق العلم الحديث لتأييد حقائق الدين ، وذلك بتعميق مدلولات بعض النصوص ، وتوسيع نطاق مفهومها ، وزيادة توضيحها :

- فإذا قال القرآن الكريم عن النحل : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [2] يستطيع عالم الأحياء ، أو الطبّ ، أو الأغذية .. أن يحدثنا بسعة عن عسل النحل وألوانه ، وما فيه من شفاء ، وفيم يكون ؟ وكيف يكون ؟

- وإذا قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [3] .

أو قال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [4] .

أمكن للعلم هنا بشتى فروعه أن يفيض في بيان دقة التقدير في كلّ ما خلق اللّه في الكون : فحجم الكرة الأرضية ، وبُعدها عن الشمس بمسافة محدودة ، ودورانها

(1) إن من ألّف في تبيان هذه الفوارق : الدكتور « ألكسيس كاريل » في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » ، وكذلك الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « المرأة في القرآن الكريم » ، وأيضًا الدكتور « محمد علي البار » في كتابه « عمل المرأة في الميزان » .. فارجع إليهم أخي الداعية .

(2) سورة النحل الآية : 69 . (3) سورة القمر الآية : 49 . (4) سورة الفرقان الآية : 2 .

حول نفسها بسرعة معينة ؛ وبُعد القمر عن الأرض بمسافة محدودة كذلك ؛ واشتمالها على كمية المياه في بحارها ومحيطاتها بهذا المقدار ؛ ووجود الغازات فيها بنسب ومقادير معلومة .. وغيرها .

كل ذلك يدّل على روعة التقدير الإلهي ، والنظام الكوني لكل ما في الكون من مخلوقات .

وبهذا يستطيع الداعية أن يعمّق في عقول الناس وقلوبهم هذه المعاني الرائعة .. فيزدادون بها إيمانًا ويقينًا ..

– وإذا قال اللّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [1] .

يستطيع العلم هنا كذلك أن يبين لنا سعة آفاق الهداية الإلهية المبثوثة في الكون : علويّه وسفليّه ، إنسانه وحيوانه ، نباته وجماده .. كل شيء فِيه هُدِيَ لغايته ، وتيسر لما خُلق له ، ومُنحَ ما يساعده على ذلك من سنن اللّه ، وقوانين الكون .. نجد كل ذلك في أضخم ما في الكون إلى أصغر ما فيه ، من المجرّة إلى الذرّة ...

4 – ومجال رابع يدخل فيه العلم ، ويصول ويجول ، وهو بيان سبق القرآن الكريم بكثير من الحقائق التي كشف عنها العلم الحديث .

وقد عنى كثيرون في عصرنا بهذا الميدان إلى حدّ الإفراط والتجاوز في بعض الأحيان ، كما رفضه آخرون بالكلية ، واستخدمه آخرون بتحفظ واعتدال ، وهو الحق ؛ وأعني بالاعتدال أن لا نتعسف في التأويل ، ولا نُخرج الألفاظ والتراكيب عن مدلولاتها اللغويّة ، وأن لا نحمّل النصوص أكثر مما تحتمل ..

ومن أمثلة الاعتدال :

(في سورة فصلت : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [2] ، إن مادة الخلق « دخان » وهو عين ما يسمى السّديم ؛ وفي سورة الأنبياء : ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [3] ، « كانتا رتقا » أي كانتا مادة واحدة متصلة ، « ففتقناهما » أي فتقهما اللّه جلّ جلاله ، وجعل كلًّا منهما خلقًا مستقلًا ، وبث فيها أنواع الدوابّ ، ولم يكن أحد يعتقد أن في شيء من هذه الأجرام حيوانًا ؛ وأنه

(1) سورة طه الآية : 50 . (2) سورة فصلت الآية : 11 . (3) سورة الأنبياء الآية : 30 .

سبحانه جعل من الماء كل شيء حيّ ؛ وأنه خلق جميع الأحياء النباتية والحيوانية (والبشرية) أزواجًا فجعل في كل منهما ذكرًا وأنثى ؛ وأنه جعل كل نبات موزونًا ، يعني أن عناصره متوازنة على نسب مقدّرة ؛ وأنه أرسل الرياح لواقح ؛ وأنه ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [1] ، والتكوير هو اللّف على الجسم المستدير ، وهو صريح في كرويّة الأرض ودورانها اللذين كانا موضوع الجدال والنضال بين العلماء إلى عهد قريب بعد الإسلام .

وأمثال هذا كثير ، حتى إن بعض آيات القرآن في الشمس والقمر والنجوم ، وسبحها في أفلاكها ، وجريانها إلى أجل مسمى ، وفي تناثر الكواكب عند خراب العالم .. لا تفهم فهمًا صحيحًا إلا في ضوء علم الفلك الحديث .

وأعجب منه إثبات القرآن الكريم أن للحق سننًا لا تتبدل ، وبيانه لكثير منها ؛ ومنها : سنن الاجتماع التي لم يهتد البشر إليها بالبحث العلمي إلا بعد بيان القرآن لها بقرون) [2] .

إن الداعية هو الذي يحسن استخدام حقائق العلم في المجالات التي ذكرناها .. يجد طريقه إلى أذهان الناس وعواطفهم سهلًا معبدًا ، ويقع كلامه من نفس المثقفين العصريين موقع القبول ، وحسن التأثير .. ولعل هذا من أظهر الأسباب وراء نجاح بعض الدعاة المرموقين في عالمنا العربي والإسلامي اليوم .

* * *

6 – الثقافة الواقعية

ومن أهم ما يلزم الداعية : أن يتسلح بسلاح الثقافة الواقعية ، ونعني بها : الثقافة المستمدة من واقع الحياة الحاضرة ، وما يدور به الفلك في دنيا الناس الآن .. في داخل العالم الإسلامي وخارجه .

فلا يكفي الداعية أن يكون قد حصّل العلوم الإسلامية ، وجال في مراجع اللغة والأدب والتاريخ ، وأخذ حظه من العلوم الإنسانية ، والعلوم التجريبية ، ولكنه مع هذا لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه ، وما يقوم عليه من نظم ، وما يسوده من

(1) سورة الزمر الآية : 5 .

(2) الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ص : 307 - 308 .

مذاهب ، وما يحركه من عوامل ، وما يصطرع فيه من قوى ، وما يجري فيه من تيارات ، وما يعاني أهله من متاعب ، وبخاصة وطنه الإسلامي الكبير : بآلامه وآماله ، وأفراحه ومآسيه ، ومصادر قوته ، وعوامل ضعفه ، وبعد ذلك وطنه الصغير ، وبيئته المحلية ، وما يسودها من أوضاع وتقاليد ، وما تقاسيه من صراع ومشكلات ، وما يشغل أهله من قضايا وأفكار ..

إن الداعية الواعي لا ينجح في دعوته ما لم يعرف من يدعوهم ، وكيف يدعوهم ؟ وماذا يقدم معهم وماذا يؤخر ؟! ولهذا حين بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن - كما روى الستة إلا مالكًا - قال له : « إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللّه ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، وتردّ على فقرائهم ، فإذا هم أطاعوك بها فخذ منهم وتوقّ كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينه وبين اللّه حجاب » [1] .

ومن هذا النص يؤخذ : أنهم لو كانوا مجوسًا أو ملاحدة أو نحو ذلك لكان عليه أن يدعوهم بطريقة أخرى .

ومن هنا يجب على الداعية في عصرنا أن يدرس :

1 - **واقع العالم الإسلامي** : بمعرفة خلاصة مركّزة عن أوضاعه الجغرافية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وتوزيع سكانه ، وأسباب تخلّفه وتفرّقه ، وعوامل تقدّمه ووحدته ، وإمكانات تكامله اقتصاديًّا ، وتضامنه سياسيًّا وعسكريًّا ، فضلًا عن تقاربه اجتماعيًّا وثقافيًّا .

أضواء على فكرة « الجامعة الإسلامية » أو « الكتلة الإسلامية » أو « التضامن الإسلامي » باعتباره خطوة عملية في طريق « الخلافة الإسلامية » .

مشكلات الأقليات والأكثريات الإسلامية المضطهدة : في الفلبين ، في قبرص ، في أريتريا ، في الحبشة ، في الاتحاد السوفيتي ، في أورربة الشرقية ، في ألبانيا ، في يوغسلافيا ، في الصين ، في الهند ...

أخذ فكرة عن اندلاع الثورات الإسلامية في عدة مناطق في المجتمع الإسلامي

---

(1) صحيح البخاري كتاب الزكاة ب (1) ، صحيح مسلم كتاب الإيمان (29) ، وسنن الترمذي كتاب الزكاة ب (6) ، وسنن أبي داود كتاب الزكاة (5) ، وابن ماجه كتاب الزكاة ب (1) ، ومسند أحمد (1/ 232) .

للانتصار على الأنظمة الكافرة من شيوعية واشتراكية .. كما يحدث في أفغانستان ، وسورية والفلبين ..

2 – **واقع القوى العالمية المعادية للإسلام** : وتتمثل هذه القوى في المثلث الرهيب : اليهودية العالمية ، والصليبية العالمية ، والشيوعية الدولية ، وهي قد تختلف فيما بينها مبدءًا وسياسة ، لكنها متفقة علينا معاداة وتآمرًا ..

لابد من دراسة الأسباب والدوافع من وراء كيدها لنا : الحقد ، الطمع ، الخوف ، الاستعلاء ، التسلط ..

ولابد من معرفة وسائلها في حربنا المتمثلة : في الحرب السياسية ، في الحرب الاقتصادية ، في الحرب الفكرية ؛ خطورة هذه الحرب الأخيرة ، وأساليبها . وأجهزتها : التبشير ؛ مؤسساته وإمكاناته الهائلة ، الغارة النصرانية على العالم الإسلامي ، والصراع بين الإسلام والتبشير في أفريقيا ، التخطيط لتنصير أندونيسيا أكبر بلد إسلامي ، محاولات التنصير في العالم العربي ، والتعاون بين التبشير والاستعمار ، وكذلك الارتباط بين التبشير والشيوعية أخيرًا .

ولابد من معرفة الاستشراق : أهدافه ووسائله ، إسهامه في إحياء التراث ، كتابات المستشرقين عن الإسلام ومدى علميتها ، المنصفون والمتحاملون من المستشرقين ، سموم الفكر الاستشراقي وآثارها في عالمنا العربي والإسلامي من تلاميذ المستشرقين .

ولابد من معرفة الغزو الشيوعي : عن طريق الخبراء ، والمساعدات ، والمؤسسات الثقافية ، والبعثات التعليمية والتدريبية إلى البلاد الشيوعية ، وتأييد الأحزاب الشيوعية في الداخل بالتمويل والتوجيه والعمالة ..

ولابد من معرفة المؤسسات المشبوهة : الماسونية وما تفرّع عنها : خطرها وأساليبها الماكرة ، وتغلغلها في الطبقات الأرستقراطية ، وأصحاب الجاه والسلطان ، وتسيير اليهودية العالمية لها بالخفاء ، للوصول إلى أغراضها ومخططاتها .

ولابد من معرفة الغزو من الداخل : عن طريق العملاء ، وعبيد الفكر الغربي ، والأحزاب الموالية من ليبرالية ، ويسارية ، احتضان الفرق المنشقة عن الإسلام كالقاديانية ، والإسماعيلية .. وغيرها من الفرق الباطنية الكافرة .

وينبغي هنا التنبيه على أمرين هامين :

أ – عدم التهويل أو التهوين من شأن القوى المعادية ومخططاتها حتى لا يؤدي ذلك إلى اليأس من مقاومتها .. أو الاستهانة بها والسكوت عنها ..

ب – الاستفادة من الصراع القائم بينها بذكاء ودهاء واستغلال الفرص المناسبة لذلك ، كالصراع بين روسيا والصين .. وقد كان السلف يقولون : اللهم أهلك الكافرين بالكافرين وأخرجنا من بينهم سالمين .

3 – **واقع الأديان المعاصرة : معرفة اليهودية** : توراتها المنحرفة ، وتلمودها الرهيب ، ونظرتها إلى الأميين (أي الأمم غير اليهودية) ، وانعكاس ذلك على الحركة الصهيونية وقيام إسرائيل .

ومعرفة « **المسيحية** » طوائفها ، وكنائسها المختلفة وما بينها من صراع ، محاولات التقارب بين بعضها بعضًا ، محاولات تقربها من اليهودية ، وثيقة الفاتيكان بتبرئة اليهود من دم المسيح (عليه السلام) ، محاولات ما يسمى « التقارب الإسلامي المسيحي » وأبعادها وأهدافها ..

ومعرفة « **أديان الشرق الأقصى الكبرى** » مثل : « **الهندوكية** » الوثنية : عقائدها وطوائفها ، موقفها من المسلمين .

« **البوذية** » : ومدى انتشارها في بلاد الشرق الأقصى ، وأثرها في حياة أتباعها .

4 – **واقع المذاهب المعاصرة** : ما أكثر المذاهب السياسية في عصرنا الحاضر ، وما أكثر مدارسها واختلاف تطبيقاتها ، وتعدد مناهجها !! ..

نرى ذلك في النظرية « **الشيوعية الماركسية** » ، ومدى اختلافها في تطبيق « لينين » ، وخلفائه في روسيا عن تطبيق « ماو » في الصين ، بل الخلافات التي وقعت بين « ستالين » ومَنْ بعده « خروشوف » إلى « بريجنيف » .. وهذا يؤكد عجز الشيوعية عن تحقيق فلسفتها الخيالية في مساواة الدخول ، وزوال الدولة ، واشتراكية المال .. ويؤكد هذا تخلّي بعض زعماء الشيوعية في أورروبة الغربية عن بعض المفاهيم الأساسية للماركسية كنظرية الصراع الطبقي .

هذا عدا عن موقف الشيوعية من الأديان عامة ، والإسلام خاصة ، وموقفها عن القيم الأخلاقية ، وموقفها من الحريات .. فإنها معروفة لدى جميع الناس .

ونرى ذلك في « **الرأسمالية** » المعاصرة ، ومدى مغايرتها للرأسمالية في بداية نشأتها ،

ويجب أن يتعرف الداعية على الرأسمالية في أمريكا ، وأوربا ، واليابان ، وعلى آثار الرأسمالية الآن وموقفها من الدين ، وعلى معنى قيام أحزاب ديمقراطية مسيحية في أوروبة .

ونرى ذلك في « **الاشتراكية** » ، وكثرة مدارسها ، واختلافها فيما بينها من إصلاحية إلى علمية والجامع بين الاشتراكيات المختلفة ، والفرق بين الاشتراكية والشيوعية ، والاشتراكية وموقفها من الدين ، ومعنى قيام أحزاب اشتراكية مسيحية في أوروبة ...

ونرى ذلك في « **الديمقراطية** » ، وكثرة مدارسها واختلافها فيما بينها ، وادعاء كل من الشيوعيين ، والرأسماليين ، والاشتراكيين لها ، وديمقراطية الصراع السياسي ، أو الاجتماع السياسي ، أو التحالف السياسي ؛ وكذلك أزمة الديمقراطية في العالم ..

ونرى ذلك في « **الدكتاتورية** » ، وكثرة مسمياتها واختلافها فيما بينها ، وأنواعها : من دكتاتورية الفرد إلى دكتاتورية الطبقة إلى دكتاتورية الحزب .. وكذلك التعرف على التجربة الفاشيّة والنازيّة ، وأيضًا التعرف على أحوال الدكتاتوريات في عالمنا اليوم ولاشك أن موقف الإسلام من هذه المذاهب المعاصرة نسيج وحده ، ما وافق الإسلام منها في شيء خالفه في أشياء كثيرة .. تميّز الإسلام عنها في خصائصه ، في غاياته ، في وسائله ، في الدقة في تطبيقه ..

ومن الخطأ الفادح إضافة الإسلام إلى مذهب منها ، أو تسمية أنظمة الإسلام بمسميات هذه المذاهب كأن نقول : « ديمقراطية الإسلام » و « اشتراكية الإسلام » ...

وعلينا أن نعلم أي جناية نجنيها على ديننا وأمتنا حين نضع الحلول المستوردة موضع الأنظمة الإسلامية المتميزة . يجب أن يؤمن جيل الإسلام اليوم بحتمية الحلّ الإسلامي ، وخلود الشريعة الإسلامية على مدى الزمان ولأن الإسلام – كما ألمحنا في الفصل الأول من هذا الكتاب – دين الله الخالد الشامل المتجدّد العالمي ... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [1] .

5 – **واقع الحركات الإسلامية المعاصرة** : يجب على الداعية أن يتعرف على الحركات العالمية ، والحركات الإقليمية ، والحركات الجزئية ، والحركات الشاملة في العالم الإسلامي ، **وأهم هذه الحركات** : حركة الإخوان المسلمين الممتدة في (15)

---

(1) سورة المائدة الآية : 50 .

دولة من دول العالم الإسلامي ؛ وحركة الجماعة الإسلامية في باكستان ، والهند ، وحركة « ماشومي » في أندونيسيا ، والحركة الإسلامية في تركيا ، والحركة الإسلامية في أفغانستان ، وحزب التحرير الإسلامي في الأردن وفلسطين ، وحركة التبليغ الإسلامي في مناطق عدة من العالم ..

ويجب أن يتعرف أيضًا على أهمية الجامعات ، والمعاهد الإسلامية ، ووظيفتها ، وعلى دور وزارات الأوقاف ، والشؤون الإسلامية في كل بلد إسلامي ؛ وعلى دور الأزهر الشريف ، ورابطة العالم الإسلامي ، والندوة العالمية للشباب المسلم ، وغيرها من المؤسسات في نشر الدعوة الإسلامية ، وأخيرًا على دور الدعاة المرشدين وأثرهم في تبليغ رسالة الإسلام ..

6 - **واقع التيارات الفكرية المعارضة للإسلام** : ونعني بها التيارات الموجودة داخل العالم الإسلامي مثل :

- التيار اليساري أو الماركسي ، وهو تيار مادّي النظرة ، إلحاديّ الفكرة ، موالٍ للمعسكر الشيوعي .

- التيار الليبرالي ، وهو تيار استعماري النظرة والفكرة .. الموالي للمعسكر الغربي ، ويمثّله كتّاب وصحف وأحزاب .. وهو تيار علماني لا ديني ..

التيار القومي (القومية العربية ، أو الطورانية ، أو الفارسية ، أو الكرديَّة .. ونحوها) ، وهو تيار علماني أيضًا ينادي دعاته بفصل الدين عن الدولة .

7 - **واقع الفرق المنشقّة على الإسلام** : وأبرزها وأخطرها - كما يقول الأستاذ القرضاوي : البهائية ، والقاديانية .

أما البهائية فهي دين جديد مخالف للإسلام كل المخالفة ، ولا يزعم دعاتها أنفسهم أنهم من الإسلام ، وإن نشأت أول ما نشأت في أرض الإسلام .

وأما القاديانية فهي فرقة مارقة تدّعي نبوّة جديدة بعد أن ختمت بنبوة محمد ﷺ ، وهذه تحاول جاهدة أن تلتصق بالإسلام ، وأمة الإسلام . وأمة الإسلام والمسلمين منها براء ..

وكلا الفرقتين تحظيان بمساندة القوى العالمية المعادية للإسلام ..

وأريد أن أنبه بأن هناك فرقًا باطنية منبثّة في العالم الإسلامي والعربي هنا وهناك ،

وكلها حرب على الإسلام وأهله :

فرق تقول : بألوهية علي رضي اللّه عنه ، وعصمة الأئمة ..

وأخرى تقول : بألوهية آغاخان ، واستباحة المحرمات ، وشيوعية النساء والأموال ..

وثالثة تقول : بألوهية الحاكم بأمر اللّه ، وإسماعيل الدرزي ، واستباحة المحرمات ..

ورابعة تقول : بالدهرية ، وأساسها إنكار الخالق ، ونبذ الأديان ..

إلى غير ذلك من هذه الاعتقادات الباطلة ، والمبادئ الكافرة التي تأصّلت في كثير من الفرق والمِلَل والتي تعود جذورها - عند الأكثر منهم - إلى أصول يهودية .

8 - **واقع البيئة المحلّية** : وعلى الداعية أن يدرس أيضًا البيئة التي يعيش فيها ، ويعرف أوضاعها وتقاليدها ، ويتعمق في فهم مشكلاتها ، ونفسيّات أهلها وما يؤثر فيها ، وأن يعرف أيضًا أسلوب العمل الذي يتفق مع عقلية الناس واستعداداتهم ، ومستوى تفكيرهم ، ومبلغ استجابتهم وتقبّلهم وتأثّرهم ..

فبلد انتشرت فيه الشيوعية أو الوجودية أو الاشتراكية .. مثلًا ، وأصبحت عند أهله انحرافات فكرية ، وعقديّة ، وخُلقية .. مثل هذا البلد تختلف الكتب التي ينبغي أن تنشر فيه ، ونوعية المحاضرات التي تحاضر فيه .. تختلف كليًا عن بلد فيه نصارى ، وعن بلد فيه أفكار رأسمالية ، وعن بلد فيه نزعة إلى الحرية والديمقراطية ..

ولابد من معرفة شاملة للمنحرفين .. ولابد من تخطيط شامل ، وأسلوب مناسب ، منسجم مع هذا وذاك ..

كما على الداعية أن يعرف لغة هذه البيئة التي يدعوها إلى الله ، ليكلمهم بلسانهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [1] .

ولهذا نرى معرفة اللغات الحية - أو لغة منها على الأقل - ضرورة للداعيةفي عصرنا اليوم ، وقد ثبت أنه ﷺ أذن لبعض أصحابه بأن يتعلموا بعض اللغات في عصرهم !! .

تلكم لمحات خاطفة لما ينبغي أن تقوم عليه ثقافة الواقع ، ولا يخفى أن هذه الثقافة لا تستمد من الكتب وحدها ، فهي ثقافة نامية متجدّدة مستمرة ، يمكن للداعية أن

---

(1) سورة إبراهيم الآية : 4 .

يجدها في الصحف ، والمجلات ، والنشرات ، وبطون كتب المطالعة ..

والداعية ذو العقل اليقظ ، والحسّ المرهف .. يستطيع أن يأخذ مددًا جديدًا من كل ما حوله من وقائع الحياة اليومية من أخبار الصحف ، ووكالات الأنباء ، وتعليقات المعلّقين ، ويمكنه أن يعدّ لذلك سجلًا ، أو أرشيفًا يدوّن فيه ما يهمه من هذه الوقائع والأخبار ، ويصنّفها ويضعها عند الحاجة في مكانها ، فإن أحداث اليوم هي تاريخ الغد الذي يدرسه الدارسون ، ويحلّله الناقدون ، ويعتبر به المعتبرون !! .

على أن لهذه الأخبار والأحداث مزيّة على الأحداث والأخبار الماضية ، وهي جدّتها ، وحضورها في الأذهان ، والانفعال العاطفي .. ولهذا يكون لها أبلغ الوقع والتأثير !! ..

بل يستطيع الداعية أن يتلقى معلوماته عن الواقع من مصادره الحيّة المباشرة ، بلقاء الناس ومخالطتهم ، ومشاهدة أحوالهم ، والاستماع إلى أحاديثهم في الحضر والسفر ، فإن السفر نصف العلم ؛ ولهذا كان علماؤنا الأوّلون أكثر الناس ترحالا في طلب العلم من أهله في مواطنهم ، وقد قال الشاعر العربي :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتُبصر ما   قد حدّثوك فما راءٍ كما سمعا

* * *

تلكم – إخوتي الدعاة – أهم المعالم الأساسية في تبيان الوسائل لإعداد الداعية ثقافيًا ، وتكوينه علميًا ، وتهيئته حركيًا ودعويًا ..

فبالثقافة الإسلامية يكون الداعية قد وقف على أرض صلبة من الثقافة التي محورها الشريعة ؛ ومصادرها الأساسية : القرآن والسنة والقياس والإجماع .. ، وعلومها الرئيسية : أصول العقيدة ، والتفسير ، والحديث ، والفقه ، وأنظمة الإسلام .. إلى غير ذلك من هذه الثقافات التي يجب أن يدرسها دراسة وعي وهضم وتذوّق .. بعيدة عن تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وبالثقافة التاريخية يكون الداعية قد ألمّ بتاريخ الإسلام والأمة الإسلامية بشكل خاص ، وتاريخ الإنسانية وما يرتبط بها من أحداث بشكل عام .. وبهذا يكون قد وسّع أفقه ، واستعان بالتاريخ على فهم الواقع الذي يعايشه ، وأصبح إنسانًا ناضجًا ذا وعي وحصافة ..

وبالثقافة اللغوية والأدبية يكون الداعية قد قوّم لسانه ، وأحسن تعبيره ، وجَوّد

أسلوبه ، وسحر الناس ، ونُظِر إليه بعين التقدير والاحترام ..

وبالثقافة الإنسانية يكون الداعية قد ألمّ بعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وعلم الفلسفة ، وعلم التربية والأخلاق .. هذه العلوم تساعده على فهم الحقائق ، وتمكنه من معرفة الأفكار والفلسفات .. ؛ ليردّ على الفكر المخالف للإسلام بسلاح الفكر نفسه ؛ ويواجه بها الماديين والملاحدة في دحض شبهاتهم ، ونقض ضلالاتهم ..

وبالثقافة العلمية يكون الداعية قد تمكّن من العلوم التي تقوم على الملاحظة والتجربة ، وتدخل في نطاق الحسّ ، وتحاليل المخبر كالفيزياء ، والكيمياء ، والتشريح والطب ، والفلك .. ؛ فبها يستطيع الداعية أن يستخدم الحقائق العلمية في تأييد الدين ، وتوضيح مفاهيمه ، ودفع شبهات خصومه ، ومفتريات أعدائه .. ويستطيع أيضًا أن يكشف بوضوح عن الإعجاز العلمي لآيات القرآن الكونية .

وبالثقافة الواقعية يكون الداعية قد تسلح بسلاح الثقافة الواقعية التي تستمد من واقع الحياة الحاضرة وتشمل :

واقع العالم الإسلامي ، وواقع القوى العالمية المعادية للإسلام ، وواقع الأديان المعاصرة ، وواقع المذاهب السياسية الحاضرة ، وواقع الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي ، وواقع التيارات الفكرية المناهضة للشريعة ، وواقع الفرق المنشقة على الإسلام .. إلى غير ذلك من المعلومات والثقافات التي يدور بها الفلك في دنيا الناس الآن ، في داخل العالم الإسلامي وخارجه ..

فالداعية حين يتسلح بهذه الثقافات جميعًا تكون الاستجابة له أبلغ ، والتأثير بكلامه أعظم ، والتعلّق به أكبر ، واحترام الناس له أسمى وأفضل ..

وبدون هذه الثقافة الشاملة لا يمكن للداعية بحال أن يعطي غيره ، وينفع أمته ، ويصلح مجتمعه ، ويعالج آفات القلوب ، ولا يمكنه أيضًا أن يكون داعية موفقًا ناجحًا ، له في الأمة أثر ، وفي الناس محبة وإجلال ..

فاحرص - أخي الداعية - أن تتزود بهذه الثقافات النافعة لتكون في المجتمع منارةَ دعوة ، وفي الأمة بدرَ إصلاح ، وفي الإنسانية شمسَ هداية ..

ولاشك إنك إن أخلصت وثابرت وبلّغت .. فاللّه سبحانه يحقق الخير على يديك ، وتبني - بعون اللّه - مجد الإسلام على ساعديك ، فتعتز أمة الإسلام بعد

ذل ، وتغتني بعد فقر ، وتتوحّد بعد فرقة ، وتتآخى بعد عداوة ، وتعود - بإذنه تعالى - خير أمة أخرجت للناس ، وما ذلك على اللّه بعزيز .

وقبل أن أختم هذا الفصل أريد أن أنبه الدعاة على أن يقرؤوا كتاب « جند اللّه ثقافة وأخلاقًا » للعالم الداعية الشيخ سعيد حوّى ، فإنه قد توسّع في ثقافة الداعية ، وأحاط بالبحث إحاطة شاملة ومستوعبة .. كما أنبههم على أن يدرسوا كتاب « ثقافة الداعية » للعالم الجليل الدكتور يوسف القرضاوي الذي جعلت كتابه عمدة هذا الفصل مع الاختصار والتصرف .. فجزاهما اللّه عن الإسلام أفضل الجزاء ، ورفعهما في الدارين مقامًا عليًا ، وحقق اللّه عزّ الإسلام ومجد المسلمين على أيديهما وأيدي الدعاة الصادقين والعلماء المخلصين في العالم الإسلامي .. ، إنه خير مأمول ، وبالإجابة جدير ، وهو مولانا وناصرنا ، فنعم المولى ونعم النصير ..

* * *

سلسلة

مدرسة الدعاة

فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية

(9)

كيف يدعو الداعية

عبد الله ناصح علوان

أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد للّه رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق ، وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا هو « **الفصل التاسع** » من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » ، وهو بعنوان : « **كيف يدعو الداعية ؟** » .

أقدمه لكم – إخوتي الدعاة – عسى أن يكون لكم في طريق الدعوة إلى اللّه منارًا ونبراسًا ، واللّه سبحانه يتولّى العاملين المخلصين .

المؤلف

عبد اللّه ناصح علوان



الفصل التاسع

كيف يدعو الداعية

بعد أن عرفت - أخي الداعية - خصائص هذه الدعوة وطبيعتها ومزاياها ..

وبعد أن اطلعت على عالميّة هذه الدعوة ومهمتها ودورها في الإنقاذ والإصلاح والتغيير ..

وبعد أن علمت دور الأمة الإسلامية - وعلى رأسها الدعاة - في حمل الدعوة إلى الناس ، وتبليغ الرسالة إلى الدنيا ..

وبعد أن استشعرت من قرارة وجدانك فضل الداعية العظيم في القرآن الكريم ومكانته المرموقة في السنة المطهرة ..

وبعد أن تراءت لك مواصفات الداعية في الإعداد الروحي ، والتربية النفسية ..

وبعد أن اقتنعت معي أن الداعية لا يؤثّر ولا يعطي ولا يغير .. إلا بالروحانية المشرقة ، والأخلاقيّة الفاضلة ، والثقافة الشاملة ..

وإذا أدركت أن هذا كله أمر لازم وضروري في مجال تكوين الداعية وإعداده .. فعليك أن تدرك أن من اللازم والضروري أيضًا تعريفه بالمراحل الدعوية التي يجب أن يسلكها ، وإرشاده إلى الكيفية التي عليه أن يتحقّق بها .. إن أراد أن يكون من الدعاة المرموقين الذين لهم في مجال الدعوة ذكر ، وفي ميدان الإصلاح والتغيير أثر ..

والداعية إلى اللّه حين يأخذ بأفضل المراحل في هداية البشر ، وأحسن الكيفيات في إصلاح الناس .. فإنه يصل في أغلب الأحيان إلى النتائج التالية :

- لا يذهب جهده سدًى ، ولا يتبدّل أمله يأسًا ..
- الاستجابة تكون له أعظم ، وتأثيره في الناس يكون أبلغ ..
- يكون سيره في الدعوة عن تخطيط ، وتبليغه للرسالة عن موضوعية ..
- يعطي لمن حوله الأسوة الحسنة ، والنموذج الحيّ في نجاح الدعوة ، وتوفيق الداعية ..
- يُرِي الناس من عمله وجهاده أن دعوة الإسلام في امتداد ، وظواهر الضلال والفسوق في انحسار .

إذا كانت هذه ثمراتِ الدعوة ، ونتائج الداعية .. فسوف أضع بين يديك – أخي المسلم – المنهج الأفضل في تبيان المراحل التي على الدعاة أن يسلكوها إذا أقاموا في بلد ، أو حلّوا في بيئة ، أو دعوا فردًا ، أو أصلحوا أمّة .. وعلى اللّه قصد السبيل ، ومنه نستمد العون والتوفيق ..

ومراحل المنهج في كيفية الدعوة إلى اللّه هي على الوجه التالي :

1 - **دراسة البيئة** :

على كل من يقوم بمسؤولية الدعوة إلى اللّه أن يدرسوا المكان الذي تُبلّغ فيه الدعوة دراسة شاملة وموضوعية ، وأن يعرفوا مراكز الضلال ، ومواطن الانحراف معرفة كاملة ومستوعبة .. وأن يفكروا أيضًا في أسلوب العمل الذي يتفق مع عقلية الناس واستعداداتهم ، والذي يتلاءم مع مستوى تفكيرهم ومدى استجابتهم ..

فبلد انتشرت فيه الشيوعية أو الوجوديّة أو النعرات القومية .. مثلًا ، وأصبحت عند أهله انحرافات فكريّة ، وضلالات عقيديّة ، وشذوذات خُلقيّة .. مثل هذا البلد بالذات تختلف الكتب التي تنبغي أن تنشر فيه ، ونوعيّة المحاضرات التي تحاضر فيه ، وأسلوب المناقشات التي تُطرح فيه ، واختيار الموضوعات التي تبحث فيه .. تختلف كليًّا عن بلد فيه نصارى ، وفيه أفكار رأسمالية ، وفيه نزعة إلى الحرية والديمقراطية .. وتختلف كليًّا أيضا عن بلد فيه مسلمون ولكن الجهل خيّم عليه ، والعصبيّات تحكّمت فيه ، والأفكار المستوردة أثرت به ..

لابد إذن من دراسة مركّزة لأنواع الانحراف والشذوذ ..

ولابد من معرفة شاملة لأحوال المنحرفين والشاذّين ..

ولابد من تخطيط شامل ، وأسلوب مناسب .. مع هذا وذاك ..

ولابد من مَسْحٍ كامل للفئات المؤيّدة ، والفئات المعارضة ، والفئات التي تقف على الحياد ..

ولابد من مراحل لعملٍ متواصلٍ دائبٍ ، لتبليغ الدعوة إلى الناس كافة ..

ولابد من معرفة اللغة أو اللهجة .. ليتكلم الداعية بلسانهم ، وينطق بلهجتهم ..

ولابد من الإحاطة بعمق في فهم مشكلات الناس الاجتماعية ، ونزعاتهم الخُلقية ، وأحوالهم النفسيّة ..

ولابد من الاطّلاع على من يشاركونه تبليغ الدعوة ، وهل يمكن أن ينسّق معهم ،

ويتعاون وإياهم ؟ ..

كل ذلك ينبغي أن يعرفه الداعية معرفة إحاطة وشمول .. قبل أن يبدأ بالدعوة في البيئة التي يريد أن يدعو فيها ، ويعمل في وسطها .. حتى تكون دعوته عن تخطيط وإحكام ودراسة .. في إصابة المرمى ، والوصول إلى الهدف .

وينبغي أن لا يغرب عن ذهن الداعية أن البلد الذي وُلِدَ فيه ، وترعرع في أحضانه ، ورضع من لبانه هو أحق بالدعوة والهداية والإرشاد من أي بلد آخر بحاجة إلى هداية وإرشاد .. ؛ وذلك لسببين رئيسيين :

الأول – لمنطقيّة البدء بإصلاح الأهل والعشيرة قبل غيرهم .

الثاني – لإحاطته الشاملة في معرفة معتقدات القوم وأحوالهم .

ولا يخفى على كل ذي عقل وبصيرة ما في هاتين الملحوظتين الأساسيتين من أثر عظيم في انتشار الدعوة ، واطّراد الاستجابة ، وفاعليّة التأثير والتغيير ، وموضوعيّة الإصلاح والهداية ..

● **أما منطقيّة البدء بهداية الأهل والعشيرة ..**

فهي منطقيّة رائد هذه الدعوة محمد بن عبد اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه ، فحين أن كلّفه اللّه سبحانه بتبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافّة .. كان من المنطق والطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ هذه الدعوة على ألصق الناس به ، وأقربهم إليه ممن يتوسّم فيهم الخير من آل بيته ، وخاصّة أصدقائه .. **وكان في مقدمتهم** : زوجه السيدة خديجة ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديقه الوفي أبو بكر الصديق رضي اللّه عنهم جميعًا ، أسلم هؤلاء في أيام الدعوة الأولى ، ثم نشط أبو بكر – رضي اللّه عنه – في الدعوة إلى الإسلام وكان رجلًا أليفًا محبوبًا ذا خلق كريم ، وإخلاص عجيب ، وجاذبيّة فريدة .. فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه ، فأسلم بدعوته : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد اللّه .. فكان هؤلاء النفر ومن جاء بعدهم الطليعة الأولى لعظماء الإسلام ، وأبطال التاريخ ، ورجال الدعوة ..

ثم دخل الناس في الإسلام تباعًا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث الناس به .. ولما نزل قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [1] – كما روى البخاري – صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي : « يا بني فهر ، يا بني عدي .. » لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج ، أرسل رسولًا ؛ لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أرأيتكم لو أخبرتُكُمْ أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ » قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقًا ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ، فقال له أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟!! . فنزلت : ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ .. ﴾ [2] .

وروى مسلم عن أبي هريرة طرفًا آخر من هذه القصة ، يقول أبو هريرة – رضي اللّه عنه – : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [3] ، دعا رسول اللّه ﷺ عشيرته فعمّم وخصّص .. فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا صفيّة عمة رسول اللّه أنقذي نفسك من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني واللّه لا أملك لكم من اللّه شيئًا » [4] .

ولم يزل هذا الصوتُ المحمدي ينبعث شيئًا فشيئًا في أرجاء مكة حتى نزل قوله تبارك وتعالى : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [5] إيذانًا بجهريّة الدعوة ، وتهوينًا من عنفوان الشرك والمشركين ..

ومما يؤكد منطقيّة البدء بالأهل والعشيرة في ميدان الدعوة إلى اللّه أن اللّه سبحانه حين كان يرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كان يختارهم من أقوامهم ، ليتكلّموا بألسنتهم ، وليكونوا أعلم بأوضاعهم وأحوالهم ، وليكونوا أيضًا أقدر على هدايتهم وإصلاحهم ..

ولنستمع إلى ما يقوله جل جلاله في اختياره للرسل ، وفي تبيانه لمهمتهم ودعوتهم ..

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [6] .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [7] .

﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [8] .

---

(1) سورة الشعراء الآية : 214 .
(2) سبق تخريجه ص 225 والآية من سورة المسد : 1 .
(3) سورة الشعراء الآية : 214 .
(4) صحيح مسلم كتاب الإيمان ب (89) .
(5) سورة الحجر الآية : 94 .
(6) سورة الأعراف الآية : 65 .
(7) سورة الأعراف الآية : 73 .
(8) سورة العنكبوت الآية : 36 .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [1] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [2] .

وها هو ذا الرسول العربي - صلوات اللّه وسلامه عليه - قد اختاره اللّه عز وجلّ من أكرم قبائل العرب شرفًا ، ومن أعرقهم أصلًا ونسبًا .. ؛ ليقوم بدوره في هداية قومه إلى الإسلام ، حتى إذا خالط الإيمان بشاشة قلوبهم ، وتجسّد الإسلام في سلوكهم ومعاملتهم .. انطلقوا إلى الدنيا مبلّغين فاتحين هادين .. يمدّنون الأمم ، ويكرّمون الإنسان ، ويفرضون المعرفة ، وينبتون الأرض خيرًا وعسلًا ولبنًا ، ويرفعون في العالم ألوية التوحيد والعدل والإخاء والمساواة ..

ولولا أنه عليه الصلاة والسلام بدأ هذه البداية الطيبة في إصلاح عشيرته ، وهداية قومه .. لما سمعنا عن أخبار خلفاء عظام ، وقوّاد كرام ، وأبطال أفذاذ ، وعلماء عباقرة .. كأمثال : أبي بكر ، وعمر ، وعلي ، وأبي عبيدة ، وخالد ، وسعد ، وابن عباس ، وعائشة .. وعشرات غيرهم ، بل مئات ، بل آلاف .. ممن طار في الآفاق ذكرهم ، وعرفت الدنيا فضلهم ، ونهجت الأجيال المتعاقبة نهجهم .. وسيبقون في التاريخ علمًا للبطولات ، وقدوة للأجيال ، ونماذج حيّة لصناعة الأبطال والرجال .

فما على الداعية - بعد أن عرف هذه الحقيقة - إلا أن يقوم بدوره في إصلاح أهله وعشيرته ، وهداية قومه وأهل بلده .. ثم الذين يلونهم ممن ينتمون إلى جنسه ، ويتكلّمون بلغته .. ؛ لأن هذه البداية هي التي تتفق مع منطقيّة الإسلام ، وتتلاءم مع مرحليّة الدعوة ، بل هي الطريقة المثلى التي سنّها رسول الإسلام - صلوات اللّه وسلامه عليه - لمن يحملون لواء الدعوة الإسلامية في كل زمان ومكان .

● أما الإحاطة الشاملة بمعرفة معتقدات القوم وأحوالهم :

فلاشك أن الداعية إلى اللّه حين ينطلق في مضمار الدعوة من البيئة التي نشأ فيها ، والبلدة التي ترعرع في رحابها ، ورضع من لبانها .. تكون إحاطته بمعتقدات قومه أشمل ، ومعرفته في أخلاق بني جنسه أعمق ، بل يكون عنده من الشمول والاستيعاب بمعتقدات البيئة ، وأخلاقيّة البلد ، وعادات القوم .. ما لم يكن موجودًا في داعية آخر ، دخل بلدًا للدعوة إلى اللّه ، وهو غريب عنه ، وجاهل بأحواله

(1) سورة الشعراء الآية : 106 . (2) سورة إبراهيم الآية : 4 .

وأوضاعه .. فلاشك أن تأثير الأول أقوى ، ومعرفته بأسباب علاج النفوس أفضل ، وارتياحه لنتائج الإصلاح والتغيير أوفى وأعظم ..

وها هم الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - كانوا يركّزون في دعوتهم لأقوامهم الذين بُعثوا منهم ، وأرسلوا إليهم - على دعوة التوحيد ، والإيمان بالغيب ، وإثبات وحدانية الله ، والإيمان بالبعث بعد الموت .. باعتبار هذه القضايا هي من مستلزمات البيئة ، ومقتضيات الدعوة .. ؛ فلا نكاد نجد نبيًّا من الأنبياء إلا وقد دعا قومه إلى التوحيد الخالص ، والعبودية لله وحده ، وحذّرهم من براثن الوثنيّة ، وضلالات الجاهلية ، وإعطاء الولاء لغير الله .

وسبق أن ذكرنا ما حدّثنا القرآن به عن اختيار الأنبياء من أقوامهم ، وعن دعوتهم لعشائرهم .. فكان كل واحد منهم - كما ذكر القرآن الكريم - يدعو قومه إلى عقيدة التوحيد ، والعبودية الخالصة ، وينهاهم عن الشرك ، ويحذّرهم من عبادة الأوثان ، ويحرّرهم من سلطان الولاء لغير الله ..

وما ذلك إلا لأنهم استوعبوا البيئة التي نشأوا فيها ، ودرسوها دراسة إحاطة وشمول ، ثم قاموا يدعون إلى الله بدءًا بإصلاح العقيدة ، وتثنيةً بإعطاء الولاء لله ، وانتهاءً بتقويم السلوك والأخلاق .. كل ذلك من أجل إيجاد **المجتمع الفاضل** ، وتكوين **الأمة المثلى** .

وها هو ذا رسول الله ﷺ سَبَرَ غور المجتمع الجاهلي ، واستوعب أحوال البيئة العربية .. فحينما قام يدعو إلى الله عز وجل في الفترة المكية ، كانت دعوته تتركز في النقاط التالية :

تتركّز حول وجود الله ووحدانيته ، والتعرف على آثاره ..

تتركّز حول دعوى الدهريين والمادّيّين ، وإقامة الحجة عليهم .

تتركّز حول المنكرين للبعث بعد الموت ، ودحض دعاويهم ومفترياتهم .

تتركّز حول رسالات الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم ، وصراعهم مع أعدائهم .

تتركّز حول إثبات الرسالة الإسلامية ، وإظهار شموليتها وعالميتها ، ويسرها وبساطتها ..

تتركّز حول تعرية الجاهلية ، وتصوير حقيقتها ، وتجسيد عوارها ومفاسدها ..

والقرآن الكريم حين كان يتنزّل في مكة ، كان يتنزل ؛ ليردّ على ضلالات الجاهلية ، ويسفّه أحلامها ، ويُعرّي مفاسدها ، ويستأصل من الوجود معتقداتها ، وأخلاق الشرّ

فيها .. بل كانت الآيات تدعم النبي ﷺ في موقفه من الجاهلية ، وفي الردّ عليها ، وفي بطلان ما كان يعتقده القوم ، وفي إصلاح البيئة التي كان ينشدها ...

وإليكم أهم ردود القرآن الكريم على دعاوى البيئة الجاهلية في الفترة المكية :

● ففي التعرّف على وجود اللّه من آثاره في خلقه يقول اللّه سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) .

ويقول جلّ جلاله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ (2) .

والآيات القرآنية التي تلفت العقل البشري إلى آثار صنع اللّه في مخلوقاته أكثر من أن تُحصى .. وكل هذه الآيات المنزلة أدلّة ناطقة ، وبراهين دامغة .. لدعم النبي ﷺ في معالجته لبيئة الشرك ، ودعاة الجحود والإنكار ..

● وفي الدلائل التي تدل على وحدانية اللّه ، وتنزيهه سبحانه من الشبيه والشريك والمماثلة .. يقول عز من قائل : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (3) .

ويقول جل جلاله : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (4) إلى غير ذلك من هذه الآيات التي تدلّ على الوحدانية ، وتزلزل بنيان الشرك من القواعد ، وتجعل الإنسان النقيّ الفطرة ، والبريء النظرة .. يقرّ من الأعماق بالتوحيد الخالص للّه .

وكل هذه الآيات المنزّلة في وحدانية اللّه ، ما هي إلا دعم قويّ لموقف النبي ﷺ في معالجته لبيئة الضلال ، وردّه على دعاة الشرك والوثنية ..

● وفي ردّ القرآن على مزاعم الدهريين الماديين ، وإقامة الحجة عليهم يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

(1) سورة البقرة الآية : 164 .
(2) سورة الطور الآيات : 35 - 37 .
(3) سورة الأنبياء الآية : 22 .
(4) سورة المؤمنون الآية : 91 .

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ... ﴾ [1] .

ففي هذه الآيات ، وآيات كثيرة غيرها تردّ على مزاعم الدهريين الماديين الذين يدّعون أن الدهر سيهلكهم ، وأنهم وجدوا في الحياة بدون مُوجِد ، والردّ ظاهر في نفي القرآن العلم عنهم ، وأن دعواهم هذه بنَوها على الظن ، والظنّ لا يغني من الحق شيئًا ، وأن الله سبحانه هو الخالق ، وهو المحيي والمميت ، وهو المتفرّد بالخلق والإيجاد والوحدانية ، وهو على كل شيء قدير .

وكل هذه الآيات المنزّلة في الردّ على مزاعم الدهريين .. ما هي في الحقيقة إلا دعم قويّ لموقف النبي ﷺ في معالجته لبيئة الإلحاد ، وردّه على دعاة الدهريّة ، ومنكري واجب الوجود سبحانه .

● وفي ردّ القرآن على منكري البعث واليوم الآخر .. يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [2] .

والآيات التي ترد على منكري البعث واليوم الآخر .. كثيرة ومستفيضة ، وكلها تدور حول نقطة واحدة وهي قدرة الله المطلقة اللامتناهية ؛ فالقادر على البدء بالخلق والإبداع .. فقدرته على الإعادة بنفس الترتيب والتنسيق من باب أولى .. ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [3] .

وكل هذه الآيات المنزلة في الردّ على مزاعم منكري يوم الحساب .. ما هي في الحقيقة إلا دعم قويّ لموقف النبي ﷺ في معالجته لبيئة الكفر والضلال .. وردّه على

(1) سورة الجاثية الآيات : 24-27 . (2) سورة الحج الآيات : 5-7 . (3) سورة يس الآيات : 78 ، 79 .

دعاة منكري البعث والجزاء ..

● وفي إثبات القرآن الكريم لرسالات الأنبياء المنزلة ، وفي دعوتهم لأقوامهم ، وفي صراعهم مع من كفر منهم .. فحسبي أن أسجّل في هذا المضمار ما ذكره القرآن عن نوح عليه السلام وقومه ، قال جل جلاله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [1] ، وقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * .... فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [2] .

وقس على ذلك ما ذكره القرآن عن لوط ، وشعيب ، وموسى ، وإبراهيم وغيرهم – سلام اللّه عليهم – مع أقوامهم فإن القرآن أثبت لهم رسالتهم ، وبيّن لهم معالم دعوتهم ، وذكر الصراع المرير مع أقوامهم .. وكيف في النهاية نصرهم ، وأهلك أعداءهم . وكل هذه الآيات المنزلة في إثبات رسالات الأنبياء ، وصراعهم مع أقوامهم ، ونصر اللّه لهم .. ما هي في الحقيقة إلا تسلية للنبي ﷺ لما كان يعانيه من عناد الجاهلية ، وصراع الكفر ، ومعاداة أرباب الضلال في الفترة المكية .

● وفي إثبات القرآن الكريم للرسالة المحمدية ، وعالميتها ، وشمولها ، وخلودها الأبديّ .. يقول اللّه سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [3] .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [4] .

ويقول جلّ جلاله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [5] .

---

(1) سورة المؤمنون الآيات : 23 - 25 . (2) سورة الأعراف الآيات : 59 – 62 ، 64 .
(3) سورة العنكبوت الآية : 48 . (4) سورة سبأ الآية : 28 . (5) سورة النحل الآية : 89 .

ويقول عز من قائل : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (1) إلى غير ذلك من هذه الآيات التي جسّدت خصائص الإسلام، ووضحت مبادئ القرآن .. وكلّ هذه الآيات المنزلة في إثبات الرسالة المحمّدية ، وشمول مبادئها ، وعالميّة دعوتها ، وخلودها المستمر على الزمان والأيام .. ما هي في الحقيقة إلا لفتح مغاليق العقول والقلوب لتدعم موقف النبي ﷺ مع الجاهلية ، عسى أن يتقبّل الناس رسالة النبي ﷺ في بيئة الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ..

● وفي تعرية القرآن الكريم للبيئة الجاهلية ، وتجسيد عوارها ومفاسدها للناس .. فآيات كثيرة وكثيرة في كتاب اللّه عز وجلّ قد جسّدت البيئة الجاهلية في عقائدها الباطلة ، وأخلاقها السافلة ، وعاداتها الذميمة أظهر تجسيد ، وصوّرت الأمة العربية في صراعها مع العصبيات ، وانسياقها وراء الأهواء .. أعظم تصوير ؛ فحين يقرأ المسلم أية سورة مكية في القرآن الكريم كسورة الأنعام مثلًا يجد تعرية البيئة العربية الجاهلية في عقائدها وأخلاقها وعاداتها .. واضحًا ملموسًا خلال الآيات القرآنية كقوله تعالى في السورة نفسها : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (2) .

وكقوله أيضًا : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (3)، وكقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (4) ...

وكل هذه الآيات المنزلة في تعرية الجاهلية ، وتجسيد عوارها ومفاسدها .. ما هي في الحقيقة إلا دعم قوي لصاحب الرسالة الكبرى عليه الصلاة والسلام .. لينبذ القوم عقائد الجاهلية ، وينفروا من بيئة الضلالة ، ويدخلوا في الإسلام عن إيمان وقناعة ، ويصبحوا فيما بعد من رجال الإسلام العاملين ، ودعاته المخلصين الصادقين ..

فمن ردود القرآن الكريم على دعاوى الجاهلية يتبين أن الآيات القرآنية التي كانت تتنزّل على النبي ﷺ في الفترة المكية كانت تدعم موقف الرسول – صلوات اللّه

(1) سورة الأحزاب الآية : 40 .
(2) سورة الأنعام الآية : 140 .
(3) سورة الأنعام الآية : 148 .
(4) سورة التكوير الآية : 8 - 9 .

وسلامه عليه – في معالجته للبيئة العربية الجهلاء ، بل كانت تردفه بالحُجج الدامغة لنسف معتقدات الجاهلية من الوجود ، والإجهاز عليها من القواعد .. حتى لا يتطاول لسان بباطل ، ولا يتبجّح إنسان بجاهلية .

وصفوة القول :

إن دراسة البيئة ، والتعرّف على أحوالها هي من أهم مقوّمات النجاح والتوفيق للداعية ، ومن أعظم أسباب تأثيره وإصلاحه .. كما أن البلد الذي نشأ فيه الداعية ، وترعرع في أحضانه هو أحق بالدعوة والتبليغ .. لمنطقية البدء بإصلاح قومه قبل غيرهم من ناحية ، وللإحاطة الشاملة بمعرفة أحوال البيئة من ناحية أخرى ، ويكفيه فخرا وشرفًا أنه تأسّى بالنبي ﷺ ، وبالأنبياء والمرسلين عليهم السلام حيث كانوا يبدأون أقوامهم بالدعوة إلى دين الله قبل غيرهم ، والقرآن الكريم الذي كان يتنزّل على الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – في الفترة المكية كان يمدّ النبي ﷺ بالحجج الدامغة للردّ على دعوى الجاهلية في معتقداتها الباطلة ، وتحدّياتها الضالة ..

فما عليك – أخي الداعية – إلا أن تأخذ بالمنهج الأقوم في نجاح الدعاة ، ومقوّمات تأثيرهم وتبليغهم ، والذي منه دراستك البيئة التي تدعو إلى الله فيها ، والتعرّف على أحوالها .. إن أردت أن تكون من الدعاة المرموقين ، والهداة الناجحين الموفقين .. وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

2 - اتباع أصول التحدث والحوار :

والداعية إلى الله لا يكون موفقًا في دعوته وتبليغه ، مالكًا للبّ محدثه وجليسه ، قائمًا بمسئولية إصلاحه وتقويمه .. إلا أن يتأسّى بسيد الدعاة ﷺ في تحدّثه وحواره ، ويأخذ بأصوله ومنهجه – صلوات الله وسلامه عليه – في تبليغ الناس ، ودعوتهم ، والتحدث إليهم ..

وإليك – أخي الداعية – أهم أصول منهجه عليه الصلاة والسلام في التحدّث والحوار :

أ - التحدث باللغة التي يفهمونها :

تحقيقًا للمبدأ الذي نادى به القرآن الكريم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [1] ولا يمكن للداعية أن يؤثر في البيئة التي وُجد فيها حتى يكون متقنًا للغة أهلها ، فاهمًا للهجات قبائلها ، عالمًا بما يخاطب به عوامها أو مثقفيها ..

فإن لم يكن على هذا المستوى من إتقان اللغة ، وفهم اللهجات ، والعلم بحقيقة المخَاطبين .. فتأثيره في الناس يكون ضعيفًا ، والإقبال عليه يكون ضئيلًا .. بل ربما يخفق في تبليغه ، ويفشل في دعوته .. دون أن يصل في القوم إلى فائدة أو جدوى ..

نعم في حال جهل الداعية بلغة البلد يمكن أن يغني عنها الترجمة ، ولكن هذه الترجمة لا تغني عن اللغة الأصليّة في إيصال فكر الداعية إلى الجمهور مهما كانت الترجمة دقيقة ، ولا يمكن للجمهور أن يتفاعل مع الداعية مهما كان المترجم له فصيحًا بليغًا ..

فالتخاطب على أساس لغة البلد إذن هو عامل كبير من عوامل نجاح الداعية ، ومن مقوّمات تأثيره في البيئة التي يدعو إلى اللّه فيها ؛ ألا فليعلم الداعية هذه الحقيقة إن أراد أن يحدث في الأمة تأثيرًا ، وفي المجتمعات الإنسانية تغييرًا واللّه ولي التوفيق .

ثم ماذا عن التكلم باللغة العربية الفصحى في بلد يتكلم أهله بالعربية ؟

الأصل في الداعية المسلم بغض النظر عن جنسه أو لونه أو لغته .. أن يتكلم باللغة العربية الفصحى باعتبار أن هذه اللغة هي شعار الإسلام ، ولغة القرآن .. وباعتبار أن النبي – صلوات اللّه وسلامه عليه – عربي ، وكلام أهل الجنة عربي ، والأمة التي حملت إلى الدنيا رسالة الإسلام في الصدر الأول كانت تتكلم بالعربية .. وإلى هذا ألمح النبي ﷺ فيما رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن عباس مرفوعًا : « أحبّوا العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » [2] .

وألمح أيضًا فيما رواه الحافظ ابن عساكر عن مالك : (يا أيها الناس : إن الربّ واحد ، وإن الأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية من أحدكم بأب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي) [3] .

وأكّد كذلك فيما رواه ابن كثير عن معاذ بن جبل – رضي اللّه عنه – أن النبي ﷺ قال : « ألا إن العربية اللسان ، ألا إن العربية اللسان » .

(1) سورة إبراهيم الآية : 4 .

(2) سند الحديث ضعيف ، وقد وردت أخبار كثيرة في حبّ العرب ، يصير الحديث بمجموعها حسنًا لغيره . ارجع إلى ما كتبه العجلوني في كتابه « كشف الخفاء » الجزء الأول ص : 54 تجد ما فيه الكفاية إن شاء اللّه .

(3) ابن عساكر (6 / 200 ، 452) .

فإذا كان الأمر كذلك فعلى الداعية المسلم إذا وُجد بين قوم يحسنون اللغة العربية ، ويفهمونها فهمًا تامًّا .. أن يتكلم اللغة العربية الفصحى ، وعليه ألّا يعدل عنها إلى لغة أخرى ولو كان القوم الذين يدعوهم يتكلمون بلغة غير العربية من كرديّة أو أُوردية أو فارسية ؛ لأن اللغة العربية – كما ألمحنا – شعار الإسلام ، ولغة القرآن .. فلا يجوز أن يتخذ الداعية غيرها بديلًا في غير ضرورة .

فمن الجحود للغة القرآن أن يعدل القادر على النطق بها إلى لغة أخرى ، أو يتكلّم مَنْ يحسن الفصحى بلغة عامّية محلّية لا تمتّ إلى العربية الأصلية بصلة ولا نسب ، وزينة المسلم فصاحة لسانه ، وجماله حلاوة منطقه .. ولا تتأتّى هذه الفصاحة وهذا الجمال إلا بهذه اللغة الأصيلة الخالدة التي اختارها اللّه لأمة الإسلام ، وحملة القرآن .. وروى الحاكم في مستدركه عن علي بن الحسين – رضي اللّه عنهما – أنه قال : أقبل العباس – رضي اللّه عنه – على رسول اللّه ﷺ وعليه حلّتان ، وله ضفيرتان ، وهو أبيض ، فلما رآه تبسّم ، فقال العباس : يا رسول اللّه ما أضحكك ؟ أضحك اللّه سنّك ، فقال : « أعجبني جمال عمّ النبي » ، فقال العباس : ما الجمال ؟ قال : « اللسان » ، وفي رواية السكري : « ما الجمال في الرجل ؟ » ، قال : « فصاحة لسانه » [1] .

وهذه الفصاحة في التعبير والتخاطب هي من خُلق النبي ﷺ ، وأبرز صفاته : روى الشيرازي والديلمي عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – قال : قلتُ : يا رسول اللّه ما رأينا أفصح منك ؟ قال : « إن اللّه تعالى لم يخلقني لحّانًا ، واختار لي خير الكلام : كتابَه القرآن » [2] .

ولكن ماذا يصنع الداعية إذا كان في بيئة لا تعرف التفاهم بالفصحى ، ولا تفهم التخاطب بالعربية الأصيلة ؟

نقول الجواب : إذا استطاع الداعية أن يبسّط حديثه ، ويوضح أسلوبه .. بشكل يعي الناس منه ، ويفهموا عنه فليفعل ، وإن لم يستطع فيجد نفسه مضطرًّا إلى أن يتكلم بالأسلوب الذي يناسبهم ، واللغة التي يفهمونها ، واللهجة التي يدركون مغزاها فلا بأس فهذا من باب « **أمرنا أن نحدّث الناس على قدر عقولهم** » .

ب - التمهّل بالكلام أثناء الحديث :

ومن أدب الداعية حين يريد التحدث أن يتحدث بتؤدة وتمهل حتى يفهم الناس

(1) المستدرك للحاكم (3 / 330) . (2) انظر ضعيف الجامع الصغير وزياداته للشيخ الألباني برقم (1638) .

منه ، ويعقلوا عنه ؛ وهذا ما كان يفعله الداعية الأكبر – صلوات اللّه وسلامه عليه – تعليمًا للدعاة ، وإرشادًا لمن يتصدّون لتعليم الناس ..

روى الشيخان عن عائشة رضي اللّه عنها : « ما كان رسول اللّه ﷺ يسرد الحديث كسردكم هذا ، يحدّث حديثًا لو عدّه العادّ لأحصاه » ، وزاد الإسماعيلي في روايته : « إنما كان حديث رسول اللّه ﷺ فهمًا تفهمه القلوب » ، وروى أبو داود عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : « كان كلام رسول اللّه ﷺ فصلًا يفهمه كل من سمعه » [1] .

ولكن هناك فرق كبير بين تحدّث رسول اللّه ﷺ وبين تحدّث الداعية ، والفرق ملحوظ في أمرين هامين :

1 – الرسول – صلوات اللّه وسلامه عليه – أوتي جوامع الكَلِم ، وأكثر أحاديثه كلمات معدودات ، والداعية مهما كان بليغًا على خلاف ذلك تمامًا .

2 – النبي – عليه الصلاة والسلام – لا ينطق عن الهوى ، بل كل أقواله وأحاديثه تشريع لأمة الإسلام ، والداعية مهما كان حكيمًا ليس كذلك .

وإذا كان هذا هو الفرق فبود الداعية أن يطنب في كلامه ، وأن يتعجّل في حديثه ولا سيما في المواقف التي فيها تفاعل وإطناب [2] كالحث على الجهاد ، أو التحدث في مناسبات الشدائد والأزمات .. ولكن على الداعية أن لا يسرع كثيرًا في خطبته أو حديثه .. حتى لا يأكل الكلام بعضه بعضًا ، وحتى لا تختلط على المستمعين الحقائق والأفهام ..

ج - النهي عن التكلّف في الفصاحة :

ومن أدب الداعية في التحدث أن يبتعد عن التنطّع في الكلام ، والتكلّف في الفصاحة ، والتشدّق بالحديث ، والثرثرة باللسان .. لما روى أبو داود والترمذي بالسند الجيد عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه كما تتخلّل البقرة بلسانها » [3] وإذا تحقق الداعية بهذا الأدب فيكون قد تأسّى بسيد الدعاة صلوات اللّه وسلامه عليه ، فقد روى الشيخان عن أنس – رضي اللّه عنه – أن النبي ﷺ : (كان إذا

(1) صحيح البخاري كتاب المناقب ب (23) ، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ب (160) .
(2) الإطناب كما عرفه علماء البلاغة : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة كالتكرار لداع ، والإيضاح بعد الإجمال .
(3) سنن أبي داود كتاب الادب ب (86) ، وسنن الترمذي كتاب الأدب ب (72) قال في النهاية : « هو الذي يتشدّق في الكلام ، ويفخّم به لسانه ويلفه كما تلفّ البقرة الكلأ بلسانها لفًا » اهـ .

تكلّم بكلمةٍ أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم سلّم عليهم .. وكان – عليه الصلاة والسلام – يتكلم بكلام فصل لا هَزْرَ ولا نَزْر [1] ، ويكره الثرثرة في الكلام والتشدّق به (أي التكلّف) [2] .

وكم يكون الداعية محجوبًا لدى سامعيه حين يتحدث وعليه أمارات التشدّق ، وظواهر الثرثرة ! وكأنه يقول للناس : هل عرفتم من حديثي كم أنا خطيب ؟ هل عرفتم من كلامي كم أنا بليغ ؟ هل عرفتم من أسلوبي كم أنا فصيح ؟ فإذا لم يكن هذا رياءً فما هو الرياء ؟!

ألا فليحذر الدعاة من مزالق الشيطان ، ودبيب الرياء ، وليتركوا الحديث ينطلق من ألسنتهم على سجيّته وطبيعته بدون تنطّع ولا تكلّف إن أرادوا أن يكونوا في أعمالهم من المخلصين ، وفي أحاديثهم من المقبولين المؤثّرين ..

د - التحدث بما لا يُخِلّ ولا يُمِلّ :

ومن أدب الداعية في التحدّث أن يكون في حديثه مقتصدًا معتدلاً حيث لا يصل الأمر في التحدث إلى الاختصار المُخِلّ ، ولا إلى التطوال المملّ .. ليكون الحديث أوقع في نفوس السامعين ، وأشوق إلى قلوبهم ، وأحبّ إلى أسماعهم ..

ولو تأملنا مواقف النبي ﷺ ومواقف أصحابه مع الجمهور الذين يستمعون إليهم ، ويستفيدون منهم ، لرأيناها مقتصدة معتدلة .. ليتأسّى الدعاة بهم ، ويأخذوا عنهم :

روى مسلم عن جابر بن سمرة – رضي الله عنه – قال : كنتُ أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصدًا ، وخطبته قصدًا (أي وسطًا) [3] .

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث حكيم بن حزام – رضي الله عنه – قال : شهدتُ مع رسول الله ﷺ الجمعة ، فقام متوكئًا على عصا .. فحمد الله وأثنى عليه ، فكانت كلمات خفيفات طيبات مباركات [4] .

وفي الصحيحين : كان ابن مسعود يذكّرنا في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لوددتُ أنك ذكّرتنا كل يوم ، فقال : أما إنّه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكم ، وإني أتخولكم (أتعهّدكم) بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخوّلنا مخافة السآمة علينا [5] .

(1) الهزر والنّزر : الكثير والقليل .
(2) صحيح البخاري كتاب العلم ب (31) برقم (93) ، وانظر سنن الترمذي كتاب المناقب ب (9) ، ومسند أحمد 91/1 .
(3) صحيح مسلم كتاب الجمعة ب (13) برقم (41) . (4) مسند أحمد 4 / 212 ، وسنن أبي داود (1096) .
(5) اللؤلؤ والمرجان (3 / 285) برقم (1796) .

ولاشك أن الداعية إذا ابتعد عن الثرثرة اللسانية ، وتجنب الحشو في الكلام ، ولم يلجأ في شواهده وأفكاره إلى التكرار ، وتكلّم في لبِّ الموضوع بلا مقدّمات طويلة مملّة .. وجاء حديثه مقتصدًا معتدلًا .. مقبولًا لدى مستمعيه ، بل أعطى المثل الأعلى في وسطيّة أحاديثه ، واقتصاد مواعظه .. اللهم إلا في بعض حالات خاصة وجد من المصلحة أن يطنب في الحديث ويكرّر في الكلام ، ويؤكد بالشواهد .. كأن يكون مثلًا في بيئة عامية جاهلة ، يشرف على توجيهها ، ويقوم على تعليمها ، فلا بأس من الإطناب والتكرار على أن لا يطيل كثيرًا ؛ حتى لا ينفر الناس منه ، ويعرضوا عنه .

هـ - المخاطبة على قدر الفهم :

ومن أدب الحديث في الداعية أن يحدّث جليسه بما يتناسب مع عقليّته وثقافته ، وبما يتفق مع عمره وفهمه .. لما روى الديلمي عنه عليه الصلاة والسلام : « أمرنا – معاشر الأنبياء – أن نحدّث الناس على قدر عقولهم » [1] .

وكم يعيب الداعية أن يحدث قومًا عن الذرّة وأسرارها ، والكواكب وأبراجها ، والأرض ودورانها ، والعلوم ومعارفها .. والقوم الذين يجالسهم لا يقرأون ولا يكتبون ، وفي غمرات الجهالة سادرون !

وكم يكون الداعية فاشلًا حين يكون في بيئة لا تؤمن بدوران الأرض ، ولا بحركتها .. ، بل تعتبر من يقول هذا .. كافرًا خارجًا عن ملّة الإسلام ! كم يكون فاشلًا حين يسفّه رأي أهلها ، ويرميهم بالجهل المطبق ، والضلال المبين !

من أجل هذا أمر نبي الإسلام – صلوات اللّه وسلامه عليه – الدعاة والعلماء والمرشدين في كل زمان ومكان أن يحدثوا الناس بما تحمله عقولهم ، حتى لا يقعوا في الفتنة .. روى الديلمي عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – مرفوعًا إلى النبي ﷺ : « لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا ما تحمله عقولهم ، فيكون فتنة عليهم » [2] وفي مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : (ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) [3] .

وكم يكون الداعية غير موفّق حين يجلس مع قوم من الملاحدة الماديين ، ويحدثهم عن

(1) رواه الديلمي بسند ضعيف ، وله شواهد كثيرة مما رفع الحديث إلى مرتبة الحسن لغيره .. ارجع إلى كتاب « كشف الخفاء » للعجلوني الجزء الأول حرف الهمزة للفظ « أمرنا » .

(2) انظر كنز العمال (29284) وإتحاف السادة المتقين 8 / 550 .

(3) صحيح مسلم المقدمة (1 / 11) .

الروح ، وسؤال الملكين ، والبعث ، والحساب ، والجنة والنار .. وهم لا يؤمنون أصلًا إلا بما تراه حواسّهم ، ولا يعتقدون إلا ما كان خاضعًا للتجربة والحسّ ، وداخلًا في نطاق المشاهدة والواقع ، فمن الطبيعي أن يهزأوا منه ، ويستهتروا به ، ويتولوا عنه ..

وكم يكون الداعية غير مسدَّد حين يجلس مع طبقة من المثقفين الذين لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم ! وذهب يحدثهم عن كرامات الأولياء ، وعن وظائف الملائكة ، وعن أخبار الجنّ .. وهم ليسوا من الوعي الناضج ، والإيمان المكين ، والثقافة الإسلامية الشاملة .. حتى يُسلّموا بها ، ويصدّقوا أخبار الوحي فيها .

ومن أجل هذا أمر نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام كل من يتصدّى للتعليم والدعوة والإرشاد أن يحدّثوا الناس بما يعرفون ويفهمون ، حتى لا يُكَذَّب اللّه ورسوله .. روى البخاري في صحيحه عن علي - كرّم اللّه وجهه - موقوفًا : « حدّثوا الناس بما يعرفون أتحبوّن أن يُكَذَّب اللّه ورسوله ؟ » [1] .

فما على الداعية الموفق إلا أن يأخذ بالمبدأ الذي رسمه رسول اللّه ﷺ : « أمرنا .. أن نحدث الناس على قدر عقولهم » [2] إن أراد أن يكون من الدعاة المرموقين ، ومن رجال الدعوة المعدودين .. ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [3] .

و - إقبال المتحدِّث على الجلساء جميعًا :

ومن أدب الحديث في الداعية : أن يُقبل على جلسائه جميعًا في كل شيء : في النظرة ، في السؤال ، في الإجابة ، في الابتسامة .. حيث يُشعر كل فرد ممن يلتقي معهم ، ويقوم على تربيتهم وتعليمهم أنه يريده ويخصّه ويقبل عليه .. وبهذا الخلق العظيم يملك قلوبهم ، ويؤثر فيهم ، ويتفاعل معهم ، ويعمّق آصرة المحبة والثقة بينه وبينهم ، ويكون في الوقت نفسه قد تأسّى بصاحب الخلق العظيم - صلوات اللّه وسلامه عليه - في إقباله بوجهه وحديثه على كل من يجتمع بهم ، ويتحدّث إليهم حتى إن الرجل العادي أو الإنسان الشرّير وهو في مجلس رسول اللّه ﷺ يظن نفسه أنه خير القوم ، وأفضل الناس : روى الطبراني بإسناد حسن عن عمرو بن العاص - رضي اللّه عنه - قال : كان رسول اللّه ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على شرّ القوم ، يتألّفه بذلك ، وكان يقبل بوجهه وحديثه عليّ حتى ظننتُ أني خير القوم ، فقلتُ :

---

(1) صحيح البخاري كتاب العلم ب (50) . (2) سبق تخريجه ص (340) . (3) سورة البقرة الآية : 269 .

يا رسول اللّه ! أنا خير أم أبو بكر ؟ فقال : أبو بكر ، قلتُ : يا رسول اللّه ! أنا خير أم عمر ؟ قال : عمر ، قلت : يا رسول اللّه ! أنا خير أم عثمان ؟ قال : عثمان ؛ فلما سألتُ رسول اللّه ﷺ صدّ عني ، فوَدِدْتُ أني لم أكن سألته) [1] .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تتأسّى بسيد الدعاة – صلوات اللّه وسلامه عليه – في إقباله على جليسه بوجهه وحديثه ، حتى تملك بدعوتك القلوب ، وتجذب بأخلاقك النفوس ، وترى شباب الإسلام قد ثابوا إلى الحق ، وقبلوا هدى اللّه عز وجلّ .

ز - مباسطة الجلساء أثناء الحديث :

ومن أدب الداعية في الحديث مباسطة جلسائه أثناء الحديث وبعده ، حتى لا يشعروا بالسأم ، ولا ينتابهم الملل ، ولا يأخذهم الفتور ، وهذا – واللّه – يدل على أخلاق في الدعوة عالية ، وعلى أدب في الداعية رفيع .. وكم يسرّ الجلساء حين يرون معلمهم أو مرشدهم أو داعيتهم إلى الخير .. لا تفارق الابتسامة ثغره ولا تجافي المباسطة مجلسه ؟! وكم يستشعر الجلساء أو المتعلمون .. محبّة مرشديهم أو معلّميهم .. حين يرون فيهم المعاملة الليّنة ، والخلق العظيم ؟ ..

وهذا الأدب في الداعية هو أدب رسول اللّه ﷺ في محادثته لأصحابه ، وفي ملاطفته لجلسائه .. **وإليكم طرفًا من مباسطته وملاطفته عليه الصلاة والسلام :**

روى الإمام أحمد عن أم الدرداء – رضي اللّه عنها – قالت : كان أبو الدرداء إذا حدّث حديثًا تبسّم ، فقلتُ : لا ، يقول الناس : إنك أحمق !! – أي بسبب تبسّمك في كلامك – فقال أبو الدرداء : ما رأيت أو سمعتُ رسول اللّه ﷺ يحدّث حديثًا إلا تبسّم ، فكان أبو الدرداء إذا حدّث حديثًا تبسّم اتباعًا لرسول اللّه ﷺ في ذلك [2] ..

وروى مسلم عن سماك بن حرب قال : قلتُ لجابر بن سمرة رضي اللّه عنه : أكنتَ تجالس رسول اللّه ﷺ ؟ فقال جابر : نعم كثيرًا ، كان ﷺ لا يقوم من مصلاه الذي فيه يصلّي الصبح حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون (والرسول جالس) فيأخذون في أمر الجاهلية ، فيضحكون ، ويتبسّم ﷺ [3] .

---

(1) رواه الترمذي في الشمائل (2/189) وقال الهيثمي : رواه الطبراني وإسناده حسن ، انظر مجمع الزوائد (9/15) .
(2) مسند الإمام أحمد (5 / 198) .
(3) صحيح مسلم كتاب الفضائل ب (17) برقم (69) .

فما على الداعية إلا أن يتخلّق بصاحب الخلق العظيم ﷺ في مباسطته لجلسائه أثناء الحديث إن أراد أن يكون لحديثه جاذبية ، ولكلامه في الحاضرين قبول .

تلكم - أيها الدعاة - أهم القواعد التي وضعها الإسلام في أدب الحديث ، وأصل الحوار ، وحسن التخاطب ..

ولاشك أنكم إذا تحدثتم باللغة التي يفهمها جلساؤكم ..

وتمهّلتم بالكلام ، أثناء تلقينكم وتعليمكم .. وتجنّبتم التنطع بالكلام ، والتفاصح باللسان في إلقاء مواعظكم .

وسلكتم سبيل الوسطية والاعتدال بما لا يخلّ ولا يملّ في جميع أحاديثكم .

وخاطبتم الناس على قدر أفهامهم وعقولهم في كل لقاءاتكم ..

وأقبلتم بوجوهكم وأحاديثكم على كل جلسائكم ..

وباسطتم الجلساء جميعًا بحلو بشاشتكم وابتسامتكم .

إنكم إن فعلتم كل هذا تكونوا قد اتبعتم منهج الإسلام في أدب الحديث ، وكيفيّة الحوار .. بل تكونوا قد أخذتم بأعظم المقومات في نجاح الدعاة ، وبأهم الأسباب في نشر الدعوة الإسلامية في أطراف الأرض ، وربوع المعمورة ..

فما أحوجنا إلى دعاة يعرفون منهج الإسلام في التأثير ، وطريقته في الإصلاح ، ووسائله في النجاح .. عسى أن يصلوا في نهاية المطاف إلى إقامة مجتمع فاضل ، وبناء دولة إسلامية عتيدة .. وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

3 - **البدء بالأهم فالمهم ..**

سبق أن ذكرنا في « **ثقافة الداعية الواقعية** » أن على الداعية أن يعرف واقعه الذي يعيش فيه ، والبيئة التي يدعو إلى الله فيها ، فلا يكفي الداعية أن يكون قد حصّل العلوم الإسلامية ، وجال في مراجع الأدب والتاريخ ، وأخذ بحظ وافر من العلوم الإنسانية والعلوم التجريبيّة ، ولكنه مع هذا كلّه لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه ، وما يقوم عليه من مبادئ ، وما يسوده من مذاهب ، وما يصطرع فيه من قوى ، وما يجري فيه من تيّارات ، وما يعاني أهله من متاعب ..

إن الداعية لا ينجح في دعوته ، ولا يكون موفقًا في تبليغه حتى يعرف مَنْ يدعوهم وكيف يدعوهم ؟ وماذا يقدّم معهم ؟ وماذا يؤخر ؟ وما القضايا التي يعطيها أهميّة وأولويّة قبل غيرها ؟ وما الأفكار الضرورية التي يطرحها ويبدأ بها ؟

وهذه الطريقة في الدعوة هي طريقة الرسول ﷺ ، وطريقة الذين اتبعوه بإحسان .. أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - أن رسول اللّه ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن اللّه تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم ، فإذا أطاعوك بها فخذ منهم ، وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه وبين اللّه حجاب »[1] .

من هذا النص يتبينّ أن على الداعية أن يبدأ بالأهمّ ثم المهم .. أن يبدأ في الدعوة بالعقيدة قبل العبادة ، وبالعبادة قبل مناهج الحياة ، وبالكليات قبل الجزئيات ، وبالتكوين الفردي قبل الخوض في الأمور العامة ، ومما يؤكد هذه الأهمية ؛ دعوة النبي ﷺ إلى ما هو أهمّ عمّا هو مهمّ في الفترة المكية ، ففي هذه الفترة بالذات كان - صلوات اللّه وسلامه عليه - يركّز في الدعوة إلى اللّه على الإيمان باللّه ووحدانيته ، والتعرف على اللّه عن طريق الظواهر والآثار ، ويركّز أيضًا في الرد على مزاعم الدهريين وإقامة الحجة عليهم ، ومنكري البعث ودحض مفترياتهم ؛ ويركز كذلك على إثبات الرسالة ، وإظهار خصائصها ، وفضح الجاهلية ، وتجسيد عوارها ومفاسدها ..

ولو لم يكن النبي ﷺ عالمًا بمعتقدات القوم ، بصيرًا بأحوال الجاهلية ، خبيرًا بعادات البيئة .. لما بدأ معهم بإصلاح العقيدة التي هي في **نظره الأهمّ** ، ولما ركّز في دعوته على هذه القضايا التي تتصل بالإيمان باللّه ، ووحدانية الخالق ، وترتبط بالاعتقاد بالمغيّبات .. حتى إذا دخل القوم حظيرة الإسلام ، وخالط الإيمان بشاشة قلوبهم .. جاءت **مرحلة المهمّ** : ألا وهي التزام القوم الإسلام على أنه أصول معاملة ، ومبادئ حكم ، ومناهج حياة .. ، وهذا ما ركّز عليه ﷺ في الفترة المدنية حين أقام النبي ﷺ معالم المجتمع الفاضل في المدينة المنوّرة بعد أن صلحت عقيدة الأمة ، وترسّخ في أبنائها الإيمان بالمغيّبات ..

---

(4) الحديث سبق تخريجه انظر ص (312) .

● **ويخطئ الداعية** حين يكون في مجتمع يدين أهله بالشيوعية ، ويذهب يحدثهم عن العبادة ، أو مناهج الحياة ، أو أخلاق الإسلام .. يحدثهم بهذا **وقد ترك التحدث بالأهمّ** ألا وهو : التكلم عن الآثار والظواهر التي تدلّ على اللّه والتحدث عن البراهين العقلية ، والأدلة العلمية التي توصل الإنسان إلى معرفة اللّه ووحدانيته .. ويمكن أن يستقرئها الداعية من آيات الكون الباهرة ، وظواهر الحياة المبدعة ، ومعالم التكوين الدقيق في خلق الإنسان ، وما أكثرها في العالم السفلي ، والعالم العلوي ، وعالم الحياة ..

ورحم اللّه أبا العتاهية حين قال :

ولـلّـه في كـلّ تحـريـكـةٍ وتسـكـينةٍ في الـورى شـاهـد
وفي كـلّ شـيءٍ لـه آيـة تـدل عـلـى أنـه الـواحـد

● **ويخطئ الداعية** حين يكون في بيئة يدين أبناؤها بالإسلام ، ولكن يغلب عليهم الطابع الأمّي ، والمظهر الفطريّ ، والاتجاه السليم .. وذهب يحدثهم عن الفلسفات الفكرية العالميّة ونقضها ، والنظريات العلمية الحديثة وموقف الإسلام منها ، والمذاهب الاجتماعية الحاضرة وتناقضها مع بعضها .. ذهب يحدثهم بهذا **وقد ترك التحدث بالأهمّ** ألا وهو : العلم والتعلّم ، والأخلاق والتخلّق ، والإيمان وأثره ، والعبادة ومفهومها ، والمعاملة وحقيقتها .. وبودّ الداعية أن يصنّف المواضيع التي يطرحها في بيئة كهذه على حسب أهميتها ؛ ليتناول واحدة بعد واحدة في الوقت المناسب ، وهكذا حتى ينتهي منها ..

● **ويخطئ الداعية** حين يكون بين طبقة مثقفة آمنت بالإسلام العظيم عقيدة ونظامًا ، وتحقّقت به سلوكًا ومعاملة ، وحملته إلى الناس تبليغًا ودعوة .. وذهب يحدثهم عن أبسط مبادئ الإسلام ، وأظهر أركان الإيمان كالإيمان باللّه والرسل .. والاهتمام بالصلاة والصيام .. وهذه الأمور من المسلّمات ، بل من البديهيات المعلومة من الدين بالضرورة .. ذهب يحدثهم بهذا **وقد ترك التحدث إليهم بالأهمّ** ألا وهو : مسؤولية الشباب في حمل رسالة الإسلام ، والشباب وأثرهم في الإصلاح والتغيير ، كيف يتكوّن الدعاة ؟ مؤامرات الأعداء على الإسلام وأهله ، هل للداعية أن يرتبط بجماعة إسلامية ؟ ، وما مواصفات الجماعة التي يرتبط بها الداعية ؟ ، ما العقبات التي تواجه الدعاة ؟ ... وبإمكان الداعية أن يصنّف هذه المواضيع الهامة ؛ ليتناولها واحدة بعد واحدة في الوقت المناسب .. وهكذا حتى ينتهي منها ، ويطمئن أن

الشباب تشبّعوا بها ، وعاهدوا اللّه على أن يتابعوا المسيرة مهما تراكمت العقبات ، وغَلَتْ التضحيات ، وتوالت الشدائد ..

فالداعية إذن لا يكون حكيمًا ولا موفقًا ، ولا يمكنه بحال أن يُحْدِث في البيئة تأثيرًا ولا تغييرًا حتى يعلم كيف يبدأ ؟ ومن أين يبدأ ؟ وماذا يقدّم ؟ وماذا يؤخر ؟ وحتى يعلم أيضًا ما هي القضايا التي يعطيها أهميّة وأولويّة قبل غيرها ؟ وما هي الأفكار الضرورية التي يطرحها ويبدأ بها ؟ **وبالاختصار : حتى يتدّرج في دعوته بالأهمّ ثم المهم** ..

وهذا كلّه لا يتأتى – كما سبق ذكره – حتى يدرس البيئة التي يدعو إلى اللّه فيها دراسة شاملة ، ويعرف كل شيء عن أفكار أهلها ، واتجاهاتهم العقائدية ، وأحوالهم الاجتماعية ، ونزعاتهم الأخلاقية ، وأوضاعهم الثقافية .. وبهذا كله يستطيع الداعية أن يخاطبهم بالعقلية التي يفهمونها ، والأفكار التي يتفاعلون معها ، كلٌّ على حسب سنّه ، وكلٌّ على حسب ثقافته ، وكلٌّ على حسب التزامه بالإسلام .. للشعار الذي رفعه سيد الدعاة صوات اللّه وسلامه عليه ، ليكون للدعاة في كل زمان ومكان منارًا يسيرون على هداه ، ونبراسًا يستضيئون بنوره : « أُمرنا .. أن نحدّث الناس على قدر عقولهم »[1] ، « حدّثوا الناس بما يعرفون ؛ أتحبّون أن يُكذّب اللّه ورسوله ؟ »[2] .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تسلك في تبليغ الدعوة منهج البدء بالأهمّ ثم المهمّ .. وهو منهج قويم رسمه رسول الإسلام – صلوات اللّه وسلامه عليه – كما علمت ، فإذا نفّذت ذلك كنت من الدعاة المرموقين الذين لهم في مجال الإصلاح أثر ، وفي ميدان الدعوة تغيير ..

* * *

4 - تجنّب الخلافات الفقهية :

سبق أن ذكرنا في فصل « **ثقافة الداعية** » في بحث « **الفقه وأصوله** » : (ويحسن بالداعية أن يتعرّف على المذاهب الفقهية الأخرى المعتبرة حتى لا ينكر على الناس ما لا يجوز أن ينكر ، فلا يجوز للداعية مثلًا – إن كان حنفيَّ المذهب – أن ينكر وهو في خطبة الجمعة على مَنْ يدخل المسجد ويصلّي ركعتين خفيفتين ؛ لأن الإمامين الجليلين : الشافعي وابن حنبل يجيزان لمن يدخل المسجد والإمام يخطب أن يصلّي

(1) سبق تخريجه ص (340) .
(2) سبق تخريجه ص (341) .

ركعتي تحية المسجد ؛ وعلى الداعية أن يقرأ – على الأقلّ – كتابًا في الفقه المقارن مثل : « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » لابن رشد ..

ما ذكرناه في « ثقافة الداعية » ، وما سوف نذكره الآن هو من أهم ما ينبغي أن يتفهّمه الداعية ، بل هو من أعظم مقوّمات نجاحه إن وعاه وعمل على تنفيذه وتطبيقه في مجال الدعوة ، ومما لا يختلف فيه اثنان أن المنكر الذي على الداعية أن ينهى عنه هو مما أجمع على إنكاره أهل الفقه والعلم والاجتهاد .. كأن يُنْكِر على مَنْ يتعاطى الربا ، أو مَنْ يحتسي الخمر ، أو من يسير وراء الزنى .. أما ما كان من خلاف في أحكام الفروع المحتملة وجوهًا بين المجتهدين الثقاة الذين تلقّت الأمة الإسلامية اجتهادهم وعلمهم بالقبول فلا يُعَدّ خلافهم في الشرع منكرًا .

فلا يجوز شرعًا لمن كان شافعيّ المذهب الذي يتبع مذهبه في عقد اليدين في الصلاة مثلًا .. أن ينكر على من كان مالكيّ المذهب الذي يتّبع مذهبه في إسبال اليدين في الصلاة .

ومثل ذلك : الحنفيّ الذي يحلّ في بلد شافعيّ أو حنبليّ : فيجد الناس يرفعون أيديهم عند الركوع ، وعند الرفع منه ، أو يجدهم يقرأون الفاتحة خلف الإمام ، ويرفعون أصواتهم بالتأمين ، ولا يسلّمون إلا بعد أن يفرغ الإمام من تسليمتيه ... فقد يبادر إلى إنكار ما عليه القوم ، وهو لا يعلم أن هذا هو مذهبهم الذي يتعبّدون اللّه على أساسه ..

لماذا لا يجوز الإنكار على متّبع المذهب الحق ؟ لأن كل واحد من هؤلاء الأئمة الثقاة المتبوعين قد بذل أقصى ما في وسعه ليصل إلى الحكم الصحيح عن طريق الدليل ، وكلّ إمام من هؤلاء يستقي فقهه من المصادر التشريعية المعروفة : الكتاب ، والسنّة ، والقياس ، والإجماع ..

فلماذا الإنكار على متّبع المذهب وهو مقلّد إمامًا جبلًا في العالم ، وقدوة في الصلاح والورع ، وآية في الذكاء والفهم والنبوغ .. ، وقد قالوا قديمًا : (من قلّد عالمًا لقي اللّه سالمًا) .

وفي هذا المجال يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه اللّه – ما ملخّصه : (إن ما فيه خلاف : إن كان الحكم المخالف يخالف سنّة أو إجماعًا وجب الإنكار عليه ، وكذلك يجب الإنكار على العامل بهذا الحكم ، وإن كانت المسألة ليس فيها سنّة

ولا إجماع ، وللاجتهاد فيه مساغ فإنه لا يُنكر على المخالف لرأي المُنْكِر ومَذْهَبه سواء كان المخالف مجتهدًا أو مقلّدًا ..) [1] .

ويؤكد هذا الإمام النووي ، قال المقدسي : وذكر الشيخ « محيي الدين النووي » : (إن المختلف فيه لا إنكار فيه ، ولكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف ؛ فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق) ، قال المحقّق المقدسي : (هذا ما قاله النووي ، وهو التحقيق الذي عليه جماهير العلماء من جميع المذاهب) [2] .

ويقول « ملّا علي القاري » في ذلك ، وكلامه – كما سبق – هو أقرب إلى الحق ، وألصق بروح الشريعة : « لا إنكار في المختلف فيه بناءً على أن كلّ مجتهد مصيب ، أو المصيب واحد ، إلا أن المخطئ غير متعيّن لنا ، مع أن الإثم موضوع عنه وعمّن تبعه .. » ، ويضيف « القاري » قائلًا : « ليس للمجتهد – على الأصلح – أن يحمل الناس على مذهبه سواء كان مجتهدًا أو مقلّدًا ، فلم يزل الخلاف بين الصحابة والتابعين » [3] .

ويقول الإمام الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » حين تعرض للحِسْبَة (أي تغيير المنكر) وشروطها : « .. أن يكون كون المنكر منكرًا معلومًا بغير اجتهاد ، فكلّ ما هو محلّ لاجتهاد فلا حِسْبَة فيه » [4] .

ومن هذه الأقوال وأقوال كثيرة غيرها يتبيّن : **أن لا إنكار ولا انتقاد في الأمور الاجتهادية المختلف فيها** ، كالإنكار على مَنْ يقلّد إمامًا كبيرًا في علمه واجتهاده ، تلقّت الأمة الإسلامية فقهه بالقبول جيلًا عن جيل كالأئمة الأربعة وغيرهم رضي الله عنهم ورحمهم .

ولقد نقل المحقّق العجلوني في كتابه « كشف الخفاء » نقولًا طيّبة عن كبار الأئمة تبيّن بوضوح : الحكمة من اختلاف الفقهاء ، وأنهم لا يعيبون على بعضهم بعضًا في هذا الاختلاف ، وأنهم بيّنوا ما يجوز لهم الاختلاف فيه شرعًا وما لا يجوز ، وأنهم كانوا لا يحملون الناس على اتّباع مذهبهم .. فلنستمع إلى ما نقله الشيخ العجلوني في هذا المضمار : (يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز : « ما سرّني لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة » .

(1 ، 2) من كتاب « السلوك الاجتماعي في الإسلام » للشيخ حسن أيوب ص 475 .
(3) المبين المعين لفهم الأربعين ص : 190 . (4) إحياء علوم الدين : 2 / 286 .

ويقول الإمام « يحيى بن سعيد » : « اختلاف أهل العلم توسعة ، وما برح المفتون يختلفون ، فيُحلّ هذا ، ويحرّم هذا ، فلا يعيب هذا على هذا » .

ويقول الإمام « الخطّابي » : « والاختلاف في الدين ثلاثة أقسام :

الأول : في إثبات الصانع ووحدانيته ، وإنكاره كفر .

والثاني : في صفاته ومشيئته ، وإنكارهما بدعة .

والثالث : في أحكام الفروع المحتملة وجوهًا ، فهذا جعله اللّه رحمة وكرامة للعلماء ، وهو المراد بحديث : « **اختلاف أمتي رحمة** » الذي رواه البيهقي في المدخل بسند منقطع » .

قال الخليفة العباسي « هارون الرشيد » لمالك بن أنس : « يا أبا عبد اللّه تكتب هذه الكتب – يعني مؤلفاته الفقهية – ونفرّقها في آفاق الإسلام لنحمل الأمة عليها ؟ » .

قال الإمام مالك : « يا أمير المؤمنين : إن اختلاف العلماء رحمة من اللّه تعالى على هذه الأمة ، كلٌّ يتّبع ما صحّ عنده ، وكلٌّ على هدًى ، وكلٌّ يريد اللّه تعالى » .

وذكر ابن سعد في طبقاته عن القاسم بن محمد أنه قال : « كان اختلاف أصحاب محمد ﷺ رحمة للناس » ا هـ عجلوني [1] .

فمن هذه الأقوال يتبينّ أنه لا يجوز للداعية مهما كان عالمًا أن يحمل الناس على مذهب معيّن ؛ لأن في ذلك تفريقًا لوحدة الأمة ، وتعويقًا لمسيرتها نحو السيادة والنصر .

ونصيحتي إلى كل من يحمل لواء الدعوة الإسلامية ، وكل من هو مكلّف بالوعظ والإرشاد .. أن يتركوا الناس وما يتعبّدون من مذاهب فقهية معتبرة ، وأن لا يجبروهم على اتّباع مذهب معين ، وأن لا ينكروا عليهم إلا ما كان متّفقًا على إنكاره ، ففي ذلك وحدتهم المتراصة ، واعتصامهم بحبل اللّه المتين ، وتضافرهم على إقامة المجد الإسلامي العريض في المشارق والمغارب .

وعلى الدعاة والعلماء جميعًا أن يأخذوا بالشعار الذي رفعه رائد الدعوة الإسلامية في العصر الحديث الإمام البنا رحمه اللّه : (**نعمل فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما**

---

(1) ارجع إلى الجزء الأول من صفحة : 65 - 66 من كتاب « كشف الخفاء » للعجلوني تجد هذه الأقوال في تحقيق حديث : « اختلاف أمتي رحمة » ، ومن تحقيقات العجلوني للحديث المذكور يتبين أن حديث « في اختلاف أمتي رحمة » ضعيف ، وذكر الخطابي .. للحديث شواهد ينتقل بها إلى الحسن لغيره .

اختلفنا فيه) فإذا هم أخذوا بهذا المبدأ بروح العزيمة والعمل والتطبيق .. يكونون ممن ساهموا فعلًا في وحدة الأمة وتماسكها ، بل أصبحوا ردءًا وسندًا لمسيرة جماعة المسلمين نحو العزة والنصر .. بل وحّدوا جهودهم مع الفئة التي اختارها اللّه لنصرة دينه ، وإعلاء كلمته .. فما أحوج دعاة الإسلام اليوم إلى التفاهم والتقارب والتعاون والالتحام .. لاستعادة الأمجاد ، وصناعة التاريخ ، وتحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة !! .

فاحرص – أخي الداعية – وأنت تدعو إلى اللّه على أن تتجنّب كل سبيل يؤدّي إلى تفرقة الأمّة ، وإثارة الفتنة ، وزرع العداوات بين الناس .. وذلك برفعك الشعار الذي رفعه الإمام البنا من قبل : (**نعمل فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه**) فحذار أن تدخل مع الناس في خلافات فقهيّة ، ومجادلات فرعيّة .. فإنها – واللّه – الوهن ، وإنها الفتنة ، وإنها الحالقة لتآلف القلوب ، وإنها الممزّقة لوحدة الصفوف ..

فما أجمل أن ننضوي تحت هذا الشعار الذي رفعه القرآن الكريم : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ .. ﴾ [1] لنعود أقوياء أصفياء .. خير أمة أخرجت للناس ..

* * *

5 - **الترفّق والملاطفة** :

سبق أن ذكرنا في فصل « **أخلاقية الداعية** » أن صفتي الحلم والتواضع هما من أعظم الصفات الخلقية في تكوين الدعاة وإعدادهم ، بل هما من أكبر العوامل في جذب القلوب إليهم ، وتحبيب الناس فيهم ، وردّ الإنسانية إلى الدين الحق ، والإسلام العظيم ..

ومما ذكرناه أيضًا : أن الذين يأخذون الناس بالشدة ، ويعاملونهم بالقسوة ويسلكون معهم سبيل الفظاظة والعنف .. فإنهم يعطون لغيرهم الصورة المشوّهة عن الإسلام ، والنموذج المقلوب عن أخلاق الدعاة ، بل يُجانبون سبيل التأسّي بالنبي ﷺ في مرآة حلمه ، وعفوه الجميل .. بل يسبّبون في المجتمع ردود فعل كبيرة قد تؤدي إلى أسوأ النتائج ، وأخطر الانحرافات ... وهذا الذي ذكرناه سابقًا ، وما سنذكره لاحقًا هو ما ألمح إليه القرآن الكريم حين قال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [2] .

وإذا كان القرآن الكريم – أخي الداعية – دعا المسلم العاديّ إلى أن يعفو ويصفح ،

---

(1) سورة آل عمران الآية : 103 .

(2) سورة آل عمران الآية : 159 .

ويحلم ويسمح فدعوته لك بالتحقق بهذه المعاني ، والتخلق بهاتيك الخصال .. هو من باب أولى ، باعتبارك الداعية الذي ينظر إليه ، والمرشد الذي يؤخذ عنه ، والمعلم الذي يستفاد منه .. فاستمع – يا أخي – إلى ما يأمر به القرآن من الصفح الجميل ، والعفو الكريم ، والمعاملة الحسنة :

قال تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] .

وقال سبحانه : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [2] .

وقال جلّ جلاله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [3] .

وكم يسيء الداعية إلى الدعوة والدعاة حين ينظر إلى الناس من برجه العاجي على أنهم دونه علمًا ومنزلة .. ، فيخاطبهم بلهجة المستعلي المترفّع على أنه العالم وهم الجَهَلَة ، وأنه التقيّ وهم الفَسَقَة ، وأنه الهادي وهم على الضلال المبين ؟!!

وكم يسيء إلى الإسلام وحَمَلة رسالة الإسلام حين يقف بين الناس معلمًا ومرشدًا وداعيًا ليقول لهم : أنتم الفسَقَة في أعمالكم ، وأهل الكفر باعتقادكم ، وأهل البدع بانحرافكم .. أنتم حصب جهنم لها واردون .. أنتم أهل النار فعليكم اللعنة ولكم سوء الدار .. ؟!!

وكم يحدث في الشباب ردود فعل كبيرة حين يكون على هذه الشاكلة من الفظاظة الظاهرة ، والكلمات القارعة ، والمواقف المنفردة .. وهو يظن أنه يحسن صنعًا ؟!! هل بعمله هذا يحسن أم يسيء ؟ هل يبشّر أم ينفّر ؟ هل يجمع أم يفرّق ؟

لاشك أنه يُسيء ولا يحسن ، وينفّر ولا يبشّر ، ولا يفرّق ولا يجمع .. بل يعيش عن الناس في عزلة ، وعن الشباب في منأى ، وعن المجتمع في حاجز نفسيّ كبير .

أين هذا من أخلاق النبي ﷺ ، وملاطفة السلف ؟

فلقد استشهدنا في فصل « **أخلاقيّة الداعية** » بأمثلة كثيرة تعطي للدعاة والعلماء في كل زمان ومكان الصورة الصادقة ، والنماذج الحيّة .. عن الخُلُق الكامل ، والرفق الرائع ، والحكمة البالغة ..

وسوف أزيدك – أخي الداعية – **نماذج حيّة كريمة** ، عسى أن تكون لك وللدعاة تبصرة وذكرى :

---

(1) سورة آل عمران الآية : 134 . (2) سورة الأعراف الآية : 199 . (3) سورة فصلت الآية : 34 .

أ - قال « حماد بن سلمة » : إن « **صِلَةَ بن أشيم** » ، مرّ عليه رجل قد أسبل إزاره (علامة للتكبر) ، فهمّ أصحابه أن يأخذوه بشدة ، فقال : « دعوني أنا أكفيكم » ، فقال ابن أشيم للرجل : يا ابن أخي إن لي إليك حاجة ، قال : وما حاجتك يا عم ؟ قال : أحبّ أن ترفع من إزارك ، فقال : نعم وكرامة ، فرفع إزاره ، فقال لأصحابه : لو قرّعتموه لقال : لا ، ولا كرامة . وشتمكم !! .. [1] .

ب - وقال « محمد بن زكريا الغلابي » : شهدتُ « **عبد الله بن محمد ابن عائشة** » ليلة ، وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا في طريقه غلام من قريش سكران ، وقد قبض على امرأة فجذبها ، فاستغاثت ، فاجتمع الناس يضربونه ، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه ، فقال للناس : تنحّوا عن ابن أخي ، ثم قال : إليّ يا ابن أخي : فاستحى الغلام ، فجاء إليه ، فضمه إليه ، ثم قال له : امض معي ، فمضى معه حتى صار إلى منزله ، فأدخله الدار ، وقال لبعض غلمانه : بيّتْهُ عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ، ولا تتركه ينصرف حتى تأتيني به .

فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى .. وهمّ بالانصراف ؛ فقال الغلام : قد أمر أن تأتيه ، فأدخله عليه ، فقال له ابن عائشة : أما استحيت لنفسك ؟ أما استحيت لشرفك ؟ أما ترى مَنْ وَلَدَكَ ؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه ، فبكى الغلام منكسًا رأسه ، ثم رفع رأسه ، وقال : عاهدتُ الله عهدًا يسألني عنه يوم القيامة أني لا أعود للشرب ، ولا شيء مما كنت فيه ، وأنا تائب .. فقال ابن عائشة : ادنُ مني ، فقبّل رأسه ، وقال : أحسنت يا بني ، فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ، ويكتب عنه الحديث .. وكان ذلك ببركة الرفق [2] .

ج - شتم رجل ابن عباس - رضي الله عنهما - فلما قضى مقالته ، فقال : يا عكرمة انظر هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكّس الرجل رأسه واستحيا [3] .

د - وأسمع رجل معاوية - رضي الله عنه - كلامًا شديدًا ، فقيل له : لو عاقبته؟ فقال : إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيّتي [4] .

هـ - وجاء غلام (رقيق) لأبي ذر - رضي الله عنه - وقد كسر رِجْل شاة له ،

(1 ، 2) من كتاب « السلوك الاجتماعي في الإسلام » للشيخ حسن أيوب ص : 478 .

(3 ، 4) من كتاب « مختصر منهاج القاصدين » للمقدسي ص : 190 .

فقال له : مَنْ كسر رِجْل هذه ؟ قال الغلام : أنا فعلتُه عمدًا لأُغيظك فتضربني فتأثم !! فقال أبو ذر : لأُغيظنّ من حرّضك على غيظي ، فأعتقه في سبيل اللّه !! [1] .

إلى غير ذلك من النماذج الرائعة ، والمواقف الخالدة .. التي أُثِرت عن الرسول والصحابة والسلف .. وقد ذكرْنا الكثير والكثير عن صفحهم الجميل ، وخُلُقهم العظيم ، ورفقهم النادر .. وإذا كانت الأخلاق في حد ذاتها قابلة للتغيير والتبديل ، كما أثبتنا سابقًا - فباستطاعة الداعية أن يبدّل عصبيّته التي درج عليها إلى التسامح ، وغضبه المتواصل إلى حلم ، وغلظته الدائمة إلى رفق ولين ، **وما ذلك إلا باتباع منهج الإسلام في تسكين الغضب ، والأخذ بوصايا النبي ﷺ في التخلّق بالرفق والملاطفة ، والاقتداء الكامل بالسلف والدعاة إلى اللّه في أخلاقهم العالية ، ومرآة عفوهم الجميل ..**

● **اما اتباع منهج الإسلام في تسكين الغضب :**

فهو اتباع المراحل التالية :

1 - **تغيير العادة التي يكون عليها الغضبان** : وذلك لما روى الإمام أحمد وغيره عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب .. وإلا فليضطجع » [2] .

2 - **اللجوء إلى الوضوء في حالة الغضب** : وذلك لما أخرجه أبو داود عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خُلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء ، فإن غضب أحدكم فليتوضأ » [3] .

3 - **اللجوء إلى السكوت في حال الغضب** : وذلك لما روى الإمام أحمد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » [4] .

4 - **التعوذ باللّه من الشيطان الرجيم** : وذلك لما جاء في الصحيحين أنه استبّ رجلان عند النبي ﷺ ، وأحدهما يسبّ صاحبه مغضبًا قد احمرّ وجهه ، فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم » [5] .

ولاشك أن الداعية إذا أخذ بمنهج النبي ﷺ في تسكين الغضب ، وطبّقه على

(1) انظر المرجع السابق .
(2) مسند الإمام أحمد (5 / 152) ، وانظر شرح السنة (14 / 241) .
(3) سنن أبي داود (4784) .
(4) مسند الإمام أحمد (1 / 239) .
(5) اللؤلؤ والمرجان 3 / 199 برقم (1677) .

نفسه التطبيق الكامل ، فيعتاد الحلم والأناة ، وضبط النفس عند الغضب .. بل تصبح هذه المعاني في سلوكه خلقًا وعادة وتعاملًا كريمًا ..

● **وأما وصايا النبي ﷺ في التخلّق بالرفق والانتهاء عن الغضب :**

فإنها أكثر من أن تُحصى ، وها نحن أولاء نقتطف طاقة من وصاياه – صلوات اللّه وسلامه عليه – في الرفق والحلم وضبط النفس عند الغضب ، عسى أن تكون للدعاة تبصرة وذكرى :

روى مسلم عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – قال : قال رسول اللّه ﷺ لأشجّ عبد القيس : « إنّ فيك خصلتين يحبّهما اللّه : الحلم والأناة » [1] .

روى مسلم أيضًا عن عائشة أمّ المؤمنين – رضي اللّه عنها – أن النبي ﷺ قال : « إن اللّه رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، أو ما لا يعطي على سواه » [2] .

وروى مسلم كذلك عن عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلا شانه » [3] .

وفي الانتهاء عن الغضب : روى البخاري عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – أن رجلًا قال للنبي ﷺ : أوصني ، قال : « **لا تغضب** » ، فردد مرارًا قال : « **لا تغضب** » [4] .

وروى الشيخان عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه – أن رسول اللّه ﷺ قال : « ليس الشديد بالصُّرَعَة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [5] .

وروى أحمد بسند صحيح عن حميد بن عبد الرحمن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رجل : يا رسول اللّه أوصني ، قال : « **لا تغضب** » قال : فَفكرتُ حين قال رسول اللّه ﷺ ما قال ، فإن الغضب يجمع الشرّ كلّه [6] .

ولاشك أن الامتناع عن الغضب ، والتخلّق عليه هو من أعظم المكارم الخلقية التي يتّصف بها عِلْيَةُ القوم ، وكرام الناس .. بل هو الأخلاق كلّها ، وإلى هذا ألمح نبيّ الإسلام صلوات اللّه وسلامه عليه – كما أخرج المروزيُّ – أن جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ من بين يديه ، فقال : يا رسول اللّه ما الدين ؟

قال : « حسن الخلق » . فأتاه من قِبل يمينه ، فقال : يا رسول اللّه ما الدين ؟

---

(1) صحيح مسلم كتاب الإيمان ب (6) برقم (26) .
(2) صحيح مسلم كتاب البر ب (23) برقم (77) .
(3) صحيح مسلم كتاب البر ب (23) برقم (78) .
(4) صحيح البخاري كتاب الأدب ب (76) برقم (6116) .
(5) اللؤلؤ والمرجان (3 / 199) برقم (1676) .
(6) مسند الإمام أحمد (5 / 373) .

قال : « حُسن الخلق » .

ثم أتاه من قِبل شماله ، فقال : ما الدين ؟ فقال : حُسن الخلُق » .

ثم أتاه من ورائه فقال : يا رسول اللّه ما الدين ؟

فالتفت إليه عليه الصلاة والسلام وقال : « أما تفقه ؟ **هو أن لا تغضب** !! » [1] .

لاشك أنك – أخي الداعية – إذا أخذت بهاتين الوصيتين :

– الترفق بالناس حين تدعوهم .

– الامتناع عن الغضب حين تختلط معهم .

تكون فعلًا ممن تخلّقوا بخلق رسول اللّه ﷺ ، وممّن تعوّدوا على مكرمة الحلم ، واتصفوا بصفة الرفق .. وكنت أيضًا ممّن يُشار إليهم في مواقفهم الدعوية والإصلاحيّة بالبنان .

فبدون الرفق لا يكون للداعية في الناس استجابة ولا تأثير ..

وبدون الحلم وضبط النفس عند الغضب لا يكون له في المجتمع إصلاح ولا تغيير ..

وهذه الظاهرة في الرفق والتحلّم **خلُق كريم** في الدعاة لا يمكن تجاهله وتجاوزه والإغضاء عنه ، بل هو أُسّ النجاح ، وعمدة التوفيق ، فعلى الدعاة أن يتحلّوا به ، ويأخذوا بأحسنه ..

● **أما الاقتداء الكامل بسيرة السلف والدعاة في مرآة حلمهم ورفقهم الجميل** ..

فلقد سردنا من النماذج الحيّة ، والمواقف الخالدة الكثير والكثير .. سواء ما سردناه في فصل « **أخلاقيّة الداعية** » أو ما ذكرناه في فقرة « **الترفّق والملاطفة** » .. وما هذه النماذج إلا صور حيةّ للتأسّي والاقتداء لمن يريد أن ينهج في الأخلاق منهجهم ، ويسير على الدرب سيرهم ، ويسلك في الدعوة إلى اللّه سبيلهم ..

وأزيدك – أخي الداعية – **موقفًا آخر من مواقف سيد الدعاة – صلوات اللّه وسلامه عليه** – ليكون لك في طريق الدعوة إلى اللّه أسوة وقدوة :

جاء في الصحيح أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ يطلب منه شيئًا فأعطاه ، ثم قال له : « **أأحسنت إليك ؟** » ، قال الأعرابي : ولا أجملت !! .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه (وكادوا أن يوقعوا بالرجل) ، فأشار إليهم عليه

(1) سبق تخريجه ص (249) .

الصلاة والسلام : « **أن كفّوا** » ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه ﷺ وزاده شيئًا ، ثم قال : « **أأحسنت إليك ؟** » .

قال : نعم فجزاك اللّه من أهل وعشيرة خيرًا ..

فقال له النبي ﷺ : « **إنك قلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ ، حتى يذهب ما في صدروهم عليك** » .

قال الأعرابي : نعم .

فلما كان الغد أو العشيّ جاء الأعرابي ، فقال صلوات اللّه وسلامه عليه : « **إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضي ، أكذلك ؟** » .

قال الأعرابي : نعم ، فجزاك اللّه من أهل وعشيرة خيرًا .

فقال النبي ﷺ : « مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شَرَدَتْ عليه فاتّبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورًا ، فناداهم صاحبها : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فإنّي أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجّه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردّها حتى جاءت واستناختْ ، وشدّ عليها رَحْلَها واستوى عليها ، وإني لو تركتُكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار » [1] .

وهكذا تُساس الطباع ، ويُعرف مكمن الداء ، ويُعطى الدواء .. لتستقيم الأنفس على الخير ، وتقبل دعوة اللّه عز وجل ، ويزول ما في الصدور ما حلّ فيها من عوارض البغض ، وأسباب الشحناء .. ولاشك أن الدواء لهذا كله هو بلسم الرفق ، وإكسير التحلّم والأناة .

والداعية إلى اللّه حين يتخذ من مواقف الرسول والسلف مثلًا أعلى في التأسّي والاقتداء .. فيكون ممن سار على المنهج القويم ، ووصل إلى ذروة الكمال ، وتحقّق بالخُلق العظيم .. ويكون في الوقت نفسه ممن تروّض على الحلم ، وتخلّق باللطف ، وتعوّد على مكارم الأخلاق .. بل أصبح من المرشدين المؤثّرين ، والدعاة المرموقين .. الذين يشار إليهم بالبنان ..

وإليك – أخي الداعية – ما قاله العالم الداعية الشيخ **محمود الورّاق** في الصفح والحلم وضبط النفس عند الغضب ، والعفو عند المقدرة :

سأُلزم نفسي الصفح عن كل مذنبٍ   وإن كثرتْ منه عليّ الجرائم

---

(1) الشفا للقاضي عياض ج 1 ص : 93 .

وما الناس إلا واحد من ثلاثةٍ شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحقّ ، والحقّ لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنْتُ عن إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مِثْلي فإن زلّ أو هفا تفضّلتُ إن الفضل بالحلم حاكم

فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون ممن بدّلوا الغضب بالحلم ، والعنف باللين ، والشدّة باللطف .. حين تسلك طريق الدعوة إلى اللّه .. ليكون لك في مجال الدعوة أثر ، وفي ميدان الإصلاح تغيير .. واللّه سبحانه وليّ العاملين المخلصين .

* * *

6 - **الهيمنة والتأثير** :

من الأمور الهامة التي ينبغي للداعية أن يُعدّ لها ، ويهتمّ بها ، وينتبه إليها .. في إلقاء موعظة ، أو دعوة الناس إلى خير ، أو نهيهم عن شر .. أن يعرف كيف يُهيمن على المجلس ؟ وكيف يؤثر في الحاضرين ؟ وأن يدرك هل يتفاعل الناس معه ويستجيبون إليه ؟

كما عليه أن يدرك ثمرات ما يجني حين يدعو ، وحصيلة ما يزرع حين ينطلق .. إن أراد أن يسير في طريق الدعوة إلى اللّه عن تخطيط وتدبير وموضوعية .

وإلا .. كان سيره كحاطب في ليل ، أو كضالّ في صحراء .. دون فائدة أو جدوى ..

فالهيمنة على المجلس إذن هي من أظهر عوامل التوفيق ، والتأثير على الحضور هو من أبرز مقوّمات النجاح .. فعلى الدعاة أن يدركوا ذلك جيدًا ، وأن يضعوه في حسبانهم .

ولكن كيف تتم الهيمنة . وكيف يتحقق التأثير ؟

في تقديري أن الهيمنة لا تتم ، والتأثير لا يتحقق إلا بدعامتين أساسيتين :

الأولى : المحبة الخالصة . الثانية : الثقة المتبادلة .

وأعني **بالمحبة الخالصة** أن تتجه قلوب المدعوّين بالحب الخالص، والولاء الصادق إلى من يقومون بتعليمهم وهدايتهم ، ومن يكونون سببًا في إصلاحهم وإنقاذهم ..

وأعني **بالثقة المتبادلة** أن تكون العلاقة بين الدعاة والمدعوّين قائمة على معاني الرحمة والمحبة ، والصلة المتينة ، والارتباط الوثيق .. لا تزعزعها الأحداث ، ولا تؤثر

فيها نكبات الليالي ..

هاتان الدعامتان إن تحققتا بين الجمهور والدعاة .. كان للدعاة في المجتمع تأثير وأي تأثير ، بل كانوا الوسيلة العظمى في الإصلاح والتغيير ، بل سارت الدعوة إلى اللّه في طريقها في اطّراد ونجاح ، ووصلت إلى أعظم النتائج ، وأينع الثمرات ..

ولكن ما هي العوامل التي تولّد في الداعية ظاهرة المحبة الخالصة ، وحقيقة الثقة المتبادلة ؟ أرى أن هذه العوامل تتركّز في الأمور التالية :

أ - إشراقة الداعية الروحية :

سبق أن ذكرنا في فصل « **روحانية الداعية** » أن الروافد التي تُمِدّ الداعية بالطاقة الروحية ، وتزوّده بفيوضات الطهر والصفاء والإشراق .. وتجعل منه قدوة صالحة في الأخلاق والتقوى ، والأثر والتأثير ، والجهاد والمثابرة .. هي أمران :

الأول - روافد تتصل بالشعور النفسي وتشمل :

- دوام المراقبة للّه .
- استحضار الموت وما بعده .
- استذكار الآخرة وأحوالها .

الثاني - روافد ترتبط بالتطبيق العملي السلوكي وتشمل :

- تلاوة القرآن الكريم مع التدبّر والخشوع .
- مصاحبة النبي ﷺ في سيرته العطرة المعطاءة ..
- مصاحبة الأخيار من أهل المعرفة باللّه .
- المداومة على ذكر اللّه عز وجل في كل الأوقات والأحوال ..
- البكاء في الخلوات من خشية اللّه ..
- الاستمرار في عبادة النافلة على الدوام .

وسبق أن بينا أيضًا في « **روحانية الداعية** » أن الطريق إلى الروحانية **هي تقوى اللّه عز وجل ، وأن السبيل إلى التقوى :**

- **المعاهدة** التي بها يستقيم الداعية على شرع اللّه .

- **المراقبة** التي بها يستحضر عظمة اللّه .
- **والمحاسبة** التي بها يتحرّر من آفات النفوس .
- **والمعاقبة** التي بها يفطم نفسه عن المخالفة .
- **والمجاهدة** التي بها يجدّد للعبادة نشاطها .

وبتقديري أن الدعاة إلى اللّه إذا ظلّوا يرتشفون من معين الروحانية ، ويستسقون من روافدها ، ويسلكون السبُل التي تؤدّي إليها .. فإن نفوسهم تشرق بنور الصفاء ، وقلوبهم تتفجّر بينابيع الإخلاص ، وأرواحهم تحلّق في سماء الطهر والإلهام .. بل يعطون مَنْ يتتلمذ عليهم ، ويتلقّى منهم .. المثل الأعلى في صدق الحديث ، وحسن الفعال ، وقوة التأثير ، واطّراد الفائدة ، وضخامة الإصلاح .. ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [1] .

فارجع – أخي الداعية – إلى فصل « **روحانية الداعية** » تجد بحث الروافد ، والطريق إلى الروحانية مفصلًا ، بل تجد فيه ما يشفي الغليل إن شاء اللّه .

ب - قدوته السلوكية :

مما لا يختلف فيه اثنان أن الداعية إلى اللّه لا يثق الناس به ، ولا يأخذون عنه ، ولا يستجيبون لدعوته إذا كان معروفًا لديهم بالانحراف ، ومشتهرًا في المجتمع بالتزلّف والنفاق ، وكان أيضًا ممن يختل الدنيا بالدين ، ويبيع دينه بعرض من الدنيا قليل .. فمهما دعا ووعظ وذكّر .. فلا يتجاوز قوله الآذان ، ومهما تفاصح وأزبد وأرعد .. فلا ينفذ كلامه إلى القلوب !! .

من أجل هذا كان إنكار القرآن الكريم على الذين تخالف أفعالهم أقوالهم عظيمًا ، والتنديد بهم مقرّعًا وعنيفًا ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [3] ؟

ومن أجل هذا أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام أن الذين يقولون ما لا يفعلون في عذاب شديد يوم القيامة :

روى ابن أبي الدنيا والبيهقي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أتيت ليلة

(1) سورة يونس الآية : 58 . (2) سورة الصف الآيات : 2 ، 3 . (3) سورة البقرة الآية : 44 .

أُسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرأون كتاب اللّه ولا يعملون به » [1] .

روى الشيخان عن أسامة بن زيد – رضي اللّه عنه – قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « يُؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيُلقى في النار ، فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » [2] وكان السلف – رضوان اللّه عليهم – يتحرّجون من الدعوة إلى اللّه ، وتعليم الناس الخير .. قبل أن يحاسبوا أنفسهم وأولادهم وأهليهم ، ويأمروهم بالبرّ والتقوى والعمل الصالح !!

فهذا عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه – كان قبل أن يأمر الناس بأمر ، وينهاهم عن نهي ، يجمع أهل بيته ويقول لهم : (أما بعد : فإني سأدعو الناس إلى كذا وكذا ، وأنهاهم عن كذا وكذا ، وإني أقسم باللّه العظيم لا يبلغني عن أحد منكم أنه فعل ما نهيت الناس عنه ، أو ترك ما أمرت الناس به إلا نكلتُ به نكالًا شديدًا) ، ثم يخرج – رضي اللّه عنه – فيدعو الناس إلى ما يريد ، فما يتأخر أحد عن السمع والطاعة .

وهذا مالك بن دينار – رضي اللّه عنه – كان إذا حدث الناس بهذا الحديث : (ما من عبد يخطب خطبة إلا اللّه سائله عنها يوم القيامة ما أردتَ بها ؟) [3] بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عيني تقرّ بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أن اللّه سائلي عنه يوم القيامة ، يقول : ما أردتَ به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبي لو لم أعلم أنه أحبّ إليك لم أقرأ على اثنين أبدًا ..

ألا فليتأدّب الدعاة بهذا الأدب الإسلامي الرفيع ؛ ليستجيب الناس لهم ، ويأخذوا عنهم ، ويتأثروا بمواعظهم وإرشادهم ..

ج - قوته الإقناعية :

ومن أبرز العوامل التي توصل الداعية إلى قمة النجاح والتوفيق ، وتضفي على مستمعيه روح الهيمنة والتأثير .. هي قوة إقناعه ، وظهور استدلاله ، ونصاعة حجته وبرهانه .. وهذا لا يتأتّى إلا أن يكون الداعية سريع البديهة ، قويّ الملاحظة ، شديد الحذر ، عظيم الإحساس بأحوال الحاضرين .. فضلًا عن شمول علمه ، وسعة ثقافته ، وجاذبيّة كلامه ومنطقه ، وسلاسة فصاحته وأسلوبه ، وملامح روحانيته وتقواه ..

---

(1) إتحاف السادة المتقين للزبيدي (7 / 521) . (2) اللؤلؤ والمرجان (3 / 325) برقم (1882) .
(3) رواه البيهقي وابن أبي الدنيا .

ولكن في الحقيقة لا تكفي قوة الحجة ، ولا سرعة البديهة ، ولا سلاسة الأسلوب ، ولا ملامح التقوى .. إذا لم يعط الداعية كل إنسان على حسب ما يتناسب مع فهمه ، وما يتفق مع عقليته ، وما يتلاءم مع نزعته .. تحقيقًا للمبدأ الذي سنّه رسول اللّه – صلوات اللّه وسلامه عليه – للدعاة في كل زمان ومكان : « أُمرنا – معاشر الأنبياء – أن نحدّث الناس على قدر عقولهم » [1] .

● فالداعية مثلًا حين يجتمع مع طبقة من المسلمين الفطريين ، والمؤمنين الصادقين المطبقين .. فيكفيه أن يأتي لهم بشواهد القرآن والسنة ، ويذكّرهم بسيرة الصحابة والسلف .. ليؤثر فيهم ، ويرفع من مستواهم ، ويأخذ بأيديهم نحو السلوك الأقوم ، والكمال المنشود ..

● وهذا يختلف كل الاختلاف حين يلتقي مع طبقة من المسلمين المنحرفين ، والشباب الشاذّين المتحلّلين فعلى الداعية أن يعطي هؤلاء من القناعات العقلية والعلمية مما يدفع أولئك إلى القناعة الوجدانية في تجنّب الانحراف ، وفطم النفس عن الشذوذ والتحلّل .. فحين يريد إصلاح قوم ارتكبوا موبقات الزنى أوالخمر أو الميسر أو الربا .. أو غير ذلك من هذه الموبقات التي تؤدي إلى التحلّل والانحراف .. فعليه أن يبين لهم ضرر هذه الموبقات من الناحية الجسمية والخلقية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية ..

فبعد هذا البيان يمكن أن يولّد فيهم القناعة الوجدانية في الامتناع عن هذه الموبقات لما لها من أضرار بالغة ، وأخطار ظاهرة .. لا ينكرها إلا مكابر ، ثم ينتقل الداعية بالمدعوّين إلى السرّ في تحريم الإسلام لهذه الموبقات .. فعندئذ يدركون جيدًا الحكمة التشريعية في تحريم الإسلام للزنى أو الخمر أو الميسر أو الربا .. فلا يجدون بدًّا – إن كانوا عقلاء ومنطقيين مع أنفسهم – إلا أن يكفّوا عن هذه المحرّمات والموبقات ..

هذه الطريقة الإقناعية هي طريقة رسول اللّه ﷺ في إصلاح الأفراد ، وتربية المجتمع ..

وإليك – أخي الداعية – هذا الموقف من مواقف رسول اللّه ﷺ في إقناع الأفراد في الكف عن الفساد :

روى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبي أمامة – رضي اللّه عنه – أن غلامًا شابًّا أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي اللّه أتأذن لي بالزنى ؟ ، فصاح الناس به ، فقال النبي

---

(1) رواه الديلمي بسند ضعيف ، ولكن له شواهد كثيرة مما رفع الحديث إلى مرتبة الحسن لغيره ، ارجع إلى كتاب كشف الخفاء للعجلوني الجزء الأول ، حرف الهمزة « أمرنا » .

ﷺ : « قرّبوه ، ادنُ » ، فدنا حتى جلس بين يديه .. فقال عليه الصلاة والسلام : « أتحبّه لأمك ؟ » ، قال : لا ، جعلني اللّه فداك ، قال : « كذلك الناس لا يحبّونه لأمهاتهم » ، ثم قال : « أتحبّه لابنتك ؟ » قال : لا ، جعلني اللّه فداك ، قال : « كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم » ثم قال : « أتحبّه لأختك ؟ » ، قال : لا ، جعلني اللّه فداك ، قال : « كذلك الناس لا يحبّونه لأخواتهم » ..

وزاد الراوي ابن عوف : حتى ذكر العمة والخالة ، وهو يقول في كل واحدة : لا ، جعلني اللّه فداك ، والنبي ﷺ يقول : « كذلك الناس لا يحبّونه .. » ، ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال : « اللهم طهّر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصّن فرجه » ، فلم يكن شيء أبغض عليه من الزنى [1] .

وهكذا ترفق النبي عليه الصلاة والسلام ، بالشاب في البدء ، ثم أقنعه عقليًا ووجدانيًا بقبح الزنى وأثره على الأخلاق والمجتمع ، فبعد أن رأى ﷺ انجذاب الشاب إليه ، وإقباله عليه ، وقناعته العقلية بالذي حدّثه به ، دعا له بهذه الدعوات الكريمات ، ذات المعنى والمغزى ، فقام بين يدي رسول اللّه ﷺ وليس شيء أبغض إليه من الزنى !! .

● أما إذا كانت الفئة التي يلتقي معها الداعية من طبقة الملحدين المارقين ، ومن فئة الدهريين المنكرين ، ومن صنف الوجوديين الإباحيين .. فإن المناقشة التي يطرحها ، والقضيّة التي يعرضها ، والحجج التي يقدمها .. تختلف كل الاختلاف عن جماعة المؤمنين المطبقين ، وطبقة المسلمين الفاسقين المنحرفين ..

نعم تختلف كل الاختلاف :

لأن قناعات المؤمن الصادق غير قناعات المسلم الفاسق ، وقناعات الملحد المارق غير قناعات المؤمن والفاسق .

فالمؤمن بمجرد أن تذكّره باللّه أو تأتي له بقال اللّه ، أو قال الرسول ﷺ ، أو فعل الصحابة كذا ، أو جاءَ عن السلف كذا ؛ فإنه يخشع ويتأثر ، وينقاد ويتذكر ، ويتدرّج في مدارج السموّ والكمال ..

والفاسق بمجرد أن تُبيّن له أن الفسق الذي يسدر فيه يضرّ بصحته ، ويؤثر على سمعته ، ويتعدّى خطره إلى أبناء مجتمعه ، ثم تنقله من بيئة الفساد إلى بيئة الصلاح ، ومن رفقة الأشرار إلى صحبة الأخيار .. فسرعان ما تتأثّر نفسه ، وينصلح

---

(1) مسند الإمام أحمد (5 / 256 ، 257) .

أمره ، ويصبح من المسلمين الأصفياء والمؤمنين الأتقياء .

أما الملحد المارق ، أو الإباحي الفاجر .. فلا ينفع معهما ، أو مع أحدهما قال اللّه أو قال الرسول ، أو فَعَل الصحابة كذا ، أو أُخبرنا عن السلف بكذا .. ؛ لأن الواحد منهما لا يؤمن باللّه أصلًا ، ولا يستسلم للإسلام عقيدة وعملًا .. فهذه الطائفة من الملحدين والإباحيين .. إن يروا كل دليل ثبت عن الوحي لا يؤمنوا به مهما كان موضوعيًا وعقلانيًا .. ذلك لأنهم سدّوا منافذ العقل والحواس التي توصلهم إلى الهداية ، ووقفوا من الغيبيات موقف العناد والكبر .. فلا تنفع معهم المواعظ ولا الأدلّة ولا العِبَر ولا النذُر .. قال تعالى عن هذه الطبقة الجاحدة المعاندة من الناس : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ (1) .

وقال سبحانه عن هذه الزمرة التي أغمضت عيونها عن رؤية الحق ، وصَمتْ آذانها عن سماع الحق ، وأمسكت ألسنتها عن الإقرار بالحق ، وعطّلت عقولها عن إدراك الحق : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (2) .

فحين يُبتلَى الداعية بفئة من الملحدين أو الإباحيين .. كالشيوعيين مثلًا فعليه أن يكون ذا حُجّة قوية تُلقم هؤلاء الشراذم من الناس الحجر ، كما عليه أن يبدأ معهم بالظواهر التي تدلّ على اللّه ، كما عليه أيضًا ألا يَعْرِض الأدلة التي مصدرها القرآن والسنة ، وأقوال الأئمة .. بل عليه أن يكون مُلِمًّا بالأدلة العلمية ، والبراهين العقلية ، والمحاكمات المنطقية .. التي تسلّط الأضواء على قضية الإيمان باللّه ، وتكشف لكل ذي عينين عن حقيقة التوحيد بالواحد الأحد ، فلا يستطيع الخصم أن يَنْبِس ببنت شفة ، ولا يمكن أن يتزحزح أمام صولة الحق ، وأمام برهان الإيمان ..

بعد ذلك إما أن يؤمن وإما أن ينهزم .. فإذا كانت الحالة الأولى فاللّه سبحانه أراد له الهداية ، ووفقه إلى سلوك الطريق المستقيم .. وإذا كانت الثانية فحسبه أن قبع في حِجْر الخانعين الضالّين فلا يرتفع له رأس ، ولا يتطاول له لسان .. وعلى كلا الحالين فالداعية هو الغالب ، وهو المستعلي ، وهو المنتصر ..

---

(1) سورة الأعراف الآية : 146 .

(2) سورة الأعراف الآية : 179 .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (1) .

وإليك – أخي الداعية – بعض النماذج القرآنية في إلقام المعاندين الحجر ، وهزيمتهم المنكرة أمام صولة الحق والبرهان :

أ – قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام في محاججته للنمرود في دعوى الربوبية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) .

وهكذا بُهت الذي كفر بعد أن أَلْقَمَ خليل اللّه خصمه الحجر ، وهذا جزاء مَنْ كُفِر !! .

ب – وقال جل جلاله في الحوار الذي جرى بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه الذين كانوا يعبدون الأوثان .. قال سبحانه بعد أن جعل خليل اللّه الأصنام قطعًا متناثرة إلا كبيرًا لهم لعلهم يرجعون : ﴿ ... قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ .. ﴾ (3) .

وهكذا نُكِس القوم وهُزِموا بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام عليهم الحجة فاعترفوا بأن الذين يعبدونهم من دون اللّه لا ينطقون ، وهنا جاءت الصدمة عليهم عنيفة حين قرّعهم وقال لهم : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ فما وجدوا سبيلًا أمام هذه الهزيمة الفكريّة والإحراج .. سوى أن يحرّقوه وينتصروا لآلهتهم التي أصبحت حطامًا خرابًا .. ولكن اللّه عز وجل نجّاه من كيدهم وجعلهم الأخسرين !!

وإليك نموذجًا آخر مما وقع في إقامة الحجة على الخصم :

أ – من طرائف ما يروى : أن شابًا منتميًا لإحدى الجماعات الإسلامية اختصم مع

(1) سورة يونس الآية : 58 .   (2) سورة البقرة الآية : 258 .   (3) سورة الأنبياء الآية : 62 - 69 .

شاب شيوعي في مسألة اعتقادية .. فلما أقام المسلم عليه الحجة انتفض الشيوعي متهمًا : إن رئيس جمعيتكم قبض من (جهة كذا) عشرة آلاف دولار ، فأجابه المسلم على الفوز : لا مانع ، مادام رئيس حزبكم قبض من (جهة كذا) عشرين ألف جنيه استرليني ..

قال الشيوعي : هذا كذب وافتراء .. أتستطيع الإثبات ؟

قال المسلم : ادّعاؤك على رئيس جمعيتنا هو عين الافتراء أتستطيع أنت الإثبات ؟ وبهذا قامت الحجة وانحسم النقاش .

ب - روى وكيل شيخ الإسلام في الدولة العثمانية الشيخ زاهد الكوثري في كتابه المقالات في موضوع الحجاب هذه الطرفة : (اجتمع سفير الدولة العثمانية في بلاد الإنكليز مع كبراء الدولة ، فقال أحد الكبراء للسفير : لماذا تصرّون أن تبقى المرأة المسلمة في الشرق الإسلامي متخلّفة ، معزولة عن الرجال ، محجوبة عن النور ؟!!

فقال له السفير العثماني : لأن نساءنا المسلمات في الشرق لا يرغبن أن يلدن من غير أزواجهن . فخجل الرجل ولم ينبس ببنت شفة ، وتمنى أن لم يغمز المسلمين بكلامه !! .

ج - يقول الدكتور « مصطفى السباعي » - رحمه اللّه - في كتابه « المرأة بين الفقه والقانون » ص : 96 ما نصه : (حين كنتُ في « دَبْلن » (أيرلندا) سنة 1956 زرتُ مؤسسة الآباء اليسوعيين فيها ، وجرى حديث طويل بيني وبين الأب المدير لها ، وكان مما قلتُه : لماذا تحملون على الإسلام ونبيّه في كتبكم المدرسية بما لا يصح أن يقال في مثل هذا العصر الذي تعرّفت فيه الشعوب ، والتقت الثقافات ؟

فأجابني : نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلًا تزوّج من تسع نساء (يقصد الرسول ﷺ) .

قلت له : هل تحترمون نبي اللّه داود ، ونبيّه سليمان عليه السلام ؟ قال : بلى ، وهما عندنا من أنبياء التوراة .

قلت : إن نبي اللّه داود كان له تسع وتسعون زوجة ، وأكملهن مائة بالزواج من زوجة قائده (أُوريا) كما هو معلوم ، ونبي اللّه سليمان كان له - كما جاء في التوراة - سبعمائة زوجة ، وثلاثمائة من الجواري ، وكنّ أجمل أهل زمانهن !! فَلِمَ يستحقّ احترامكم من يتزوج ألف امرأة ، ولا يستحقه من يتزوج تسعًا ؟ لماذا لا يستحقُّ احترامكم

من تزوج تسعًا : ثمانية منهنّ ثيّبات وأمهات ، وبعضهن عجائز (لأغراض تشريعية ، وتكافلية ، وتآلفيّة ..) ، والتاسعة هي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوّجها طيلة عمره !! .

فسكت الرجل فلم يحر جوابًا ..) .

إلى غير ذلك من هذه المواقف الكثيرة المستفيضة التي لا تعدّ ولا تحصى ..

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن الداعية إلى اللّه لا يؤثر في مستمعيه كل التأثير ، ولا يهيمن عليهم كل الهيمنة .. حتى يعطي كل إنسان من الحجة والبرهان ما يتناسب مع فهمه ، وما يتلاءم مع عقليته ، وما يتفق مع نزعته .. وكذلك لا يبلغ الداعية غاية الكمال حتى يكون سريع البديهة ، قويّ الملاحظة واسع الثقافة .. فبهذا كله يعطي خصمه الحجّة القويّة التي تلقمه الحجر ، وتجعل منه عبرة لغيره إذا انهزم واندحر .. وفي ذلك انتصار للدعوة وظهور للإسلام ، وتوفيق من اللّه للدعاة ..

ألا فليتزوّد الدعاة بالحجج المقنعة الدامغة ، وليعطوا كل إنسان من القناعة على حسبه إن أرادوا لدعوتهم التوفيق ، ولجهودهم الأثر الطيب ، ولمواقفهم السمعة الحسنة .. واللّه سبحانه الهادي والموفق إلى سواء السبيل .

د - تفاعلاته الدعوية :

ومن أهم العوامل الأساسية التي تجعل من الداعية ذا هيمنة وتأثير على مستمعيه هو ظهوره في المجتمع بظواهر الاهتمام لهذا الإسلام ، وبملامح التفاعل والحماس لهذه الدعوة بلا تصنّع ولا تكلف ولا تمثيل .. وشتان بين داعيتين :

الأول : لا يعمل إلا بأجر ، ولا يتحرّك إلا بتوظيف ، ولا ينطلق في ميادين الدعوة إلى اللّه إلا إذا تحصّلت له غاية شخصية ، أو مصلحة مادية ، أو منفعة دنيوية ..

الثاني : حين يتحرك للدعوة يتحرك من ذاته ، وحين ينطلق في سبيلها ينطلق من وحي صدقه وإخلاصه ، وحين يعمل للإسلام لا يشترط الأجر ، ولا يبغي الجزاء ولا الشكور ..

لاشك أن الثاني تأثيره في الناس أعظم ، واهتمامه للدعوة أبلغ ، وتفاعله مع الجهاد الدعوي أسمى وأكبر ..

قال عمر بن ذر لأبيه يومًا : يا أبت إذا تكلّمت أبكيت الناس ، وإذا تكلّم غيرك لم يُبكهم ؟ فقال ذر : يا بني ليست النائحة الثّكلى مثل النائحة المستأجرة !!

صدق ذر فيما قال ، نعم ليس الداعية الذي يتكلّم بلسانه وهو متصنّع بالكلام ، متشدّق بالفصاحة .. ليسبي به قلوب الرجال ، كالداعية المهتمّ المخلص المكلوم القلب على الإسلام ، لا يتكلم إلا بنبضات قلبه ، ولا يتحدث إلا من أحاسيس حزنه وأساه .. مستعرضًا فيما يقول أحوال المسلمين ، وأوضاع بلاد الإسلام ..

ولا يمكن للداعية أن يتفاعل مع الدعوة الإسلامية ، وينطلق في ميادينها عن حرارة وعزيمة وإخلاص .. إلا أن يتحقق بشيئين هامين :

1 - إدراكه أبعاد المؤامرات على الإسلام وبلاد الإسلام ..

2 - وضع قضية المسلمين الأولى في بؤرة وجدانه وشعوره ..

● **أما إدراكه ابعاد مؤامرات أعداء الإسلام على الإسلام والمسلمين :**

فقد سبق أن ذكرنا في ثقافة الداعية في بحث « **ثقافة الداعية الواقعية** » أن على الداعية أن يدرك :

1 - المخططات التي تتخذ في أوكار الصهيونية ، والماسونية ، والصليبية ، والشيوعية ، والتبشير ، والاستعمار .. التي تستهدف إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق الخمر ، والجنس ، والمعتقدات الفكرية ، والمبادئ الإباحية ، وتشويهات أنظمة الإسلام ، وزجّ المرأة المسلمة في أتون الميوعة .

2 - الغزو الفكري من الداخل عن طريق العملاء ، وعبيد الفكر الغربي ، والأحزاب الموالية من ليبراليّة ويساريّة .. وعن طريق الفرق المنشقة على الإسلام كالبهائية ، والقاديانية ، والنصيرية ، والإسماعيلية ، والدرزية ... وغيرها من الفرق الباطنية الكافرة .

3 - اغتصاب اليهود لأرض فلسطين ، واحتلالهم للمسجد الأقصى ، ومطامعهم التوسعيّة في احتلال أراضي الإسلام التي تمتدّ من الفرات إلى النيل ، بل من مخططاتهم العدوانية الاستيلاء على المدينة المنوّرة كما استولوا على المسجد الأقصى .. لاعتقادهم الباطل أن هذه البلاد هي بلاد آبائهم وأجدادهم من لدن إبراهيم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة !! .

وقد ذكرنا الكثير والكثير من هذه المؤامرات والمخططات على بلاد الإسلام في فصل « **الدعوة الإسلامية وإنقاذ البشرية** » فارجع إليه - أخي الداعية - تجد فيه ما يشفي الغليل إن شاء اللّه .

● **أما وضع قضية المسلمين الأولى في بؤرة وجدانه وشعوره :**

فهذا من أبسط المشاعر الوجدانية في اهتمام الداعية ، وانطلاقته الكبرى في الدعوة والإصلاح والتغيير ؛ وهذا التحسّس بآلام المسلمين ، والاستشعار بأحوالهم ، والاهتمام بقضاياهم هو من المبادئ التي رسّخها نبي الإسلام – صلوات اللّه وسلامه عليه – في أبناء الإسلام ، والمجتمعات الإسلامية في كل مكان ، ولا سيما مَنْ يكون في موضع المسؤولية من الحكام والعلماء والدعاة .. في بلاد المسلمين ، فقد روى البيهقي والطبراني عن أنس – رضي اللّه عنه – مرفوعًا : « من أصبح ولم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم »[1] بل جعل رائد هذه الدعوة ﷺ المسلمين جميعًا في التوادد والتعاطف والتراحم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، فقد أخرج مسلم وأحمد : « **مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى** »[2] ، وهذا يعني الاستشعار الكامل ، والاهتمام البالغ ، والإحساس العميق بقضايا الإسلام ، وآلام المسلمين .. فإن لم يكونوا على هذا المستوى من حمل الأمانة ، واستشعار المسؤولية ، والاهتمام البالغ العظيم .. فليسوا من الإسلام في شيء ، وليسوا من جماعة المسلمين المخلصين العاملين .

نعم حين يكون اهتمام الداعية بدعوته ومجتمعه وأمته .. كاهتمامه برزقه وبيته وأهله وولده .. فنقول : إن الدعوة الإسلامية قد تركّزت في بؤرة وجدانه ، وتعمّقت في مشاعره وأحساسيه .. وأصبح كالنائحة الثكلى في انبعاث اللوعة ، ونبضات الحزن والأسى ، وصدق المشاعر والأحاسيس .. بل لا يهدأ له بال ، ولا يُغمض له جفن ، ولا يطيب له عيش .. حتى يرى بلده بشكل خاص ، وبلاد الإسلام بشكل عام تحرّرت من حكم الطغاة ، وطبّقت شرع اللّه ، وانتصرت على أعداء اللّه ، ورفلت في أثواب العزة والكرامة والمجد .. فعندئذ يفرح ويغتبط بنصر اللّه .

وإليكم بعض النماذج فيمن عاشوا لهذا الإسلام وتفاعلوا معه على مر التاريخ :

أ – فهذا سيّد الدعاة صلوات اللّه وسلامه عليه ، وقائد نهضتنا وعزتنا إلى الأبد ، أعطى العلماء والدعاة وسائر المسلمين المثل الأعلى في التحرّك التبليغي ، والانطلاقة الدعوية ، والثبات على المبدأ ، وتحمل الأذى في سبيل اللّه ، والتحرّق من أجل إعزاز

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط رقم (474) ، انظر مجمع الزوائد (10/ 248) ، وانظر السلسلة الضعيفة برقم (310) .
(2) صحيح مسلم كتاب البر ب (17) برقم (66) ومسند الإمام أحمد (4 / 270) .

دين الله .. وهذا العطاء سوف يبقى قدوة ونبراسًا للأجيال المسلمة المتعاقبة على مر العصور ، وكرّ الدهور إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ..

فقد سلك المشركون في مكة مع النبي ﷺ مسالك شتى في الأذى ، وأساليب متباينة في الاضطهاد ليثنوه عن دعوته ، ويصدّوه عن أداء رسالته فما استكان وما خضع .

وسلكوا معه طريق الإغراء والإغواء بالمال والسيادة وتزويج النساء .. فما استكان وما خضع ..

وسلكوا معه طريق الضغط العائلي ، والتهديد العشائري .. فما استكان وما خضع ..

وسلكوا معه طريق الاستهزاء والسخرية وإشاعة التهم .. فما استكان وما خضع .

وسلكوا معه طريق المقاطعة الاقتصادية الشاملة .. فما استكان وما خضع ..

وقرروا أخيرًا اغتياله وملاحقته .. فخرج مهاجرًا للّه .. فما استكان وما خضع .

وبعد الهجرة حاربوه بحملات متعدّدة ، وحروب طاحنة .. ليستأصلوا دعوته وأتباعه .. فما كان يرده ذلك عن تبليغ الدعوة ، ونشر دين اللّه في الأرض ..

ومع كل هذا استمر نبي الإسلام – صلوات اللّه وسلامه عليه – في تبليغ دعوة الإسلام ، والجهاد من أجل إعلاء كلمة اللّه ، حتى تحقق لهذا الإسلام انتصاره ، ولهذا الدين انتشاره ، فأصبحت السيادة للدعوة الإسلامية وحدها ، فلو لم تكن الدعوة تركّزت في بؤرة شعوره ﷺ ، ولو لم يكن الجهاد تأصّل في أعماق وجدانه عليه الصلاة والسلام .. لما صبر هذا الصبر الجميل ، ولما وصل إلى هذا الفتح العظيم ، والنصر المبين المؤزر ..

ب – وهذا أبو بكر – رضي اللّه عنه – لما بويع للخلافة بعد وفاة رسول اللّه واجه من الإحن والشدائد والأحداث .. ما لم يواجهه أي خليفة من بعده ، ففي صدر خلافته عظم الخطب ، واشتدّ الحال ، ونجم النفاق وارتدّ من ارتدّ من أحياء العرب ، وظهر مدّعو النبوّة ، وامتنع قوم عن أداء الزكاة .. وأصبح المسلمون كما يقول « عروة بن الزبير » رضي اللّه عنه : « كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيّهم ، وقلّة عددهم ، وكثرة عدوّهم » ، حتى وُجد من المسلمين من قال لأبي بكر رضي اللّه عنه : يا خليفة رسول اللّه : أغلق بابك ، والزم بيتك ، واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين (أي الموت) .

وقد رؤي أبو بكر – رضي اللّه عنه – مهتمًا مغتمًا قلقًا لما أصاب المسلمين ، وقد واجه هذه الأحداث الجسام بإيمان راسخ يزن الجبال ،وبعزيمة ثابتة دونها العواصف الهوج ، وبروح من التفاؤل يعيد للإسلام عزته ، وللمسلمين وحدتهم الكبرى الشاملة ..

ولقد بلغ من فرط اهتمامه أن قال : « أينقص الدين وأنا حيّ » ثم ركب ناقته وتوجّه للقتال .

وهو الذي صاحَ في وجه عمر قائلًا حين جاءه يلقي عليه عتبًا في قتال مانعي الزكاة : (مه يا عمر : رجوتُ نصرتك وجئتني بخذلانك !! أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام ، فوالله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم عليه) .

وهو الذي أنفذ جيش أسامة وقال للمعارضين : (والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننتُ أن السباع تخطفني لأنفذتُ بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذتُه ما كنتُ أحلّ عقدًا عقده رسول الله ﷺ بيده) .

وهكذا استطاع أبو بكر - رضي الله عنه - بعزمه واهتمامه وانطلاقته أن يتغلّب على الثورات والفتن .. حتى أرجع للمسلمين وحدتهم ، وللإسلام عزته ، وللخلافة هيبتها .. بل رجعت الحياة كما كانت في عهد رسول الله ﷺ وهكذا يصنع أقوياء الإيمان ، وعظماء الرجال ..

ج - وهذا الصحابي الجليل « **حنظلة بن أبي عامر** » الذي تزوّج « جميلة بنت أبي » ليلة الجمعة ، وفي صباح ذلك اليوم نادى المنادي : « حيّ على الجهاد » ، فما إن سمعها حنظلة حتى لبس درعه ، وتقلّد سيفه ، وامتطى جواده .. ثم سار إلى القتال في غزوة « **أحد** » ، فلما بدأت الحرب قاتل قتال الأبطال ، ثم انكشف المسلمون ، فأخذ حنظلة يقاتل وهو يمرّ بعينيه بين صفوف المشركين في أُحد حتى يجد أبا سفيان ، فلما وجده هجم عليه ، فوقع أبو سفيان ، وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فصاح أبو سفيان مستنجدًا بقريش ، فسمع الصوت رجال ، فهجموا على حنظلة وضربوه ضربة قاتلة فاستشهد رضي الله عنه .

ويسرع الصحابة إلى حنظلة ينظرون إليه فإذا رأسه يقطر ماء .. فأرسلوا إلى امرأته يسألونها فأخبرتهم أنه ما سمع هيعة الحرب حتى خرج وهو جُنب لم يغتسل ، فغسّلته الملائكة ..

وها هو ذا النبي ﷺ يطلعه الله على عالم الغيب ، فيقول لأصحابه فيما رواه الترمذي وأحمد : « إني رأيتُ الملائكة تغسّل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة »[1] وهكذا يعيش المؤمنون للإسلام ، ويتفاعلون مع الجهاد ، وينطلقون لإعلاء كلمة الله .

د - روى الطبراني وابن إسحاق .. أن أبا خيثمة - رضي الله عنه - رجع من

(1) ذكر الحديث الحاكم في مستدركه (3 / 204 ، 205) ، وانظر كنز العمال (33257) .

سفر – بعد أن سار رسول اللّه ﷺ إلى تبوك – إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتيه في عريشين لهما في بستان له ، وقد رشّت كلّ منهما عريشها ، وبرّدت له ماءً فيه ، وهيّأت له فيه طعامًا ، فلما دخل قام علي باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال : « رسول اللّه ﷺ في الشمس والريح والحرّ ، وأبو خيثمة في ظلّ بارد ، وطعام مهيّأ ، وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟!! ما هذا بالنَّصَف ؟ » .

ثم قال : « واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول اللّه ﷺ » !! .

فهيأتا له زاده ، ثم قُدِّم له ناضحه (أي بعيره) ، فارتحله ، وخرج يطلب النبي ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك [1] .

وهكذا عاش أبو خيثمة للإسلام ، وتفاعل مع الجهاد ، وآثر الآخرة على الأولى .. وهذا من شيم الرجال .

هـ – وهذا البطل المغوار « صلاح الدين » فقد اهتم لقضية تحرير أرض الإسراء والمعراج اهتمامًا بالغًا ملك عليه وقته وراحته ، واستحوذ على كل ما تتطلّبه النفس من أشواق ، وما تسعى إليه من اطمئنان واستقرار ..

يقول مرافقه القاضي « **بهاء الدين** » في تفاعله مع الجهاد ، واهتمامه البالغ للقدس وما حولها : (كان – رحمه اللّه – عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال .. وهو كالوالدة الثكلى ، يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي : يا للإسلام ! .. وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر إلى عكا ، وما حلّ بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم اشتدّ في الزحف ، والحث على القتال ، ولم يُطْعَم في ذلك اليوم طعامًا البتّة ، وإنما شرب أقداح دواء كان يشير بها الطبيب .. والسلطان يوالي هذه الأمور بنفسه ، ويكافحها بذاته ، وهو من شدّة حرصه ووفور همته كالوالدة الثكلى .. وكان حديث الجهاد يشغله دائمًا ، ويستولي على قلبه وجوانحه استيلاء عظيمًا بحيث لم يكن له حديث إلا عنه ، ولم يكن له نظر إلا في وسائله ، أو اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ..) . ا هـ .

وهكذا عاش صلاح الدين للقضية الفلسطينية حياته كلّها ، وظلّ في طريق الجهاد مثابرًا مجاهدًا بعيدًا عن أهله وولده حتى خلّص أرض الإسراء والمعراج من براثن

(1) انظر البداية والنهاية (5 / 7) ، ومجمع الزوائد (6 / 192) .

الصليبية الحاقدة ، وطهرها من مطامع العتاة الغاصبين ، والغزاة المتوحّشين .. وخلّد للمسلمين من الكيان العريض .. والعظمة السياسية ما شرّف التاريخ ..

و – وأخيرًا أسجل لرائد الدعوة الإسلامية في القرن العشرين الإمام حسن البنا – رحمه اللّه – هذا الموقف ، ليعلم الدعاة اليوم كيف تكون التضحية والاندفاع ، وكيف يكون التفاعل مع الدعوة والإسلام ، من المآثر الكريمة التي رواها الثقات عن الإمام الشهيد حسن البنا أعلى الله منزلته : أنه كان من عادته أن يتفقد شباب الدعوة الإسلامية في الأقضية والنواحي في كل عيد من الأعياد ، ففي مرة من المرات التي كان يخرج فيها ، مرض ولده « **سيف الإسلام** » مرضًا شديدًا أشرف فيه على الموت .

فقالت له زوجه : لو بقيت معنا في هذا العيد نستأنس بك ، وتكون بجانب ولدك المريض ؟

فأجابها وبيده حقيبة السفر : إن منّ اللّه على ولدي بالشفاء فللّه الحمد والشكر والمنّة ، وإن قدّر اللّه عليه الموت فجدّه أعلم بطريق المقابر ، ثم خرج – بعد أن دعا لولده بالشفاء – وكلف أباه بمعالجته وهو يتلو قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [1] .

اللّه أكبر !! هكذا فليكن التفاعل للإسلام ، والتضحية والجهاد في سبيل اللّه .. فواللّه لو لم يكن لسلفنا ، وأبطالنا في التاريخ ، ورجال الدعوة فينا إلا هذه المآثر لكفتهم على مدى الزمان شرفًا وخلودًا !! .

ولاشك أن الدعاة والعلماء وأولي الأمر اليوم حين يكونون على هذا المستوى اللائق من التفاعل والجهاد .. فاللّه سبحانه يمكّن لهم في الأرض ، ويبدّلهم من بعد خوفهم أمنا ، ويعيد لهم في هذا العصر أمجادهم الغابرة ، ووحدتهم الشاملة ، وكيانهم السياسي العريض ، ويظلون خير أمة أُخرجت للناس كما نعتهم القرآن ..

ألا فليتفاعل الدعاة مع الدعوة إلى اللّه ، وليجاهد المسلمون لإعزاز دين اللّه ، ولينفّذ أولو الأمر في كل بلد إسلامي شرع اللّه .. عسى اللّه أن يحقق لهم السيادة في الأرض ، والعزة في العالمين .. وما ذلك على اللّه بعزيز .

---

(1) سورة التوبة الآية : 24 .

هـ - طريقته التشويقية :

على الداعية قبل أن يلتقي بالناس ، ويدعوهم إلى الخير .. أن يفكر في الوسيلة التي تضفي على المجلس روح التشويق والتحبيب ، وفعاليّة الاستجابة والتأثير ، وظاهرة التلقّي والحيويّة .. وهذا إن تمّ كان من أكبر العوامل في نجاحه ، ومن أعظم الوسائل في توفيقه !! . وإلا كان حديثُه جافًّا ، ومجلسه جامدًا ، وتأثيره ضعيفًا ، وموعظته باهته مُمِلّة ..

ولكن ما هي الوسائل التي تُضفي على المجلس روح التشويق والحيوية ؟

الوسائل في تقديري هي اتباع ما يلي :

1 - **ربط الموضوع بالواقع :**

أيّ موضوع يتطرّق له الداعية ، أو أيّة مشكلة يريد أن يعالجها ، أو أيّة فكرة حسنة يريد أن يدعو إليها ، أو أيّة مكرمة يريد أن يرغّب فيها .. لا تعطي الأثر الطيب ، ولا الاستجابة الحسنة حتى يستمدّ الداعية معالم الفكرة من روح البيئة التي يدعو إلى اللّه فيها ، ويستوحي أمثلة الموضوع من صميم الواقع الذي يراه ويعايشه ، ويستخلص معالجة المشكلة من عادات المجتمع ، وتعامل الناس ..

وإليك – أخي الداعية – النموذج الحيّ على ذلك :

فالداعية الذي يريد أن يعالج في بلد أو قرية أو حيّ أو عشيرة .. **مشكلة عقوق الوالدين** فلا يكفي حين يريد المعالجة أن يسرد الآيات والأحاديث التي تأمر بالبرّ ، وتحذّر من العقوق سردًا ، وأن يلقي الموضوع بأفكاره وشواهده إلقاءً .. بل عليه أن يستوحي من الواقع الذي يعايشه ، ومن البيئة التي وجد فيها أمثلة حسّية ، وشواهد واقعية .. تبينّ للسامع مصير العاقّين ، ونهاية الشاذّين والمنحرفين .. وما أكثرهم في المجتمعات التي انحرفت عن منهج اللّه ، وحادتْ عن شرعه وهديه !!

ويمكن للداعية أن يضرب الأمثال المستوحاة من عالم الواقع .. ما يصوّر للسامع مصير العاقّين والمنحرفين .

كأن يقول : أعرف رجلًا (بدون ذكر الاسم طبعًا) كان عاقًّا لوالديه غير مكترث بهما ، وغير مؤدٍّ لحقوقهما .. فماتا وهما غير راضيَيْن عنه .. فأذاقه اللّه لباس الجوع والفاقة وظلّ على ذلك إلى أن أخذه الموت جزاء ما اقترفته يداه ، وما وسوس له شيطانه ..

أو يقول : أعرف زيدًا من الناس سطا على مال أبيه في حال حياته ، فانتقم اللّه منه بعد موت أبيه ، فلم تمض على الولد سنوات معدودات حتى أصيب بالأمراض والخَرَف ، وقصور الفهم والنظر .. وظلّ على ذلك إلى أن مات شرّ ميتة ..

أو يقول : أعرف عَمْرًا من الناس كان ينهر أبويه ، ويشتمهما ، ولا يرعى شيخوختهما ، ولا يؤدّيهما حقوقهما .. فقضى حياته في سجن مقيم مع الأشقياء والمجرمين لجرائم كبيرة ارتكبوها ، وبقي في سجنه إلى أن توفّاه اللّه شقيًا وحيدًا لا أنيس له ولا قريب ولا مودّع [1] !! .

وبعد سرد الأمثلة يؤكد الداعية للسامع أن هذا الانتقام للعاقّ في الدنيا هو ما أخبر عنه الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، وذلك في الحديث الذي رواه الحاكم والأصبهاني : « **كل الذنوب يؤخر الله ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين ، فإن اللّه يعجّله لصاحبه في الحياة قبل الممات** » [2] .

ثم ينتقل الداعية إلى سرد أفكار أخرى في التحذير من العقوق مستوحاة أيضًا من عالم الواقع كأن يقول :

ومن العقوق أن ينظر الولد إلى أبيه نظرة شزر عندما يريد الأب أن ينصحه ، ويبين له ، ويقوّم اعوجاجه ..

ومن العقوق أن يعتبر الولد نفسه مساويًا لأبيه في كل شيء ..

ومن العقوق أن يتعاظم الولد عن تقبيل يدي أبويه ، أو لا ينهض لهما إذا دخلا عليه احترامًا وإجلالًا ..

ومن العقوق أن يستحوذ الغرور على الولد ، فيأنف أن يُعرّف بأبيه ولا سيما إذا كان الأب رجلًا عاديًا على الفطرة ، وكان الولد في مركز اجتماعي مرموق ..

ومن العقوق ألا يقوم الولد بحق النفقة على أبويه الفقيرين ؛ مما يضطرهما إلى إقامة الدعوى عليه ؛ ليلزمه القاضي بالإنفاق عليهما ..

ومن أكبر العقوق أن يتضجّر الولد منهما ، ويعلو صوته عليهما ، ويجلب الإهانة لهما ، والمسبّة لشخصهما .

---

(1) هذه الأمثلة التي سرنادها عن مصير العاقّين هي أمثلة واقعية عرفها المؤلف ، ويمكن للداعية أن يستشهد بأمثلة أخرى عرفها أو سمع عنها وما أكثرها في هذا الزمن الذي شاع فيه العقوق ، وانتشر الظلم ..

(2) مستدرك الحاكم (4 / 156) وكنز العمال (45545) .

فلا عجب أن يحذّر الرسول ﷺ من العقوق ، وأن يبين ما للعاقّ من الإثم والوزر، وسوء المصير ، وسرعة الانتقام منه في العاجلة قبل الآجلة !! ..

ومما يعطي لموضوع معالجة العقوق أثرًا وأهمية وتفاعلا .. لدى السامع أن يقول الداعية بعد استعراضه للظواهر التي تدلّ على العقوق :

لا تُعرف حقيقة برّك لأبويك – أخي الشاب – إلا بعد الزواج ، وبعد تأمين المورد واستقلاليتك بالنفقة ، وبعد وصولك أيضًا إلى مركز اجتماعي مرموق .. بعد هذا تعرف الحقيقة بأجلى معانيها .

● بعد الزواج يعرف هل تفضّل نفسك وزوجتك وأولادك على أبويك ، أم تؤدي لكل ذي حقٍّ حقَّه وتشكر لكل واحد من والديك فضله .

● وبعد استقلاليتك بالنفقة هل تقوم ببرّهما والإحسان إليهما ، أم تستحوذ عليك قبيحة الشحّ ، ورذيلة البخل والإمساك ؟

● وبعد وصولك إلى مركز اجتماعي مرموق هل تقوم باحترامهما وتعرف لهما فضلهما ، أم تنظر إليهما نظرة تعاظم وفوقيّة واستعلاء ؟

فإذا فزت بالاختبار كنت البارّ لأبويك ، ومؤدّيًا حقوق والديك .. على الوجه الذي أمر به الإسلام .

وبإمكان الداعية بعد استعراضه الصور الواقعية في تقبيح العقوق في ذهن السامع أن يستشهد بعد ذلك بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والقصص التاريخية .. التي تحذر من العقوق وتأمر بالبر ؛ فهذا الاستشهاد يكون وقع النصّ أو القصة في نفسيّة السامع أبلغ ، وتكون الاستجابة للأمر أقوى وأسرع ..

والربط بالواقع – أخي الداعية – يشمل كل موضوع له صلة بأحداث المجتمع ، وله ارتباط بمشكلات الناس .. فحين تقع في البلد مثلًا حادثة قتل ، أو حادثة سرقة ، أو حادثة علاقات جنسية مشبوهة ، أو حادثة اعتداء على عرض .. أو ما شابه ذلك .. فعلى الداعية أن يتعرض فورًا لهذه الحادثة ، وأن يبيّن الأسباب والدواعي التي أدّت إليها ، وأن يستخلص منها عِبرها وعظاتها ، وأن يتطرّق في الأخير لموقف الإسلام منها ومن الجرائم العامة ، ثم يعرّج في بيان المقصود من قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [1] .

---

(1) سورة البقرة الآية : 179 .

فإن فعل ذلك فالموعظة مفيدة ، والثمرة مرجوّة ، والأثر طيب .. أما أن يتجاهل الحادثة ، ويتغافل عن كل ما يقع في المجتمع دون أن يتعرض له ، ويتحدّث فيه .. فيكون أبعد ما يكون عن الواقعية في عزلته الفكرية ، وتجاهله أحداث المجتمع ، وتغافله عن حل مشكلات الناس .

فإذا اقتنعت معي – أخي الداعية – بهذه الوسيلة فاحرص على تطبيقها والعمل بها حين تقف بين الناس خطيبًا ، أو تجلس بينهم متحدّثًا ، أو تكون في المدارس معلّمًا ، أو تنطلق في المساجد واعظًا .. فهذا – والله – من أعظم نجاحك ، ومن أبلغ توفيقاتك .. والله يتولّى العاملين المخلصين .

2 - التجدد في الأساليب :

والداعية إن أراد أن يضفي على المجلس روح التشويق والتحبيب ، وأن يثير في السامعين مشاعر الانتباه والاهتمام ، وأن يحرّك في المجتمعين أحاسيس الانفعال والعاطفة .. فعليه أن يتّبع أفضل الطرق في تبليغ الدعوة ، وأن ينتهج أحسن الأساليب في هداية الناس ..

حتى لا يقع السامع في الملل ، ولا يسرح المتعلّم في أحلام اليقظة ، ولا يستسلم المدعوّ لخفقات النعاس .

ولا بأس أن أقدّم لك – أخي الداعية – بعض النماذج في تجدّد أساليب النبي ﷺ في تبليغ الدعوة عسى أن تكون لك – أخي الداعية – منهاجًا وقدوة :

أ – انتهاجه أسلوب القصة :

وذلك في إخباراته – عليه الصلاة والسلام – عن الأمم السابقة وما جرى لها من وقائع وأحداث كإخباره عن قصة الثلاثة الذين أواهم المبيت إلى غار [1] ، وإخباره عن قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا [2] ، وإخباره عن قصة إبراهيم وهاجر وإسماعيل [3] .. إلى غير ذلك من هذه القصص التي رواها الثقات ، وثبتت في الصحاح .

فالداعية الموفق يستطيع أن يكيّف عرض القصة أيًا كانت .. بالأسلوب الملائم الذي يتناسب مع عقليّة المخاطبين ، كما أنه يستطيع أن يستخرج من القصة أهمّ مواطن العبرة والعظة ليكون التأثير أبلغ ، والاستجابة أقوى .. عدا ما للقصة – إن أُحسن عرضها – من

(1) ارجع إلى كتاب « رياض الصالحين » باب (الإخلاص) تجد القصة كاملة في أول باب من الكتاب .
(2) ارجع إلى كتاب « رياض الصالحين » باب (التوبة) تجد القصة كاملة في ثاني باب من الكتاب .
(3) ارجع إلى كتاب « رياض الصالحين » كتاب (المأثورات والملح) في آخر الكتاب .

تحريك للعاطفة ، ومثار للانتباه ، وتسلية للنفس ، وتفتيح للذهن ، وأثر في الإصلاح .. بل تنقل السامع من عالم العقلانية والفكر المجرد .. إلى أجواء العاطفة وهيمنة التأثير ..

ب - انتهاجه أسلوب الحوار والاستجواب :

ما أكثر الأساليب الحواريّة والاستجوابيّة التي انتهجها - عليه الصلاة والسلام - مع أصحابه حين كان يدعوهم إلى اللّه ، ويربّيهم التربية المثلى !! .

وإليك - أخي الداعية - بعض النماذج :

● رَوَى الإمام أحمد في مسنده عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص - رضي اللّه عنهما - قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « أتدرون من المسلم ؟ » .

قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

قال : « أتدرون من المؤمن ؟ » . قالوا : اللّه ورسوله أعلم .

قال : « المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم » .

ثم ذكر المهاجر فقال : « والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه » [1] .

● وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ » . قالوا : لا يبقى من درنه شيء .

قال : « ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » [2] .

● وروى الشيخان عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أتدرون من المفلس ؟ » . قالوا : « المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

قال : « المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة .. ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ؛ فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » [3] .

---

(1) مسند الإمام أحمد (2 / 206 و 215) . (2) صحيح مسلم كتاب المساجد ب (51) رقم (283) .
(3) صحيح مسلم كتاب البر والصلة ب (15) رقم (59) ، والبخاري كتاب الأدب ب (102) ولفظ البخاري : « إنما المفلس الذي يفلس يوم القيامة » .

وما هذا الأسلوب الحواري الذي انتهجه سيد الدعاة عليه الصلاة والسلام مع من يلتقي بهم ويدعوهم إلا ليثير انتباههم ، ويحرّك فطنتهم وذكاءهم ، ويُذهب مللهم وسآمتهم ، ويصبّ في مشاعرهم وأحاسيسهم معين المعرفة ، وسلسبيل الهدى ..

ج - انتهاجه أسلوب التعليم بالقدوة :

ومن أساليبه عليه الصلاة والسلام في تعليم الناس وإرشادهم إعطاؤه لهم القدوة العملية في هذا التعليم والإرشاد .

وإليكم بعض النماذج العملية :

● روى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، كيف الطهور ؟ (أي الوضوء) ، فدعا رسول اللّه ﷺ بماء في إناءٍ فغسل كفّيه ثلاثًا حتى استوفى ثم قال : « فمن زاد عن هذا أو نقص فقد تعدّى وظلم » [1] .

● وروى البخاري في صحيحه أن رسول اللّه ﷺ توضأ أمام جمع من الناس ثم قال : « مَنْ توضّأ نحو وضوئي هذا ثم صلّى ركعتين ، لا يحدّث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غُفر له ما تقدّم من ذنبه » [2] .

● وروى البخاري حديثًا ذكر فيه أنه - عليه الصلاة والسلام - صلّى مرة بالناس إمامًا وهو على المنبر ؛ ليروا صلاته كلّهم ؛ وليتعلّموها من أفعاله ومشاهدته .. فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « يأيها الناس إنما صنعتُ هذا ؛ لتأتمّوا بي ، ولتُعَلّموا صلاتي » [3] .

● وهو القائل عليه الصلاة والسلام لأصحابه - كما ثبت في الصحيح - : « خذوا عني مناسككم » [4] في حجة الوداع .

ولا يخفى ما في التعليم بالقدوة من أثر طيب ، وتعليم دقيق شامل ، وترسيخ للعلم ثابت ، وتشويق محبّب ظاهر .. في تكوين الناشئة ، وتربية الأجيال ، وإصلاح الأمم ..

---

(1) سنن أبي داود (135) ، وسنن النسائي كتاب الطهارة ب (105) رقم (140) ، وسنن ابن ماجه كتاب الطهارة ب (48) برقم (422) .

(2) صحيح البخاري كتاب الوضوء ب (28) برقم (164) .

(3) صحيح البخاري كتاب الصلاة ب (18) برقم (377) ، وانظر شرح السنة (2 / 390 ، 391) .

(4) فتح الباري (1 / 217 ، 499) ، وسنن البيهقي (5 / 125) .

د – انتهاجه أسلوب ضرب المثل :

كان عليه الصلاة والسلام يستعين على توضيح توجيهاته الدعويّة بضرب المثل مما يشهده الناس بأمّ أعينهم ، ومما يقع تحت حسّهم ومشاهدتهم .. لينتقل بالناس في ضرب الأمثال من البسيط إلى المركّب ، ومن المحسوس إلى المعقول ، ومن الصورة إلى الحقيقة .. وفي ذلك فائدة وأي فائدة في مجال التربية والتعليم والإعداد .

وإليكم بعض النماذج :

● روى البخاري في صحيحه عن النعمان بن بشير – رضي اللّه عنهما – عنه ﷺ : « مثل القائم على حدود اللّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة (أي اقترعوا) فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين من أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم وقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإذا أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعًا » [1] .

● وروى النسائي في سننه عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّةِ (فاكهة كالبرتقال) ريحها طيّب ، وطعمها طيّب .. ؛ ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ؛ ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مرّ ؛ ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها ؛ ومثل جليس السّوء كصاحب الكير (أي كير الحدّاد) إن لم يُصْبك من سواده أصابك من دخانه » [2] .

والأمثلة على ذلك كثيرة ومستفيضة في كتب السنّة .

ولا يخفى ما في هذه التشبيهات النبوية من توضيح للفكرة ، وترسيخ للعلم ، وتشويق للنفس ، وتجديد للأسلوب ، وتنويع في الطريقة ..

هـ – انتهاجه أسلوب المداعبة :

كان ﷺ يُضفي على المجلس روح المداعبة أحيانًا ؛ ليجدّد للسامع نشاطه ، ويذهب عنه الكآبة والسآمة والملل ، ويفتح نفسه لتقبّل الموعظة والرّشد ..

وإليكم بعض النماذج :

● روى أبو داود والترمذي عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : إن رجلًا جاء إلى

(1) صحيح البخاري كتاب الشركة ب (6) برقم (2493) . (2) سنن النسائي (5038) .

رسول اللّه ﷺ يستحمله بعيرًا من الصدقة ؛ ليحمل عليه متاع بيته ، فقال رسول اللّه ﷺ : « إني حاملك على ولد الناقة » ، فقال الرجل : يا رسول اللّه ﷺ ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : « وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ » [1] .

فأفهمه ﷺ عن طريق هذه المداعبة أن الجمل لو كان كبيرًا يحمل الأثقال لايزال ولدًا للناقة باعتبار ولادته منها .

● وروى مسلم عن سماك بن حرب قال : قلتُ لجابر بن سمرة رضي اللّه عنه : أكنت تجالس رسول اللّه ﷺ ؟ فقال جابر : نعم كثيرًا ، كان رسول اللّه ﷺ لا يقوم من مصلاه الذي فيه يصلي الصبح حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون – والرسول جالس – فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ، ويتبسم ﷺ [2] .

● وقال جرير بن عبد اللّه : ما حجبني رسول اللّه ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآني إلا تبسّم ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ، ويُداعب صبيانهم ويُجلسهم في حِجْره ، ويجيب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر .. وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبًا ، وصاروا عنده في الحق سواء .. [3] .

ولا يخفى ما في مداعبة الجلساء وملاطفتهم من تحريك للهمم ، وإذهاب للملل ، وتشويق للمتابعة والسماع .. وهذا محمود إذا كانت المداعبة في حدود التنشيط ، وإذهاب السأم .. أما إذا جاوزت حدود الاعتدال ، وأصبحت في الداعية خلُقًا وعادة .. فإنها تُسقط المهابة وتُضعف التأثير ، وتقلب المجلس إلى مجلس مرح وتهريج ..

ألا فليحذر الدعاة هذه المغالاة في مداعباتهم وملاطفتهم .. إن أرادوا أن تبقى لهم مهابتهم ، وتُحترم في الناس شخصيتهم ، ويكون لهم في الأمة تأثيرهم ؟!! .

و – انتهاجه أسلوب انتهاز المناسبة :

وكان ﷺ كثيرًا ما ينتهز المناسبة لمن يريد إصلاحهم وتوجيههم .. ليكون التعليق على المناسبة أبلغ في التأثير ، وأقرب للفهم والمعرفة .

وإليكم بعض النماذج :

● روى مسلم عن جابر – رضي اللّه عنه – أن رسول اللّه ﷺ مرّ بالسوق داخلًا من

---

(1) سنن أبي داود كتاب الأدب ب(84) ، وسنن الترمذي كتاب البر ب (57) .

(2) سبق تخريجه ص 342 .

(3) من كتاب « الشفا » ص : 90 ، 91 .

بعض العالية والناس عن (جانبيْه) ، فمرّ بجدي أَسَكّ (أي صغير الأذنين) ميّت ، فتناوله بأُذُنه ثم قال : « أيّكم يحبّ أن هذا له بدرهم ؟ » قالوا : ما نحبّ أنه بشيءٍ أَوَ ما نصنع به ؟ قال : « أتحبّون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيًّا كان هذا السَكّ عيبًا فكيف وهو ميت ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : « فوالله ، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » [1] ..

● وروى الشيخان عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : قَدِم على النبي ﷺ سبيٌ ، فإذا امرأة من السبي قد تَحَلَّبَ ثديها ، تسقِي إذا وجدت صبيًّا في السبي ، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي ﷺ : « أترون هذه طارحةً ولدُها في النار ؟ » قلنا : لا. وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال : « الله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » [2] .

ولا شك أن انتهاز المناسبة هو من أعظم العوامل المؤثرة في إصلاح المجتمع ، وتربية الأمة ، وهداية الأفراد .

ز – انتهاجه أسلوب الالتفات إلى الأهمّ :

وكان ﷺ يلفت السائل عن سؤاله إلى شيء أهمّ ، وهذا ما يسمى بأسلوب الحكيم .

من ذلك : ما روى الشيخان عن أنس – رضي الله عنه – أن أعرابيًّا سأل رسول الله ﷺ فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ فقال له رسول ﷺ : « ماذا أعددت لها ؟ » قال : حب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » [3] .

فلفته ﷺ عن سؤاله عن قيام الساعة – التي اختص الله بعلمها – إلى شيء أهمّ هو أحوج ما يكون إليه ألا وهو إعداد العمل الصالح لهذا اليوم الذي يقوم فيه الناس لربّ العالمين .

فقد روى الإمام السيوطي في أسباب النزول أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لِمَ يبدو صغيرًا ثم يزداد حتى يستدير ويتكامل نوره ، فصرفهم إلى ما هو أهمّ إلى بيان أنها أوقات ومعالم يعرف بها الناس مواعيد الصوم والحج والزكاة .. فضلًا عن حساب الأشهر والسنين والأعمار .. وهذا الذي بيّنه النبي ﷺ لأصحابه هو في الحقيقة تعليم من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام في انتهاجه الأسلوب الأقوم والالتفات إلى الأهم ، قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [4] .

ولا شك أن الداعية حين ينتهج في سؤال الناس له هذا الأسلوب الحكيم ، ويعطي السائل ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويصرفه من المهمّ إلى الأهم .. يكون فعلًا ممن أوتي نباهة وحضور بديهة ،

---

(1) صحيح مسلم كتاب الزهد رقم (1) .
(2) اللؤلؤ والمرجان كتاب التوبة برقم (1751) .
(3) انظر اللؤلؤ والمرجان (3/ 206) برقم (1693) .
(4) سورة البقرة : 189 .

ويكون في الوقت نفسه قد سلك الأسلوب الأقوم في إصلاح الناس، وتربية المجتمع .

ح - انتهاجه أسلوب الدعوة بالرسم والإيضاح :

وكان - صلوات اللّه وسلامه عليه - يخطّ أمام أصحابه خطوطًا، ليوضح لهم بعض المفاهيم الهامّة، ويقرّب إلى أذهانهم بعض التصوّرات المفيدة .

وإليكم بعض الأمثلة :

روى البخاري في صحيحه عن عبد اللّه بن مسعود - رضي اللّه عنه - قال : خطّ النبي ﷺ خطًّا مربّعًا، وخطّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطّ خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال : « هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارج (أي عن الخط) أمله، وهذه الخُطط الصغار الأعراض، فإن أخطأ هذا نهشه هذا، وإن أخطأ هذا نهشه هذا » [1] .

وهذا هو المخطّط الذي خطّه عليه الصلاة والسلام :

أجله

الحوادث والنوائب | الحوادث والنوائب | الحوادث والنوائب

أجله | الإنسان | أجله | أمله

الحوادث والنوائب | الحوادث والنوائب

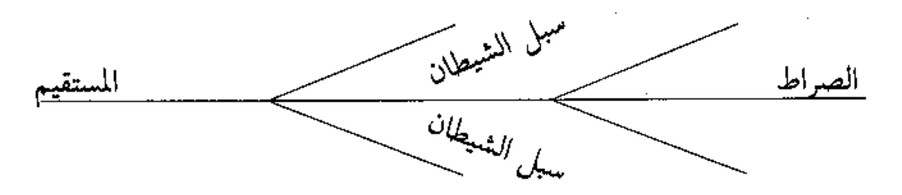
أجله

فبيّن عليه الصلاة والسلام بما رسمه لأصحابه على الأرض كيف يُحال بين الإنسان وآماله العريضة الواسعة بالموت المباغت، أو الحوادث المنازلة، أو الهرم المضني المقعد .. وهذا توضيح جميل، وأسلوب جيد من المعلم الأول عليه الصلاة والسلام .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر - رضي اللّه عنه - قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فخط بيده في الأرض خطًّا - هكذا - فقال : « هذا سبيل اللّه »، وخطّ خطين عن يمينه، وخطين عن شماله، وقال : « هذه سُبل الشيطان »، ثم وضع يده على الخطّ الأوسط، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [2] .

(1) صحيح البخاري رقم (6417) . (2) مسند الإمام أحمد (3 / 397) والآية من سورة الأنعام : 153 .

وهذا هو المخطّط الذي خطه عليه الصلاة والسلام :



فبين لهم عليه الصلاة والسلام بما رسمه لهم على الأرض أن منهج الإسلام هو الصراط المستقيم الموصل إلى العزة والجنّة ، وأن ما عداه من المناهج الأرضية ، والنظم الوضعية هي سُبل الشيطان وطُرُقُه الموصلة إلى الدمار والنار ..

وهذا أسلوب آخر في التشويق والتحبيب .. انتهجه عليه الصلاة والسلام في تبليغ الدعوة .. فعلى الدعاة والمعلمين أن يتأسّوا بنبيّهم – عليه الصلاة والسلام – في تبليغ الدعوة بالرسم والإيضاح ، وفي ذلك تجسيد للفكرة ، وترسيخ للعلم ، وتشويق للموعظة ، وتحبيب للدعوة ..

ط – انتهاجه أسلوب الدعوة بإظهار المحرم الذي ينهى عنه :

ومن أساليبه ﷺ في تبليغ الدعوة حمله بيده المحرّم الذي ينهى عنه ، ورفعه أمام المخاطبين ، ليقرّر لهم الشيء المنهي عنه بالقول والمشاهدة ؛ ليكون ذلك أزجر للنفوس ، وأقطع في الدلالة على التحريم ؛ **من ذلك :**

ما روى أبو داود والنسائي وابن ماجه في « سننهم » عن علي بن أبي طالب – رضي اللّه عنه – قال : أخذ رسول اللّه ﷺ حريرًا بشماله ، وذهبًا بيمينه ، ثم رفع بهما يديه ، فقال : « إن هذين حرامٌ على ذكور أمتي ، حلٌّ لإناثهم » [1] .

* * *

تلكم – إخوتي الدعاة – أهمّ الأساليب التي كان يتبعها الداعية الأول عليه الصلاة والسلام في توجيه الكبار ، وتعليم الصغار ، وإرشاد الخاصة ، وهداية العامة ، وتثبيت الفضائل ، وتقويم الاعوجاج .. وهي – كما رأيتم – طرائق متنوعة ، وأساليب مختلفة .. بل كان عليه الصلاة والسلام لا ينتهج أسلوبًا واحدًا في إرشاد الناس وهدايتهم ، ودعوتهم إلى الخير ، وإنما كان ينتقل بهم – كما ألمحنا – من

(1) سنن أبي داود (4057) وسنن النسائي (8 / 160) وسنن ابن ماجه (3595) .

القصة إلى الحوار والاستجواب ، ومن التأثير الخاشع إلى المداعبة اللطيفة ، ومن الموعظة بالكلمة إلى التعليم بالقدوة ، ومن ضرب المثل إلى التوضيح بالرسم ، ومن التذكير بالقرآن الكريم إلى استجلاء العبرة بانتهاز المناسبة ، ومن لفت السائل من المهمّ إلى الأهمّ ، ومن النهي عن المحرم بالقول إلى النهي عنه بالإظهار والمشاهدة ..

ولا يخفى عليكم - إخوتي الدعاة - ما في هذا التنوع من الأساليب في تبليغ الدعوة من أثر كبير في ترسيخ المعلومات ، وإثارة الفهم ، وتحريك الذهن ، وقدح الفطنة ، وتشويق السامع ، والاستجابة السريعة إلى الخير ..

فما أحوج المجتمع الإسلامي اليوم إلى دعاة خير ، وأئمة هدى ، وعلماء دعوة .. ينتهجون نهج رسول الله ﷺ في التبليغ ، ويتبعون أسلوبه في الدعوة إلى الله ، ويسلكون طريقته في التشويق والتحبيب .. عسى أن يحققوا في أمة الإسلام إصلاحًا ، ويحدثوا فيها تغييرًا ، ويوجدوا في كل مكان القاعدة الصلبة التي على يديها تقوم دولة الإسلام ، وتتحقق سيادة المسلمين ، وما ذلك على الله بعزيز إنه نعم المولى ونعم النصير ونعم القوي القدير .

3 - **الاقتصاد في الموعظة** :

سبق أن ذكرنا في بحث « **اتباع الداعية أصول التحدث والحوار** » أن من أدب الداعية في التحدث أن يكون في حديثه مقتصدًا معتدلًا حتى لا يقع الناس في الملل ولا تعتريهم السآمة ، وهذا المنهج في تبليغ الدعوة هو أوقع في نفوس السامعين ، وأشوق إلى قلوبهم ، وأحبّ إلى أسماعهم .

وهذه الطريقة في الاعتدال في التحدث ، والاقتصاد في الموعظة هي طريقة رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده ، ولا بأس من أن نذكر طرفًا من أخبارهم :

روى مسلم عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : كنتُ أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصدًا ، وخطبته قصدًا (أي وسطًا) [1] .

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث حكيم بن حزام - رضي الله عنه - قال : شهدتُ مع رسول الله ﷺ الجمعة فكان متوكّئًا على عصا .. فحمد الله وأثنى عليه ، فكانت كلمات خفيفات طيبات مباركات [2] ..

---

(1) سبق تخريجه ص 339 . (2) سبق تخريجه ص 339 .

وفي الصحيحين عن أبي وائل شقيق بن سلمة : كان ابن مسعود – رضي اللّه عنه – يذكّرنا في كل خميس مرة ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لودِدْتُ أنك ذكّرتَنا كلّ يوم ، فقال : إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم ، وإني أتخولكم (أي أتعهدكم) بالموعظة كما كان رسول اللّه ﷺ يتخوّلنا بها مخافة السآمة علينا [1] .

ويدخل في الملل التحدث الدائم في كل يوم ، أو إطالة الحديث أو الخطبة في مجلس واحد ..

وروى الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين في (باب الوعظ والاقتصاد فيه) عن عمار بن ياسر – رضي اللّه عنهما – قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « إن طول صلاة الرجل وَقِصَر خطبته مَئِنَّةٌ من فقهه (أي علامة دالّة على فقهه) ، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة » [2] .

ولاشك أن الداعية – كما ألمحنا سابقًا – إذا ابتعد عن الثرثرة اللسانية ، وتجنّب الحشو في الكلام ، والتكرار في الأفكار ، وتكلّم بلبّ الموضوع بلا مقدمات طويلة مملّة .. جاءت موعظته مقتصدة معتدلة مقبولة لدى مستمعيه ، بل يعطي في انجذاب الناس له ، واستجابتهم إليه ، وتأثرهم به ، واستفادتهم منه .. المثل الأعلى للدعاة جميعًا .. واللّه يتولى العاملين المخلصين .

وصفوة القول :

إن الداعية قبل أن يلتقي بالناس ، ويدعوهم إلى الخير عليه أن يفكر بالطريقة التشويقية التي تضفي على المجلس فعاليّة التأثير ، وروح الحيويّة ، وظاهرة الاستجابة ، وملامح التلقّي والاهتمام .. وهذا لا يتأتّى إلا بالطرق التالية :

● أن يربط موضوع حديثه بالواقع ، وأن يستوحي أمثلته من عادات المجتمع ، وتعامل الناس ..

● أن ينتهج أفضل الأساليب ، وأحسن الطرق في تبليغ الدعوة ، وهداية البشر ..

من هذه الأساليب : – كما سبق التفصيل عنها – أسلوب القصة ، وأسلوب الحوار ، وأسلوب التعليم بالقدوة ، وأسلوب ضرب المثل ، وأسلوب المداعبة ، وأسلوب انتهاز المناسبة ، وأسلوب الالتفات إلى الأهمّ ، وأسلوب الدعوة بالرسم ، وأسلوب الدعوة بإظهار المحرم الذي ينهى الداعية عنه ..

● أن يعتدل في موعظته ، ويقتصد في حديثه لدى اجتماعه بالناس ، وتحدّثه إليهم ..

---

(1) سبق تخريجه ص 339 . (2) انظر صحيح مسلم كتاب الجمعة ب (48) ، ومسند أحمد (4 / 263) .

وهذه الطرق إلى التشويق إذا انتهجها الداعية في دعوته وتبليغه ، وعمل بمقتضاها في مجالسه وأحاديثه .. كانت من أكبر العوامل في نجاحه وتوفيقه ، وإلا .. كان حديثه جافًا ، ومجلسه جامدًا ، وموعظته باهتة .. بل حكم على نفسه بالضعف والفشل والإخفاق ..

بعد الذي سردناه من مناهج « **الهيمنة والتأثير** » هل عرفت – أخي الداعية – كيف تهيمن على المجلس ؟ وكيف تؤثر في الناس ؟

هل عرفت أن الهيمنة لا تتم ، والتأثير لا يتحقق إلا باتجاه القلوب إليك **بالمحبة الخالصة** ، وزرع العلاقة بينك وبين الناس **بالثقة المتبادلة** ؟

ولقد رأيت – أخي الداعية – أن الذي يولّد لك هذه المحبة ، ويقوّي فيك هذه الثقة هي :

إشراقتك الروحية التي بها تنفتح القلوب إليك ، وتهفو النفوس عليك .. وتجعل منك طاقة إشعاع يبصر الناس به الهدى ، ويرون النور ، ويرتقون في مدارك السالكين المخلصين المخبتين ..

وقدوتك السلوكيّة التي بها يأخذ الناس عنك ، ويستجيبون إليك .. وتجعل منك نموذجًا صالحًا حيًّا في التأسّي والاقتداء ، والتلقّي والاتباع ..

وقوتك الإقناعية التي بها تسيطر على خصومك ، وتملك قلوب مستمعيك .. وتجعل منك إنسانًا ذا احترام في الناس ، ومكانة في المجتمع ..

وتفاعلاتك الدعويّة التي بها تتحرّك للدعوة من ذاتك ، وتنطلق في سبيلها من وحي صدقك وإخلاصك .. وتجعل منك داعية مهتمًّا مثابرًا .. لا يستقرّ له حال ، ولا يهدأ له بال ، حتى يأذن اللّه بالنصر ، أو توافيه المنية وهو في درب الدعوة والجهاد .

وطريقتك التشويقية التي بها تتحرك مشاعر الناس إليك ، ويقبلون عليك .. وتجعل منك رجلًا مكرّمًا محبوبًا ، وداعية موفقًا ميمونًا ..

فبهذه الخصال – أخي الداعية – تملك في دعوتك القلوب ، وبهذه الصفات تؤثر كل التأثير على النفوس ، وبهذه المعاني الروحية والسلوكية تذرف إذا وعظت المآقي والعيون .. بل يكون لك في الناس احترام ، وفي المجتمع مهابة ، وفي المدعوين استجابة ، وفي الأمة تغيير وأيّ تغيير ؟!!

وإليك – أخي الداعية – **نموذجين حيَّين في هيمنة** النبي ﷺ على المجلس ، وتأثيره

في الناس .. لتتخذ منها قدوة :

أ - روى الترمذي وأبو داود عن العرباض بن سارية أنه قال : وعظنا رسول اللّه ﷺ موعظة مضّتْ (أي احترقت) منها الجلود ، وذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقلنا : كأن هذه موعظة مودّع يا رسول اللّه فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بتقوى اللّه والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشيّ ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضّوا عليها بالنواجذ (الأنياب) ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » [1] .

ب - روى الشيخان عن أنس - رضي اللّه عنه - قال : بلغ رسول اللّه ﷺ عن أصحابه شيء ، فخطب فقال : « عُرِضت عليّ الجنة والنار فلم أرَ كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتُم كثيرًا .. » فما أتى على أصحاب رسول اللّه ﷺ يوم أشدّ منه ، غطّوا رؤوسهم ولهم خنين (أي بكاء) [2] .

فاحرص - أخي الداعية - على أن تكون ممن تتحقّق فيه مواصفات أهل القلوب والتقوى ، وأساليب أهل التبليغ والدعوة .. في هيمنتهم على المجلس ، وتأثيرهم في الناس .. ليكون لك في مجال الدعوة أثر ، وفي ميدان الإصلاح تغيير .. واللّه سبحانه ولي التوفيق .

* * *

7 - **الاستعانة بوسائل التبليغ** :

سبق أن ذكرنا في بحث « **دراسة البيئة** » أن على الداعية أن يدرس البيئة التي يعيش فيها ، وأن يتعرّف على أوضاعها وتقاليدها ، وأن يستوعب أهم مشكلاتها وقضاياها ، وأن يَسْبِر نفسيّات أهلها وأبنائها ، وأن يستكمل الوسائل التي تؤثر في عمالها ومثقّفيها ..

وبالاختصار أقول : على الداعية - إن كان موفقًا حكيمًا - أن يتعرّف على أسلوب العمل الذي يتفق مع عقليّة الناس واستعداداتهم ، ويتلاءم مع مستوى تفكيرهم ونفسيّاتهم ، وينسجم مع أبعاد تقبّلهم واستجابتهم ..

على ضوء ما ذكرناه سابقًا ولاحقًا ، على الداعية - إن كان طالبًا في مدرسة ثانوية مثلًا - أن يقوم بعمليّة مَسْحٍ كاملة لأساتذة المدرسة وطلابها ، فبعد عملية

(1) سنن الترمذي (2676) وأبي داود (4607) .

(2) صحيح مسلم كتاب الفضائل رقم (134) وصحيح البخاري كتاب الرقاق ب (27) برقم (6486) .

المَشح هذه لابد أن يصل إلى تصنيف الفئات التالية :

أ - فئة مع الإسلام .

ب - فئة ضد الإسلام .

ج - فئة على الحياد .

وبعد هذا التصنيف يأتي دور الداعية في إعطاء كل فئة من هذه الفئات الثلاث حقها من الأفكار التي تطرح ، والوسائل التي تعرض ، والأخلاقيّة التي يتعامل معها .

ولا بأس أن أتعرّض لكل فئة بشيء من التفصيل ؛ ليعلم الطالب في مدرسته ، وهو بين زملائه وأساتذته .. كيف يدعو ؟ وكيف يتعامل ؟ وكيف يؤثر في الناس ؟ وما الوسائل التي يعرضها ؟ وما الطريقة التي يتّبعها ؟

ولنبدأ بالفئة التي مع الإسلام :

والفئة التي مع الإسلام هي في الحقيقة أشكال وأنواع من حيث تصوّرها للإسلام، ومِنْ حيث حركيّتها في سبيله ، ومن حيث ارتباطها بالجماعات الإسلامية ، ومن حيث انتسابها إلى جماعات المشايخ والمرشدين .

وهنا يأتي دور الداعية في تصحيح الأفكار والتصوّرات ، وفي التحرّك للإسلام والجهاد في سبيله ، وفي الانعتاق مِنْ قوقعة العزلة ، وهيمنة المرشد .. إلى ميدان العمل الدعوي ، والجهاد التبليغي ، والانطلاق الحركي والوسائل التي يستعين بها الطالب الشاب في تبليغ الدعوة هي في الحقيقة كثيرة ومتنوعة :

● من هذه الوسائل **وسيلة الجلسة المفتوحة** ، حيث يُدعى إلى هذه الجلسة الفئة التي تفهم الإسلام على أنه دين عبادة ، ودعوة تزكية ومجاهدة ، وطاقة فضائل وأخلاق .. دون أن يدور في تصوّرها أن الإسلام يجمع مع العبادة الجهاد ، ومع التزكية الاهتمام بشؤون المسلمين ، ومع الأخلاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومع الدين إقامة الدولة ، وتولّي شؤون السياسة ..

ولا يصح أن تُدعى هذه الفئة إلى الجلسة المفتوحة إلا بعد أن يُهيئ الداعية الشاب في الجلسة الدعاة الأقوياء في حوارهم وحجتهم ، ليصححوا أثناء الحوار وطرح الأسئلة أفكار المجتمعين وتصوّراتهم ، وفهمهم الناقص عن الإسلام .. وفي تقديري أن هذه الوسيلة هي من أعظم الوسائل في تصحيح المفاهيم ، وفي تقويم التصورات ،

وفي ردّ النفوس الضائعة إلى الإسلام الحق ، والدين الكامل ..

● ومن هذه الوسائل **وسيلة الشريط الإسلامي** ، حيث يُختار من الأشرطة الدعوية أعلاها وأقواها ، ولا سيما الأشرطة التي عالجت الانطوائيّة في الشباب ، وَعُزْلَتَهم عن المجتمع .. والتي اهتمت بقضايا الشباب ، وصححت لهم المفاهيم والتصورات عن الإسلام .. والتي تدفع بأبناء الإسلام نحو الجهاد والدعوة والعمل لإقامة العزة الإسلامية في الأرض .. ثم بعد هذا التهيؤ والاختيار يتولّى طلاب التوعية في المدرسة إعارتها أو إهداءها .. للذين يرجى منهم خير في التصحيح والتقويم والإصلاح ..

● ومن هذه الوسائل **وسيلة الكتاب الإسلامي** ، حيث يختار من الكتب الدعوية والفكريّة أفضلها أسلوبًا ، وأحسنها معالجة ، وأمسّها بروح الواقع ، ومشاكل الشباب .. وهنا يأتي دور لجنة التوعية في المدرسة لتعطي لكل طالب ما يناسبه من هذه الكتب إعارةً أو إهداءً .. وهذه الوسيلة هي من الوسائل المجدية النافعة في تصحيح التصور ، وتقويم المفاهيم ، ودفع الشباب إلى الإسلام ، والعمل في سبيله ..

● ومن هذه الوسائل **وسيلة المحاضرات العامة** ، فلجنة التوعية في المدرسة حين تعلم أن داعية من دعاة الإسلام حلّ في بلد الإقامة أو قريب منها .. فعليها أن تقوم بنشاطها في تبليغ جميع الطلبة المعنيّين لسماع المحاضرة ، ولا سيما إذا كانت المحاضرة تعالج قضايا الدعوة ، وأوضاع المسلمين ومشاكل الشباب .. وفي تقديري أن كثيرًا من الشباب – عن هذا الطريق – ينجذبون للإسلام ، ويتفاعلون مع الدعوة ، وينخرطون في سلك الجماعة التي تدعو إلى اللّه ، ويصبحون من دعاة الإسلام ، وأشباله العاملين المخلصين .

● ومن هذه الوسائل **وسيلة خطب الجمعة والدروس العامة** ، فعلى لجنة التوعية أن تقوم بإحصاءٍ شامل لعلماء البلد الذين يتولّون زمام المنابر ، ويؤدّون رسالتهم التعليمية والتوجيهية في حلقات المساجد .. فبعد الإحصاء تختار منهم أقواهم علمًا ، وأحسنهم وعيًا ، وأفضلهم أسلوبًا وإرشادًا ، وأصفاهم تقًى وصلاحًا ، وأخلصهم نية وسريرة ، وأميزهم طريقة وموضوعية .. بعد هذا الاختيار تقوم لجنة التوعية بدعوة الفئة التي مع الإسلام ، لتتعلّم من هؤلاء الربانيّين ما ينقصها ، وتصحّح لها من المفاهيم والتصوّرات ما يُصلحها ، وتتوجّه – عن طريقهم – بما يدفعها إلى العمل الدعوي ، والتبليغ الحركي ، لتكون في المستقبل من زمرة الأمّة الخيّرة التي أخرجها اللّه للناس .

ومن المؤيدات لوسائل التبليغ :

نشر المجلّة الإسلامية ، والنشرة التوجيهية ، والصحيفة الدعويّة ..

الاحتفال بالذكريات الإسلامية كذكرى الإسراء والمعراج ، والهجرة النبوية ، وغزوة بدر ..

إعداد الزيارات والرّحلات ، والنّزهات .. أيام الجُمَعَ ، والعطل ، والأعياد ..

إحياء الليالي المباركة أيام السنة ، كإحياء ليلة القدر ، وليلة الجمعة ، وليالي العشر الأواخر من رمضان .

تداول الأناشيد الإسلامية التي تحرّك في المسلم مشاعر الدعوة ، وتنفخ فيه روح الجهاد ..

مشاهدة المسرحيات الإسلامية التي تذكّر بالبطولات والأمجاد ، وتدفع نحو التضحية والفداء ..

إعداد جريدة حائط تتناول البحوث التي تهمّ قضايا الإسلام ، وتحلّ مشكلات الشباب ..

إلى غير ذلك من هذه الوسائل والمؤيدات ..

أما الفئة التي هي ضدّ الإسلام :

فهي التي اتخذت من الإسلام مواقف عدائية سافرة ، فهذه الفئة تتفاوت فيما بينها من حيث كيدها للإسلام ، ومن حيث انتماؤها للحركات الهدّامة ، ومن حيث تخبّطها في دياجير الإلحاد والإباحيّة ، فهذه الفئة لا تنفع معها الوسائل التبليغية التي سبق ذكرها في سبيل إصلاحها وهدايتها ..

وكيف تنفع معها هذه الوسائل وهي لا تُقر بالإسلام أصلًا ، ولا تؤمن بالإله وجودًا ؟!! فهل ثمّة مجال لهداية هذه الفئة ؟ وهل من طريقة إيجابية لردّها إلى الحق ؟

في الحقيقة لا توجد سوى وسيلة واحدة لإصلاحها وهدايتها ألا وهي الاتصال الفردي بشرط ألا يبدأ الداعية إذا أراد هداية واحد من هؤلاء بقال اللّه ، أو قال الرسول ، أو قرّر الإسلام كذا ، أو جاء في الشريعة كذا .. بل ينبغي أن يتعرّف أولًا على العُقْدَة التي سبَّبتْ له هذا الزيغ وهذا الانحراف ؛ فإن كانت العُقْدة التشكّك بهذا الخالق العظيم فليبدأ من ركيزة الإيمان التي هي الأصل في كلّ إيمان غيبيّ ، وإصلاح عقيديّ وخلقيّ .. وهذه الركيزة لا تترسّخ في النفس المتشكّكة إلا أن يزيل

الداعية الغبش عن عيون المحجوبين الهائمين .. ليريهم الظواهر التي تدلّ على اللّه ، وما أكثرها في قوانين العلم ، وأسرار الطبيعة ، ونواميس الحياة ، ومعالم الإنسان .. ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [1] .

وإن كانت العقدة اعتناق الشيوعية مثلًا التي تربّى في أحضانها ، ورضع من أوكارها ، فليبينّ له ما هي الشيوعية ؟ وما مبادئها ؟ وما هو موقفها من الأديان ؟ وكيف اصطدمت مع الواقع وغرائز الإنسان ؟

كل ذلك – إن أحسن عرضه والإحاطة به – يهدم في نفس الشيوعي هذا المبدأ اللاديني الذي آمن به ، وتأصّل في لحمه وعظامه .. أو يجعله على الأقل يقرّ بالواقع ، ويعترف بالحقيقة ، ويزعزع من تصوّره حلم السلام والعدالة والمساواة .. الذي به يحلم الشيوعيون ، وبشعاراته الكاذبة يتبجّحون ويتشدّقون .. وإذا استشعر الداعية أن مَنْ يحاوره تأثّر به ، واقتنع بحديثه .. فلا بأس أن يلازمه ويوطّد معه صِلات الصداقة والتزاور ، ويبذل كل ما في وسعه في أن يجذبه إليه ويربطه معه .. حتى إذا ملك قلبه ، واستحوذ على نفسه أعطاه الإسلام عقيدة وعبادة ومنهاجًا ، ووضّح له فكرة الإسلام الكلّية عن الكون والحياة والإنسان .. عسى اللّه أن يهدي قلبه ، ويشرح صدره للإسلام .. وصدق رسول اللّه ﷺ القائل – فيما رواه البخاري – : « لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم » ، وفي رواية : « خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » [2] .

أما إذا وجد منه الصّدود والعناد ، وقدّر أن لا جدوى في محاورته ، وأن لا أمل في هدايته فيقطع فورًا صلته به ، وَيَكِل أمره إلى اللّه ، وحسبه أنه بذل الجهد ، واستنفد الطاقة ، وأدّى المسؤولية .. بل أخذ بأدب الإسلام في مقاطعة أهل الزيغ والضلال ، وهجرهم هجرًا جميلًا .. قال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [3] .

وقال جل جلاله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ .. ﴾ [4] .

أما الفئة التي هي على الحياد :

فهم المسلمون التقليديّون الذين أخذوا الإسلام وراثة وتقليدًا عن آبائهم الذين انحدروا

(1) سورة الذاريات الآيات : 20 ، 21 .
(2) صحيح البخاري كتاب الجهاد ب (102) .
(3) سورة المزمل الآية : 10 .
(4) سورة النساء الآية : 140 .

منهم ، وبيئتهم التي درجوا فيها .. فإن لم يتيسر لهذه الفئة من يعمّق في نفوسها حقائق الإسلام ، ويبيّن لها غاية المسلم ، ومهمته ، ورسالته في الحياة .. فسرعان ما تجتذبها فئة الزيغ والانحراف ، ويحيط بها أهل الشرّ والانحلال .. فتصبح ممن استسلمت للتيار ، أو هوَتْ بها الريح في مكان سحيق .. دونما سعي إلى غاية نبيلة ، وعزة سامقة ، ومجد عريض ..

لذا وجب على شباب الدعوة أن يهتموا الاهتمام البالغ لهذه الفئة ، بل عليهم أن يحتضنوها ويُحيطوا بها إحاطة السّوار بالمعصم ، وأن يستعينوا بكل وسيلة من وسائل الدعوة في سبيل توعيتها وتثبيت أركان الإيمان فيها ، وتعميق مبادئ الإسلام في فكرها وتصورها ، وتحويل هذه المبادئ إلى سلوك وتعامل في أخذها وعطائها ، في حلّها وترحالها ، في سفرها وحضرها ، في غضبها ورضاها .. وهذا لا يتأتّى إلا بالاستعانة بوسائل التبليغ التي سبق ذكرها ، والتي أهمها :

وسيلة **الجلسة المفتوحة** التي بها تُعرف فكرة الإسلام الكلية عن الكون والحياة ..

ووسيلة **الشريط الإسلامي** الذي به تُصحّح المفاهيم والتصوّرات عن الإسلام ..

ووسيلة **الكتاب الإسلامي** الذي به يتزوّد الفكر بالثقافة الإسلامية الشاملة .

ووسيلة **الخطب والدروس العامة** التي بها تلتهب العواطف ، وتتحرك المشاعر ..

ووسيلة **الزيارات والرحلات والنّزهات** .. التي بها تتوثّق الروابط ، وتتعمّق الأواصر ..

إلى غير ذلك من هذه الوسائل التي تجذب هذه الفئة المحايدة إلى الإسلام ، وتجعل منها نماذج حيّة مجسّمة ، يراها الناس فيرون الإسلام ..

وعلى الداعية ألا يُغفل في هذه الفئة وسيلة **الاتصال الفردي** ، لكونها من أعظم الوسائل أثرًا وعطاءً ، فيمكن لشباب الدعوة في المدرسة التي فيها يَدْعون أن يسعى الواحد منهم لأن يوثّق العلاقة مع اثنين أو ثلاثة من فئة المحايدين .. ويشرع معهم في الحوار حول مبادئ الإسلام ، ومخططات الأعداء ، وحالة المسلمين الراهنة .. عسى أن يتحسّسوا حال الإسلام ، وأوضاع المسلمين .. وعسى أن ينخرطوا في سلك الجماعة الإسلامية التي تدعو إلى اللّه ، وتسعى لإقامة دولة الإسلام العريضة وعزة المسلمين السامقة ..

وهذا الذي ذكرناه من نموذج عمليّة المَسْح في المدرسة الثانوية ، وتصنيف الفئات الثلاثة فيها .. فإنها تنطبق تمامًا على العمّال في المعمل ، وعلى الموظفين في الديوان

وعلى الطلبة في الجامعة ، وعلى الشباب في الحيّ .. فدراسة البيئة ومَسْحُها هي دراسة البيئة ، وتصنيف الفئات الثلاث هو التصنيف تمامًا ، والاستعانة بوسائل التبليغ هي هي لا تنقص عنها ، ولا تزيد عليها ..

ولكن المسألة ليست منحصرة فيما ذُكر من هذه الوسائل .. فقد ينقدح في ذهن الداعية من الوسائل التبليغية ما يحقّق الخير للمدرسة أو الجامعَة أو المؤسّسة أو القرية .. ما لم ينقدح في ذهن داعية آخر ، فالمهم أن يفكّر الدعاة ، وأن ينطلق الشباب ، وأن يكونوا على مستوى المسؤولية والاهتمام ، وأن يبرهنوا للناس كلّهم على أنهم الدعاة المخلصون ، والجنود الصادقون الذين يدعون إلى اللّه على هدًى وبصيرة ، ويسلكون في أداء رسالتهم سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ، ويثبتون في الميدان لا تزلزلهم الإحن ، ولا تعصف بهم النكبات .. مثابرين في نصرة دين اللّه ، وإعلاء كلمته .

فاحرص – أخي الداعية – على تهيئة هذه الوسائل الدعوية ، والاستعانة بها في مجال الدعوة إلى اللّه ، لتكون لك رِدْءًا ، وللذين تدعوهم هداية وإرشادًا .. عسى أن يكون لك في مجال الدعوة أثر ، وفي ميدان الإصلاح تغيير .. واللّه يتولى الدعاة العاملين المخلصين .

* * *

8 - إنزال الناس منازلهم :

من الأمور الهامة التي على الداعية أن يراعيها وينتبه إليها ، ويحرص على تطبيقها وتنفيذها .. إنزال الناس منازلهم ، ومعاملتهم على حسب أقدارهم ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم وأفهامهم .. وما ذاك إلا لتأليف قلوبهم ، وجذب نفوسهم ، وشدّهم إلى الإسلام .

وهذا الخُلق في الداعية هو في الحقيقة من تعليم الداعية الأول صلوات اللّه وسلامه عليه ، ومن هديه الكريم في إرشاد النفوس ، وتأليف القلوب .. ولا سيما إذا كان المدعوّ حديث عهد بالإسلام ، أو كان ذا منزلة مرموقة في الناس ، أو كان ذا نعمة معروفًا بها ، أو كان ذا كفر يُرجى هداه ، أو كان ذا فسق يُؤمل تقواه ، أو كان ذا شيبة بلغ مِنَ الكِبَرِ عتيًّا ..

● **وإليك – أخي الداعية – طاقة عطرةً من توجيهات النبي ﷺ في إنزال الناس منازلهم :**

روى أبو داود عن أبي موسى – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن من إجلال اللّه تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه

(المتشدّد) ، ولا الجافي عنه (أي : التارك له) ، وإكرام ذي السلطان المقسط »[1] .

روى أبو داود والترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه – رضي اللّه عنهم – قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا »[2] .

وروى الترمذي عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما أكرم شابٌّ شيخًا لسنّه إلا قيّض اللّه له (أي قدّر) من يكرمه عند سنّه »[3] .

وروى أبو داود عن ميمون بن أبي شبيب – رحمه اللّه – أن عائشة – رضي اللّه عنها – مرّ بها سائل فأعطته كِسْرةَ خبز (أي قطعة خبز) ، ومرّ بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته ، فأكل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : قال رسول اللّه ﷺ : « **أنزلوا الناس منازلهم** » ، وفي رواية : « **أمرنا رسول اللّه ﷺ أن ننزل الناس منازلهم** »[4] .

فنستنتج من مجموعة هذه الأحاديث أن على المسلمين بشكل عام ، والدعاة إلى اللّه بشكل خاص أن يعرفوا للناس فضلهم ، ويؤدوا إليهم حقهم ، ويُنزلوهم منازلهم ، عسى أن يملكوا في الدعوة قلوبهم ، ويجذبوا إليها نفوسهم ، فيتقبّلوا طائعين هدى اللّه عز وجلّ ..

● **وإليك أيضًا – أخي الداعية – نماذج حيّة من فعل النبي ﷺ وهديه في إنزال الناس منازلهم :**

أ - ملاطفة صاحب المكانة والتوسيع له في المجلس :

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن شهاب بن عبّاد أنه سمع وفد عبد القيس وهم يقولون : قدمنا على رسول اللّه ﷺ ، فاشتدّ فرحهم ، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا ، فقعدنا ، فرحّب بنا النبي ﷺ ، ودعانا ، ثم نظر إلينا ، فقال : « من سيّدكم ؟ » ، فأشرنا جميعًا إلى « **المنذر بن عائذ** » .. فلما دنا منه المنذر أوسع القوم له حتى انتهى إلى النبي ﷺ .. فقعد عن يمين رسول اللّه ﷺ فرحّب به وألطفه ، وسأله عن بلادهم .... إلى آخر الحديث[5] .

ب - الاهتمام بسيد القوم والقيام له :

روى الشيخان أن سعد بن معاذ سيّد الأوس لما دنا من المسجد قال النبي ﷺ للأنصار :

---

(1) سنن أبي داود (4843) .
(2) سنن أبي داود كتاب الأدب ب (58) ، والترمذي كتاب البر ب (15) .
(3) سنن الترمذي (2022)
(4) سنن أبي داود (4842) .
(5) مسند الإمام أحمد (3 / 432) .

« قوموا إلى سيّدكم أو خيركم » [1] .

ج - إشباع حب الفخر فيمن يتطلع إليه :

روت كتب السيرة أن العباس – رضي اللّه عنه – أتى النبي ﷺ – بعد أن أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق – وقال : يا رسول اللّه إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر ، فاجعل له شيئًا ، قال عليه الصلاة والسلام : « نعم » ، وأمر ﷺ فنادى مناديه : « من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ... » [2] .

د - تحدّي الأقوياء في قوتهم :

روى أبو داود والترمذي بإسناد جيد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما : أن يزيد بن ركانة صارع النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ ثلاث مرات ، كل مرة على مائة من الغنم ، فلما كان في الثالثة قال : يا محمد ما وضع ظهري إلى الأرض أحد قبلك ، وما كان أحد أبغض إليّ منك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأنك رسول اللّه ، فقام عنه رسول اللّه ﷺ وردّ عليه غنمه [3] .

هـ - مداراة السفهاء عند اللقاء بهم :

روى البخاري عن السيدة عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : استأذن رجل على رسول اللّه ﷺ فقال : « ائذنوا له بئس أخو العشيرة » فلما دخل ألان له الكلام ، قلتُ : يا رسول اللّه : قلتَ الذي قلتَ ثم ألنتَ له في الكلام ؟ قال : « أيّ عائشة : إن شرّ الناس من تركه الناس اتّقاء فُحشه » [4] .

وروى البخاري : كان أبو الدرداء يقول : (إنا لنكشِرُ (أي نبتسم) في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم) [5] .

و - تأمير الأكْفاء حين تبيُّنهم :

أخرج الطبراني بسند جيد أن عثمان بن أبي العاص قال : « قدمتُ في وفد ثقيف حين قدموا على رسول اللّه ﷺ فقالوا : من يمسك لنا رواحلنا ؟ فكلّ القوم أحبّ الدخول على النبي ﷺ ، وكره التخلّف عنه .

---

(1) اللؤلؤ والمرجان (2 / 215) برقم (1155) . (2) مجمع الزوائد (6 / 166) .
(3) سنن أبي داود كتاب اللباس ب (21) برقم (4078) ، وسنن الترمذي كتاب اللباس برقم (1784) .
(4) صحيح البخاري (6054) . (5) صحيح البخاري كتاب الأدب ب (82) .

قال عثمان : – وكنت أصغرهم – فقلتُ : إن شئت أمسكتُ لكم ، على أن عليكم عهد اللّه لتمسكُنّ لي إذا خرجتُم ، قالوا : فذلك لك ؛ فدخلوا عليه ، ثم خرجوا فقالوا : انطلق بنا .

قلتُ : أين ؟ قالوا : إلى أهلك !!

فقلت : خرجتُ من أهلي حتى إذا حَلَلْتُ بباب النبي ﷺ أرجع ولا أدخل عليه وقد أعطيتموني ما قد علمتم ؟!! (ويذكّرهم بالعهد) .

قالوا : فاعجل فإنّا قد كفيناك المسألة فلم ندع شيئًا إلا سألناه عنه .

يقول عثمان بن أبي العاص رضي اللّه عنه : فدخلتُ على رسول اللّه ﷺ فقلتُ : يا رسول اللّه ادعُ اللّه أن يفقّهني في الدين ويعلّمني !! .

قال ﷺ : « ماذا قلتَ ؟ » .

قال عثمان : فأعدتُ عليه القول !!

فقال ﷺ : « لقد سألْتَني عن شيء ما سألني عنه أحد من أصحابك ، « **اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من يقدم عليك من قومك** » [1] .

ز - شد القلوب إلى الإسلام بالعطاء :

روى مسلم عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : ما سُئل رسول اللّه ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه ؛ وقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : « يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء مَنْ لا يخشى الفقر » وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها [2] .

ح - التغاضي عن هفوات العامّة وإكرامهم :

روى الشيخان عن أنس – رضي اللّه عنه– قال : كنتُ أمشي مع رسول اللّه ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيّ (كساء صنع في نجران) غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابيّ ، فجذبه بردائه جذبةً شديدة ، فنظرتُ إلى صفحة عنق النبي ﷺ ، وقد أثّر بها حاشية الرّداء من شدّة جذبته ، ثم قال : يا محمّد مر لي من مال اللّه الذي عندك ، فالتفتّ إليه فضحك ثم أمر له بعطاء [3] .

(1) المعجم الكبير للطبراني (9 / 40) .
(2) سبق تخريجه ص (233) .
(3) سبق تخريجه ص (237) .

ط - تجنّب المغالاة في المدح والثناء :

أخرج الشيخان وأبو داود عن أبي بكرة – رضي اللّه عنه – قال : أثنى رجل على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « **ويلك قطعت عنق الرجل** » قالها ثلاثًا ، ثم قال : « من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل أحسب فلانًا ، واللّه حسيبه ، ولا يزكّي على اللّه أحدًا ، أحسب كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه » [1] .

وفي رواية « إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب » [2] رواه الشيخان وأحمد والترمذي .

ي - شد القلوب إلى الهداية بالملاطفة :

روى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبي أمامة – رضي اللّه عنه – أن غلامًا شابًّا أتى النبي ﷺ فقال : يا نبي اللّه أتأذن لي في الزنى ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي ﷺ : « قرّبوه ، ادنُ .. » فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أتحبّه لأمك » ؟ قال : لا ، جعلني اللّه فداك .

قال : « كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ... » ثم ذكر له الابنة ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وهو يقول في كل واحدة : لا ، جعلني اللّه فداك ، والنبي ﷺ يقول : « كذلك الناس لا يحبّونه » .. ثم وضع الرسول ﷺ يده على صدره ، وقال : « اللهم طهِّر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصِّن فرجه » فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنى [3] !! ..

هذا غيض من فيض مما ذكرناه من الأمثلة والشواهد في مراعاة الرسول ﷺ في دعوته الفروق الفردية ، وإعطاء كل إنسان حقه من التوجيه والإصلاح والتأليف ، وإنزال الناس منازلهم في الاهتمام والعناية والتكليف ، ومخاطبة كل واحد من القوم بما يناسبه من الفهم والتوعية والمعالجة ..

وهذا يدل دلالة واضحة على أن النبي – صلوات الله وسلامه عليه – أُوتي نباهة وذكاءً ، ومعرفة بإصلاح النفوس ، ودراية في علاج آفات القلوب ، وحكمة في وضع الأشياء في موضعها ، وكيف لا وقد صنعه اللّه على عينه ، وأدّبه فأحسن تأديبه ؟ وكيف لا وقد نعته اللّه عز وجل بهذا النعت السامي الخالد : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [4] وكيف لا ولم ينتقل من هذه الدنيا إلا بعد أن اكتحلت عيناه

---

(1) اللؤلؤ والمرجان (3 / 328) برقم (1888) ، وسنن أبي داود برقم (4805) .

(2) صحيح مسلم كتاب الزهد (69) ، وسنن أبي داود (4804) ، والترمذي (2393 ، 2394) ، ومسند الإمام أحمد (2/94) .

(3) سبق تخريجه ص 235 .

(4) سورة القلم الآية : 4 .

يائمد النصر ، واطمأنت نفسه بعزّ الإسلام ؟

فهل عرفت – أخي الداعية – بعد الذي سردناه من مواقف سيد الدعاة صلوات اللّه وسلامه عليه كيف تنهج نهج النبي ﷺ في تأليف القلوب ، وإصلاح النفوس ، وإنزال الناس منازلهم ؟

هل عرفت كيف تُعطي كل إنسان حقه من الاهتمام والعناية والمعالجة ؟

هل عرفت كيف تخاطب الناس على حسب ما يفهمون ، وتُنزلهم في المقام الذي له يستحقّون ؟

هل عرفت أن الداعية الحصيف الموفق هو الذي يسبر أغوار النفس الإنسانية فيعطيها من التوجيه ما يصلحها ، ومن المعالجة ما يقوّمها ، ومن المكارم ما يسمو بها ؟ ..

إذا عرفت هذا جيدًا فاسلك سبيل رائد الدعوة الأول – صلوات اللّه وسلامه عليه – في إنزال الناس منازلهم ، وإعطائهم من المكانة على حسبهم ، ومنحهم من التربية والإعداد ما يصلحهم ..

فبهذا كله تكون من الهداة المخلصين ، والدعاة العاملين ، والمصلحين المرموقين الموفقين بل بالاختصار يكون لك في مجال الدعوة أثر ، وفي ميدان الإصلاح تغيير .. واللّه لا يضيع أجر من أحسن عملًا .

* * *

تلكم – إخوتي الدعاة – أهم المراحل التبليغية التي تسلكونها في دعوة الناس ، وأظهر الأصول الدعوية التي تلتزمون بها في هداية البشر ، وهي كما علمتم مراحل واقعيّة ، وأصول إيجابية إن سرتُم على منهجها ، واتبعتم طرائقها كان سيركم في الدعوة عن تخطيط ، وتبليغكم للرسالة الإسلامية عن موضوعية .. بل تصلون في نهاية الشوط إلى أحسن الثمرات ، وأفضل النتائج ..

ففي دراستكم البيئة التي فيها تدعون تتعرفون على مراكز الضلال ، ومواطن الانحراف ، وتدركون جيدًا العلاج الناجح لمشاكل الناس ، ونوعيّة الأسلوب الذي يتفق مع عقليتهم ، ويلتقي مع مستوى أخلاقيّتهم واستعدادهم .

وفي اتباعكم أصول التحدّث والحوار تحدّثون الناس بلغتهم ولهجتهم ، وتتجنّبون التنطُّع والتفاصح أثناء التحدّث إليهم ، وتخاطبون أبناء المجتمع على قدر عقولهم

وأفهامهم ، وتقبلون بوجوهكم وأحاديثكم عليهم ، وتجذبونهم بابتسامتكم حين تختلطون بهم ، وتتخوّلونهم بالموعظة لعدم إسآمهم وإملالهم ..

وفي بدئكم بالأهم ثم المهمّ تعلمون القضايا التي تُعطونها أولويّة وأهميّة قبل غيرها ، والأفكار التي تطرحونها وتبدأون بها ، والوسائل التبليغية التي يجب تهيئتها وإعدادها .. وهذا – والله – هو المنطق السليم في الإصلاح ، والطريقة المثلى في التبليغ .

وفي تجنّبكم الخلافات الفقهية ، والاجتهادات الفرعية تضيّقون على العامّة أسباب الخلاف ، ومثار الجدل .. وتسيرون مع غيركم من الدعاة في طريق التفاهم والتعاون والالتحام ، وتكرّسون جهودكم مع الجميع في استعادة الأمجاد ، وصناعة التاريخ ، وبناء الوحدة الإسلامية الشاملة ..

وفي ترفقكم وملاطفتكم تجذبون قلوب الناس إليكم ، وتحبّبون أبناء المجتمع فيكم ، ويثق الناس بكلامكم ودعوتكم ، ويكون لكم في مجال التبليغ أثر ، وفي ميدان الإصلاح تغيير .

وفي معرفتكم كيف تكون الهيمنة وكيف يكون التأثير ؟ تنتهجون الطرائق التي تقوّي فيكم الإشراقة الروحية ، والقدوة السلوكية ، والحجج الإقناعية ، والتفاعلات الدعويّة ، والوسائل التشويقية .. فبهاتيك الخصال تملكون القلوب ، وتؤثرون على النفوس ، وتذرف بمواعظكم المخلصة المآقي والعيون ..

وفي استعانتكم بوسائل التبليغ تصحّحون مفاهيم الناس ، وتزودونهم بالفكر الإسلامي الصافي ، وتلهبون حماسهم للإسلام ، وتحرّكون عواطفهم للدعوة ، وتوثّقون فيما بينكم وبينهم أقوى الروابط ، وأمتن الأواصر ، وتجعلون منهم نماذج حيّة ، إذا رآها الناس رأوا الإسلام ..

وفي إنزالكم الناس منازلهم تعاملونهم على حسب أقدارهم ، وتخاطبونهم على قدر منزلتهم ، وتمنحونهم من العناية والاهتمام بالقدر الذي يحقق صلاحهم وهدايتهم .. بل تكونون من الدعاة الموفّقين ، والمصلحين المحبوبين ، والرجال العاملين المخلصين ..

فاجتهدوا – يا دعاة اليوم – أن تسيروا على مقتضى هذا المنهج في الدعوة إلى الله ؛ لتعرفوا كيف تبدأون وكيف تنتهون ؟ ولتعلموا كيف تكسبون الناس وكيف تؤثرون ؟ ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

---

(1) سورة التوبة الآية : 105 .



سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(10)

مواقف الداعية التعبيرية

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة





الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . وارض اللهم على الآل والصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فهذا هو الفصل العاشر من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » ، وهو بعنوان « **مواقف الداعية التعبيرية** » .

أقدمه لكم - إخوتي الدعاة - عسى أن يكون لكم تبصرة وذكرى في طريق التبليغ والدعوة إلى الله ، والله يقول الحق ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف

عبد الله ناصح علوان



الفصل العاشر

مواقف الداعية التعبيرية

بعد أن عرفت - أخي الداعية - طبيعة الدعوة الإسلامية وخصائصها ..

وبعد أن اطلعت على دورها في إنقاذ البشرية وهدايتها ..

وبعد أن علمت مسؤولية الأمة ودعاتها في وجوب حمل الدعوة ، وفريضة تبليغها ..

وبعد أن استشعرت في قرارة وجدانك فضل الداعية في القرآن ، ومنزلته في السنة ..

وبعد أن تراءت لك مواصفات الداعية في الإعداد المعنوي ، والتربية النفسية ..

وبعد أن اقتنعت معي أن الداعية لا يعطي ولا يؤثر إلا أن يتزوّد بروحانية مشرقة ، ويتحلّى بأخلاقية فاضلة ، ويتمتع بثقافة شاملة .

وبعد أن اعتقدت جازمًا بأن الداعية لا ينتج ولا يحصد إلا أن يعرف المراحل الدعوية التي ينبغي أن ينتهجها ويسير عليها .. أو بعبارة أوجز : أن يعرف كيف يدعو ؟ وكيف يبلغ ؟ إذ أدركت معي أن هذا كله أمر لازم لابد منه في تكوين الداعية وإعداده .. فعليك أن تدرك أن من اللازم والضروري كذلك إعداده وتعليمه كيف يدرِّس ؟ وكيف يخطب ؟ ، وكيف يحاضر ؟ ، وكيف يحاور ؟ .. إلى غير ذلك من هذه المواقف التعبيرية ، والمواطن الكلامية ..

ومن المؤكد أن الداعية إلى اللّه حين يملك عقلًا يفكّر ، وبيانًا يصوِّر ، ولسانًا يعبّر .. يكون قد وصل إلى أوج النجاح ، وقمة التوفيق في دروسه ومقالاته ، وخطبه ومحاضراته وأحاديثه ومحاوراته .. ، بل يملك في تعبيره قلوب الجمهور ، وتكون بضاعته في الدعوة تجارة لن تبور ، بل يسحر في حديثه الأسماع والعقول ..

وها أنا سوف أعدد أهم مواقف الداعية التعبيرية والبيانية ليكون الكلام عنها مستوعبًا شاملًا إن شاء اللّه ، ولعلها تكون للإخوة الدعاة تبصرة وذكرى وعلى اللّه قصد السبيل .

المواقف التعبيرية لمن يتصدّى للدعوة إلى الله هي كما يلي :

1 - الحديث العادي

2 - الدرس العام

3 - الخطب في المناسبات .

4 – المحاضرة في المنتديات .

5 – الكتابة في الصحف والمجلات .

6 – التخاطب في مواطن المناظرات والمناقشات .

ويحسن قبل أن أخوض في تفصيلات هذه المواقف التعبيرية أن أبين **العموميات** التي يجب أن ينتهجها الداعية في كلامه سواء أكان مدرسًا أو محدثًا ، محاضرًا أو خطيبًا ، مناقشًا أو واعظًا .. باعتبارها أساسيات وضوابط يجب أن يتقيد بها ، ويسير في جميع أقواله عليها ..

هذه العموميات التي سوف أذكرها منها : ما فصلت فيها في بحث « **اتباع أصول التحدث والحوار** » [1] ، ومنها : ما سوف أبيّنها مفصّلًا في هذا المقام إن شاء اللّه .

فما فصّلت فيها سابقًا فسوف أمرّ عليها الآن مرور الكرام مشيرًا إلى الفكرة وإلى الدليل دون أن أتعرض للجزئيات ؛ حتى لا يملّ القارئ تكرار الكلام وإعادته !! .

والعموميات أو الضوابط التي سبق ذكرها هي كما يلي :

1 – التكلم باللغة العربية الفصحى :

الأصل في الداعية أن يتكلم باللغة العربية الفصحى باعتبارها لغة القرآن ، وشعار الإسلام ، وهذا ما أكده النبي ﷺ فيما رواه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه : « ألا إن العربيّة اللسان ، ألا إن العربية اللسان » . فإذا كان الأمر كذلك فعلى الداعية إذا وُجد بين قوم يحسنون فهم اللغة العربية ألا يعدل إلى لغة أخرى ، أو إلى لغة عامّية محلّية لا تمتُّ إلى العربية الأصلية بصلة ولا نسب ..

ولكن ماذا يصنع الداعية إذا كان في بيئة لا تعرف التفاهم بالفصحى ؟

نقول في الجواب – كما ألمحنا سابقًا – : إذا استطاع أن يبسط حديثه بشكل يفهم الناس عنه فليفعل ، وإن لم يستطع فيجد نفسه مضطرًا أن يتكلّم معهم باللهجة أو اللغة التي يفهمونها فلا بأس فهذا من باب : « أمرتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » .

2 – التأنّي بالكلام :

من أدب الداعية في تبليغ الدعوة أن يتكلم بتؤدة وتمهل حتى يفهم الناس منه ، ويعقلوا عنه ،

(1) هذا البحث ذكرناه مفصلًا في الفصل التاسع من فصول هذا الكتاب تحت عنوان « كيف يدعو الداعية ؟ » . ارجع إليه أخي القارئ تجد فيه ما يشفي الغليل إن شاء اللّه .

تأسّيًا بالداعية الأول صلوات اللّه وسلامه عليه ، روى الشيخان عن عائشة رضي اللّه عنها : « ما كان رسول اللّه ﷺ يسرد الحديث كسردكم هذا ، يحدّث حديثًا لو عدّه العادّ لأحصاه »[1] ، وفي رواية أبي داود : « كان كلام رسول اللّه ﷺ فصلًا يفهمه كل من سمعه »[2] .

نعم قد يحتاج الداعية أحيانًا أن يتعجّل في كلامه ولا سيما في المواقف التي تحتاج إلى انفعال وإطناب[3] كالحث على الجهاد ، أو التحدث أيام الشدائد والأزمات ولكن عليه ألا يسرع كثيرًا في خطبته أو حديثه .. حتى لا يأكل الكلام بعضه بعضًا ، وحتى لا تختلط على السامعين الحقائق والأفهام !! ..

3 - **الابتعاد عن التفاصح :**

على الداعية أن يبتعد كل الابتعاد عن التنطّع بالكلام ، والتشدّق بالحديث ، والثرثرة باللسان ، والتكلّف بالفصاحة .. لِمَا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : - فيما رواه الترمذي - : « إن أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون »[4] .

وروى البخاري عن أنس رضي اللّه عنه (أنه عليه الصلاة والسلام كان يتكلّم بكلام فصل لا هَزْر ولا نَزْر[5] ، ويكره الثرثرة في الكلام والتشدّق به)[6] .

وكم يكون الداعية ممجوجًا لدى مستمعيه حين يتحدّث إليهم وعليه أمارات التشدّق ، وظواهر التفاصح ، وعلامات الثرثرة والتكلّف ؟

ألا فليحذر الداعية من مزالق الشيطان ، ودبيب الرياء ، وتزيين النفس الأمّارة .. إن أراد أن يكون من الدعاة المخلصين ، ورجال الإصلاح المؤثّرين .

4 - **الاقتصاد في التحدّث :**

على الداعية أن يكون مقتصدًا في حديثه ، معتدلًا في خطبه ومواعظه .. ليكون كلامه دائمًا أوقع في نفوس مستمعيه ، وأشوق إلى قلوبهم وأسماعهم .. لما روى الإمام أحمد وأبو داود من حديث حكيم بن حزام - رضي اللّه عنه - قال : شهدتُ

(1 - 2) سبق تخريجه ص 338 .

(3) الإطناب - كما عرفه علماء البلاغة - : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، كالتكرار لداعٍ ، وكالإيضاح بعد الإجمال .

(4) **الثرثار** : الكثير الكلام تكلّفًا ، **والمتشدّق** : المتطاول على الناس بكلامه ، والمتكلّم بملء فيه تفاصحًا ، **والمتفيهق** : الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسّع فيه .. تكبّرًا وإظهارًا لنفسه على غيره . سنن الترمذي (2018) .

(5) لا هَزْر ولا نَزْر : أي لا كثير ولا قليل . (6) سبق تخريجه ص (339) .

مع رسول اللّه ﷺ الجمعة فقام متوكّئًا على عصا ، فكانت كلمات خفيفات مباركات ، ويقول ابن مسعود رضي اللّه عنه – كما جاء في الصحيحين – : « وإني أتخوّلكم بالموعظة – أي أتعهّدكم – كما كان رسول اللّه ﷺ يتخوّلنا بها مخافة السآمة علينا » [1] .

نعم قد يحتاج الداعية إلى التطوال ، وأن يكثر من الشواهد ، ويكرّر في الأفكار .. كأن يلقي الداعية محاضرة ثقافيّة عامة ، أو يكون في بيئة عاميّة جاهلة .. فلا بأس في التطوال في المحاضرة ؛ لتعارف الناس على طولها ، ولا بأس بالإطناب والتكرار وكثرة الشواهد في البيئة الجاهلة ؛ من أجل تثقيفها وتعليمها .. على أن لا يطيل كثيرًا ؛ حتى لا ينفر الناس منه ، وينفضّوا عنه ..

5 – المخاطبة على قدر الفهم :

على الداعية حين يتكلم أن يكون حديثه لمستمعيه بما يتناسب مع عقليّتهم وثقافتهم ، وما يتفق مع أعمارهم ولهجاتهم .. لما روى الديلمي عنه ﷺ : « أُمرنا – معاشر الأنبياء – أن نحدّث الناس على قدر عقولهم » [2] .

وكم يكون الداعية غير مسدّد حين يكون في بيئة لا يؤمن أهلها بكرويّة الأرض مثلًا .. وكم يكون فاشلًا حين يسفّه رأي أهلها ، ويرميهم بالجهل المطبق ، والضلال المبين ؟!!

بل عليه في مثل هذه الحالة أن يتحدث .. فيما هو أهمّ كقضايا التوحيد ، ومكارم الأخلاق ، وأحكام العبادات .. ثم بعد هذا يتدرّج مع أهلها شيئًا فشيئًا حتى يصل معهم في نهاية الشوط إلى الإقرار بحقائق العلم ، وأنها لا تتعارض مع نصوص القرآن الكريم .. وكيف يكون التعارض والمنظّم للكون واحد ، والمُنزِل للقرآن واحد .. وهو اللّه عز وجل ؟! .

من أجل هذا أمر نبي الإسلام صلوات اللّه وسلامه عليه أن يكون التحدث للناس بما تتحمله عقولهم حتى لا يكون لبعضهم فتنة .. ففي مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : « ما أنت بمحدّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » [3] .

6 – الإقبال على الجلساء جميعًا :

من أدب الداعية أن يُقبل في أحاديثه على جلسائه جميعًا في كل شيء : في النظرات ، في توجيه الأسئلة ، في الإجابة عليها ، في البِشْر والابتسامة .. حيث يُشعر كل واحد من الحاضرين

---

(1) سبق تخريجه ص (339) . (2) سبق تخريجه ص (340) . (3) سبق تخريجه ص (341) .

أنه يعنيه ويخصّه ويقبل عليه .. وبهذا الخلُق يستطيع أن يملك قلوبهم ، ويتفاعل معهم ، ويعمّق آصرة المحبة والثقة بينه وبينهم ، ويكون في الوقت نفسه قد تأسّى بصاحب الخلُق العظيم ﷺ في إقباله بوجهه وحديثه على كل من يجتمع بهم ، ويتحدث إليهم .. حتى إن الرجل كان يظن نفسه في المجلس أنه خير القوم ، مما سبق أن ذكرنا حديث عمرو بن العاص – رضي اللّه عنه – أن رسول اللّه ﷺ كان يُقبل بوجهه وحديثه على شرّ القوم يتألّفه بذلك [1] ..

وهذا أدب كريم في الدعاة ، عليهم أن ينتبهوا له ، ويقوموا على تنفيذه .. ؛ لجذب الناس ، وتأليفهم ، وشدّهم إلى الإسلام ..

7 – ملاطفة الجلساء أثناء الحديث :

من أدب الداعية ملاطفة الجلساء في المجلس وإدخال السرور عليهم .. حتى لا يشعروا بالسأم ، ولا يداخلهم الملل ، ولا ينتابهم الفتور ..

وكم يُسَرُّ الجلساء حين يروا داعيتهم إلى الخير لا تفارق الابتسامة ثغره ، ولا تُجافي الملاطفة حديثه ؟ وكم يتشوّقون للحضور والاستماع حين يرونه يمزج الحديث بالطرائف ، ويطعمّ المواعظ بالملائح ؟

كأن يأتي بهذه الطرفة حين يكون التحدث عن الزواج وآداب الزفاف :

روى الإمام الحافظ ابن الجوزي في كتابه الأذكياء ص : 226 عن محمد بن معين الغفاري قال : أتت امرأةٌ عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه – فقالت : يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل ، وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة اللّه ، فقال لها : نعم الزوج زوجك ، فجعلت تكرّر عليه القول وهو يكرّر عليها الجواب !! .

فقال له كعب الأسدي : يا أمير المؤمنين هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه ! ..

فقال عمر : كما فهمت كلامها فاقض بينهما ..

فقال كعب : عليّ بزوجها ، فَأُتِيَ به ، فقال له : إن امرأتك هذه تشكوك ، قال : أفي طعام أو شراب ؟

قال : لا . فأنشدت المرأة هذه الأبيات :

يا أيها القاضي الحكيمُ رشدُه   ألْهَى خليلي عن فراشي مسجدهُ

(1) ارجع إلى ص (342) .

زهّدني في مضجعي تعبدُه نهارُه وليلُه ما يرقدُه
ولستُ في أمر النساء أحمده

فقال زوجها على الفور :

زهدتُ في فراشها وفي الحَجَلْ [1] إني امرؤ أذهلني ما قد نَزَلْ
في سورة النّمل وفي السّبع الطّوَل وفي كتاب اللّه تخويف جَلَلْ

فقال كعب :

إن لها حقًّا عليك يا رجُلْ تُصيبها في أربعٍ لمن عَقَلْ
فأعطها ذاك ودع عنك العِلَلْ

ثم قال : إن اللّه عز وجل قد أحلّ لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبُد فيها ربّك ، ولها يوم وليلة .

فقال عمر لكعب : واللّه ما أدري من أيّ أمْرَيْك أعجب ؟ : أفمن فهمك أمرهما ، أم من حكمك بينهما ؟ اذهب – يا كعب – فقد ولّيتُك قضاء البصرة .

وحين ينتهج الداعية هذا الخلُق يكون قد تأسّى بالنبي ﷺ في محادثته لأصحابه ، وفي ملاطفته لجلسائه .. وقد ذكرنا فيما سبق بعض النماذج في هذه المباسطة والملاطفة ، فخذ منها – أخي الداعية – أسوة وقدوة .

تلكم أهم العموميّات أو الضوابط التي سبق ذكرها في فصل « كيف يدعو الداعية ؟ » وقد أتينا عليها في هذا المقام استذكارًا واختصارًا لمزيد من الفائدة ، وأهمّية العمل بها ، والتركيز عليها ..

أما العموميات التي لم نتطرّق لها فهي كما يلي :

1 - الترفع عن الغلظة في القول والبذاءة في اللسان :

فإذا كان الإسلام حرّم على المسلم أن يسبّ مسلمًا أو يحتقره أو يتطاول عليه بلسانه .. فالداعية هو أولى من غيره في اجتنابه تطاول اللسان ، وبذاءة الكلام ، وغلاظة القول ؛ لكونه المقتفي أثر النبوّة في اللين ، والمتأسي بسيرة السلف في الملاطفة ، والمتحلّي بمكارم الأخلاق في التعامل مع الناس ..

---

(1) الحجل : قبّة العروس المزيّنة .

استمع - أخي الداعية - إلى ما يقوله صلوات اللّه وسلامه عليه في النهي عن الإيذاء ، والتحذير من بذاءة اللسان :

روى الشيخان عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص - رضي اللّه عنهما - قال : قال رسول اللّه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى اللّه عنه » [1] .

وروى الشيخان عن ابن مسعود - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » [2] .

وروى مسلم عن أبي هريرة - رضي اللّه عنه - أن النبي ﷺ قال : « بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه .. » [3] .

وروى الترمذي عن ابن مسعود - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء » [4] .

فعلى الداعية إذن حين يجلس في الناس ويتحدّث إليهم ، ويقوم على إصلاح أحوالهم وأوضاعهم .. أن ينظر إلى مَنْ حوله بروح الناصح الشفيق ، وبعطف الأب المخلص الرحيم ..

فإن لم يكن بهذه الأخلاق السمحة الرضيّة حين يتحدّث ، أو يخطب ، أو يحاضر ، أو يدرّس .. فسرعان ما ينفر الناس منه ، وينفضّون عنه .. ولو كان الذي يقوله حقًّا ..

وهذه النظرة التعاطفيّة التواضعية من الداعية في الاهتمام بالمدعو ، وإرادة الخير له ، وبذل أقصى الجهد في إصلاحه وهدايته ، واستشعاره روح المحبّة والرحمة هي نظرة سيد الدعاة صلوات اللّه وسلامه عليه ، فكما حكى لنا القرآن الكريم : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [5] أي هو - كما دلت عليه الآية - أرأف بهم ، وأعطف عليهم ، وأحقّ بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ..

وكما ذكر لنا القرآن في سورة أخرى أنه ﷺ كبير القدر ، كريم الأصل ، عظيم الشرف ، يشق عليه جدًّا أن يرى الناس في عنت ومشقّة وحرج .. بل هو الحريص على هداية البشر .. بل هو الرءوف الرحيم بالمؤمنين جميعًا ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [6] .

---

(1) اللؤلؤ والمرجان (1 / 9) رقم (25) .
(2) اللؤلؤ والمرجان (1 / 13) رقم (43) .
(3) صحيح مسلم كتاب البر (32) .
(4) سنن الترمذي (1977) .
(5) سورة الأحزاب الآية : 6 .
(6) سورة التوبة الآية : 128 .

فعلى الداعية أن يتأسّى بصاحب الخلق العظيم – صلوات اللّه وسلامه عليه – في حرصه واهتمامه ، ورأفته ورحمته ، وتواضعه وتياسره .. وليأخذ ما أنزل اللّه عليه وعلى أمته في تعامل الناس بالرحمة ، وأخذهم باللين ، ومقابلتهم بالعفو ، والابتعاد عن كل ما يسوؤهم من الكلمات الجارحة ، والعبارات القارعة .. قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) .

إذا فعل الداعية ذلك في مجالات التبليغ والدعوة ولا سيما في المواقف التعبيرية ، والمجالس الدعوية .. يستطيع أن يملك على الناس قلوبهم ، ويستحوذ على نفوسهم ومشاعرهم .. بل يكون له في المجتمع أثر ، وفي مجال الإصلاح تغيير ، وفي سيرة الدعاة قدوة ..

وكم يُسيء الداعية إلى الدعوة وإلى المدعو حين يقف بين الناس خطيبًا أو واعظًا أو محاضرًا ، فيرمي هذا بالجهل ، والآخر بالحمق ، والثالث بالبلادة ، والرابع بالفسق .. ! وأحيانًا يرمي الحاضرين جميعًا بهذه الكلمات المؤذية ، والاتهامات الجارحة المحرجة ..

هل هذا من خُلق الداعية ؟ هل هذا من مبادئ الإسلام ؟ هل هذا ممن يريد أن يكسب الناس ؟ فإذا كان الجواب لا فاحذر – أخي الداعية – أن تنحدر إلى هذا المستوى ، وأن تنزل إلى هذا الحضيض .. بل عليك أن تأخذ بالشعار الذي رفعه القرآن الكريم حين قال : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (2) .

نعم قد يجد الداعية حين يتحدث من يثيره في المجلس ، ومن يسيء إليه !! فعليه في مثل هذه الحال أن يوطّن النفس على الصبر ، وأن يضبطها بالحلم ، وأن يقابل الإساءة بالإحسان ، وأن يضع نُصْب عينيه قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (3) .

وأن ينفّذ ما جاء في وصية لقمان الحكيم لولده كما حكاها القرآن : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (4) .

وأن يأخذ بمنهج القرآن الكريم في ضبط النفس عند إثارتها ، والعفو عن الناس

---

(1) سورة آل عمران الآية : 159 .
(2) سورة النحل الآية : 125 .
(3) سورة فصلت الآية : 34 .
(4) سورة لقمان الآية : 17 .

عند إساءتهم .. ومقابلة كل ذلك بالإحسان : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) .

2 - استثارة همم المدعوّين بما يفتح قلوبهم :

سبق أن ذكرنا في فصل « كيف يدعو الداعية ؟ » ، وفي بحث « إنزال الناس منازلهم » بالذات أن من الأمور الهامة التي على الداعية أن يراعيها ، ويحرص على تنفيذها والأخذ بها .. معاملة الناس حسب أقدارهم ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم وأفهامهم .. وما ذاك إلا تأليفًا لقلوبهم ، واستحواذًا على نفوسهم ، وشدهم إلى الإسلام ..

ولقد ذكرنا النماذج الكثيرة المتنوّعة في إنزال النبي ﷺ الناس منازلهم ، ومعاملتهم بما يستحقون ، ومخاطبتهم بما يفهمون ..

فانطلاقًا مما ذكرناه سابقًا ، وما سوف نذكره لاحقًا .. على الداعية إن كان حكيمًا في دعوته ، موفقًا في تبليغه ، مسدّدًا في أداء رسالته أن يستعمل في كلماته وخطاباته ما يثير رغبة المدعوّ إلى السماع . ويشوّقه إلى تقبّل الحق ، والاستجابة إليه ، ويشدّه إلى الإسلام رغبة واختيارًا من حيث يعلم أو لا يعلم ..

والقرآن الكريم مليء بالنداءات الاستعطافية على حسب نوعيّة المدعوّ ، لتشويق السامع لتقبل الحق ، واستثارة مشاعره في أنه إنسان معتبر ذو شخصية ، وذو كرامة ، وذو اهتمام .. ولاشك أن هذا الأسلوب الذي علمنا إياه القرآن الكريم له إيحاءاته المؤثرة على المشاعر ، وتأثيره البالغ على القلوب ..

وإليك – أخي الداعية – نماذج من هذه النداءات القرآنية الاستعطافية التشويقية في مخاطبة الناس :

نداؤه للآباء :

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ (2) .

فذكر إبراهيم عليه السلام في خطابه لأبيه رابطة الأبوّة التي من شأنها أن تجعل الابن حريصًا على مصلحة الأب ، وتجعل الأب جديرًا بأن يُصغي إلى خطاب ابنه ..

---

(1) سورة آل عمران الآية : 134 . (2) سورة مريم الآية : 42 .

وفي النداء : « يا أبت » استثارة لهذه الرابطة ، وتشويق لها لتقبّل الحق .

نداؤه للأبناء :

قال تعالى على لسان لقمان الحكيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .. ﴾ [1] .

فذكر لقمان الحكيم في خطابه لابنه رابطة البنوّة التي من شأنها أن تجعل الأب حريصًا على مصلحة الابن . وفي النداء : ﴿ يَٰبُنَيَّ .. ﴾ استثارة لهذه الرابطة ، وتشويق لها لتقبّل الحق .

نداؤه للأقوام :

قال تعالى على لسان هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [2] .

فهود عليه السلام خاطبهم بقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ ؛ لكون هذا الخطاب أدعى إلى استجابتهم وأحب إلى أسماعهم ، ليشعرهم أنه منهم وإليهم ، ويريد الخير لهم جميعًا .

نداؤه للمؤمنين :

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ..﴾ [3] ففي مخاطبة اللّه تعالى للمؤمنين بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ تأكيد لهم بأنهم أهل الإيمان والتقوى .. ، وفي الوقت نفسه استثارة لهم بأن يستجيبوا لدعوة الحق ؛ لما في هذه الاستجابة من مقوّمات البقاء والحياة .

نداؤه لأهل الكتاب :

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [4] .

يأمر اللّه نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يخاطب اليهود والنصارى بخطاب : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ لتذكيرهم بأنهم من أهل الكتاب الأول ، وأن ما جاء في كتبهم متفق تمامًا مع

(1) سورة لقمان الآية : 13 .
(2) سورة الأعراف الآية : 65 .
(3) سورة الأنفال الآية : 24 .
(4) سورة آل عمران الآية : 64 .

ما جاء في القرآن الكريم من أصول التوحيد ، وأركان الإيمان .. ولا يخفى ما في ذلك من استثارة لهم وتشويق .. في استجابتهم لدعوة الحق ، ودخولهم في دين الإسلام ..

نداؤه للناس جميعًا :

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [1] . ففي التعبير القرآني : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ .. ﴾ تذكير لكل إنسان بآدميته وإنسانيته بغض النظر عن دينه ومعتقده ، وجنسه ولونه .. وتذكير لهم بأنهم انحدروا من أصل واحد ، انحدروا من آدم وزوجه حوّاء .. وإذا كان لابدّ من مفاضلة بين أبناء الأصل الواحد فليكن بالتقوى ، ومن أجل هذا جاء الأمر بها في أول الآية ، والتأكيد لها من خلالها ، ومراقبة الله في آخرها .. ولا يخفى ما في ذلك من إثارة للحميّة ، وتشويق للعبودية ، وتحبيب للتقوى ..

إلى غير ذلك من هذه النداءات العاطفية والتشويقية في القرآن الكريم .

وفي السيرة النبوية شواهد كثيرة تدل الداعية على الطريقة التي يستثير بها همم المدعوّين ، ويحرك حميتهم وحماسهم لقبول الحق ، والاستجابة للهدى ..

وإليك – أخي الداعية – أمثلة على ذلك :

أ – أخرج الشيخان والترمذي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : (لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [2] صعد عليه السلام على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي .. لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال : « أرأيتم لو أخبرتكُم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ » ، قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ، قال أبو لهب : تبًّا لك يا محمد ألهذا جمعتنا ؟!! فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ .. ﴾) [3] .

ب – وروى مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله ﷺ عشيرته فعمّم وخصّص ، فقال : « يا معشر قريش ! أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب ! أنقذوا أنفسكم

---

(1) سورة النساء الآية : 1 . (2) سورة الشعراء الآية : 214 .

(3) سبق تخريجه ص (328) والآية من سورة المسد : 1 .

من النار ، يا صفية عمّة رسول الله ! أنقذي نفسك من النار ، يا فاطمة بنت محمد ! أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئًا » [1]) .

ج – جاء في جمهرة خطب العرب عن السيرة الحلبية ج 1 ص 271 : (أن أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ في مكة فقال – بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبتُ الناس جميعًا ما كذبتكُم ، ولو غرَرْتُ الناس جميعًا ما غررتُكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصّة ، وإلى الناس كافّة ، والله لتموتنّ كما تنامون ، ولتُبْعَثنّ كما تستيقظون ، ولتُحاسبن بما تعملون ، ولتجزونّ بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا .. ») .

د – وجاء في سيرة ابن هشام ج 2 ص 33 : أن النبي ﷺ أتى إلى بطن من بطون كلب في منازلهم يقال لهم : « بنو عبد الله » ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه حتى إنه يقول لهم : « يا بني عبد الله : إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم » ، فأراد عليه الصلاة والسلام تنبيههم في هذا الخطاب إلى أن يحسنوا الإجابة ، وأن يقبلوا الدعوة ، وأن يؤمنوا بالله ورسوله .. كما أحسن الله اسم أبيهم حين وفّقهم أن يُنسبوا إليه بتسميتهم بني عبد الله .

فمن هذه النصوص يتبين أن النبي عليه الصلاة والسلام **ذكّر قومه بأصالة نسبهم ، وشرف عشيرتهم** ، وذلك بمنادتهم : يا بني فهر ، يا بني عدي ، يا معشر قريش ، يا معشر بني كعب .. لبطون قريش بطنًا بطنًا ، ولعشائرها عشيرة عشيرة ..

وأثار حميتهم ﷺ بعبارات رقيقة ، وكلمات جذّابة ، وحقائق عن صدقه ثابتة .. « إن الرّائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبتُ الناس جميعًا ما كذبتكم ، ولو غررتُ الناس جميعًا ما غررتكُم .. » .

وكذلك – صلوات الله وسلامه عليه – في تلطّفه ومناداته **فتح قلوب بني كلب في منازلهم** حين خاطبهم بخطاب : « يا بني عبد الله : إن الله أحسن اسم أبيكم .. » ، ليُحسنوا بهذا التشويق والتكريم استجابة الدعوة ، والدخول في الإسلام ..

وهكذا الداعية لا يعدم وسيلة – حتى يدعو إلى الله – في استنهاض همم الناس ، وتحريك عزائمهم ، واستثارة وجداناتهم .. عسى أن يقبلوا هدى الله عز وجل ،

(1) سبق تخريجه ص (326) .

ويستجيبوا للحق ، وينقادوا للإسلام .

وعلى الداعية في هذا المقام أن يميّز بين المداراة وبين المداهنة في مخاطبة الناس ، وفي ذكر محامدهم ، وإظهار فضائلهم ..

المداراة شيء والمداهنة شيء آخر :

● **المداراة معناها** : التلطّف بالرجل ، وإظهار البشاشة له ، ومراعاته .. دون إخفاء الحقّ ، أو تحسين لباطل ، أو تغيير لحقيقة .. ولا سيما إذا كان مَنْ يُدارَى ممّن يُخشى صولته ، ويُتّقى في الناس شرّه .

فمن هذا النوع في المداراة :

روى البخاري عن السيدة عائشة – رضي اللّه عنها – أن رجلًا استأذن على النبي ﷺ فقال : « ائذنوا له بئس أخو العشيرة » . فلما دخل ألان له – عليه الصلاة والسلام – الكلام ، قلتُ : يا رسول اللّه ! قلت الذي قلتَ ثم ألنتَ له في الكلام ، قال : « أي عائشة : إنّ شرّ الناس منزلةً عند اللّه مَنْ تركه الناس اتّقاء فُحشه » [1] .

وروى البخاري : كان أبو الدرداء يقول : (إنّا لنَكْشِرُ (أي نبتسم) في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلعنهم) [2] .

● **أما المداهنة فمعناها** : المنافقة ، ويدخل فيها : المجاملة الحقيقية .. ولاسيما إذا كان مَنْ يداهنه من عِلْية القوم ، وطاغوت الرجال ..

وهذا المعنى للمداهنة المقصودة من قوله تعالى في سورة القلم : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [3] .

فأصبح معنى الآية : يودّ المشركون لو تلين لهم يا محمد ، وذلك بالركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك في عبادتهم إلهك الواحد .. وفي ذلك إبطال للحق ، وإظهار للباطل ، وتزوير للحقيقة ، وحاشا لرسول اللّه أن يميل لهذا ، فضلًا عن أن يفعله .

فمن هذا النوع من المداهنة :

روى ابن جزيّ في كتابه « التسهيل لعلوم التنزيل » أن الكفار قالوا للنبي ﷺ : لو

---

(1) سبق تخريجه ص (395) .
(2) سبق تخريجه ص (398) .
(3) سورة القلم الآية : 9 .

عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [1] .

روى البخاري عن ابن عمر – رضي اللّه عنهما – أن ناسًا قالوا له : إنا ندخل على سلطاننا ، فنقول لهم خلاف ما نتكلّم إذا خرجنا من عندهم ، قال : « كنا نعدّها نفاقًا » [2] .

وإذا كان لابد للداعية من استثارة همم المدعوّين بما يفتح قلوبهم للحقّ .. فليكن ذلك في حدود الاعتدال لا غلوّ ولا شطط ، ولا إفراط ولا تفريط .. حتى لا ينزلق الداعية في مزالق الكذب والمخاتلة والتزلّف والمجاراة ..

أخرج البخاري عن رجاء بن محجن الأسلمي – رضي اللّه عنه – أن رسول اللّه ﷺ ومِحْجَن كانا في المسجد ، فرأى رسول اللّه ﷺ رجلًا يصلي ويسجد ويركع ، فقال الرسول : « مَنْ هذا ؟ » ، فأخذ « محجن » يُطريه (أي يبالغ في مدحه) ويقول يا رسول اللّه هذا فلان ، هذا فلان ، فقال : « أمسك ، لا تُسمعه ، فتُهلكه » [3] .

وفي رواية لأحمد : يا نبيّ اللّه ، هذا فلان من أحسن أهل المدينة ، أو قال : أكثر رجال المدينة صلاة ، قال : « لا تُسمعه ، فتُهلكه ، إنكم أمة أُريد بكم اليسر » [4] .

لقد سمّى الرسول الكريم إسماع المديح إهلاكًا لما له من آثار نفسيّة في نفس الممدوح . قد يشمخ بأنفه ، ويستعلي بنظراته ، ويتطاول على الناس .. وفي هذا إهلاك له وأيّ إهلاك ؟!! .

ومن أجل هذا أمر رسول اللّه ﷺ صحابته أن يحثوا التراب في وجوه المدّاحين ؛ لكيلا يكثر سوادهم في المجتمع ، وحتى لا يفشوا في الأمة النفاق ، ويكثر التزلّف ، ويعمّ البلاء ..

أخرج الشيخان وأحمد والترمذي .. أن رجلًا قام يثني على أمير من الأمراء ، فجعل المقداد – رضي اللّه عنه – يحثو في وجهه التراب ، ويقول : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب » [5] .

وصفوة القول : يجوز للداعية أن يستعمل في كلماته وخطاباته ما يثير رغبة المدعوّ ،

---

(1) سورة القلم الآية : 9 .
(2) صحيح البخاري كتاب الأحكام (7178) .
(3) انظر مجمع الزوائد (3 / 310) والطبراني في الكبير (18 / 230) .
(4) مسند الإمام أحمد (4 / 338) .
(5) صحيح مسلم كتاب الزهد (69) ، والبخاري بمعناه كتاب الشهادات ب (17) ، ومسند أحمد (2 / 94) والترمذي كتاب الزهد (55) ، وانظر شرح السنة (13 / 150) .

ويشدّه إلى تقبل الحق ، ويدفعه إلى التزام منهج الإسلام .. وذلك بنداءات استعطافية ، ومخاطبات تشويقيّة لها إيحاءاتها المؤثرة على المشاعر ، ودغدغتُها المبالغة على القلوب .. على أن يلتزم الداعية حدود الاعتدال والاتّزان في كل ما يطرحه من استعطافات ونداءات .. بلا مغالاة ولا شطط ، ولا مداهنة ولا مراءاة .. إلا ما أباح له الشرع في إطار التقيّة والمداراة والمجاملة المشروعة لمصلحة تقي الدعوة من التآمر ، والداعية من الأذى ..

3 - مواصفات أخرى لابد منها :

وهناك عموميّات للداعية المتحدث أو الخطيب أو المحاضر .. ينبغي أن يراعيها ، ويحسب لها حسابها ، ويسعى جهده في تنفيذها .. وإلا اهتزت شخصيته ، وضعف تأثيره وخفّت هيمنته بين سامعيه .

وإليك – أخي الداعية – أهم هذه العموميات الضرورية التي لابد منها :

أ – **الابتعاد عن عيوب النطق** : من أبرز شخصية الداعية الابتعاد عن عيوب النطق كالفأفأة ، والتأتأة ، واللثغ .. وإلا أثار ضحك السامعين ، وحملهم على السخرية منه ، والاستهزاء به .. ولقد كان « واصل بن عطاء » من شيوخ المعتزلة وخطبائهم المصاقع ، وهو مع هذا ألثغ ينطق الراء لامًا ، وقد عالج « واصل » هذا العيب حيث اجتنب في كلامه وخطبه كل كلمة تحمل في تركيبها هذا الحرف ، وقد أعانته ثقافته اللغوية الواسعة ، وعلمه الغزير الشامل على التعبير عما يريد دون أن ينطق بكلمة تضمّ في تركيبها حرف الراء .

وإلى هذا أشار « بشار بن برد » في مدحه لواصل وفي إظهار فضله :

تكلفّوا القول ، والأقوام قد حلفوا وحبّروا خطبًا ناهيك من خطب

فقام مرتجلًا تغلي بداهتُه كمرجل القين [1] لما حفّ باللهب

وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التصفّح والإغراق في الطلب

ب – **الابتعاد عن الحركات الكثيرة** : ومن ملامح الاتّزان في الداعية تجنبه المبالغة في الحركات والإشارات ، والمواقف التمثيلية المتكلّفة .. كما عليه أن يتحاشى الغلوّ في رفع الصوت إلى درجة تصكّ الآذان ، أو الهمس إلى درجة تجهد السامعين ، أو

(1) مرجل القين : موقد الحداد .

السرعة إلى درجة تتطاير معها الحروف ، وتتآكل الكلمات ، أو البطء إلى درجة تستدعي التثاؤب والنعاس .. كما عليه أن يتجنّب العبث بلحيته ، أو بلع ريقه ، أو فتل أصابعه ، أو الإكثار من السعال بغير مبرر .. كل ذلك مما يُخِلُّ بشخصية الداعية ، وتضعف مهابته ، وتجعله محلّ نقد ، ومثار سخرية ..

وقد عاب أحد الشعراء على بعض الخطباء وقوعه في مثل هذه الأخطاء فقال :

مليء ببهر والتفات وسَعْلةٍ ومَسْحَة عُثنونٍ وفَتْل الأصابع

ج – **الابتعاد عن الإثارة واضطراب الأعصاب** : ومن ملامح الاتزان في الداعية أيضًا تجنّبه ما يدعو إلى اضطراب الأعصاب والضعف والخور والتهيّب .. ؛ حتى لا يقع في العيّ والتلعثم والشرود وحصر المعاني والكلمات ، والتحول عن مقتضى الحال .. وهذا يتطلب منه إذا تحدّث أو حاضر أو خطب .. أن يكون هادئ البال ، مرتاح النفس ، صحيح الجسم ، بعيدًا كل البعد عن المؤثرات النفسيّة ، والاضطرابات العصبية . والانفعالات المرضية .. وفي ذلك كمال حلمه ، ورجاحة عقله ، ورباطة جأشه ، وقوّة جنابه ..

ومن دعاء « النمر بن تولب » في سؤال ربّه الانضباط والاتزان :

أعذني ربّ من حَصْرٍ وعِيٍّ ومن نفسٍ أُعَالجها علاجًا

وقال « أبو العيال » يرثي أخاه ، ويذكر فضله في رباطة جأشه ، ورجاحة عقله :

ألا للّه درّك من فتى قومٍ إذا هبُّوا
وقالوا مَنْ فتى للحرب ؟ يرقُبنا ويرتقبُ
فكنتَ فتاهمو فيها إذا يدعَى لها يثبُ
ولا حَصْر [1] بخطبته إذا ما عزّت الخُطَب

د – **الابتعاد عن سوء المظهر** : ومن عوامل النقد في الداعية أن يظهر أمام الناس بملابس رثّة ، أو أزياء ممزّقة ، أو ثياب ضيّقة مجسّدة .. وإذا كان اللّه سبحانه يوصي المسلمين بالتزيّن عند كل مسجد فيقول : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [2] أي عند اجتماع الناس في صلواتهم وفي تعليمهم .. فالداعية هو أولى من غيره في

(1) ولا حَصَر : ولا عيّ ولا تلعثم ..
(2) سورة الأعراف الآية : 31 .

التحلّي بالزينة عند كل خطبة أو درْس أو محاضرة .. فيكون نظيف الثياب في غير تبرّج ، طيب الرائحة في غير إسراف ، مهيب المنظر في غير تكلّف ، مهذب الرأس واللحية في غير تصنّع ، تظهر عليه أمارات الكمال ، وعلامات الجلال ..

لقد كان سيد الدعاة – صلوات اللّه وسلامه عليه – يتجمّل لأصحابه فضلًا عن تجمله لأهله :

روى القرطبي عن مكْحول عن عائشة – رضي اللّه عنها – في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ .. ﴾ [1] : كان نفرٌ من أصحاب رسول اللّه ﷺ ينتظرونه على الباب ، فخرج يريدهم ، وفي الدار ركْوَة فيها ماء ، فجعل ينظر في الماء ، ويسوِّي لحيته وشعره ، قالت عائشة : فقلتُ له : يا رسول اللّه وأنت تفعل هذا ؟ قال : « نعم ، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه ؛ فإن اللّه جميل يحبّ الجمال » [2] .

وفي طبقات ابن سعد ج 4 ص 346 : عن جُنْدب بن مكيث – رضي اللّه عنه – قال : (كان رسول اللّه ﷺ إذا قَدِمَ الوفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر عِلْيَةَ أصحابه بذلك ، فلقد رأيتُ رسول اللّه ﷺ يوم قَدِمَ وفد كِنْدِةَ ، وعليه حُلّة يمانيّة ، وعلى أبي بكر وعمر مثل ذلك) .

وأخرج ابن المبارك والطبراني والحاكم .. وغيرهم عن عمر – رضي اللّه عنه – قال : « رأيت رسول اللّه ﷺ دعا بثياب جُدُدٍ ، فلبسها ، فلما بلغت تراقيه ، قال : الحمد للّه الذي كساني ما أُواري به عورتي ، وأتجمّل به في حياتي » [3] .

ويرى عليه الصلاة والسلام أن في هذا التجمّل وحسن المظهر إظهارًا لنعمة اللّه على العبد ، فقد روى الترمذي والحاكم عنه ﷺ : « إن اللّه يحبّ أن يُرَى أثر نعمته على عبده » [4] .

هـ – الابتعاد عن العيوب الصوتية : ومن عوامل النقد في الداعية أيضًا أن يظهر أمام الجمهور بعيوب صوتيّة بشكل يلفت النظر ، ويثير الانتباه ، كأن تكون رنّات الصوت مزعجة ، أو يكون عند الخطيب أو المتحدِّث ضيق تنفّس بحيث لا يستطيع أن يقول كلامًا مفيدًا من غير أن يقطع النّفس بيانه ، ويفسد عليه استرساله ، وهذه

---

(1) سورة الأعراف : 32 .
(2) تفسير القرطبي (7 / 197) .
(3) انظر مجمع الزوائد (5 / 119) .
(4) سنن الترمذي كتاب الادب ب (54) برقم (2819) .

العيوب بعضها يعالج بالطبّ ، وبعضها يعالج بالمران ..

وكثير من الخطباء عالجوا عيوب أصواتهم بالترويض والممارسة فكانوا يقوّون أصواتهم بالصياح على رؤوس الجبال ، أو على سواحل البحار .. محاولين أن تكون أصواتهم أعلى من صخب الأمواج ، وأعظم من هدير الرياح .. وقد تحقق لهم ما أرادوا بهذه المحاولات الموفقة الناجحة ..

وفي تقديري أن الداعية إذا اتبع أصول الإسلام في المنطق والحوار ، وسار على المنهج الذي وضعه رسول الإسلام في قواعد التحدّث والحديث .. يستطيع أن يعدّل الكثير من عيوب صوته ، وأن يتجاوز الأخطاء في مساوئ نُطْقه .. بل يكون صوته للسامع مقبولًا ، ونطقه لدى الحضور سائغًا محبوبًا .

تلكم – أيها الإخوة الدعاة – أهم العموميّات والضوابط التي ينبغي أن تأخذوا بها سواء أكنتم خطباء أو محاضرين ؟ وسواء أوَقَفْتُم بين الناس محاورين أو متحدّثين ؟ . بل هي عموميّات وضوابط قرّرها الإسلام في أدب الحديث ، وأصول التخاطب .. لتأخذوا بأحسنها ، وتسيروا على قواعدها وضوابطها ..

ولاشك أنكم إذا تحدثتم باللغة الفصحى التي يفهمها جلساؤكم ومدعوّوكم ..

وتمهّلتم بالكلام أثناء تعليمكم وإرشادكم ..

وتجنّبتُم التنطّع بالكلام ، والتفاصح باللسان في إلقاء خطبكم ومحاضراتكم ..

وخاطبتُم الناس على قدر أفهامهم وعقولهم في كل لقاءاتكم واجتماعاتكم ..

وأقبلتُم بوجوهكم ونظراتكم على كل جلسائكم ومستمعيكم ..

وباسطُم الجلساء جميعًا بمظهر بشاشتكم وابتسامتكم ..

وترفّعتُم عن الغلظة والبذاءة .. في جميع أحاديثكم ومواعظكم ..

واستثرتُم همم المدعوّين بكريم نداءاتكم ، وجميل استعطافاتكم ..

وابتعدتُم عن عيوب النطق والصوت في كل كلامكم وإلقاءاتكم ..

وتجنّبتُم الحركات الكثيرة ، والمواقف التمثيلية المتكلّفة .. في جميع مواقفكم وخُطَبكم ..

وتحلّيتُم برباطة الجأش ، وقوّة الجنان .. في حال استثاراتكم وانفعالاتكم ..

وظهرتُم أمام الناس بجمال الزيّ ، وحسن المظهر .. في غدوّكم ورواحكم ..

إنكم – إخوتي الدعاة – **إن فعلتم كلّ هذا** .. تكونوا فعلًا قد اتّبعتُم منهج الإسلام في تكوين شخصيّة الداعية التعبيرية سواء أكان الداعية محاضرًا أو خطيبًا ، متحدثًا أو محاورًا ، مدرسًا أو واعظًا ! .. وتكونون في الوقت نفسه قد طبّقتُم عمليًّا مبادئ الإسلام في التحدث ، وقواعده في الحوار ، وأصوله في التخاطب .. بل تكونون قد أخذتم بأعظم المقوّمات في نجاح الداعية ، وبأحسن الأسباب في انتشار الدعوة .. واللّه سبحانه لن يتر أعمال المخلصين الصادقين .. فما أحوجنا إلى دعاة يعرفون منهج الإسلام في التعبير ، ووسائله في التأثير ، وطريقته في الإرشاد .. عسى أن يصلوا في نهاية المطاف إلى إقامة مجتمع فاضل ، وبناء دولة إسلامية عريضة .. وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *

بعد أن تكلمنا – أخي الداعية – عن الخطوط العريضة في العموميّات والضوابط التي ينبغي أن ينتهجها الدعاة في أوساطهم التبليغيّة ، ومواقفهم الكلاميّة نعرّج – بتوفيق اللّه – إلى ذكر أهم القضايا التي تتعلق بشخصيّة الداعية وهو يتحدث ، وبموضوعه وهو يُلقيه ، وبالمستمعين وهم يُصغون إليه ..

وأرى أن هذه القضايا التي تتعلّق **بالمتحدِّث** ، **والحديث** ، **والمستمع** تتركّز في ثلاثة أمور :

1 – صفات الداعية وهو يتكلم .

2 – منهجه في التهيئة والتحضير والارتجال .

3 – البواعث التي تثير انتباه الجمهور إليه .

وسوف نتكلم عن كل قضية من هذه القضايا بشيء من التفصيل ، واللّه المستعان ، وهو يهدي إلى سواء السبيل :

1 - صفات الداعية وهو يتكلّم [1] :

الداعية حين يقف بين الناس خطيبًا أو مَحاضرًا أو محاورًا أو مدرّسًا .. ينبغي أن

---

(1) أظهر هذه الصفات اقتبسناها من كتاب « الخطابة » للشيخ العالم المرحوم محمد أبو زهرة ص : (55 - 59) .

يتصف بصفات أساسية ، وهذه الصفات التي سوف نذكرها هي التي ترسّخ في نفس الداعية قوّة التعبير ، ومَلَكَة التحديث ، وسلاسة المنطق ، وموضوعيّة الفكرة .. بل هي مناط القدرة لمن يريد التأثير في الناس ، وإقناع الجمهور ، وهداية الخاصّة والعامّة ..

وهذه الصفات مرتّبة كما يلي :

أ – **قوة الملاحظة** : والمقصود منها إدراك أحوال السامعين عند إلقاء الخطبة أو المحاضرة أو الدرس .. أهم مُقْبِلون عليه ؟ فيسترسل في كلامه ، ويستمر في دعوته .. أم هم مُعْرِضون عنه ؟ فيتّجه إلى ناحية أخرى يراها أقرب إلى قلوبهم ، وأدنى إلى مواطن التأثير فيهم ، فيجب أن تكون نظرات الداعية المتكلم إلى سامعيه نظرات فاحصة كاشفة ، يقرأ من الوجوه خطرات القلوب ، ومن اللمحات مكامن النفوس .. ؛ ليجدّد ما استطاع من نشاطهم ، ويُذهب من فتورهم ، ولتتّصل بنظراته وتحويلاته روحه بأرواحهم ، وترتبط نفسه بنفوسهم .. فيحافظ على قوة التأثير والتفاعل بينه وبينهم .

ب – **حضور البديهة** : والمقصود منه إسعاف القوم بالعلاج المطلوب إن وجد منهم صدودًا وإعراضًا .. وهنا يأتي دور الداعية حين يجد في الناس ظاهرة الإعراض ، وهنا تظهر قوة بداهته ، وبراعة حكمته ، فيستطيع في هذه الحالة أن يغيّر في الأسلوب ، أو أن يحوّل موضوعه إلى موضوع آخر يكون القوم في طرحه أكثر استجابة ، وأعظم تفاعلا ، وأقوى تأثيرًا .. وقد يلقي الداعية أحيانًا خطبته ، فيعقّب بعض السامعين معترضًا ، أو طالبًا الإجابة عن مسألة ، فإذا لم يتحلّ الداعية بحضور البديهة ، ولم يقدّم للسائل أو المعترض جوابًا يسدّ الخلّة ، ويدفع به الزلّة ، ضاعت الخطبة ، وضعفت المهابة ، وانعدم التأثير ..

ج – **طلاقة اللسان** : من أبرز صفات الداعية المتكلم طلاقة اللسان ، وسلاسة البيان ، وبلاغة الكلام .. وهذا لا يتأتّى إلا أن يكون الداعية ذا ثقافة واسعة شاملة ، وأن يعالج عيوب الصوت بالممارسة والمران ، وأن يتجنّب الحروف التي تسبب له اللثغة أو الفأفأة .. ، وأن يكثر من المطالعات الأدبيّة ، والقراءات النثرية لكبار الأدباء ، ومشاهير الكتّاب .. لتتربّى في الداعية ملكَة التعبير ، وتنمو فيه طلاقة اللسان ، وتتأصل في ارتجاله ومواقفه فصاحة البيان ؛ فلن تمر عليه فترة حتى يشار إليه بالبنان ، لقوة تأثيره ، وزلاقة لسانه ، وفصاحة كلماته ، وبلاغة حديثه .

د – **رباطة الجأش** : الداعية حين يريد التحدث يجب أن يقف بين الناس مطمئن النفس ، هادئ البال ، قويّ الجنان ، غير هيّاب ولا وَجِل ، وغير مضطرب ولا منفعل .. وإلا لم يستطع ملاحظة السامعين ، ولم يعرف أثر كلامه فيهم ؛ وهم إن أحسّوا بضعفه واضطرابه صغُر في نظرهم ، وهان في أعينهم .. بل لا يستطيع إثارة حماسهم ، ولا تفاعلهم معه ، ويذهب كل كلامه ومواعظه أدراج الرياح كأنه لم يتكلّم ولم يتحدّث .

واضطراب الأعصاب في الداعية يُورّث الحيرة والدهش ، ويحطّم الشخصية ويعقّدها ..؛ لذا كان الانضباط عند الإثارة ، والتحلّم عند الغضب من أبرز عوامل تكوين الشخصية الإسلامية ، ومن أعظم بطولاتها الفائقة في نظر الأقوياء .. وهذا المعنى للبطولة مستمدّ من توجيهات الرسول العظيم صلوات اللّه وسلامه عليه القائل – فيما رواه الشيخان – : « ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عن الغضب » [1] .

هـ – **القدرة على مراعاة مقتضى الحال** : الداعية الحصيف الحكيم هو الذي يُراعي مقتضى الحال في جميع أحاديثه وكلماته ، فلكل مقام مقال ، ولكل جماعة من الناس لسان تُخاطب به على حسب حالها ، فالجماعة الثائرة الهائجة تُخاطب بعبارات هادئة ؛ لتكون بردًا وسلامًا على القلوب .. والجماعة الهادئة الفاترة تخاطب بعبارات مثيرة للحميّة ، مُوقِظة للهمم ، حافزة للعزائم ، محرّكة للنفوس .. ، والجماعة التي شطّت ، وشردت ، وركبت رأسها ، وانحرفت عن طريق الجادّة .. تُخاطَب بعبارات فيها قوة العزم ونور الحق ، فيها يقظة المُنْقِذ ، وإرعادة المُنْذِر ، فيها روح الرحمة وبشائر الأمل .. ؛ ليجتمع الترهيب مع الترغيب ، وتلتقي الرحمة مع الإنذار .. وفي كل ذلك تذكير وأي تذكير ..

لذا وجب على الداعية أن يكون قادرًا على إدراك وضع الجماعة ، وما تتطلّبه من تذكير وإصلاح ، وما يصلح لها من أساليب ملائمة ، ومن توجيهات مناسبة يراعي فيها المصلحة واقتضاء الحال ..

و – **النفوذ وقوة الشخصية** : الداعية الموفق هو الذي يتمتع بقوة الشخصية ، ترى كل من يلقاه يحسّ بإشراقة روحه ، وسداد رأيه ، وسعة علمه ، وتأثير نصائحه ومواعظه .. فكلماته لها أثر في النفوس ، ونظراته شعاع ينفذ إلى القلوب ، ونصائحه

---

(1) سبق تخريجه ص (227) .

أوامر يقوم على تنفيذها المستمعون .. وإذا وهب اللّه داعية تلك الروح قاد الجماهير إلى نور الحق وهدى الإسلام ، واستطاع أن يُحدث في المجتمع تغييرًا في الأفكار ، وتبديلًا في الأخلاق ، وانقلابًا في التقاليد والعادات .. بل يصبح المجتمع في ظلّ قيادته الدعويّة المجتمع الفاضل بالتزام الإسلام ، والعمل على مناهج القرآن ..

وتكوين الشخصية في الداعية لا يتحقق إلا بتكوينه روحيًا وأخلاقيًا وثقافيًا ودعويًا .. وقد فصّلنا القول في فصول تكوين الداعية حين تكلمنا باستيعاب عن روحانية الداعية ، وأخلاقية الداعية ، وثقافة الداعية ، وكيف يدعو الداعية ؟ فارجع إلى هذه الفصول تجد إن شاء اللّه ما يشفي الغليل ، ويبلّ الصدى .

تلكم – إخوتي الدعاة – أهم صفات الداعية حين يقف خطيبًا أو محاضرًا أو متحدثًا .. في الناس .. فاحرصوا على التحقق بها ، والعمل على مقتضاها .. إن أردتم أن تكونوا ممن يؤثّرون في كلامهم ، ويستمرّون في عطائهم ، ويُحدِثون تغييرًا في مجتمعاتهم ، ويحققون الخير والعز والسيادة لأمة الإسلام في كل مكان .

2 - **منهج الداعية في التهيئة والتحضير والارتجال** :

الداعية الذي يريد أن يُلقي في الجمهور خطبة أو محاضرة أو درسًا .. إمّا أن يكون الإلقاء عن تحضير وإعداد ، وإمّا على البديهة والارتجال .

فالتحضير لازم في الأمور التالية :

أ – للمبتدئ الذي لم يسبق أن مارس التحدث ولا المحاضرة ولا الخطابة . فعليه أن يحضّر الموضوع الذي يُلقيه تحضيرًا مستوعبًا شاملًا ولو أتعبه الموضوع ، وأخذ منه وقتًا طويلًا ؛ لأن الداعية إذا ظهر أمام مَنْ يتحدّث إليهم بمظهر ضعيف ، وعُرِف بذلك تسقط مهابته ، ويضعف اعتباره ، وينفضّ الناس عنه ..

ب – إذا كانت معلومات الداعية في الموضوع الذي يريد التحدّث فيه لا تسمح له بالقول على البداهة والارتجال ، وإن تكلّم على السليقة والبداهة قال كلامًا مقتضبًا لا يقيم حقًّا ، ولا يخفض باطلًا ، ولا يقنع متشككًا ، ولا يجذب نفسًا ، ولا يُحدث تأثيرًا .. ولاشك أنه حين يقوم على تهيئة الموضوع من جميع نواحيه ، ويُعِدُّ له من جميع جوانبه ، ويُشبعه بحثًا ودرسًا وشواهد .. يستطيع أن يُدلي بحجته ،

فيصيب المرمى ، وينال السبق ، ويبلغ الغاية ، ويؤثر في الناس ..

ج – ويعمد الداعية إلى التحضير إذا كان يتحدث بين أقوام يتسقّطون هفواته ، ويتتبّعون عثراته .. حيث يحصونها عليه إحصاءً دقيقًا ، ويحاسبونه عليها حسابًا عسيرًا .. وقد يطعنون فيه ، ويشهّرون به ، ويتخذون من ضعفه وأخطائه سلاحًا لئيمًا للغضّ من شأنه ، والتقليل من فضله وعلمه .. وهو قد أعطاهم المجال حين وقف ولو مرّة هذا الموقف الضعيف غير المرتكز على الإعداد والتحضير !! .

ولا يتوهمنّ متوهّم أن تحضير الموضوع مما يعيب مقدرته ، ويقلّل من كفاءته .. فإن العيب في الحقيقة أن يقول الداعية كلامًا مبتذلا لا قيمة له ، وأن يطرق موضوعًا تافهًا لا وزن فيه ، ولتكن للداعية الأسوة الحسنة في كثير من كبار الخطباء والمتحدّثين ، الأقدمين منهم والمحْدَثين .. فإن كثيرين منهم مع قدرتهم التامة على الارتجال يأخذون للموقف الأهبة ، ويعدون له العدّة ، وقد يسهرون الليالي الطويلة في التهيئة لمحاضرة يلقونها ، أو خطبة يخطبونها ، أو ندوة فكريّة يتحدّثون فيها ..

د – ومما يستدعي التحضير : المحاضرات العلمية القائمة على منهج البحث والموضوعية ، فإن هذا النوع من المحاضرات يتطلب من الداعية أن يُعِدَّ أفكارها ، ومصطلحاتها ، وقوانينها ، ولغتها التي لا تُفهم إلا بها .. كما عليه أن يبسّطها ، ويسهّل أسلوبها .. حتى يستطيع الحُضور أن يفهموها ، ويستوعبوا ما يُطرح فيها .. وهذا لا يتأتّى إلا بتهيّؤ مسبق ، وتحضير كامل مركّز ، ولنا كلام آخر حول المحاضِر والمحاضرة سنعرض له قريبًا في هذا الفصل إن شاء اللّه .

هـ – حتى الذي اعتاد الارتجال فالأفضل في حقه أن يعمد إلى التحضير ولو برؤوس الأفكار ، وذكر الأمثال ، وترتيب الشواهد ، واختيار الألفاظ .. ؛ حتى يكون كلامه أكثر تركيزًا وتنسيقًا ، وحديثه أفضل إلقاء وعرضًا ، وموضوعه أجود وحدة وموضوعية ، ولهجته أقوى تأثيرًا وجاذبيّة .. وبهذا يستطيع أن ينفذ إلى أعماق النفوس ، ويهزّ بكلماته ومعانيه أوتار القلوب ، بل يكون من الدعاة الأقوياء ، والمتحدّثين العظماء ..

وعلى العموم إنّ الذي يحاضر أو يخطب أو يتحدّث أو يدرّس .. من غير سابق تحضير ولا تهيئة يجيء كلامه ضعيفًا في معناه ومبناه ، بل الداعية الذي لا يراجع نفسه آنًا بعد آن قبل أن يبلّغ دعوة اللّه ، ويقف في الناس متكلّمًا أو خطيبًا أو واعظًا ..

يضعف أسلوبه ، وتلين عباراته ، وينحدر إلى مستوى من الابتذال سحيق ، وتتجه معانيه وأفكاره اتجاهًا سطحيًا ، وتفقد قوة التأثير في المشاعر والقلوب والعقول ..

وإذا كان الأمر بهذه الأهمية فكيف يكون التحضير ؟ وما هي طرقه ؟ وهل الدعاة يتفاوتون فيما بينهم تهيئة وتحضيرًا ؟ وما هو مدى هذا التفاوت ؟

كل هذه التساؤلات سيأتي الجواب عليها تحت عنوان :

طرق التحضير :

كنا قد ألمحنا أن الدعاة يختلفون فيما بينهم في الطريقة التي يسلكونها ، وفي الكيفية التي ينتهجونها ، والسبب في هذا الاختلاف هو **الثقافة** ، **والمران** ، **والموهبة** ، فمن أُوتي منهم موهبة في التعبير ظاهرة ، وثقافة في العلوم فائقة ، وممارسة في التحدّث مستمرة .. فتحضيرهم للموضوع الذي يتحدّثون فيه يكون مختصرًا سهلًا ، أو بالأحرى فإن زمنيّة التحضير لأمثال أولئك تكون قليلة جدًّا ، أو أندر من القليل !! .

أما الدعاة الذين لم يُؤتوا مواهب في التعبير ، وثقافة عامة في العلوم ، وممارسة عملية في التبليغ والدعوة إلى الله فهؤلاء لا يستفيد الناس منهم ، ولا يأخذون عنهم ، ولا يتأثّرون بهم .. حتى يُحكِموا تحضيرهم للمواضيع ، ويبذلوا جهدًا كبيرًا في تهيئة المواعظ والدروس .. وبناء على هذا الاختلاف فسوف أعرض لك – أخي الداعية – **طرق التحضير الكثيرة المتشعّبة** كما أوردها الشيخ الجليل محمد أبو زهرة رحمه الله في كتابه « الخطابة » ص 139 مع الاختصار وبعض التصرّف :

1 – فمن الدعاة من يكتفي في تحضير الخطبة أو المحاضرة بدراسة الموضوع دراسة تامة ، ثم جمع عناصره في خاطره ، وترتيبها بينه وبين نفسه ، ويستحضر الألفاظ اللائقة بالمقام ، والعبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه الطريقة لا يتّبعها إلا المتمرّن على المواقف الدعويّة ، والذي أُوتي ثقافة شاملة ، وموهبة ارتجاليّة رائعة .. وكثير من الأدباء يُعدّ الخطبة التي تُحضّر بهذه الكيفية التي أوردناها ، ثم يلقونها بعد استجماع عناصرها في أذهانهم مرتجلة على السّليقة .. فتأتي غاية في الروعة والإبداع ، ولقد سمعتُ للشهيد سيد قطب – رحمه الله – بعض محاضراته [1] ، فكان يلقيها ارتجالا ، فيأتي وقعها على السامعين أحلى من العسل ، وأجمل من قطعة نثرية دبّجتها قريحة أديب ، وزيّن أسلوبها قلم

(1) كان ذلك عام 1952 م في المركز العام في القاهرة – الحلميّة .

شاعر .. ولا عجب أن يبدع هذا الإبداع ، فإنه في الأصل أديب وشاعر ، ثم تحوّل إلى داعية كبير يهزّ المشاعر ، ويحرّك أوتار القلوب .. رحمه اللّه وأعلى منزلته .

2 – ومن الدعاة من يدْرس الموضوع ، ويهيئ معانيه ، ويرتّبه ترتيبًا محكمًا ، ثم يكتب عناصره ومراحله في وريقات يستصحبها معه عند الخطبة أو المحاضرة أو الندوة .. ؛ لتكون مرجعًا له وضابطًا ، وليربط المعاني والأفكار من أن تضيع بشرود الذاكرة ..

وذلك النوع من الدعاة والخطباء كثير ، وفي الأخذ بهذه الطريقة مزايا كثيرة لما فيها من إحكام للمعاني ، وجمعٍ للخواطر ، وضبطٍ للأفكار .. وهذه الطريقة كسابقتها لا يتجه إليها إلا الدعاة الّذين مرنوا على القول ، ودرجوا على الارتجال ، وألفوا التحدّث مع الجمهور ، وبرعوا في الفصاحة ، وأصبحت الملكة التعبيريّة في مواقفهم كلها خُلقًا وعادة .. ولكن تمتاز عن سابقتها :

أ – بأنها تُفيد جدًّا مَنْ تخونه الذاكرة في المواقف الكلامية .

ب – وبأنها تستوعب أجزاء الموضوع بوحدة أفكاره ، وتسلسل معانيه ولا سيما إذا كان الموضوع طويلًا .

3 – ومن الدعاة من يطّلع على الموضوع ، ويدرسه بعناية ، ثم يتكلّم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع في غرفة قد انفرد فيها ، أو في مكان خلويّ كساحل بحر لا يراه أحد ، أو يتكلم إلى بعض أقرانه أو من كان دونه في الثقافة والعمر .

وهذه الطريقة لا يعمد إليها إلا المبتدئ الذي يمرّن نفسه على إلقاء الخطبة أو المحاضرة أو الدرس .. حتى يصبح التعبير في حقه خلُقًا وعادة .. وأحيانًا يعمد إلى هذه الطريقة من يمرّن نفسه على نوعيّة معيّنة من الإلقاء واللهجة ونبرات الصوت .. لتصير في حق المتمرن ملكة وسليقة .. وبهذا يرقّي نفسه ، ويُنمي ملكته ، ليصبح من كبار الخطباء المؤثّرين ، ومن أعلام الدعاة المرموقين .

4 – ومن الدعاة من يكتب الموضوع ، ويتحرّى في الكتابة أبلغ الأساليب التي توصله إلى غايته ، وتؤدي به إلى ما يريد في تحقيق هدفه ، ويحمّل الموضوع كل ما يبغي من وسائل التأثير ، وطرق الإقناع ؛ ليرمي بها إلى غرضه ..

وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مرارًا وينقّحه في كل مرة .. وبهذه القراءة التي يتحرّى

بها جودة الإلقاء ،وحسن النطق .. تَعْلَق معاني الخطبة مرتّبة الترتيب التام بذاكرته ، ويحفظ الكثير من ألفاظها وعباراتها وشواهدها ..

ويعمد إلى هذه الطريقة المبتدئ في تبليغ الدعوة ، أو الذي يأنس من نفسه أنه لا يقدر بادئ ذي بدء على الارتجال ، وقد يرتبك إذا وقف في الناس يتحدّث أو يخطب .. بدون أن يكون قد ألمّ بالموضوع المكتوب من قبل ، أو حفظ – على الأقلّ – أكثر شواهده وعباراته ومعانيه ..

5 – ومن الدعاة من يكتبون مواضيعهم ، ويحسّنون أسلوبها وتحبيرها ، ويتقنون ألفاظها وعباراتها ، ويستوعبون أفكارها وشواهدها .. ثم يحفظونها حفظًا تامًّا ، وبعد أن يتمكّنوا من حفظها ، ويأنسوا من أنفسهم أنهم أصبحوا قادرين على إلقائها .. يقفون بين الناس متحدثين أو خطباء أو محاضرين .. ليبلّغوا الدعوة ، ويؤدّوا رسالة الإسلام .

ولكن هذه الطريقة تعتمد على الذاكرة القويّة ، والفكر الصافي ، والتركيز الذهني ، وحضور البديهة .. وهي التي يلجأ إليها بادئ ذي بدء أكثر المتدرّجين في سلك الدعوة إلى اللّه ، والمبتدئين في طريق تبليغ الناس رسالة الإسلام ..

وفي تقديري أنهم إذا استمرّوا في هذه الطريقة ، ودرجوا عليها ، وقطعوا أشواطًا كثيرة في تنفيذها .. فإنهم يصبحون من كبار الدعاة الذين يحسنون الارتجال ، ويقوون على التعبير والكلام .. بل تصير الملكة التعبيرية ، والمقدرة الكلامية .. في حقّهم خلُقًا وعادة .

6 – ومن الدعاة من يكتب الموضوع كتابة مستوعبة شاملة من ألفه إلى يائه .. يكتبه بجميع أفكاره ومراحله وشواهده .. ثم يلقيه في القرطاس الذي كتبه فيه حتى ينتهي منه .

ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك سواء أكان خطيبًا أو محاضرًا .. ؟ .. أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه ، وعند التمرين على الإلقاء يجتهد في أن يلقي بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب في القرطاس ، ليكون في ذلك تمرين على الإلقاء والارتجال في آن واحد ، ثم بعد أن يقرأ الموضوع بينه وبين نفسه مرتين أو ثلاث .. يقف بعدها أمام الجمهور ليُلقي موضوعه ، وعليه عند الإلقاء أن يلاحظ الجمهور بنظراته وقتًا بعد آخر ، ليتعرّف على أحوال السامعين ، ويقف على انتباههم وتفاعلهم .. وهذا لا يتأتّى إلا أن ينظر إلى القرطاس تارة ، وإلى أوجه الحاضرين تارة أخرى ، يفعل ذلك في كل أجزاء المحاضرة أو الخطبة .. حتى تتصل روحه بأرواح

السامعين ، ويرتبط فكره بفكرهم ، ويتم التفاعل بينه وبينهم على أحسن وجه ولا شك أن هذا أدعى للتأثير ، وأجدر باليقظة والانتباه !! .

وهذه الطريقة يلجأ إليها الدعاة **في المحاضرة الفكرية والعلمية** .. التي تضمّ النخبة الممتازة من المفكرين والطبقة المثقفة ، ورجال الإصلاح ، وأرباب الفكر والأقلام ..

أما في مجال الخطابة فأرى أن يلجأ الداعية في الإلقاء إلى الارتجال إذا كان يحسنه ، أو إلى الاستعانة بكتابة العناصر والشواهد ، أو بحفظ المواضيع بادئ ذي بدء .. ثم يتدرّج شيئًا فشيئًا في طريق الارتجال ، ليصير الارتجال في حقّه سليقة وعادة .. وهذا ممكن إذا استمرّ في التمرين ، ودرج على الممارسة .

تلكم أهم طرق التحضير والتهيئة التي يسلكها الدعاة اليوم في تحضير خطبهم ومحاضراتهم ودروسهم ومواعظهم .. ولقد رأيتم أنهم يتفاوتون فيما بينهم طريقة وكيفيّة ، ويختلفون أيضًا منهجًا وأسلوبًا ، والسبب في هذا التفاوت والاختلاف - كما ألمحنا من قبل - هو الموهبة في التعبير ، والثقافة في العلوم ، والممارسة في التبليغ.. كما علينا ألا ننسى **الذكاء والذاكرة والحرص** .. فإن هذه الصفات الفطرية ، والوسائل الاكتسابية .. من أعظم المقوّمات في تكوين الدعاة وإعدادهم ، ليكونوا خطباء مصاقع ، وفرسان بيان ، وجنود دعوة ، ودعاة حق .. لهم في القلوب مكانة ، وفي النفوس احترام .

فعلى الدعاة اليوم أن يسعوا ويجتهدوا ، ويقاربوا ويسدّدوا ، ليصلوا إلى أعلى مراتب البيان ، وإلى أسمى آيات التعبير والفصاحة .. يهزّون النفوس بسحر بيانهم ، ويحرّكون أوتار القلوب بجمال أسلوبهم ، ويأخذون بمجامع العقول بروعة حديثهم ..

ليكونوا الشهداء على الناس ، ويكون الرسول عليهم شهيدًا .

* * *

ثم ماذا عن الارتجال ؟

وإذا كان التحضير والتهيئة للعالم والداعية أمرًا واجبًا لازمًا ، فليس معنى ذلك أنهما لا يحتاجان إلى الارتجال ، إذ القدرة على الارتجال من ألزم الصفات للداعية والعالم .. بل لا يُعدّ الداعية في نظر الكثير في صف الدعاة الممتازين المرموقين إلا إذا كان من القادرين

على الارتجال والموهوبين فيه .. بل لا يكون له في النفوس احترام ، وفي القلوب إجلال ، وفي ميادين الإصلاح تأثير إلا أن يكون حين يتحدّث أو يخطب .. كأنه يغترف من بحر ، أو يتدفّق كالسيل ، أو يهدر كالموج .. إن حاجة الداعية إلى الارتجال ، والتصرّف في الكلام .. لواضحة ؛ فقد يحضر الداعية نادي قوم ، وفي ذهنه موضوع يريد أن يتحدّث فيه ، ثم يرى من وجوه السامعين وحالهم ما يحمله على أن يتحدث في موضوع آخر ، فإن لم تسعفه بديهة حاضرة ، وموهبة في الارتجال فائقة ، ومران على التحوّل في المواضيع طويل .. ضاع هو وما يدعو إليه ، وتلقّاه الناس بالصفير والهزء والسخرية في كل مكان !! .

وقد يخطب الداعية ، فيعترض عليه بعض الناس في خطبته ، فإن لم تكن له بديهة حاضرة تردّ الاعتراض ، وتقرعه بالحجة والبرهان ذهب أثر الخطبة ، وضعف اعتبار الخطيب ..

من طرائف ما يروى أن أبا جعفر المنصور كان يخطب مرة ، فقال : اتقوا اللّه .

فقال رجل : أذكّرك مَنْ ذكّرتَنا به (أي أذكّرك بتقوى اللّه أنت كما ذكّرتنا به) .

فقال أبو جعفر : سمعًا لمن فهم عن اللّه ، وذكّر به ، وأعوذ باللّه أن أُذَكّر به وأنساه ، فتأخذني العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين .

ثم التفت « أبو جعفر » وقال للرجل : واللّه ، ما اللّهَ أردتَ بها ؟ ولكن ليقال : قام ، فقال ، فعوقب ، فصبر .. وأهون بها لو كانت العقوبة ، وأنا أنذركم – أيها الناس – أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وفينا نبتت .. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة .

فلم لم يكن الخليفة أبو جعفر قادرًا على الارتجال ما استطاع أن يأتي بذلك النوع من الكلام ، وما استطاع أن ينال من المتهجّم على مقام الخلافة بما أسكته وألقمه الحجر !! ..

ولكن كيف يتمرس الداعية على الارتجال ؟

في تقديري أن الداعية إذا اتّبع الخطوات التي سنمرّ على ذكرها بعد قليل فإنها تجعل منه خطيبًا مفوّهًا ، ومتحدّثًا موفّقًا ، ومرشدًا ناجحًا .. يستطيع أن يصول ويجول في كل موضوع يريد التحدّث فيه ، وفي كل فكرة يريد الدعوة إليها ، وفي كل فضيلة يريد تحبيب الناس فيها ، وفي كل رذيلة يريد تحذيرهم منها ..

ما هي اهمّ هذه الخطوات ؟

1 – أن يكثر من مطالعة الكتب الفكريّة والأدبية .. ذات الأسلوب المبدع ، والبيان

الرائع والتعبير البليغ المتميّز .. وفي أثناء المطالعة إذا وجد بعض العبارات الفصيحة ، والجمَل الأدبية البليغة تستأهل التدوين .. ثبتها بمذكّرة خاصة وسعى جهده على مدى الزمن أن يستظهرها ، ليضمّنها تعبيره الإلقائي والكتابي والخطابي .. ويستطيع بهذا أن ينمّي في نفسه ملكة التعبير ، وقوّة الارتجال .

2 – أن يكثر من سماع الخطباء والمرتجلين الممتازين ممّن عندهم مقدرة فائقة على الارتجال ، وموهبة ظاهرة في فنّ التعبير والكلام .. ؛ لأن السمع لمثل أولئك يحفّز من يريد أن يتعلّم الارتجال أن يكون مثلهم ، ويندفع بكلّيته لأن يحاكيهم ويقلّدهم .

3 – يختار أيّ موضوع من المواضيع الاجتماعية الهامة كبرّ الوالدين مثلًا ، فيُجهد نفسه في تحضيره ، وجمع شواهده ، وتصنيف عناصره .. ثم يقرؤه مرّات ومرّات .. فإذا وثق أن أكثر أفكار الموضوع ، وجلّ شواهده .. أصبح منطبعًا في ذهنه ، وراسخًا في ذاكرته .. عندئذ يقوم بإلقاء الموضوع في غرفة مغلقة لا يسمعه أحد ، ومن الأفضل أن يصحب عند الإلقاء آلة تسجيل ؛ ليستمع إلى موضوعه بعد إلقائه ، وبعد الاستماع يتعرّف على الأخطاء ؛ ليستدركها في المستقبل .. وفي تقديري إذا كرّر هذه العمليّة مرّات .. يصبح الارتجال عنده سليقة وملكة .

4 – ثم ينتقل بعد هذا إلى خطوة أخرى وتتلخص في : دراسة الموضوع ، وتهيئة معانيه ، ثم كتابة عناصره ، ومراحل إلقائه في وريقات يستصحبها معه عند الإلقاء ، ثم يدخل غرفة مغلقة بمفرده ومعه آلة التسجيل ، وبعد الإلقاء والاستماع يستدرك الأخطاء في تحضيراته المقبلة ، وهذه الطريقة تربّي في الداعية ملكة التعبير ، وسليقة الارتجال ، وتصيّره خطيبًا مفوهًا ، ومتحدّثًا موفقًا .. إن شاء اللّه .

5 – ثم ينتقل إلى خطوة أخرى أهمّ من سابقتها ألا وهي الوقوف خطيبًا أو متحدثًا .. بين أقرانه ، وخاصة إخوانه .. ؛ ليُزيل من نفسه حُبْسَة الحياء ، وعُقْدة الخجل .. وقبل إلقاء الموضوع يطلب منهم إبداء ملاحظاتهم وهو يخطب أو يتحدّث .. ثم يأتي دور المناقشة وإبداء الملاحظات . وعلى الإخوان في هذا الدور أن يبيّنوا لأخيهم المحاسن أولًا ؛ لحفزه وتشجيعه على السير وعلى المتابعة ، وإذا كان ثمّة أخطاء في اللغة ، أو في التعبير ، أو في الفكرة ، أو في النظرات ، أو في الموقف .. فليكن التنبيه بلطف ، ليستدرك هذه الأخطاء في المواقف الارتجالية التي يقفها مستقبلًا فلا يعود لمثلها .

6 - ثم ينتقل إلى خطوة أخرى أهمّ من سابقتها أيضًا ألا وهي الوقوف خطيبًا ، أو متحدثًا ، أو محاضرًا .. بين الناس ؛ لينمّي في نفسه رباطة الجأش ، وقوّة الأعصاب ، وخلُق الجرأة الأدبيّة .. ولا بأس أن يخرج إلى الريف ، أو إلى بلدة صغيرة ، أو إلى أي طرف من أطراف البلدة التي هو فيها .. وهناك يقف خطيبًا أو متحدّثًا في المسجد بعد أداء الصلاة المكتوبة ؛ وإذا استطاع أن يصحب معه بعض خاصّة من إخوانه فليفعل لإبداء المحاسن والعيوب .. وإذا كرّر هذه العمليّة مرّات .. فعندئذ يعتاد الارتجال ، وبالتالي يعتاد الجرأة الأدبية ، بل يكون من عداد المتحدّثين المرموقين .

والذي أخلص إليه بعد ما تقدّم :

أن عملية ممارسة الارتجال في الداعية ليست بالأمر الهينّ اليسير ، بل ينبغي أن تسير على مراحل محدّدة ، وخطوات رتيبة .. حتى يصل في نهاية الشوط إلى الغاية المنشودة ..

● فأول خطوة لممارسة الارتجال : تنمية الملكة التعبيرية ، وذلك بكثرة المطالعات الفكريّة والأدبية لأعلام الفكر ، ونبغاء الكتّاب .

● والخطوة الثانية : تنمية الوحدة الموضوعيّة للحديث أو الخطبة .. وذلك بتحضير الموضوع ، وجمع أفكاره ، وتهيئة شواهده ، وتسلسل عناصره .. إلى خاتمته .

● والخطوة الثالثة : تنمية الجرأة الأدبيّة .. وذلك بالتحدث أمام خاصّة الإخوان ، ثم التدرّج شيئًا فشيئًا إلى أن يقف خطيبًا أو متحدثًا .. في مجتمعات الناس ..

● والخطوة الرابعة : تنمية الملكة الارتجالية ، وذلك بالاستماع إلى كبار الخطباء ، ومشاهير البلغاء .. ثم الإكثار من التحدث بينه وبين نفسه ، ثم بينه وبين خاصته ، ثم بينه وبين الناس العاديين ، ثم بينه وبين الناس المثقفين ..

وهكذا يتدرّج الداعية من ممارسة إلى أخرى ، ومن خطوة إلى ثانية ، ومن الانفراديّة إلى الجماعية ، ومن الخجل إلى الجرأة ، ومن التحضير الكلي إلى تحضير العناصر والشواهد .. ومن تحضير العناصر والشواهد إلى الارتجال الموفّق ، والتعبير البليغ الموزون ..

وإذا استمر على هذا فسيصبح بفضل اللّه وتوفيقه من عداد الخطباء المعدودين ، والمتحدثين المرموقين ، والدعاة إلى اللّه البارزين .. بل يكون له إن شاء اللّه في مجال التبليغ أثر ، وفي ميدان الإصلاح تغيير .

3 - البواعث التي تثير انتباه الجمهور إليه :

وعلى الداعية الذي يقف بين الناس خطيبًا ، أو مدرّسًا ، أو متحدّثًا .. أن يتّبع أفضل الطرق في تحبيب الناس فيه ، وانجذابهم إليه .. بل عليه أن ينتهج أحسن الأساليب التي تثير في الجمهور انتباههم ، وتجدّد لهم نشاطهم .. ليتوجّهوا إلى فكرته ، ويتقبّلوا مبادئ دعوته .

ولكن ما هي أهمّ هذه البواعث التي تثير في الجمهور الانتباه ؟

أراها تتركّز في الأمور التالية :

أ – ارتباط المواضيع بالواقع : من المعلوم يقينًا أن الداعية إذا اختار من المواضيع التي لها اتصال بواقع المجتمع ، ومشاكل الناس ، وقضايا المسلمين .. فإنه يستطيع في كل موقف دعويّ ، وحديث إرشاديّ ، وخطبة منبريّة .. أن يأتي بشيء جديد يثير في الناس نشاطهم ، ويحرّك فيهم انتباههم ، ويُكسب الفكرة طلاوة ، ويعطيها رونقًا وحلاوة ، والتجديد دائمًا له سمته البارزة ؛ لكونه يدفع عن النفس سأمها ، ويجدّد لها نشاطها ، ويعمّق فيها روح التفاعل والاهتمام والحيويّة ..

وما أكثر المواضيع التي تتصل بروح الواقع ، وتعالج مشاكل المجتمع ، وتتصل بقضايا المسلمين !! .. فالداعية الموفّق الحكيم يستطيع في كل موقف دعويّ يقف فيه .. أن يعالج في المجتمع مشكلة قائمة ، وأن يتحدث عن قضيّة من قضايا المسلمين عامّة ، وأن يحذّر السامعين من ظاهرة من ظواهر الانحراف منتشرة مستفحلة .. وهكذا يستطيع الداعية في كل موقف أن يأتي بالجديد ، ويثير انتباه السامع القريب منه والبعيد .

ب – الغرابة في الاستشهاد : ومن سمات الداعية الموفّق الناجح أن يتخيّر من الأمثلة العجيبة النادرة ، والشواهد الغريبة الشائقة .. ما يستطيع أن يلفت أنظار السامعين إليه ويثير انتباههم نحوه .. وهذا لا يتأتى إلا أن يكون عنده من الاطلاع الواسع ، والثقافة الشاملة ما يجعله يختار من الأمثلة أحسنها ، ومن الشواهد أجودها ، وأن يعرف أيضًا كيف يرجع إلى المصادر التاريخية والأدبية والشرعية .. إذا أعوزته القصص التاريخية الشائعة ، والطرائف الأدبية المحبّبة ، والأدلّة الشرعية المقنعة ؟ ..

وكم يسأم المدعوّ ، ويملّ السامع .. حين يسمع من الداعية أمثلة معروفة ، وطرائف معلومة ، وشواهد متداولة مكرورة .. كم يسأم حين يسمعها ؟ وكم يملّ حين يستشهد بها ؟

فما على الداعية الموفق الناجح إلا أن يختار من الأمثلة والشواهد والطرائف .. ما

يثير في السامعين نشاطهم ، ويوقظ أفهامهم ، ويحرّك انتباههم .. وإن أراد أن يَعُوا منه ، ويستجيبوا له ، ويتفاعلوا مع دعوته ، ويتوجّهوا جميعًا إلى فكرته .

ج – **التنوّع في الأساليب** [1] : ومما يثير الانتباه إلى الداعية من قِبل سامعيه جدّته في الأسلوب ، وتنوّعه في الطريقة ، فأحيانًا يأتي بالكلام في صورة استفهام ، وأخرى في صورة تقرير ، وثالثة في صورة طلب ، ورابعة في صورة استجواب ، وخامسة في صورة حوار .. وأحيانًا ينتقل بالسامعين من التقرير إلى القصة ، ومن التأثير الخاشع إلى المداعبة اللطيفة ، ومن التعليم بالكلام المجرّد إلى التعليم بالقدوة .. وأحيانًا ينوّع الأسلوب في الصوت واللهجة ، فينتقل الداعية بالسامعين من ارتفاع الصوت إلى انخفاضه ، ومن انخفاضه إلى ارتفاعه .. وينتقل بهم من اللهجة القويّة الشديدة إلى اللهجة ذات الرقّة والحنان ..

وهكذا يستطيع الداعية ببراعته وحصافته أن ينوّع في الأسلوب ، ويحدّد في الطريقة ، ويعطي للمجلس حقه من النشاط والحيويّة ، وإثارة الاهتمام ، وإيقاظ الغفلة .. من أجل أن يشد الناس إليه ، ويتفاعلوا معه ، ويستفيدوا منه .

د – **المقابلة بين الأضداد** : ومما يوقظ في الناس الانتباه ، ويلفت في السامعين الأنظار .. أن يقارن الداعية المتحدّث بين أمرين ، ويقابل بين شيئين ، ويوازن بين متضادّين .. فحين يريد أن يتكلّم عن موضوع الصدق مثلًا ، فعليه أن يقارن بينه وبين الكذب ، كما عليه أن يقابل أيضًا بين رجلين ، الأول صادق ذو صفات عالية تميّز بها ، والثاني كاذب ذو صفات قبيحة عُرف بها ..

فمن هذه الموازنة تتميز الأشياء بأضدادها ، وتعرف الأمور بنظائرها .. فيُدرك السامع الفرق الكبير بين الحسن الذي يتمثل في الصدق ، وبين القُبح الذي يتمثل في الكذب ، وفي الوقت نفسه تتجسّد له فضيلة الصدق بأعظم صورها ، وتتصوّر له رذيلة الكذب بأبشع مظاهرها .. ولا يخفى ما في هذه الموازنة والمقابلة من إثارة للانتباه ، ومن حفز للسامع للاهتمام ، ومن إيقاظ للجمهور للإصغاء والتوجّه .. بل هي طريقة القرآن ، وأسلوب ذي العزة والجلال . قال تعالى ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [2] ؟ ، وقال ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ

(1) ارجع إلى فصل « كيف يدعو الداعية ؟ » ، إلى فقرة : « طريقة الداعية التشويقية » تجد بحث « ارتباط الموضوع بالواقع » و « التنوّع في الأساليب » مفصلًا ، يشفي الغليل إن شاء الله .

(2) سورة السجدة الآية : 18 .

تَحْكُمُونَ ﴾ [1] ؟ إلى غير ذلك من هذه الآيات . وبهذه الطريقة الزكيّة اللطيفة يستطيع أن ينفذ الداعية إلى قلوب سامعيه ، وأن يحرّك فيهم مشاعر الإيمان ، وأحاسيس التقوى ، ونبضات الانقياد للّه ربّ العالمين .

هـ – الاستعانة بأسلوب الترغيب والترهيب : ومن سمات الداعية الناجح في إثارة الانتباه في الجمهور أن ينهج طريقة القرآن الكريم في ترغيب الناس بالخير ، وترهيبهم عن الشرّ .. **وذلك واضح** :

وفي الآيات التي ترغّب المتقين بما أعدَّ الله لهم من جنات ، وعيون ومقام كريم .. وفي الآيات التي تذهب الفجّار بما أُعِدَّ لهم من جحيم ، وأغلال ، وعذاب مقيم ..

وما أكثر المواضيع الاجتماعية ، والبحوث التربوية ، والمعالجات الإصلاحية .. التي ينتهجها الدعاة في تبليغهم ومواقفهم ترغيبًا وترهيبًا ، وبودّ كل داعية حين يختار أيّ موضوع من مواضيع التربية والدعوة والإرشاد .. أن ينتقي من آيات القرآن الكريم ، والسنّة النبويّة المطهّرة من القصص والشواهد والأمثال ما يرغّب الجمهور بفعل الخير ، وما يحذّرهم من فعل الشر .. بل إن أحسن العرض ، وأجاد في الأسلوب ، وَوُفِّق باختيار الشاهد ، وضرب المثل .. استطاع أن يدفع سامعيه إلى الحق دفعًا ، وأن ينفّرهم من الباطل تنفيرًا .. بل يجعل منهم أناسيّ يمشون على الأرض كالملائكة طهرًا ، وكالرسل قدوة ، وكالسلف الصالح تقًى وصلاحًا ..

هذا عدا عن تلوّن الأسلوب من نقلهم من الترهيب إلى الترغيب ، ومن التحذير إلى الحضّ ، ومن الخوف إلى الرجاء .. ولا يخفى ما في هذه النقلة من إثارة للانتباه ، ومن تحريك للمشاعر ، ومن إيقاظ للهمم ..

ألا فليأخذ الدعاة بمنهج القرآن الكريم ، وبطريقة السنّة النبوية [2] في اتباع أسلوب الترغيب والترهيب إن أرادوا أن يكونوا من الدعاة المؤثّرين ، ورجال الإصلاح المرموقين ؟!! .

و – إثارة المشاعر النفسيّة في المدعوّين : ومن العوامل الكبيرة التي تثير الانتباه في

---

(1) سورة القلم الآيات : 35 ، 36 .

(2) كتاب « الترغيب والترهيب » في الحديث للإمام المنذري من أوسع الكتب التي جمعت في طياته ما ثبت في السنّة في أي موضوع من المواضيع يريد أن يتناوله الداعية ترغيبًا وترهيبًا وهو أربعة مجلدات ، فاحرص على اقتنائه والرجوع إليه أخي الداعية .

الجمهور ، وتحرّك فيهم أحاسيس الإصغاء والتوجّه .. إثارة المشاعر النفسيّة سواء ما يتعلق بالمحبة والبغض ، أو ما يتعلق بالفرح والحزن ، أو ما يتعلق بالأمل واليأس ، أو ما يتعلق بالرضى والغضب أو ما يتعلّق بالرجاء والخوف ، أو ما يتعلق بالرحمة والظلم .. هذه النماذج من المشاعر النفسية إن استطاع الداعية أن يثيرها فيمن يستمعون لحديثه ، ويثقون به ، ويأخذون عنه ، ويستفيدون منه .. كانت من أكبر العوامل في الإصلاح ، ومن أعظم الوسائل في التأثير ، ومن أهم الأسباب في الهداية ..

● وما أحسن الداعية حين يقف بين الناس يُثير في نفوس المدعّوين مثلًا معنى الحبّ في اللّه ، ليتآلفوا ، ويتوادّوا ، ويكونوا عباد اللّه إخوانًا .. وفي الوقت نفسه يثير في قلوبهم ومشاعرهم معنى البغض في اللّه .. ليفاصلوا المنحرفين عن منهج اللّه ، ويقاطعوهم في اللّه .. من أجل ماذا ؟ من أجل ألا يتأثر الأتقياء الأصفياء بمخالطتهم ، وينحرفوا بانحرافهم !! .

● وكم يكون الداعية موفقًا حين يشارك الأمة مشاركة وجدانية في أفراحها وأحزانها ، في سرّائها وضرّائها .. يحسّ بإحساسها ، ويشعر بشعورها ، ويحزن لما يُحزنها ، ويُسرّ لما يسرّها ، آلامها آلامه ، ومصائبها مصائبه .. وفي هذا تتعمق الصلة الروحية بينه وبينها ، لتكون دائمًا أداة تأثير فيها فيستخدمها في استفزاز مشاعرها ، أو تهدئة ثائرتها ، ويُملي عليها ما يريد من آراء ، وما تحتاجه من توجيه ، وما يراه من تقويم ..؟!!

● وكم يصل الداعية إلى قمة التأثير في المخاطبين حين يبدّد في نفوسهم وجهات النظر اليائسة القاتلة التي تقول : « انتهى كل شيء وعجزنا » ، « الزم حلس بيتك فليس في العمل فائدة » ، « عليك بخويصة نفسك ودع عنك أمر العامّة » .. وعمّق في نفوسهم روح الأمل والنّهوض لاستعادة الأمجاد ، واسترجاع الكيان السياسي المتمثّل بالخلافة الراشدة .. وذلك بالاستشهاد بالأمثلة التاريخية عبر العصور كأن يقول للمخاطبين :

(من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لمّا **استولى الصليبيّون** على البلاد الإسلامية ، والمسجد الأقصى قرنًا من الزمان ؟ مَن كان يظن أن هذه البلاد ستتحرّر على يد البطل المغوار « **صلاح الدين** » في معركة حطين الحاسمة ، ويصبح لهم من الكيان والقوة والعزة ما شرّف التاريخ ؟) .

(من كان يظن أن تقوم للمسلمين قائمة لما خرّب **المغول والتتار** العالم الإسلامي

من أقصاه إلى أقصاه ، وفتكوا بالأنفس والأعراض فتكًا ذريعًا ؟ حتى قيل : إن جبالًا شامخة أقامها « هولاكو » من جماجم المسلمين !! من كان يظن أن بلاد الإسلام ستتحرّر على يد البطل المقدام « قطز » في معركة عين جالوت الحاسمة ، ويصبح للمسلمين من المجد والعظمة والرفعة ما فخرت به الأجيال ؟) .

فبمثل هذه الاستشهادات يتبدّد في نفوس المخاطبين ظلام اليأس ، ويشرق فيها نور الرجاء والأمل ، فلا يجدون بُدًّا سوى أن ينطلقوا في مضمار الدعوة والجهاد ، وينخرطوا في سلك الجماعة التي تعمل للإسلام ، وتجاهد في سبيله ، وتعيد لأمة الإسلام خلافتها الراشدة ، وكيانها السياسي العريض .. وقس على ذلك إثارة الداعية في نفوس المخاطبين :

● حقيقة الرضا في اللّه ، والغضب في اللّه .

● وحقيقة الطمع بعفو اللّه ومعرفته والخوف من نقمته وعذابه .

● وحقيقة الرحمة للعباد وإرادة الخير لهم ، والتحذير من ظلمهم وإدخال الضرر عليهم .

فبهذه الإثارات للمشاعر النفسيّة يستطيع أن يتفاعل مع المخاطبين ، وينفذ إلى أعماق قلوبهم ، وينقلهم إلى عالم الطهر والصفاء ، ويأخذ بأيديهم إلى أجواء الإشراق والروحانية .. فهل عرفت – أخي الداعية – **بواعث إثارة الانتباه** إذا وقفت بين الناس خطيبًا أو واعظًا أو متحدثًا .. ؟

فبربط مواضيعك بالواقع تجدّد للمخاطبين حيويّتهم ونشاطهم .

وباستشهادك بالغريب من الأخبار توقظ في الناس أحاسيسهم وانتباههم .

وبمقابلتك بين الشيء وضده تفتّح في الجمهور عقولهم وأفهامهم .

وبتنوّعك في أساليب الإرشاد تثير في المدعوّين مشاعرهم وعواطفهم .

وبانتهاجك أسلوب الترغيب والترهيب تهيّج في السامعين أشواقهم وأحزانهم .

وبإثارتك المشاعر النفسيّة في الحاضرين تعمّق روح الثقة والعطاء بينك وبينهم .

فاحرص – أخي الداعية – في اتباع أفضل الطرق الإيجابية في هداية الناس ،

وتبليغ الدعوة .. عسى اللّه سبحانه أن يحقق على يديك الخير ، وينفع بدعوتك الأمة ، وتترك في كل بلد حَلَلْتَ فيه أثرًا في الإصلاح ، واستجابة للهداية .. وما ذلك على اللّه بعزيز .

بعد أن تكلمنا مفصلًا عن منهج الداعية في إعداد الموضوع وتحضيره ، وعن الصفات التي يتحلّى بها في أحاديثه ومواقفه ، وعن الأحوال التي تثير انتباه الجمهور إليه وتحبّبهم فيه ..

بعد هذا كلّه نشرع بتوفيق اللّه في ذكر أهمّ المواقف الكلامية التي تهيب بالدّاعية أن يكون متحدثًا عاديًّا في بيت ، أو مدرّسًا عامًّا في مجتمع ، أو خطيبًا في مسجد ، أو محاضرًا في قاعة ، أو كاتبًا في صحيفة ، أو مناقشًا في ندوة ..

وسبق أن ذكرنا في ابتداء هذا الفصل أن هناك عموميّات وأساسيات وضوابط ينبغي على الداعية أن يأخذ بها ، ويسير عليها في كل المواقف الكلاميّة التي يقفها ، وفي كل المجالات التبليغيّة التي يتحدث فيها .. سواء أكان الداعية متحدثًا أو مدرّسًا ، خطيبًا أو محاضرًا ، محاورًا أو مناقشًا ..

وللربط والتذكير أستعرض معك - أخي الداعية - **الخطوط العريضة في هذه العموميّات والضوابط** عسى أن تسترجع بذاكرتك أفكارها وبحوثها .. لتعمل بها ، وتقوم على تنفيذها في مجالات الدعوة والتبليغ والتحدث إلى الناس :

أولًا : أن تتكلم باللغة العربية الفصحى .

ثانيًا : أن تتأنّى بالكلام .

ثالثًا : أن تبتعد عن التفاصح والثرثرة والتشدّق .

رابعًا : أن تكون مقتصدًا في الحديث ، ومعتدلًا في الموعظة .

خامسًا : أن تخاطب الناس على قدر عقولهم .

سادسًا : أن تقبل في حديثك على الجلساء جميعًا .

سابعًا : أن تكون مع الناس لطيفًا رقيقًا متودِّدًا .

ثامنًا : أن تتجنّب الكلام الجارح ، والمعاملة القاسية .

تاسعًا : أن تثير هِممَ المدعوّين بما يفتح قلوبهم للحق .

عاشرًا : أن تبتعد عن العيوب في النطق ، والحركات الكثيرة وإثارة الأعصاب في المواقف كلّها .

وهذه الأصول جميعها إذا اتّبعها الداعية ، وسار على نهجها ، جعلت منه إنسانًا ذا شخصية دعويّة متميّزة ، وأهابت به أن يكون داعية محبوبًا ، ومتحدّثًا بارعًا ، ومحاورًا ناجحًا ، وخطيبًا مؤثرًا ، ومحاضرًا موفقًا .. لكونه أخذ بأصول الكلام ، وقواعد التحديث ، ومبادئ التبليغ والدعوة .

بعد هذا كله سوف أستعرض معك مواقف الداعية الكلامية واحدة بعد واحدة ؛ لتعرف جليًا كيف تكون طبيعة الحديث العادي ؟ وكيف تكون طبيعة الدرس العام ؟ وكيف تكون طبيعة الخطبة ؟ وكيف تكون طبيعة المحاضرة ؟ وكيف تكون طبيعة الحوار والمناقشة ؟ ثم بالتالي كيف يكون فنّ المقالة والكتابة ؟..

وها أنا ذا سوف أستعرض وإياك - أخي الداعية - ما يلزم أن تعرفه في طبيعة كل موقف من هذه المواقف التي سبق تعدادها ، والله المستعان ، ومنه نستمدّ العون والتوفيق :

1 - الداعية محدثًا :

قد يفاجأ الداعية بأن يلتقي مع أناس لا يعرفهم في نزهة ، أو حافلة ، أو قطار ، أو سيارة أجرة ، أو مطار .. فمن الطبيعي وهو على هذه الحال أن يبدأ هو بالتعارف عليهم ، وأن يأخذ فكرة عن أحوالهم واتجاههم ، وأن يتخيّر الحديث المناسب الذي يبدؤه معهم .. ويمكن في بادئ ذي بدء أن يطرح عليهم بعض الأسئلة التي ترتبط بالمجتمع ، وتتصل بواقع الناس ؛ ليدخل من خلال الأجوبة في الموضوع مباشرة كأن يطرح عليهم السؤال التالي : ذكرت الصحف في الأمس القريب حادثة قتل وقعت .. ما تعليقكم على هذه الحادثة ؟ وما الدعائم التي تحقق الأمن والاستقرار في المجتمعات البشرية ؟

وهنا يستطيع الداعية في حديثه العادي أن يكشف للحضور عن نظرية الأمن في الإسلام في تحقيق معاني الاستقرار والسلام في المجتمعات البشرية في كل مكان ، ثم يعرّج إلى ذكر المواد من قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [1] .

(1) سورة البقرة : 179 .

فبهذا الأسلوب الحكيم يستطيع الداعية أن يشغل الوقت مع الحضور بما ينفع ، وأن يدعو إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يبيّن للناس محاسن الإسلام في أنظمته الشاملة المتجدّدة ، وواقعيته المنسجمة المتلائمة مع الحياة .

ولكن عليه حين يتحدّث أن يراعي الأمور التالية :

أ – عليه أن يتكلم بهدوء ومنطق واتّزان .. حيث لا يرفع صوته في المجلس فوق المعتاد ، ولا ينفعل انفعال الخطيب المتحمّس ، ولا يخرج عن دائرة العقلانيّة ، والمنطق الإقناعي .. ليستطيع أن يؤثر فيهم ، وينفذ بحديثه إلى عقولهم وقلوبهم ..

ب – كما عليه أن يترك لهم المجال في المشاركة في الحديث ؛ ليعرف دخيلتهم ، ويطّلع على أفكارهم .. وعلى ضوء ذلك يستطيع أن يعطيهم ما يتناسب مع أفهامهم ، وما يتفق مع ثقافتهم ، وما تأثروا به من أباطيل الخصوم ، وشبهات الأعداء .

ج – كما عليه إذا أحسّ أن الحديث سيحوّل إلى مناظرة جدليّة لا جدوى منها .. أن يكفّ عن المضيّ فيه في لطف وحكمة ولباقة .. أو يحوّل الحديث إلى حديث آخر يقبله الجميع ، ويرتاحون إليه .. فإن استطاع بعد ذلك أن يستأنف الحديث الأول من جديد في جوٍّ من الهدوء والاتزان والتقبّل فليفعل ، وإلا فمن الخير ألا يعود إليه أبدًا .

د – كما عليه أن يتجنّب في حديثه تحدّي الناس بالإسلام ، لما لهذا التحدّي من انعكاسات نفسيّة . وآثار عقيديّة .. في نفوس الحاضرين .. قد يؤدي بهم إلى الإلحاد السافر ، والكفر الصّراح .. والداعية إلى اللّه صائد ، فهل من الحكمة أن يهيّج الصيد ويثيره حتى يفرّ منه فلا يدركه أبدًا ؟ أم أن يُظهر له الودّ ، ويتلطّف به حتى يثبت ويستقرّ في مكانه ؟

ولاشك أن الودّ والتلطف هما الأجدى والأنفع في جذب المدعو وانفتاحه وتحقيق مصلحته وهدايته ..

هـ – كما عليه أن يترك « التعالم والتفاصح » على الناس ؛ لأن الناس يكرهون من يتعالم عليهم ، أو من يتظاهر بالامتياز عنهم ، أو من يستشعرون منه أنه في الفضل فوقهم .. بل هم أقرب إلى من يتواضع لهم ، ويكون رفيقًا ورقيقًا معهم ، ولا يُحسون أيضًا بأيّة فوارق أو امتيازات تحجز بينه وبينهم ..

وهذه الظاهرة من التواضع والرفق واللّين وإزالة الفوارق .. في الداعية هي من

أكبر العوامل في تحبيب الناس فيه ، وانجذابهم إليه ، واستجابتهم له .. وسبق أن فصّلنا القول في الاهتمام بهذه الظاهرة حين تكلمنا عن العموميّات والضوابط التي ينبغي أن يتصف بها الدعاة في مجالاتهم التبليغيّة ، ومواقفهم الكلاميّة .

وفي هذا المجال أريد أن أنبّه إلى أمر آخر :

على الداعية أن لا يتورّط في طرح أي سؤال على الحاضرين قبل أن يأنس من نفسه أنه متمكّن منه ، وقادر على الإجابة عليه ، ومستوعب لجلّ أفكاره ومعظم شواهده .. وإن لا .. فإنه يقع في الارتباك والحرج .. أو ربما أعطى الصورة الشّوهاء عن الإسلام في أجوبته القاصرة ، وحججه الضعيفة .

وفي هذا الحال يكون قد أساء أكثر مما أحسن ، ونفّر أكثر مما ألف ، وزاد في تفاقم الشبهة أكثر مما أزال وبيّن ..

ومما لا يختلف فيه اثنان أن طابع المفاجأة في محادثة الناس له سلبيّاته ، وله في المقابل إيجابيّاته :

فمن سلبيّاته : أن الداعية قد يفاجأ بسؤال من قِبَل الحاضرين لم يكن متمكّنًا من الإجابة عليه ، فإن لم يكن عنده أسلوب الحكيم في صرف السؤال إلى شيء آخر أهمّ منه ، أو عنده القدرة للخروج من المأزق بلباقة وحكمة .. فإنه يكون محلّ هزء وتندّر أمام الآخرين ، وهذا هو الفشل بعينه .

ومن إيجابيّاته : أن الداعية يستطيع أن يبلّغ دعوة اللّه عز وجل أينما وُجِدَ ، وحيثما حلّ ، وكيفما اتفق ، ويستطيع أن يؤثّر في الناس ويُعطيهم ، وأن يعالج مشاكلهم ويُصلحهم ، وأن يصحّح تصوّرهم عن الإسلام ويُقنعهم .. وهذا لا يتأتّى إلا أن يكون ذا ثقافة عالية ، ونباهة لبقة ، وحكمة بالغة ، وأسلوب في التبليغ قويم .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون في حديثك العادي مع الناس ممن يعرفون طبائعهم ، ويقدّرونهم قدرهم ، ويعطونهم من التوجيه والأفكار ما يُصلح حالهم . إن أردت أن تكون من الدعاة الموفقين ، والمتحدّثين الأقوياء المرموقين .

* * *

2 - الداعية مدرسًا

الدرس الدعوي في الحقيقة يختلف كل الاختلاف عن حديث الداعية العادي من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون :

أما أنه يختلف عنه من حيث الشكل ، فإن الحديث العادي – كما أسلفنا – يعتمد على الارتجال ، وعنصر المفاجأة ، والثقافة .. أما الدرس الدعوي العام فإنه يعتمد على التحضير ، والرجوع إلى المصادر ، والتهيئة المركّزة المسبقة ..

أما أنه يختلف عنه من حيث المضمون فإن الموضوع الذي يتطرّق إليه الداعية في الحديث العادي يكون على حسب مقتضى الحال ، أو على حسب ما يجرّ إليه المجلس من مناقشات وأفكار .. بينما المواضيع التي يطرقها في الدرس الدعوي العام فإنّها على الغالب تكون شرحًا لآية من القرآن الكريم ، أو لحديث من أحاديث الرسول ﷺ ، أو التركيز على قضايا معينة تتصل بمعاملات الناس ، أو معالجة مشكلات سلوكية ونفسيّة ترتبط بأخلاقيّة الشباب والشابّات ، والأزواج والزوجات ، والآباء والأبناء ..

ولكن على الداعية أن يلاحظ في الدرس الدعوي العام الأمور التالية :

أ – أن يكون تحضيره للآية ، أو للحديث ، أو لتقرير الموضوع ، أو لمعالجة المشكلة .. تحضيرًا مركّزًا ملموسًا ، حتى يستشعر الحضور أنهم فعلًا يرتقون روحًا ، ويكتملون سلوكًا ، ويزدادون ثقافة ومعرفة ..

وبهذا يكون الحضور أكثر ملازمة له ، وأعظم إقبالا عليه ، وأقوى تعلقًا به .

ب – أن يعتمد على الارتجال في إلقاء درسه ، ولا بأس أن يصحب معه مذكّرة تكون بجانبه ، يستعين بها في تسلسل الأفكار ، وضبط الآيات ، واستحضار الشواهد ، إذا نسي شيئًا ، أو خانته الذاكرة .

ولاشك أن الارتجال هو أدعى لثقة الحضور به ، ومحبتهم له ، وتفاعلهم معه .. كما أنه من أعظم العوامل في استيعاب الداعية يقظة الحضور ، وتقديره مدى الاستفادة منه ، والانتباه إليه ..

ج – أن يهتم بالدقائق ، وإصلاح آفات النفوس ، وتقويم انحراف السلوك .. في كل ما يقرّره ، وما يستنتجه ، وما يعالجه .. ، لأن مهمة الداعية في الدرجة الأولى

تهذيبيّه وتربويّة .. قبل أن تكون ثقافيّة وتعليميّة ..

د – أن لا يخوض كثيرًا في فلسفة التشريع ، والتعليلات المنطقيّة لأحكام هذا الدين .. ؛ لأن أكثر أولئك الذين يحضرون حلقة الدرس هم من حضروا عن رغبة واختيار بدافع من إيمانهم ، ووحي من فطرتهم .. وبالتالي هم – على الأغلب – ممن صلحت أحوالهم ، وآمنوا بالإسلام على أنه نظام حكم ، ومنهج حياة .. فحاجتهم إلى الترقية في السلوك ، والاستزادة من المعرفة .. أكثر من حاجتهم إلى الإقناع العقلي ، والمنطق الفلسفي ، وأسرار التشريع .

هـ – والدرس العام في ذاته أكثر فائدة دعويّة ، وأحسن وسيلة تكوينيّة وتربوية من المحاضرة والخطبة والحديث المفاجئ العادي .. ذلك لأنه ميسور متحقّق في كل حين ، فبمجرد أن يجلس الداعية في النادي أو المسجد أو الجمعية .. يتحلّق حوله من يريد العلم ، ويرغب في التوجيه والتربية .. وفي الوقت نفسه يُنشئ بينه وبين مستمعيه صلات روحيّة ، وروابط دعويّة ، وعلاقات أخويّة .. لقلّه العدد ، وتكرار الدرس ، وطواعيّة الحضور ، واستيعاب التعارف .. وبالتالي يستطيع أن يكيّف درسه بما يتفق مع حاجة الموجودين ، ويتلاءم مع عقليّتهم وثقافتهم ، ويحقق الخير والمصلحة لهم ..

واريد في هذا المجال ان انبه إلى امر آخر :

لا يكفي الداعية أن يكون ذا يقظة تامة في تقرير درسه ، وعرض أفكاره ، وسرد شواهده .. بل عليه أن ينتبه إلى يقظة سامعيه هل هم مقبلون عليه ؟ وهل هم متفاعلون معه ؟ فإذا عرف أن اليقظة ضعيفة ، والانتباه معدوم ، والسأم مخيّم .. فعليه أن يثير شعورهم بقصة ، أو يذهب سأمهم بطرفة ، أو يحرك اهتماهم بمثل ..

وإليك هذا النموذج من سيد الدعاة ﷺ : حدَّث سلمان الفارسي – رضي اللّه عنه – قال : كنت مع رسول اللّه ﷺ تحت شجرة ، فأخذ منها غصنًا يابسًا ، فهزّه حتى تحاتّ ورقه (أي سقط) فقال ﷺ : « يا سلمان : ألا تسألني لِمَ أفعل هذا ؟ » قلت : لِمَ تفعله ؟ قال : « إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتَّت خطاياه ، كما تحاتّ هذا الورق » ، وقرأ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [1] .

(1) سورة هود الآية : 114 وانظر مجمع الزوائد (1 / 297) .

بعد هذا الفعل من رسول الله ﷺ كانت نفس سلمان أكثر تنبّهًا وتقبّلا ، وأعظم حيوية وانشراحًا .. بما مازجها من أنوار الآية وحُسْن توجيهها ، ومن روعة التمثيل ، وجمال أدائه ..

فعلى الدعاة أن يتأسّوا بنبيهم ﷺ في إثارة الاهتمام ، وتنبيه يقظه الشعور لدى الحضور حتى لا يدركهم الملل ، ولا تنتابهم الغفلة ، ولا تخمد في أعماقهم أحاسيس الشعور ..

ومما يثير الانتباه لدى السامعين ، ويحرّك فيهم كوامن اليقظة والاهتمام : تشويقهم إلى أمر مهمّ قد يجدون فيه عجبًا واستغرابًا باديءَ ذي بدء .

وإليك هذا النموذج المشوّق العجيب سأل أحد الدعاة سامعيه هذا السؤال : من منكم يحبّ أن يستوطن الجنة وهو في الدنيا ؟ فكلهم استغربوا هذا السؤال وعجبوا منه ، لعلمهم أن الجنة هي موعد المتقين في الآخر فكيف يستوطنونها في الدنيا ؟

ولما رأى الداعية عجبهم واستغرابهم انتهزها فرصة ليوجّههم إلى ما يريد فمما قاله لهم : إن أردتم رياض الجنة والتنعّم فيها في الدنيا فعليكم بالتزام مجالس العلم ، ثم استشهد بقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا رأيتم رياض الجنّة فارتعوا » ، قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : « حِلَق العلم » [1] .

وقد ينقدح في ذهن الداعية الحصيف وسيلة أخرى من وسائل التشويق في إثارة انتباه السامعين ، وتحريك كوامن استشرافهم ويقظتهم ، فيؤديها خير أداء حين يجد الحاجة الماسّة لها ، ولفت أنظار السامعين إليها ..

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن الداعية لا يصل إلى قمة التوفيق ، وذروة النجاح في دروسه الخاصة والعامة إلا أن يأخذ بأصول التدريس الدعوي ، ومبادئ الأسلوب التبليغي .. إن أراد أن يكون له في الأمة أثر ، وفي مجال الإصلاح تغيير ، وفي إعداد الدعاة قدوة ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تسير على نهجها وتأخذ بأحسنها ، والله يتولّى العاملين المخلصين .

3 - الداعية خطيبا :

إن من العوامل الكبرى التي تُبرز شخصيّة الداعية في الأمة ، وتجعله محل ثقة

(1) سنن الترمذي (3509) ، وانظر الترغيب والترهيب (1 / 112) .

ومحبة ، وإعجاب وتقدير .. إينما ذهب ، وحيثما حلّ .. هي شهرته كخطيب مخلص صادق اللهجة يُتقن فنون القول ، ويحسن تصريف الكلام ، ويهزّ المنابر إذا علاها ويحرّك أوتار القلوب إذا خاطبها ، ويثير مشاعر النفوس إذا ذكّرها .. ويحمل كل من يستمع إليه إلى أن يذعن للحق إذعانًا ، ويسلّم به تسليمًا ..

ولكن ما هي الطرق التي يسلكها لتجعل منه الخطيب الناجح ، والداعية البليغ الموفق ؟

لاشك أن الخطابة منصب خطير ، ومرتقى صعب المنال لا يصل إليها طالبها بسهولة ويسر ، بل يحتاج من يبتغيها إلى زاد عظيم ، وصبر طويل ، ومعاناة مستمرة ، وممارسة دائمة .. ليصل في نهاية المطاف إلى الغاية السامية ، والهدف المنشود .

الطرق التي تؤدي إلى الخطابة هي ما يلي :

1 - فطرة مواتية وسليقة ملائمة :

وذلك أن يكون الخطيب خاليًا من العيوب الكلامية وقد سبق ذكرها ، وأن يكون فصيحًا ، طلق اللسان ، ثابت الجنان ، جهوريّ الصوت .. وأن يكون ذا قلب ذكيّ قويّ ، وعقل ناضج ألمعيّ ، ونفس مؤمنة متوثّبة ، ولسان عربيّ مبين ، وبديهة حاضرة مستيقظة ، وفراسة صائبة مدركة ، ونظرات فاحصة نافذة ..

ومثل هذا لا يحتاج إلا إلى التعليم والممارسة ، وتنمية جوانب الفطرة والسليقة ليكون بعد قليل من الخطباء المرموقين ، والدعاة المعدودين .

نعم كثير مما ذكرناه يأتي عن طريق الاكتساب والممارسة في حق غير الفطريين .. ولكن الأمر يحتاج إلى متابعة دائمة ، وجهد مستمر ، وصبر متواصل طويل وكما قالوا : (العلم بالتعلّم ، والأخلاق بالتخلّق ، والنبوغ صبر طويل) .

أما من فُطِر على الفصاحة ، وطُبع على طلاقة اللسان ، وأُوتي منذ أن خُلِقَ ذكاءً وفراسة وحضور بديهة .. فلا يحتاج إلى كثير فنّ ، ولا إلى متابعة وممارسة لفطرته الأصيلة ، وموهبته الفائقة ..

2 - دراسة أصول الخطابة :

للخطابة أصول ينبغي على الداعية أن يراعيها إن أراد أن يكون خطيبًا مفوّهًا ، وداعية مؤثرًا بليغًا .. **وإليك أهم أصولها :**

أ – أن يختار الموضوع الذي يريد أن يخطب فيه ، وأن يقوم على تحضيره قيامًا

متقنًا مستوعبًا ، وسبق أن ذكرنا في بحث « منهج الداعية في التهيئة والتحضير » الأصول التي ينبغي أن ينتهجها الداعية في الخطبة والمحاضرة والدرس .. فارجع إليها – أخي الداعية – تجد فيها أمنيتك الكافية إن شاء اللّه .

ب – المواقف الخطابية أيًا كان نوعها ، فإنها تعتمد على الارتجال ، إذ القدرة على الارتجال هي من ألزم الصفات في تكوين الداعية الخطيب ، بل لا يكون للداعية أي تأثير في الناس ، ولا أيّة مكانة عندهم .. حتى يسمعوه خطيبًا مرتجلًا منفعلًا كأنه مُنذر جيش . يهزّ بصوته الجهوريّ أعواد المنابر ، ويحرك بصدق لهجته ، وحنان صوته .. أوتار القلوب .

وسبق أن تكلمنا تفصيلًا عن أهم الخطوات التي يخطوها الداعية في التعوّد على الارتجال ، فارجع إليها – أخي الداعية – تجد فيها ما يبلّ الصّدى إن شاء اللّه .

ج – على الداعية الخطيب أن يكون عالمًا بالبواعث التي تثير انتباه الجمهور إليه ، حتى إذا قام على تنفيذها وتطبيقها أصبح للخطبة فاعليتها في الحيويّة ، وهيمنتها في التأثير .. وسبق أن تكلمنا في بحث مضى عن أهمّ البواعث التي تثير الانتباه في الجمهور ، فارجع إليها – أخي الداعية – تجد فيها ما يحقق الغرض إن شاء اللّه .

د – على الداعية الخطيب أن يكون متّصفًا في الموقف الخطابي الذي يقف فيه بصفات أساسية من قوة الملاحظة ، ورباطة الجأش ، والقدرة على مراعاة مقتضى الحال ، وقوة نفوذ الشخصية ، وسرعة حضور البديهة .. وهذه الصفات هي مناط القدرة لمن يريد التأثير في الناس ، وإصلاح المجتمعات البشرية من الانحراف ..

وسبق أن ذكرنا – أخي الداعية – أهم الصفات التي تجعل من الداعية خطيبًا مفوّهًا ، ومحاضرًا موفّقًا ، ومدرّسًا ناجحًا .. فارجع إليها تجد فيها ما يوصلك إلى الهدف إن شاء اللّه .

هـ – على الداعية الخطيب أن يُدرك جيدًا أن أسلوب الخطبة يغلب عليه إثارة العاطفة ، وتحريك المشاعر ، وإذكاء نار الحماس في الجمهور ..

وهذا لا يتأتّى إلا أن يظهر الخطيب بظواهر الانفعال والحماس ، وأن يستشهد بالقصص التاريخية المشوّقة المؤثرة ، وأن يعلّق على الأحداث اليوميّة المتجدّدة ، وأن يُكثر من المترادفات ، وعبارات الإطناب ، وصور التمثيل .. ، وأن ينتهج أسلوب

الحوار والاستجواب ... وإن لا .. فإن الخطبة تأتي جافّة ، والعواطف تبقى خامدة ، والتأثير يكون ضعيفًا ..

و – على الداعية الخطيب أن لا يسير في خطبته ، وفي نبرات لهجته وصوته على وتيرة واحدة ، إنما عليه أن يرفع صوته في موضع الانفعال والحماس ، وأن يُخَفّض منه في موطن التعليل والاستشهاد ؛ كما عليه أن يقف قليلًا بعد فواصل الجُمل ، وسرد الشواهد ، وبعد الأسئلة الاستجوابية التي يطرحها على الجمهور ..

ففي هذا التلوّن في رفع الصوت وانخفاضه ، وفي هذا التنوّع من التوقّف النسبي إلى الاسترسال .. راحة للخطيب ، وتشويق للجمهور ، وإحكام لفنّ أصول الخطابة والكلام .

ز – على الداعية الخطيب إذا أراد أن يعلّق في خطبته على كلمة لغويّة ، أو قصة تاريخيّة ، أو حادثة واقعيّة .. فعليه أن لا يستطرد كثيرًا في التعليق ؛ حتى لا يخرج عن معالجة الموضوع الذي هو بصدده ، وحتى لا يتشتّت السامع بين الموضوع ، وطول التعليق ، وكثرة الاستطراد ..

وأحيانًا قد ينسى الخطيب الموضوع الذي بدأ به ؛ لكثرة استطراداته ، وطول تعليقاته .. وهذا مما يُسيء إلى سمعة الخطيب ، ويقلّل من شأنه ، ويسقط من اعتباره .

ح – على الداعية الخطيب أن ينهي موضوعه بخاتمة يلخص فيها كل ما استعرضه من عناصر وأفكار ، وما أتى به من شواهد وأدلّة .. ولا يخفى ما في هذا التلخيص من تثبيت للمعلومات ، وترسيخ للأفكار ، وحصيلة مستوعبة للموضوع .

ط – وأخيرًا على الداعية الخطيب أن يتقيّد بكل ما ذكرناه في العموميات والضوابط في تبيان أصول التحدث ، وفن الكلام ، ولا سيما التكلم بالفصحى ، والمخاطبة على قدر الفهم ، والاقتصاد في الموعظة ، والإقبال على السامعين جميعًا .. إلى آخر ما ذُكِر .

ففي تقيده بهذه العموميات التي سبق ذكرها في ابتداء هذا الفصل تجعل منه خطيبًا مُبدعًا ، وداعية مفوّها ، ومحدثًا موفقًا ناجحًا .. يكون له في مجال الدعوة أثر ، وفي إعداد الخطباء قدوة ، وفي ميدان الإصلاح تغيير وأيّ تغيير ...

3 - الإكثار من قراءة كلام البلغاء :

سبق أن ألمحنا في هذا الفصل في بحث « كيف يتمرّس الداعية على الارتجال ؟ »

أن على الداعية أن يكثر من مطالعة الكتب الفكريّة والأدبيّة ذات الأسلوب المبدع ، والبيان الرائع ؛ ليُنمي في نفسه ملكة التعبير ، وقوة الارتجال ، وهذا حق مما لا يختلف فيه اثنان .

وأريد في هذا المجال أن أنبّه إلى أمر آخر : إن الدارس لكلام البلغاء ، والمطّلع على أقوال الفصحاء .. يتعرّف على مناحي التأثير ، وأسرار البلاغة ، وأساليب الفصاحة ، في نثرهم ، وشعرهم ، وخُطبهم ، وأدبهم .. ويتذوّق أيضًا ما فيها من جمال الأسلوب ، وروعة التعبير ، وجودة التفكير .. وهذا مما يصقل في الداعية قريحة الذوق الأدبي ، ويُنمي فيه ملكة التعبير ويجعل منه متحدثًا بليغًا ، وخطيبًا فصيحًا ، وواعظًا فطنًا مؤثّرًا ..

وفي هذا المقام يقول « ابن الأثير » في كتابه « المثل السائر » : « إن في الاطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمّة ؛ لأنه يُعلم منه أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم ، ويُعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك ؛ فإن هذه الأشياء مما تُشحذ القريحة ، وتُغذي الفطنة .. وإذا كان مطّلعًا على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يُسبق إليه .. فقراءة كلام البلغاء تقدّم للقارئ أرسالا من المعاني والأساليب ينال منه بيسر وسهولة من غير معاناة ولا كدّ ذهن »[1] .

فأكْثِر – أخي الداعية – من مطالعة كلام البلغاء ، وأساليب الفصحاء .. لتنحوَ نحوهم في البلاغة ، وتنهج نهجهم بالفصاحة ، ويصبح الكلام البليغ الفصيح عندك ملكة وسليقة ، فباستطاعتك بعدها أن تُفيد ، وبمقدرتك أن تُصلح .. إذا نزلت ميادين الخطابة ، ووقفت مواقف الدعوة والتبليغ والهداية .

4 - الاطلاع على العلوم والتزوّد بالألفاظ والتراكيب :

أما الاطّلاع على العموم فعلى الداعية أن يكون ملمًّا بعلم النفس ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والأديان ، والتاريخ .. فضلًا عن علوم الشرع ، وأنظمة الإسلام .. فإن الاطلاع عليها ينمّي فكره ، ويوسّع مداركه ، ويقوي حجته ، ويجعله قويًّا أمام خصمه ، وبصيرًا في أداء مهمته ، ويضع أمامه المصباح الذي يهديه إلى أفضل طريق ، وأسمى غاية .

---

(1) من كتاب « الخطابة » للشيخ أبو زهرة ص : 23 .

وسبق أن ذكرنا في فصل « ثقافة الداعية » ما فيه الكفاية في تكوين الداعية الثقافي فارجع إليه - أخي الداعية - تجد فيه إن شاء اللّه ما يشفي الغليل .

وأما التزوّد بثروة الألفاظ والتراكيب فعلى الداعية أن يحفظ كثيرًا من الخطب القديمة والحديثة ممن عُرِف أصحابها بالبلاغة والبيان ، واشتُهر أصحابها باللّسَن والفصاحة .. وعلى رأسهم أفصح من نطق بالضّاد الرسول [1] صلوات اللّه وسلامه عليه .. لأن الخطابة تحتاج إلى تعابير كثيرة ، وأساليب متعدّدة بليغة ، والخطيب يحتاج إلى أن يعبّر عن المعنى الواحد بعدة عبارات ، وأساليب متغايرة ..

ولا يمدّ الخطيب بالعبارات المتغايرة المتحدة المعنى إلا ثروة في الألفاظ والأساليب ، وحفظ الكثير من أقوال المتقدمين والمتأخرين ، واستيلاء تام على نواحي البيان ، وزمام الفصاحة والبلاغة .

فتزوّد - أخي الداعية - بثقافة العلوم الشرعية والعصريّة المتنوعة ، وأكْثِر من حفظ الألفاظ المترادفة ، والعبارات الفصيحة ، والتراكيب البليغة ، والخطب المشهورة .. لتصل بإذن اللّه وفضله إلى مرتبة الخطباء المعدودين ، والمرتجلين المرموقين .

5 - ضبط النفس وإحتمال المكاره :

إن الدعوة إلى اللّه عز وجل مرتقى صعب ، ومنصب خطير .. إذ قد تعترض الخطيب الداعية مفاجآت غير متوقّعة ، وتهبّ عليه زوابع ليست بالحسبان ، وقد يقابل في بعض الأحيان بالهزء والسخرية ، وقد يكون المخاطبون ممن يتتبّعون عثراته ، ويتسقّطون هفواته ، وكلّهم عليه رقيب عتيد ، لا يتورّعون عن مجابهته ومخاصمته ، ولا يتّقون اللّه في اتهامه والوشاية عليه ..

فإذا لم يتذرّع الخطيب بالصبر ، وضبط النفس ، والسيطرة على أعصابه ومشاعره .. فإنه لن يستطيع السير إلى غايته ، ولن يؤدّي حَقّ الدعوة في تبليغها ، ولا حقّ الأمة في نصحها وإرشادها ، بل يسقط مع مَنْ سقطوا في أول الطريق .

من أجل هذا وجب على الداعية الخطيب أنْ يروّض نفسه على الصبر والحلم ، وأن يعوّدها على المكاره ، وضبط الأعصاب عند الغضب ، كما عليه أن يحارب من

---

(1) من أحسن ما جُمِعَ في هذا الباب كتاب « خطب المصطفى ﷺ » للأستاذ محمد خليل الخطيب ، وأحسن ما جُمِعَ في الخطب القديمة المتنوعة لكبار البلغاء في الجاهلية والإسلام هو ما جمعه الشيخ أبو زهرة في كتابه « الخطابة » .

أحاسيسه كل مظاهر الاضطراب والانفعال والوجل .. ؛ لأن ظاهرة الاضطراب والوجل تورث في الخطيب الحيرة ، والحيرة تُسبّب له التلعثم والارتباك ، وإذا ظهر الخطيب أمام الحضور بهذا المظهر الحائر يضعف أثره ، وتسقط مهابته ، وتتحطّم شخصيته ، ويصبح إنسانًا عاديًا لا وزن ولا اعتبار له في مصاف الدعاة .

وسبق أن تكلمنا في فصل « **صفات الداعية النفسية** » عن « **إيمان الداعية ، وصبر الداعية** .. فارجع إليها – عزيزي القارئ – تجد إن شاء اللّه ما يثلج قلبك في تحلّي الداعية بالإيمان الراسخ ، والصبر الجميل .

فاجتهد – أخي الداعية – على أن تتربّى على الصبر والمصابرة ، وأن تتروض على ضبط الأعصاب ، واحتمال المكاره .. حتى إذا فاجأتك الأحداث ، وهبّت عليك الزوابع .. قابلتها بنفس مؤمنة وقلب راسخ ، وثغر بسّام .

6 - الارتياض والممارسة :

إن الفطرة ، والاطلاع ، وثروة الألفاظ ، والقراءة الكثيرة ، وحفظ الخطب القديمة والحديثة ، والعلم بأصول الخطابة .. هذه الوسائل التي سبق ذِكْرُها لا تكفي حقيقةً في تكوين الخطيب الداعية ؛ لأن الخطابة ملكة واكتساب بالعادة ، لا تأتي دفعة واحدة ، بل لابد لمريدها من المعاناة والممارسة والمران ..

ورياضة النفس على الخطابة تكون :

بالارتياض على الفكرة

والارتياض على الأسلوب

والارتياض على الإلقاء

● **أما الارتياض على الفكرة** : فهو تعويد النفس على ضبط الأفكار ، ووزن الآراء ، وتصنيف العناصر ، وعقد الصلة بينها وبين ما يجري في المجتمع من قضايا ومشكلات ..

ومن الترويض على الفكرة تعويد النفس أيضًا على الاتصال بفئات البشر ، والاندماج معها ، والتعرّف على أحوالها ، ليحسّ الداعية بإحساسها ، ويفرح لفرحها ، ويألم لألمها .. فعندئذ يستطيع أن يعطيها من أفكار التوجيه ، وآراء الإصلاح ، وأسباب الهداية .. حين يقف في نواديها خطيبًا ، وفي مجتمعاتها مصلحًا ومرشدًا ..

● **أما الارتياض على الأسلوب** : فهو المران على التحدّث ببليغ المقال ، وفصيح الكلام .. وهذا لا يتأتّى بادئ ذي بدء إلا أن يحفظ الداعية ما اقتبسه من آي القرآن ، وتعابير السنّة ، وعبارات البلغاء قديمًا وحديثًا .. حتى إذا وقف خطيبًا في الناس ضمّن خطبته هذه التعابير التي حفظها ، والعبارات التي اقتبسها ، والآيات التي استظهرها ..

ويكرّر هذه العمليّة مرارًا حتى يستشعر أن أسلوبه قد تحسن ، وتعبيره قد ارتقى ..

وينبغي أن لا يغرب عن البال أن مثابرة الداعية على مطالعة الكتب الفكريّة والأدبية .. **عامل آخر** على ارتقاء أسلوبه ، وجودة تعبيره ، وتهذيب منطقه ..

كما أن محاكاته لكبار الخطباء البارزين في أسلوبهم الخطابي ، ومنطقهم التعبيري والبياني .. **عامل ثالث** في تحسين التعبير ، وارتقاء الأسلوب ..

كما أن الاستمرار على تلاوة القرآن الكريم بتأمّل وتدبّر .. **عامل رابع** في جودة التعبير والأسلوب .. ؛ لكون القرآن العظيم آية في النظم البياني ، ومعجزة في الأسلوب البلاغي .. عجز البشر عن الإتيان بمثله ولو بسورة .

● **أما الارتياض على الإلقاء** : **فيبدأ بتعويد** اللسان عند النطق على إخراج الحروف من مخارجها ، **ثم بقراءة كل ما يستحسنه** بصوت مرتفع ، ولهجة متّزنة ، مصوّرًا بصوته معاني ما يقرأ بتغيير النّبرات ، وبرفع الصوت وخفضه كأنه أمام جمهور ينظرون إليه ، ويستمعون منه .

ثم بإلقاء الموضوع بينه وبين نفسه في مكان خالٍ بعد أن يصطحب معه آلة التسجيل ، متصورًا أيضًا أنه أمام جمهور ينظرون إليه ، ويستمعون منه ..

ثم بإلقاء الموضوع أمام من يثق به من إخوانه .. ليقدّموا له النصح ، ويعطوه الملاحظات ..

ثم بإلقاء الموضوع في محيط لا يعرفه فيه أحد غير هيّاب ولا وجل ولا مستحي .. فإن ظاهرة الخوف والاستحياء نوع من ضعف الشخصيّة ، وهو يقتل الموهبة ، ويجرّ إلى الارتباك أو الحُبْسة في النطق أحيانًا .

وهكذا يتدرّج الداعية في إلقاء الموضوع خطابيًّا من الأدنى إلى الأعلى .. حتى تصبح الخطابة في حقّه سليقة وملكة ، بل إن تدرّج على هذه المراحل ، وسلك منهجيّة المراس .. فسوف يصبح بتوفيق اللّه من كبار المتكلمين المرموقين ، والخطباء المعدودين ..

فاجتهد – أخي الداعية – على أن تروّض نفسك على الفكرة ، وأن تمرّنها على

الأسلوب ، وأن تعوِّدها على الإلقاء .. ليكون لك في مجال الدعوة شأن ، وفي ميدان التبليغ تأثير ، وفي صفّ الدعاة ذكر .. واللّه يتولّى العاملين المخلصين .

فهل عرفت – أخي الداعية – الطرق العمليّة التي تجعل منك خطيبًا مفوّهًا ؟

ففطرتك السليمة ، وسليقتك الملائمة .. تدفع بك خطوات سريعة نحو الهدف المنشود .

ودراستك أصول الخطابة وفنها .. تسوقك دائمًا نحو الكمال الأفضل .

وإكثارك من قراءة كلام البلغاء يشحذ فيك الفطنة ، ويغذّي في فكرك القريحة ..

وبضبتك النفس عند إثارتها تواجه كل حدث مفاجئ بأناة واتزان وحكمة ..

وباطلاعك على العلوم الكثيرة المتنوّعة .. تجعل منك شخصيّة دعوية محترمة محبوبة ..

وبتزوّدك بثروة الألفاظ البليغة ، والتراكيب الفصيحة .. تزيّن خطبتك بجمال الأسلوب ، ورونق المنطق

وبترويضك على فكرة الموضوع ، وأسلوب الكلام ، وإلقاء الخطبة .. تجعل منك خطيبًا يشار إليه بالبنان ، وداعية برع في فنّ القول وتصريف الكلام ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تسلك في التكوين الخطابي هذه المسالك ، وتتمرّن على هذه المواقف ، وتتروّض على هذه الوسائل .. لنراك دائمًا إن شاء اللّه في صفّ الدعاة المخلصين ، واللّه سبحانه لن يضيع أجر العاملين الصادقين إذا أخلصوا النية للّه ، وعقدوا العزم على متابعة المسيرة في طريق الدعوة .. ليصلوا في نهاية الشوط بتوفيق اللّه إلى بناء التاريخ ، وإقامة الأمجاد ، وتحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة .. وما ذلك على اللّه بعزيز

* * *

4 - الداعية محاضرًا :

من المواقف الهامة التي يقفها الداعية ، ويتعرّض لها ، ويحسب حسابها ، ويأخذ أهبته منها .. موقف المحاضرة ، فإن لم يكن مستعدًّا لها ، وعالمًا بفنّها وأصولها ، ومتمرّسًا على إلقائها ومواقفها ..

فسوف يتعرّض للنقد ، ويصطدم مع الواقع ، وربما تسبّب له سوء الطالع والارتباك .. أن يتوارى عن أعين القوم ، وينهزم من ميادين الدعوة ، ويقعد مع القاعدين الخائرين ..

فعلى الداعية إذن أن يتعرف على طبيعة المحاضرة وأصولها ، وأن يمارس فنّ تحضيرها وإلقائها ، وأن يكون مستعدًّا كل الاستعداد لها .. حتى إذا وقف في الناس يدعوهم إلى مكرمة ، أو يعالج لهم مشكلة .. أعطى المثل الأعلى في حسن التحضير ، وجمال الإلقاء ، ومراعاة المواقف ..

ولكن ما هي أهم الأصول التي تجعل من الداعية محاضرًا موفقًا ؟

أ – **حسن الاختيار** : على الداعية حين يُدعى إلى إلقاء محاضرة في مكان ما .. أن يختار الموضوع من صميم ما تجري به الحياة ، وهذا يستلزم من الداعية أن يكون متصلا بدنيا الناس ، منفعلا بما يجري فيها من خير وشر ، وحلو ومرّ ، وحق وباطل ، ومعروف ومنكر .. فما كان من صالح دعا إليه ، وحض على التمسك به .. وما كان من فاسد تصدّى له ، وأخذ في علاجه بالحكمة والموعظة الحسنة ..

وحين يحسن الداعية اختيار موضوعه يجعله أقرب إلى قلوب المستمعين ، وأملك لزمام انتباههم ويقظتهم وعواطفهم .

ومن الطبيعي أن الموضوع المختار الذي يوحيه محيط كبار أصحاب الأعمال ، غير الموضوع الذي يوحيه محيط طبقات العمال .. ومن البداهة أن الموضوع الذي يُمليه محيط الطلاب والمثقفين ، غير الموضوع الذي يمليه محيط العوامّ والناس العاديين ..

وهكذا الداعية يعطي لكل بيئة من الناس حقها في اختيار الموضوع .. ؛ لأنه هو الذي يقف على أحوالهم ، ويعالج مشاكلهم ، ويصغي إلى شكواهم ، ويأخذ بأيديهم نحو الكمال .

ب – **إحكام التحضير** : على الداعية قبل إلقاء محاضرته أن يدرس الموضوع دراسة وافية شاملة ، محلّلا إياه إلى عناصر بارزة رئيسيّة ، وخطوات واضحة المعالم مرتّبة ترتيبًا منطقيًّا منسجمًا .. حتى يستطيع أن ينتقل بالسامع من حلقة إلى أخرى ، ويفضي في النهاية إلى خاتمة تلخص له كل الأفكار التي أحاط في محاضرته بها ، وتوسّع فيها ..

فإذا فعلتَ ذلك – أخي الداعية – أقنعت سامعك بما تريد ، ورسّخت في ذهنه زبدة الموضوع ، ومغزى المحاضرة ، وانفضّ من المجلس وهو مؤمن مقتنع ، ولم يبق عليه سوى التطبيق والتنفيذ ، وأما الكلام المرسل بغير نظام ، والسائب من غير تركيز .. فثمرته غير مرجوّة ، وخيره غير متحقق .

ج – **استحضار الشواهد** : على الداعية أن يستحضر لكل عنصر ما يؤيده من

كتاب اللّه سبحانه ، ومن سنّة رسول اللّه ﷺ وسيرته العطرة ، كما عليه أن يستحضر أخبار الرعيل الأول ومن تبعهم بإحسان عبر التاريخ ، كما عليه أيضًا أن يستحضر أحداث ما يقرؤه ، أو يسمعه ، أو يشاهده في عالم الواقع .. يستحضر كل هذا ؛ لدعم الموضوع الذي هو بصدده بالحجة ، ومزجه بالنشاط والحيوية ، وصبغه بروح التفاعل والتشويق .

ولكن عليه قبل إلقاء المحاضرة أن يضبط النصوص ، ولا سيما الآيات القرآنية ، وإذا احتاج أن يستحضرها مكتوبة فليفعل ؛ حتى لا يقع عند الاستشهاد بها في الارتباك والخجل إذا خانته الذاكرة أو تفاجأ بحدث ليس بالحسبان ..

وكم يعيب الداعية حين يستشهد بآية قرآنية مثلاً وقد أخطأ فيها ، أو تلعثم عند قراءتها ، أو لحن في تلاوتها ، أو نسي الاستشهاد بها ؟ وهذا - ولاشك - مما يضعف الثقة في الداعية حين تتكرّر منه عمليّة الخطأ ، وظاهرة التلعثم واللّحن !!.

د - المزج بين الموضوعية والعاطفة : على الداعية أن يعلم أن المحاضرة التي يلقيها على الجمهور غير المحاضرة التي يلقيها أستاذ الجامعة .

فأستاذ الجامعة حين يلقي محاضرته ، ويربط موضوعه بموضوع اختصاصه ، فإذا كان اختصاصه في الطب مثلا .. فيكون كلامه عن الطب موضوعيًا أكاديميًا مرتبطًا بالمحسوس ، قائمًا على المشاهدة والتجربة ، متمشيًا مع مقرّرات المنهج ، مستوعبًا جزئيات الموضوع وتفصيلاته ..

أما محاضرة أستاذ الدعوة فإنها تختلف تمامًا ، فأستاذ الدعوة هو مصلح ومرشد بالدرجة الأولى ، وإذا كان كذلك فإنه يركّز على معالجة آفات النفوس والقلوب ، وعلى تربية الأفراد والأسَر والشعوب ... وهذا يترتب عليه أن لا يغوص في الجزئيات والتفصيلات كثيرًا ، وإنما يكتفي بعد الإحاطة بمادّة الموضوع بالأحكام العامة ، والقواعد الكليّة ، واللطائف القرآنية ، والإرشادات النبوية .. حرصًا على هداية الناس وإصلاحهم ، واستمرار انتباههم ونشاطهم ..

هذا عدا عن ربط المحاضرة لأستاذ الدعوة بالعقيدة الربانية ، وعالميّة الدعوة ، وشموليّة الإسلام ، وقواعد الحلال والحرام ، ومبدأ الثواب والعقاب ، وآصرة السلوك والأخلاق .

ويستطيع أستاذ الجامعة إن كان مؤمنًا .. أن يربط محاضرته العلمية الأكاديمية بالعقيدة الربانية ، ويكشف للطلبة عن إبداع الخالق ، وآثار قدرته المعجزة مما يستخلصه من ظواهر الكون والحياة والإنسان .

على الداعية إذن – بعد الذي سردناه – أن لا يقتصر في محاضراته على الأسلوب العلمي الأكاديمي الموضوعي البحت .. ؛ لكونه جافًّا في طبعه ، ومملًّا في ذاته .. وإنما عليه أن يمزج فيما يحاضر فيه بين الموضوعية والعاطفة ، وأن يجمع بين قناعة الفكر واستثارة الوجدان .. بل عليه على العموم أن يخاطب الروح والعقل في آن واحد .

كما عليه أن لا ينسى أنه في جوّ محاضرة ، لا في جوّ خطبة .. وإذا كان الأمر كذلك فعليه حين يحاضر أن لا يتحمّس كل الحماس ، وأن لا يرفع صوته فوق المعتاد ، وأن لا يسير على وتيرة واحدة في إلهاب العواطف ، وتحريك الوجدان .. ؛ لأن هذا كله من طبيعة الخطبة والخطيب .. بل عليه – كما أسلفنا – أن يعطي للعقل حقّه من القناعة ، وللعاطفة حقها من الإحساس ، وللمستمع حقه من الإعداد والتربية .

فبهذه المعاني ، وهاتيك المواصفات .. يكون الداعية محاضرًا موفقًا ، ومتكلمًا ناجحًا بارعًا ..

هـ – ربط المحاضرة بالهدف : على الداعية حين يحاضر أن يرتبط موضوعه بهدف سامٍ يحقق للجيل الحاضر هدايته ، وللشباب المسلم إسلاميّته ، وللأمة المحمّدية عزتها .. وفي هذا المجال تظهر للعيان براعة المحاضر ، وحصافة الداعية .. في توجيه محاضرته نحو الهدف المنشود ، وتصريف أفكارها نحو الغاية المرجوّة .. حتى المواضيع التي تعتبر من ترف الحياة ، فيستطيع الداعية الموفق أن يحوّلها بلباقته ونباهته إلى هدف نبيل يخدم هداية الإنسان ، ويوضح مبادئ الإسلام ، ويأخذ بيد الشباب نحو العزة والكرامة ..

ولنضرب على ذلك مثلا : قد يُكلّف الداعية من قبل هيئة ثقافية معنيّة أن يحاضر في موضوع قد يراه الناس تافهًا لا وزن له ، فليكن الموضوع الذي كُلِّف فيه يدور حول « **الترفيه والفراغ** » قد يتبادر للذهن من أول وهلة أن الموضوع تافه ، وأنّه من الترف الفكري ، وأنه من المواضيع التي لا تستحقّ بحثًا ، ولا تستأهل محاضرة .

ولكن لو تعمّقنا في الأمر لرأينا المفهوم غير هذا .. بل في استطاعة المحاضر النبيه

الذكيّ الحاذق أن يلبّي الدعوة ، وأن يحوّل الموضوع من لا هدف .. إلى هدف ، ومن ترف فكري إلى نفع عام ، ومن تسيُّب في المفاهيم إلى تقرير للمبادئ .. وهذا لا يقدر عليه إلا من أوتي علمًا ، ورزقه اللّه حصافةً وملكة وفهمًا .

كيف يكون ذلك ؟ يستطيع الداعية أن يبيّن لسامعيه قيمة الوقت وأهميته ، وأن الواجبات أكثر من الأوقات ، وأن الإنسان ما خُلِق في هذه الحياة عبثًا ، وإنما خُلِق لأداء رسالة ، وتبليغ أمانة ، وتحقيق غاية .. ثم يعرّج إلى أن الإسلام دين الواقع والحياة .. يعامل الناس على أنهم بشر لهم حظوظهم النفسيّة ، وأشواقهم القلبيّة ، وغرائزهم البشريّة .. فلم يفترض منهم أن يكون كل كلامهم ذكرًا ، وكل صمتهم فكرًا ، وكلّ تأمّلاتهم عبرة ، وكل فراغهم عبادة .. وإنما اعترف الإسلام بكل ما تتطلّبه الفطرة البشريّة من سرور وفرح ، ولعب ومرح ، ومزاح ومداعبة .. بشرط أن يكون ذلك في حدود ما شرعه اللّه ، وفي نطاق أدب الإسلام ..

وبعد هذا الدخول في الموضوع يسرد الداعية ألوانًا من الترفيه الحلال ، واللهو المباح **كمسابقة العَدْو ، والمصارعة ، واللعب بالسهام ، واللعب بالحراب ، والسباحة ، والرمي ، وركوب الخيل ، والصيد** .. وبعد سرد هذه الألوان ، والاستشهاد بأدلّتها .. يشرع الداعية في تبيان الهدف منها ، ولماذا شرعها الإسلام ؟ فلا يجد بدًّا إلا أن يقول : إن الهدف من هذه الوسائل الترفيهية هي تكوين المسلم جسميًا ، وإعداده جهاديًّا .. ليقوم في المستقبل بمسؤوليته الكبرى في دحر أعداء اللّه ، والدفاع عن أرض الإسلام ، ونشر دين اللّه في مجاهل الأرض ، وأصقاع المعمورة .. تنفيذًا لأمر اللّه سبحانه في الإعداد : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [1] ، واستجابة لندائه في الجهاد : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ .. ﴾ [2] إلى أن يقول : ﴿ .. ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

وبعد هذا الاستعراض يعرّج الداعية إلى ذكر مخططات أعداء الإسلام في إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق الإعلام ، والمسرح ، والسينما ، والبرامج الإذاعية والتلفزيونية ، ودور الملاهي ، وأوكار الدعارة . وصالات الرقص والفجور ..

---

(1) سورة الأنفال الآية : 60 . (2) سورة التوبة الآية : 38 . (3) سورة التوبة الآية : 41 .

وأن الهدف من هذا الإفساد انغماس جيل الإسلام في حمأة الميوعة والانحلال ، وصرفه عن الجبهات المرسومة للكفاح الإسلامي ، والجهاد في سبيل اللّه ..

وبعد سرد هذه الحقائق يختم الداعية محاضرته في التركيز على النية الصالحة ، وأنها - كما قرّر العلماء - تقلب العادة إلى عبادة .. فبمجرّد أن ينوي المسلم حين يأكل أو يشرب ، وينام ويستيقظ ويترفّه ويتنزّه ، ويسبح ، ويصارع ، ويسابق ، ويرمي ، ويلعب بالحراب ، ويصطاد ، وسائر الحظوظ الحيوية ، والمتع الجسديّة .. فبمجرد أن ينوي أنه يفعل ذلك بقصد الامتثال لأمر اللّه ، أو التعفُّف عن الحرام ، وإعداد نفسه للجهاد ، والأخذ بأسباب القوة في الحياة .. تنقلب هذه الأعمال الحيويّة التي قام بها إلى عمل صالح يقرّبه إلى اللّه زلفى ، وهذا معناه العبودية المخلصة للّه ، والسعي الدائم لنيل رضاه ، وهذا معنى قول علماء الشريعة : « **النية الصالحة تقلب العادة إلى عبادة** » .

هل عرفت - أخي الداعية - كيف تربط محاضرتك بهدف الإسلام ، وهداية الإنسان ، ودفع طموحات الجمهور نحو العزة وصناعة الأمجاد ؟ ..

إذا عرفت ذلك فقم بواجب التطبيق ، واحرص على التنفيذ ما استطعت إلى ذلك سبيلًا ؛ لكونك صاحب رسالة ، ورجل دعوة .. واللّه سبحانه يتولّى العاملين المخلصين .

و - **الاعتماد على الارتجال** : سبق أن ذكرنا أن محاضرة أستاذ الدعوة تختلف كل الاختلاف عن محاضرة أستاذ الجامعة .. وسبق أن بيّنا أن أستاذ الدعوة يركّز في جميع محاضراته على معالجة آفات النفوس ، وعلى تربية الأفراد والأسر والشعوب .. وأن المحاضرات التي يلقيها ، أو يكلّف بها .. يربطها مهما كانت تافهة وعاديّة بهدف الإسلام ، وإصلاح الإنسان ، وهداية الأمم ، والصبغة الربانية ..

فإذا كان الأمر كذلك فعليه أن يعتمد كلّ الاعتماد على الارتجال .. ليستطيع الإشراف بنظراته على السامعين ، فيحرّك اجتذابهم إليه ، ويشدّ أنظارهم إليه ، ويثير أشواقهم نحوه ، ويقوّي ثقتهم به ، ويقطع دابر الملل والسأم من نفوسهم ، ويستأصل ظاهرة الشّرود وتوارد الأفكار من عقولهم .. بل تكون شخصيّة المحاضر أقوى ، وتعلّق الجمهور به أعظم ، واستيعاب الحضور منه أشمل وأفضل ..

وإذا اضطر الداعية لأن يلقي المحاضرة مكتوبة على الورق لسبب من الأسباب .. فعليه في هذه الحال أن لا يديم النظر في محاضرته على الورق طويلا ، بل عليه أثناء

القراءة أن يبدأ بأول الجملة ونظره في القرطاس ، وينتهي منها ونظره إلى السامعين ، ويفعل هذا في كل جملة يلقيها ، وإذا استطاع أن يأتي بتعبير من عنده في توضيح ، أو يعتمد على ذاكرته في إيراد شاهد .. فليفعل .. من أجل أن يمنع من الجمهور سأمهم ، ويحرّك على الدوام انتباههم ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تمارس الارتجال في جميع محاضراتك وخطبك وإرشاداتك .. ليكون تأثيرك في الناس أقوى ، واتصالك بالسامعين أفضل ، وجذب الجمهور إليك أعظم .. والله يتولاك محاضرًا وخطيبًا ومرشدًا ..

ز – **الإقلال من الحركات** : على الداعية المحاضر أن يقلّل من حركاته وإشاراته أثناء إلقاء المحاضرة ، ولا يأتي بها إلا إذا دعت الحاجة إليها كأن يشير بأصابعه على عدد معّين في معرض تقسيم الأفكار ، أو تعداد العناصر ، أو يومئ بيده لتوضيح فكرة يريد تثبيتها في ذهن الجمهور .. ؛ لأن الإقلال من الحركات يدلّ على اتّزان المحاضر ، ورجاحة عقله ، وقوة شخصيته .. بل تكون المحاضرة أقرب إلى الكمال ، وأجدر بالاحترام والاهتمام .

وكم يعيب الداعية حين يقف في الناس محاضرًا وقد أقام الدنيا وأقعدها بجهوريّة صوته ، وقوة لهجته ، وثورة انفعاله ، وكثرة حركاته وإشاراته ؟!!.

وكم تسقط مهابة الداعية أمام الجمهور حين تكثر حركات جسمه ورأسه ويديه وهو على منبر المحاضرة ؟ كأنه يمثّل على خشبة مسرح ، أو يعطي الأوامر في جبهة حرب ..

ألا فليحذر الداعية في محاضراته هذه الانفعالات والحماس ، وهاتيك الحركات والإشارات .. التي تتنافى مع طبيعة المحاضرة وأصولها .. ليظهر أمام سامعيه أكثر هدوءًا ، وأكمل اتزانًا ، وأقوى شخصية .. وفي هذا نجاحه وتوفيقه في مجالات التبليغ والدعوة إلى الله . والله مع الذين اتقوا وكانوا محسنين .

ح – **الاستفتاح التشويقي** : على الداعية قبل أن يدخل في المحاضرة أن يُحدث بينه وبين الجمهور تشويقًا عاطفيًا يشدّهم إلى سماع محاضرته شدًّا ، ويدفعهم إلى أن ينجذبوا إليه قلبًا وعقلًا ، فإن مطالعة الجمهور بالدخول في الموضوع مباشرة تفاجئ مشاعره بأمر لم يتهيأ له ، والمشاعر الإنسانية بيوت مغلقة . وقد نهانا القرآن الكريم عن أن ندخل بيوتًا غير بيوتنا ، حتى نستأنس ، ونسلّم على أهلها .

فلابد للداعية من هذا الاستئناس العاطفي ، والاستفتاح التشويقي .. ليستطيع أن يفتح مغاليق القلوب ، وأن يثير مشاعر النفوس ، وأن يهيئ الأفهام لحقائق الإسلام ..

ولكن كيف يكون هذا الاستفتاح ؟ يكون بأسلوب سهل ومبسّط يتناول أمرًا هينًا تدركه الأذهان في سهولة ويسر ، كأن يذكر حادثة خاصة وقعت له ، أو رآها في طريقه ، أو نبأ قرأه في صحيفة ، أو سمعه من إنسان ، أو ملاحظة لاحظها في الحفل ، أو مقدّم الحفل .. أو غير ذلك ؛ بشرط أن يكون ذلك كله ذا صلة بالحفل أو المحاضرة .. ثم يعلّق على استفتاحه تعليقًا يسيرًا ملوّنًا بلون الملاطفة والمداعبة إذا اقتضى المقام ذلك ، أو بلون الاستبشار إذا أوجب المقام زفّ البشرى ، أو بلون آخر من ألوان إثارة العواطف ، وتنبيه المشاعر .. التي يقتضيها الحال ..

فإذا أقبلت على الداعية القلوب ، وتفتّحت له النفوس .. استطاع أن يحوّل تيارها إليه ، وأن يُلقي بزمامها بين يديه .. ثم بالتالي استطاع أن يؤثر في جمهوره كل التأثير ، وأن يلقنهم الوعي والعلم والتوجيه ..

ط – إحياء المشاعر الرّبانية : يجب أن يكون غرض الداعية من كلّ محاضرة يلقيها ، أو موضوع يعالجه إحياء المشاعر الإلهية في النفوس ، وبث معاني الخير والتقوى في القلوب .. بل يجب على الداعية أن يكون له في مواقف المحاضرة أو الخطبة أو الدرس .. أو في أيّ موقف تبليغي دعويّ هدفان أساسيان :

الأول : علاج الموضوع الذي هو بصدده علاجًا شاملًا مستوعبًا ..

الثاني : إحياء المشاعر الربّانية في نفوس المستمعين على أن يكون الهدف الأول هو الوسيلة ، والثاني هو المقصود والغاية ..

ولاشك أن الداعية حين يُشعر السامع أنّ اللّه سبحانه معه ويراه ، ويعلم سرّه ونجواه ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وأنه مسؤول أمام اللّه عن جميع تصرّفاته وأعماله ، وأنه خُلِق في الحياة من أجل غاية العبودية للّه ، والانقياد له ، والاستعانة به ، والإنابة إليه ، والتسليم بجنابه .. وأنه مكلّف في هذه الدنيا من أجل أن يبلغ رسالة ، ويؤدّي أمانة ، ويجاهد في اللّه حق جهاده .. وأن اللّه خلق الموت والحياة .. ليبلو عباده أيّهم أحسن عملًا .. وأنه سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا وابتُغي بها وجهه ، وأنه جلّ جلاله يُدخل النار من طغى .. ويُدخل الجنة من اهتدى ..

الداعية حين يُشعر السامع من خلال المحاضرة التي يلقيها كل هذا ، ويربطه بالعقيدة روحًا وفكرًا ، ويصله بالإسلام منهاجًا وتشريعًا ، ويركّز في ذهنه أمجاد الجدود ، وعظمة التاريخ .. فيكون قد أحيا في نفسه مشاعر الربّانية ، وفجر في قلبه ينابيع التقوى ، وأشبع طموحه بروح البطولة والجهاد .. ولابدّ أن يهتف في نهاية المطاف بهذه المعاني ويقول : « نحن أمّة الإسلام لم ندخل التاريخ بأبي جهل ، وأبي لهب ، وأبيّ بن خلف .. ولكن دخلناه بالرسول العربي ﷺ وأبي بكر وعمر ، ولم نفتح الفتوح بحرب البسوس وداحس والغبراء .. ولكن فتحناها ببدر والقادسيّة واليرموك .. ولم نحكم الدنيا بالمعلقات السبع .. ولكن حكمناها بالقرآن المجيد ، ولم نحمل إلى الناس رسالة اللات والعزّى .. ولكن حملنا إليهم رسالة الإسلام » [1] .

ولابد أن يقول للطواغيت في كل مكان : « ابتعثنا اللّه لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » [2] .

فاجتهد – أخي الداعية – لأن يكون الغرض من محاضراتك كلّها إحياء المشاعر الربّانية في نفوس سامعيك ، وتفجير طاقات الجهاد والعمل في بؤرة شعورهم .. عسى أن يتحقق على يديك تكوين المجتمع الفاضل القائم على الإسلام ، والمرتكز على التقوى .. وما ذلك على اللّه بعزيز .

فهل عرفت – أخي الداعية – الخطوات العمليّة التي تجعل منك محاضرًا موفقًا ؟

فبحسن اختيارك للموضوع تتفهّم أحوال الناس ، وتعالج مشاكلهم ..

وبإحكامك تحضير المحاضرة تنفع الجمهور ، وترجو الخير لهم ..

وباستحضارك شواهد الأفكار يتفاعل سامعوك ، وتحرّك مشاعرهم ..

وبمزجك بين الموضوعيّة والعاطفة في المحاضرة تُشبع في الحضور عقولهم وأرواحهم ..

وبربطك الموضوع بالهدف الإسلامي تؤثّر في الحاضرين وتصلحهم ..

وباعتمادك في المواقف على الارتجال تتعرّف على أحوال المسلمين وتجذبهم ..

وبإقلالك من الحركات والإرشاد تحظى باحترام الموجودين ، وتكسب ثقتهم ..

---

(1) قاله الأستاذ الداعية عصام العطار في خطبة له .

(2) قاله الصحابي الجليل « ربعي بن عامر » رضي اللّه عنه أمام رستم في حرب القادسية .

وبإحيائك المشاعر الربّانية في أبناء الجيل تضمن تقواهم وانطلاقتهم ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تخطو في محاضراتك كلها هذه الخطوات ، وتتروض على هذه المراحل .. لتكون بإذن اللّه الداعية الناجح ، والمحاضر الموفق .. واللّه سبحانه يتولاك محاضرًا وخطيبًا وداعية .. ويحقق مجد الإسلام على يديك ، ويقيم عزّ المسلمين على ساعديك . إنه خير مسؤول ، وبالإجابة جدير .

5 - الداعية .. مناقشًا ومحاورًا :

من وسائل إعداد الداعية في مجال التبليغ والدعوة إلى اللّه .. تدريبه على المناقشة والحوار حين يقف مع الناس مواقف الردّ والإقناع والمحاججة ..

فإن لم يكن على المستوى الجيّد من إتقان فنّ الحوار ، وعلى الأصول المتبعة في ممارسة طريقة المناقشة .. فسرعان ما تظهر عليه بوادر الفشل ، وينهزم أمام محاججة الخصوم ..

وقبل أن نسرد للداعية الأصول المتّبعة في الحوار والمناقشة يحسن أن نبيّن له المجالات التي تقع فيها عمليّة المناقشة والحوار عادة .

عمليّة المناقشة والحوار إما أن تقع عفويّة أو مرتّبة .

فالعفوية هي التي تقع للداعية فجأة بدون تحضير مسبق .

والمرتّبة هي التى تقع في الندوات ، وفي أعقاب المحاضرات .. حين يُطلب من الداعية مناقشة موضوع معين بالاشتراك مع عدد من المفكرين أو الدعاة ..

وفي كلتا الحالتين نضع بين يدي الداعية أهمّ هذه الأصول في ممارسة الحوار والمناقشة :

1 - **التهيّؤ للموقف في كل لحظة** : على الداعية أن يضع في خَلَدِهِ المفاجآت المتوقّعة من قِبل خصومه في الحوار ، ومعارضيه في الرأي .. فإن لم يكن متهيّئًا للموقف ، ومستعدًّا لمواجهة أيّ احتمال .. فسوف يقع على الأغلب في الحرج والارتباك .. بل ربما يصاب بصدمة نفسيّة تسبّب له عقدة اليأس ، وروح الانهزام .. فيقعد مع اليائسين المنهزمين .

ولكن ما هي الوسائل التي يتّبعها الداعية لمواجهة المفاجآت المحتملة ؟

من هذه الوسائل دراسة البيئة التي يدعو إلى اللّه فيها دراسة موضوعية شاملة ، بسببها يتعرّف على أفكار القوم ، ومعتقدات الشباب ، وعادات البيئة ..

ومن هذه الوسائل : التحضير المسبق لكل المواضيع التي ترتبط بروح العصر ، وتتصل بواقع المجتمع .. ولاسيما المواضيع التي تتصل بالمرأة والشباب والمبادئ المستوردة ..

ومن هذه الوسائل : التزوّد بالثقافة الشاملة المتنوّعة سواء كانت هذه الثقافة شرعية أو تاريخية أو أدبية أو علميّة أو إنسانية أو واقعية .. وقد سبق أن فصّلنا كل التفاصيل عن هذه الثقافات كلها في فصل « ثقافة الداعية » .

ومن هذه الوسائل : التحلّي بخلُق الصبر والمصابرة ، والاتصاف بالحلم والعفو .. لمواجهة كل إساءة ، ومقابلة كل أذى .

فبتقديري أن الداعية إذا اتّبع هذه الوسائل قبل أن ينزل ميدان الدعوة ، وقبل أن يخوض معركة الحوار والمناقشة .. فيكون قد تهيأ للموقف كل التهيؤ ، وأعدّ نفسه للحوار كل الإعداد ..

فاجتهد – أخي الداعية – للتزوّد من هذه الوسائل ؛ حتى لا تقع في حرج ، ولا تفاجأ بارتباك .

2 - **الإيجاز في الإجابة** : على الداعية في مجال الأسئلة التي تأتي عقب المحاضرات والندوات أن يوجز في الإجابة ما أمكن ذلك تمشّيًا مع زمنيّة الوقت ، وحرصًا على إفادة الحفل ، وتجنّبًا لثورة الانفعال .. فلتكن إجابته على قدر السؤال بشكل يحقّق الغرض دون زيادة أو نقصان .

فاختصار الداعية في الإجابة يمكّنه أن يجيب على السؤال بكل دقّة وإحكام ، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يجيب على أكبر عدد ممكن من الأسئلة .. فبهذا كلّه يحظى الداعية باحترام الجمهور له ، وتقديرهم إياه ، وعلّو مكانته عندهم ..

وعلى الداعية في هذا المجال أن يحذر الخوض في الجواب مما ليس يعلمه ، أو مما ليس من تخصّصه ؛ حتى لا يسبّب لنفسه الارتباك أو الإحراج ؛ وحتى لا يسقط اعتباره ، وتضعف مكانته أمام الناس .. أما إذا كان الحوار في ندوة عامة هو أحد أعضائها .. فعليه في هذه الحال أن يعطي للسؤال حقه بما يتفق مع زمنيّة الوقت المخصّص ، وما يتوازن مع إجابة سائر الزملاء .. وعليه أيضًا أن ينتبه إلى مَنْ يدير الندوة ماذا يخصص للمشتركين فيها من وقت ؟ وماذا يريده من إجابة ؟

والأمر يختلف إذا كانت المناقشة أو الحوار مع فرد أو أفراد في سهرة أو حافلة أو

قطار .. ففي هذه الحال يعطي الداعية الإجابة حقّها ، ويحيط بها من جميع جوانبها ، ويشبعها بحثًا واستدلالًا .. حتى يجد مَنْ يحاوره قد استجاب للحق ، وانقاد للهدى .. اللهم إلا إذا وجد منه مكابرة في الحق ، ومجادلة في الباطل .. فعندئذ يقطع الحوار بينه وبينه ، حتى لا يقع الداعية في المراء الذي نهى عنه رسول الله ﷺ ، باعتبار المراء لا يأتي بخير .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تقتصد في إجابتك في الأسئلة التي توجّه إليك عقب محاضراتك وندواتك .. كما عليك أن تتوازن في إجابتك إذا كنت مشتركًا في ندوة مع أكثر من واحد من أقرانك وزملائك . كما عليك أن تعطي البحث حقّه إذا كنت محاورًا لفرد أو أفراد في سهراتك وأسفارك .. ؛ فبهذا كله تكون مناقشًا حكيمًا ، ومحاورًا موفقًا .. والله سبحانه يتولاك وبفضله يرعاك ولا ينساك .

3 - **الانتباه والحذر** : وعلى الداعية أثناء المناقشة والحوار أن يكون لبقًا حذرًا مع نفسه ومع خصمه على حدّ سواء ، حتى لا يقع فيما هو مخالف لأصول الحوار ، وما هو محظور مع قواعد المناقشة .

عليه أن يحذر من الاستسلام للعاطفة ، فيتحوّل إلى خطيب عاطفي في موقف المناظرة والمناقشة .. ؛ لأن من أصول المناظرة والحوار الهدوء والعقلانيّة ، والاعتماد على المنطق والفكرة والدليل .

وعليه أن لا يقاطع من يحاوره حتى يدلي بحجته ، ويفرغ من كلامه .. ؛ لأن عدم مقاطعة الخصم وهو يُنَاقَش من أدب التحدث ، وأصول الحوار .

وعليه أن يحذر استدراج الخصم إلى ما يفقده السيطرة على أعصابه ، فينقلب الحوار الهادئ إلى ثورة غضبيّة ، ومهاترة كلاميّة .. قد تجرّ إلى خصومة عدائية لا تُحمد عقباها .. ؛ لأن الداعية الحكيم اللّبق هو الذي لا يُستَثَار بالجدل ، ولا يُستدرج بالغضب والانفعال ، ولا يخرج من الموقف معلنًا بالخصومة أحدًا .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تكون لبقًا حذرًا يقظًا في كل مناقشاتك ومناظراتك ؛ حتى لا تقع مع محاوريك فيما هو محظور ، وحتى لا تنقلب حلبة المناقشة والحوار إلى صراع فكريّ ، وثورة غضبيّة ، قد تؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها ،.. والله سبحانه يتولاك وبفضله يرعاك ولا ينساك .

4 - **التسليم للخصم فيما يعرض من حق** : الداعية الموفق الناجح هو الذي يستحوذ على مشاعر خصمه ، ويملك عليه قلبه وعواطفه ، وهذ لا يتأتّى إلا أن يستسلم له فيما يعرضه من حق ثابت لا يتنافي مع مبادئ الإسلام ، وفي الوقت نفسه أن يعترف له بما تميّز به من اتزان وعقلانية ، وما تخلّق به من خلق كريم ، وأدبٍ رفيع .

كأن يقول لخصمه أثناء الحوار والمناقشة : أنا أوافقك على ما ذكرتَ من الفكرة الفلانية ، وأنا معك فيما سردتَ من علاج للواقع كذا .. ومن شاهد للفكرة كذا ..

وهذا يدل على أنك ذو فكر ثاقب ، وعقل ناضج ، وفهم سديد .. وإن شاء اللّه فسوف نراك فيما بعد أعمق علمًا ، وأنضج فكرًا ، وأكمل إيمانًا وأخلاقًا .. ومن يدري ؟ فربما يحالفك التوفيق لأن تكون العبقريّ الفذّ ، والمصلح المؤثر ، والعالم الممتاز ، والرجل العظيم الذي يشار إليه بالبنان .

فبمثل هذه الكلمات التشويقية والترغيبيّة يستطيع الداعية أن يدخل إلى نفس خصمه ، وأن يفتح له روحه وقلبه ، وأن يستجيب لفكره وإقناعه .. وهكذا يفعل عظماء الدعاة ، ورجالات الإصلاح .. حين يقومون بدورهم في مجالات التبليغ والدعوة إلى اللّه ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تنهج هذا المنهج في حوارك مع الناس ، وفي مناقشتك معهم ، وفي مناظرتك لهم .. عسى أن تؤثّر فيهم ، وتكون سببًا في إصلاحهم وهدايتهم .. واللّه سبحانه يتولاك وبفضله يرعاك .

5 - **الملاطفة والتأدّب والمجاملة** : ولا يفوت الداعية وهو في معرض النقاش والحوار أن يُعطي لخصمه المثل الأعلى في رقّة الملاطفة ، وكريم المجاملة ، وحسن الخلق .. كأن يخاطبه بأحبّ الأسماء إليه ، وأن يناديه بعبارات في منتهى الرقّة واللطف كأن يقول له : بارك اللّه فيك ، شكرًا لك على هذه الأفكار ، وكم أنا سعيد بالتعرّف عليك ؟ وكم أنا معجب بأفكارك العظيمة ؟ اختلافنا في الرأي لا يفرّق فيما بيننا ولا يقطع مودتنا ..

هذا عدا عما ذكرناه قبل قليل من عبارات التشجيع والتشويق والترغيب .. التي تُظهر خصائصه في الاتّزان العقلي ، والهدوء النفسي ، والخُلق الكريم ..

وعلى الداعية أن يعلم أن كثيرًا من الخلافات التي تقع بينه وبين الخصوم لا تحلّها إلا روح المحبة ، وسبيل التأدّب والملاطفة .. بل الكثير من الخصومات لا تقوم بين

المتحاورين لأجل الغيْرة على الحقّ ، والانتصار للعلم .. ولكن لأجل الدفاع عن الذات ، والإعجاب بالرأي !! فإذا عرف الداعية من أين تُؤكل الكتف ؟ وكيف تُفْتَح مغاليق القلوب ؟ استطاع أن يأسر قلب خصمه ، وأن يصل إلى ما يريد في إصلاح نفسه ، وتغذية فكره ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تعطي لخصمك عند محاورته ومناظرته المثل الأعلى في الرقّة والملاطفة ، وتعابير المجاملة والمحاسنة .. لتصل إلى ما تريد في إصلاحه وهدايته ورده إلى الله ، والله سبحانه يتولّاك وبفضله يرعاك .

6- **وأخيرًا الإعراض عن المراء والجدال** : وإذا ابتُلي الداعية بمارٍ يريد أن يطعن في كلامه ليظهر الخلل فيه بقصد الإهانة والتحقير ، أو ابتُلي بمجادل يريد أن يُعاجز في الحق ، ويساند الباطل .. بقصد العلوّ والكبرياء والانتصار للرأي .. إذا ابتُلي الداعية بمثل هذا وهذا .. فعليه أن يتخذ موقفًا حكيمًا ، ومخرجًا حسنًا .. تجاه هذين ..

ولكن ما هو الموقف الحكيم ، والمخرج الحسن ؟

الموقف الحكيم أن يكون كلامه مع المماري أو المجادل بالحسنى ، وبالكلام الطيّب ، والأدب الجمّ ، والهدوء النفسي ، والاتّزان العقلي ، والخُلُق الكريم .. ولتبق مناقشته مع أحدهما أو كليهما على مستواها العالي الرفيع الرقيق المحبوب .. المنزّه عن الفظاظة والخشونة .. مع ما تحمله من قوة الإقناع ، ووضوح الحق .. وهذا الموقف الحكيم الذي يقفه الداعية من خصومه مستفاد من قوله تبارك وتعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ (1) .

فإذا أصرّ المماري أو المجادل على باطله ، ولجّ في عناده ، وأصبح الكلام معه عبثًا لا يفيد .. فليقطع الداعية الجدل معه ، ولينسحب من المجلس بحكمة وانتظام .. مخافة أن يقع فيما هو أشدّ وأعظم كالمهاترة الكلاميّة التي تجرّ إلى الخصومة الفاجرة ، والشّجار البغيض ، وهذا هو المخرج الحسن الذي ينبغي أن يسلكه الداعية مع خصومه ، وهو مستفاد من قوله جلّ جلاله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (2) . وقوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا

---

(1) سورة النحل الآية : 125 .

(2) سورة الأنعام الآية : 68 .

فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ .. ﴾ [1] .

وهذا المسلك الذي يقفه الداعية في قطع الجدل ، والانسحاب من المجلس ، ومفاصلة الممارين والمجادلين هو مسلك سديد ، ومخرج حسن ؛ لأن بعض الناس لا ينفع معهم الجدل ولا النقاش .. لأنهم لا يريدون من مجادلتهم ومناقشتهم وجه الله ولا الوصول إلى الحق وإنما يريدون المكابرة والعناد والانتصار للباطل .. قال تعالى عن هذا الصنف من الناس : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [2] .

وقال أيضًا في آية أخرى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [3] .

هذا عدا عن أن المراء أو الجدل يوقع في الفتنة ، ويورث الضغينة ، ويقسّي القلب ، ويسبّب الفرقة ، ويزرع البغضاء .. من أجل هذا نهى الإسلام عنه ، وحذّر عليه الصلاة والسلام منه :

فقد روى الشيخان عنه ﷺ : « إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخَصِم » [4] أي كثير الخصومة والانحراف عن الحق ..

وأخرج أبو داود والإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه ﷺ قال : « المراء في القرآن كفر » [5] .

وأخرج الإمام أحمد وابن أبي الدنيا عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه ﷺ قال : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقًّا » [6] وفي رواية الإمام أحمد : « لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب في مزاحه ، والمراء وإن كان صادقًا » [7] .

وروى الطبراني وأبو داود عنه ﷺ : « ... ذروا المراء ، فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان المراء »[8] .

---

(1) سورة النساء : 140 . (2) سورة الأنعام : 7 . (3) سورة الأعراف : 146 .
(4) اللؤلؤ والمرجان (3 / 216) برقم (1707) .
(5) سنن أبي داود (4603) . مسند أحمد (2 / 300) ، وانظر مجمع الزوائد (1 / 157) .
(6) إتحاف السادة المتقين (7 / 470) ، وكنز العمال (8318) .
(7) مسند أحمد (2 / 302 ، 364) . (8) انظر مجمع الزوائد (1 / 156) .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تتجنّب كلا من المراء والجدل ؛ لأنهما لا يأتيان بخير ، ولكونهما يورثان الأحقاد ، ويزرعان الشقاق والبغضاء .. وإذا ابتليت بممارٍ طعّان ، أو مجادل مكابر .. فالتمس لنفسك الموقف الحكيم ، والمخرج الحسن .. حتى لا تقع فيما هو أدهى وأمرّ .. والله سبحانه يتوّلاك ، وبفضله يرعاك .

فهل عرفت – أخي الداعية – الأصول التي تجعل منك مناقشًا ناجحًا ومحاورًا موفقًا ؟

فبالتهيؤ للموقف في كل لحظة تتحاشى في محاوراتك .. الحرج والارتباك .

وبالإيجاز في الإجابة على أسئلة الحضور .. تستوعب أسئلة الحفل وتحظى بالثقة والاحترام .

وبالانتباه والحذر في المناقشة والحوار تتجنّب الاسترسال مع العاطفة ، وتتوقّى استدراج الخصوم .

وبالتسليم للخصم فيما يعرض من حقّ .. تجتذب الخصم إليك ، وتشعره بالتفوّق عليك .

وبالملاطفة والمجاملة مع الحضور .. تمسك بزمام القلوب ، وتكون سببًا في إصلاح النفوس ..

وباتّخاذ الموقف الحكيم ، والمخرج الحسن عند تمادي الممارين والمجادلين .. تكون قد أبعدت نفسك عن الخصومة ، وأقفلت باب الفتنة ، وخفّفت من غُلُواء العداوة والبغضاء .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تسير على هذه الأصول في ممارسة الحوار والمناقشة .. لتكون بإذن الله الداعية الناجح ، والمحاور الموفّق ، والله سبحانه لن يَتِرَ عملك ، ولن يخيّب أملك ، ولن يُحبط مسعاك .. بل يحوطك برعايته ، ويشملك بعنايته ، ويحقّق لك الغاية التي ترجوها .. وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

6 - الداعية .. أديبا وكاتبا :

لا يكفي الداعية في مجال التبليغ والدعوة إلى الله .. أن يكون خطيبًا بليغًا ، ومحدّثًا مؤثّرًا ، ومحاضرًا ناجحًا ، ومحاورًا موفقًا .. وإنما عليه أيضًا أن يتقن فنّ المقالة ، ويمارس أعمال الكتابة ، ويقوّي موهبة التعبير .. ليستطيع أن يوصل الدعوة إلى كل إنسان عن طريق النشرة ، والمجلّة ، والصحيفة ، والمراسلة ، والتأليف .. وسائر وسائل التبليغ والإعلام .

ولا يخفى على كل ذي عقل وبصيرة أن الداعية إذا كان أديبًا وكاتبًا .. كان له الدور الفعّال في توضيح فكرة الإسلام الكلّية عن الكون والحياة والإنسان ؛ وكان له أيضًا الأثر البالغ في دفع أي شبهة يثيرها أعداء الله عن الإسلام ؛ وكان له كذلك الجهد الأكبر في تنقية العقيدة الإسلامية مما علق فيها من دعوى الجاهلين ، وانتحال المبطلين ، ومغالاة الغالين ..

فإن لم يكن الداعية على المستوى اللائق من التعبير الفصيح ، والأسلوب الشيّق ، والألفاظ السهلة ، والأفكار الناضجة ، والعبارات الواضحة السليمة .. فلا يستطيع أن يردّ على شبهة يثيرها الأعداء ولا أن يوضح للقارئ أيّة فكرة عن الكون والحياة والإنسان ، ولا أن ينقّي الشريعة مما علق بها من بِدَع وأهواء ، ولا أن يوصل الدعوة إلى مَنْ لم تبلغه في آفاق الأرض ، وأنحاء المعمورة ..

فاهتمام الداعية إذن بروعة التعبير ، وتصريف الكلام ، وجمال الأسلوب ، وممارسة الكتابة ، وإتقان فنّ المقالة ، هو من أبرز الوسائل في تكوين الداعية ثقافيًا ، وإعداده فكريًا وأدبيًا ..

ولكن ما هي أهمّ الوسائل التي تجعل من الداعية أديبًا ناجحًا ، وكاتبًا موفقا ؟

أرى أن هذه الوسائل تتركّز في النقاط التالية :

1 - **الإكثار من مطالعة الكتب الأدبيّة** : من أهم وسائل ترقية الأسلوب الكتابي في الداعية الإكثار من مطالعة الكتب الأدبيّة والفكريّة ذات الأسلوب البليغ ، والبيان الرائع .. لينمّي في قريحته ملكة التعبير الأدبية ، ويقوي في قلمه جمال الأسلوب البياني ..

وأريد في هذا المجال أن أنبّه إلى أمر آخر : أن الداعية الذي يكون على صلة دائمة في مدارسة كلام البلغاء ، ومطالعة أقوال الفصحاء .. يتعرّف على مناحي التأثير ، وأسرار البلاغة ، وأساليب الفصاحة في نثرهم وشعرهم ، وخُطبهم وأدبهم .. ويتذوّق أيضًا ما فيها من جمال الأسلوب ، وروعة التعبير ، وجودة التفكير .. وهذا مما يصقل في الداعية قريحة الذوق الأدبي ، وينمّي فيه أيضًا ملكة السيولة في الكتابة والتعبير .

ويصبح إن حالفه التوفيق من كبار الدعاة المفكرين ، والأدباء الإسلاميين .. الذين يخدمون الإسلام بفكرهم ، ويدعون إلى الله بقلمهم وأدبهم .

فأَكْثِر – أخي الداعية – من مطالعة كلام البلغاء ، وأساليب الفصحاء .. لتنحو نحوهم في البلاغة ، وتنهج نهجهم بالفصاحة ، ويصبح الكلام الفصيح ، والتعبير البليغ .. عندك ملكة وسليقة .. واللّه سبحانه مع الذين اتقوا وكانوا محسنين .

2 - **التزوّد بثروة الألفاظ والتراكيب** : فعلى الداعية الذي يريد أن يرقّي أسلوبه كتابيًا ، وأن يجوّد تعبيره أدبيًا أن يحفظ المقطوعات الكثيرة شعرًا ونثرًا مما عُرف أصحابها بالبلاغة والبيان ، وعلى رأسهم أفصح من نطق بالضاد الرسول ﷺ .. لأن الكتابة تحتاج إلى تعابير كثيرة ، وأساليب متنوّعة ، والكاتب الأديب يحتاج إلى أن يعبّر عن المعنى الواحد بعبارات متعدّدة ، وأساليب متغايرة .. ولا يمدّ الداعية الكاتب .. بالعبارات الأدبيّة السهلة الممتعة .. إلا ثروة في الألفاظ والتراكيب ، وحفظ الكثير من أقوال المتقدّمين والمتأخّرين .. واستيلاء تام على نواحي البيان ، وزمام الفصاحة والبلاغة .

وأنصح الداعية في مطالعته للكتب الفكريّة والأدبيّة أنه إذا وجد بعض العبارات الفصيحة ، والجُمَل الأدبيّة البليغة تستأهل التسجيل والتدوين أثبتها بمذكّراته الخاصة ، وسعى جهده على مدى الزمن أن يستظهرها .. ليضمّنها تعبيره الكتابي والإلقائي .. وبهذا يستطيع أن يضفي على أسلوبه أجمل العبارات ، وأبلغ الكلمات .. بل يأتي أسلوبه آيةً في الروعة ، وغاية في الجمال ..

وهذا ما يسمى في علم البلاغة التضمين والاقتباس .

فتزوّد – أخي الداعية – بثروة كبيرة من الألفاظ الفصيحة ، والتراكيب الأدبيّة البليغة ، لتضمّن تعبيرك بها ، وتزيّن أسلوبك بأحسنها .. لتصبح بعون اللّه كاتبًا شهيرًا ، وأديبًا كبيرًا .. تخدم الفكر الإسلامي بقلمك ، وتنشر دعوة اللّه عز وجل ببليغ بيانك ، وجمال أسلوبك .، واللّه يتولّى العاملين المخلصين .

3 - **الارتياض والممارسة في اكتساب فنّ المقالة والكتابة** : سبق أن ذكرنا في مبحث « الداعية .. خطيبًا » أن من الوسائل التي تجعل من الداعية خطيبًا ناجحًا موفقًا « الارتياض والممارسة » ، وهذا الذي ذكرناه في فنّ الخطابة ينطبق تمامًا على ما سوف نذكره في فنّ المقالة ؛ لأن الحالتين واحدة ، والقاسم المشترك فيما بينهما هو الجودة في التعبير ، والجمال في الأسلوب ، ولا بأس أن نمرّ على ما ذكرناه اختصارًا ، حتى يعلم الداعية كيف يكوّن نفسه أديبًا . وكيف يقوّي قريحته كتابيًا ؟

ترويض القريحة على سيولة التعبير ، وسلاسة الكتابة .. لا يتأتّى إلا بثلاث مراحل .

أ - الارتياض على الفكرة .

ب - والارتياض على الأسلوب .

ج - والارتياض على الكتابة .

* **أما الارتياض على الفكرة** : فهو تعويد الذهن على ضبط الأفكار ، ووزن الآراء ، وتصنيف العناصر ، وعقد الصلة بينها وبين ما يجري في المجتمع من قضايا ومشكلات ..

ومن الارتياض على الفكرة تعويد فكر الداعية على الاتصال بواقع المجتمع ، والاندماج مع فئات الناس ، والتعرف على أحوال الأمة .. حتى إذا أحسّ بما يجري حوله من قضايا ، واستشعر بما يتفاقم في الأمة من مشكلات .. انعكس ذلك على قلمه وبيانه ، فانبرى يكتب في نشرة أو صحيفة أو مجلّة .. واضعًا النقاط على الحروف ، ومبينًا لأمة الإسلام وسائل العلاج ، وطرائق الحلول .. وفي ذلك إصلاح لها ، وسبب كبير من أسباب عزتها وسيادتها ..

* **وأما الارتياض على الأسلوب** فهو الممارسة والمران على الكتابة ببليغ الكلام ، وفصيح العبارة .. وهذا لا يتأتّى باديءُ ذي بدء إلا أن يحفظ الداعية ما اقتبسه من آي الذكر الحكيم ، وتعابير السنّة المطهّرة ، ومآثر الحِكَم قديمًا وحديثًا .. حتى إذا أمسك القلم وشرع يكتب نقدًا أو حلًّا أو فكرة أو بحثًا أو موضوعًا .. ضمّن أسلوبه هذه التعابير الجميلة التي حفظها ، والجملُ البليغة التي استظهرها ، وكلمات القرآن والسنّة التي اقتبسها ..

وإذا شعر أن ما كتبه ليس على المستوى اللائق أسلوبًا وبيانًا .. فعليه أن يمزّق القرطاس ، ويستأنف الكتابة من جديد .. ويكرّر هذه العمليّة مرّة بعد مرّة حتى يطمئن من قرارة وجدانه أن أسلوبه الكتابي قد تحسّن ، وتعبيره البياني قد ارتقى .

وينبغي أن لا يغرب عن البال أن مثابرة الداعية على مطالعة الكتب الفكريّة والأدبية عامل آخر على ارتقاء أسلوبه ، وجودة تعبيره ، وتهذيب بيانه ..

كما أن محاكاته لكبار الأدباء العالميّين ، ومشاهير الكتّاب الإسلاميّين في أسلوبهم المتميّز ، وأدبهم المتفوّق .. عامل ثالث في تحسين التعبير ، وارتقاء الأسلوب .

كما أن الاستمرار على تلاوة القرآن الكريم تأملا وتدبّرا عامل رابع في الوصول إلى قمّة الفصاحة والبيان .. ذلك لأن القرآن العظيم هو المعجزة الكبرى في نظمه البديع ، وأسلوبه المحكم ، وبلاغته الرائدة ..

* **أما الارتياض على الكتابة** : فيبدأ بكتابة الموضوع على القرطاس بعد أن استوفى كل أفكاره وعناصره .. فيقرؤه أولا بينه وبين نفسه ، فإن أحسّ أن الموضوع غير لائق تعبيرًا وأسلوبًا مزّق القرطاس ، واستأنف الكتابة من جديد ، ولا بأس أن يستعين الداعية بادئ ذي بدء بموضوعات سُبِق إليها من قَبْل ، تُعالج نفس الموضوع الذي يحاول الداعية كتابته .. يستعين بها فكرة ، ويستعين بها أسلوبًا ، ويستعين بها اقتباسا ، ويستعين بها شواهد .. فإن أحسّ أن الموضوع ارتفع إلى المستوى اللائق فكرةً وأسلوبًا وفصاحة .. دفعة إلى من يثق به من ذوي الاختصاصات الأدبية والفكرية واللغويّة .. لينظر فيه ، ويكتب له ملاحظاته بكل تجرّد وإخلاص وعدم محاباة ..

ويكرر هذه العمليّة مرة بعد مرة .. فلاشك أنه يكتسب مرانًا وممارسة .. بل يصبح بعد فترة قصيرة من الزمن من كبار الكتّاب ، ومشاهير الأدباء ، بل يصبح من روّاد الفكر الإسلامي في العصر الحديث بتوفيق اللّه .

وهكذا يتدرّج الداعية في كتابة المواضيع والبحوث من الأدنى إلى الأعلى .. حتى تصبح الكتابة في حقه سليقة وملكة .. بل يصل إلى أعلاها فصاحة وبلاغة ..

فيستطيع بعد هذا كلّه أن يخدم دعوة الإسلام بقلمه ، وأن يجذب إليها النفوس ببلاغة تعبيره ، وسحر بيانه ..

فاجتهد – أخي الداعية – على أن تروّض نفسك على الكتابة ، وفنّ المقالة فكرةً وأسلوبًا وممارسة .. ليكون لك بتوفيق اللّه في مجال الدعوة شأن ، وفي ميدان التبليغ تأثير ، وفي إعداد الدعاة قدوة .. واللّه يتولّى العاملين المخلصين .

4 - **النزول في الكتابة إلى مستوى الجمهور** : على الداعية حين يكتب أن يلاحظ أنه يكتب للناس كافّة صغيرهم وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، رجالهم ونسائهم ، خاصتهم وعامتهم .. وهذا يقتضيه أن ينزل إلى المستوى الذي يألفه الجمهور في فهم ما يقرأ أو يسمع ، والمستوى الذي يألفه الجمهور هو السهولة في اللفظ ، والوضوح في التركيب ، والعذوبة في المعاني ، والتنسيق في الأفكار ..

وحسب الفكرة عذوبة ووضوحًا أن تكون نابعة من القلب .. فتكون مثلًا : تعبيرًا عن عاطفة ، أو تصويرًا لوجدان ، أو عرضًا لتجربة ، أو حلًّا بناءً لمشكلات الناس .

هذا ووضوح الفكرة وعذوبتها لا يغني عن وضوح اللفظ والأسلوب ، أو عن نزول اللفظ والأسلوب إلى مستوى أبناء المجتمعات جميعًا .

(سأل أحد الدعاة صاحبه : ما رأيك في كتابتي ؟

فقال له صاحبه : إن أسلوبك سما ببضاعتك فوضعها في شرفات الدور الأعلى ، فرجل الشارع لا يراها ولا يتأثر بها ، وإن أهل الطبقة العليا يرونها ويعرفون لها مزاياها .. ولو أنك نزلت ببضاعتك فوضعتها في معارض الدور الأول لرآها الجميع ، وانتفع بها رجل الشارع .

فقال الداعية : إننا مكلّفون أن نرفع الجمهور إلى مستوانا ، لا أن ننزل إلى مستوى الجماهير .. فقال له صاحبه : لو أنك أستاذ في اللغة والأدب لحقّ لك أن تقول هذا ولكنك رجل دعوة ، وصاحب رسالة ، مكلّف أن تقابل الجميع ، وأن تكلّم الجميع ، وأن تُفهم الجميع .. فإذا لم تخاطب الناس على قدر عقولهم أضعت الوقت ، وأخفقت في الرسالة .. ألا ترى إلى التاجر يحتال في عرض تجارته وتنسيقها تنسيقًا مغريًا بالوقوف عليها أو الشراء منها ؟ ..

فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة ، فانظر كيف تثير أشواقهم وأذواقهم إليها !!..)[1] .

فاحرص – أخي الداعية – حين تريد أن تبلّغ دعوة الإسلام بقلمك ، وتوضح مبادئ هذا الدين بكتابتك .. فاحرص على أن تنزل إلى مستوى الجمهور فكرة وأسلوبًا .. حتى يفهم الناس منك ، ويأخذوا عنك ، ويقبلوا عليك .. وفي ذلك وسيلة موفقة لشدّهم وجذبهم ، وطريقة ناجحة لتوعيتهم وتثقيفهم ، وعامل هامّ في طريق إصلاحهم وهدايتهم .. والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

5 - **ربط الكتابة الدعويّة بواقع الناس** : ومما يهوّن على الداعية مهمته ، ويبرّر له كتابته .. أنه لم يكتب للجمهور في فلسفات فكريّة ، ولا في حقائق علميّة ، ولا في أسرار المادة ، ولا في خفايا الكون ، ولا في قضايا المنطق ، ولا في مسائل الروح والنفس الإنسانية .. ولا في نحو هذا مما يدخل في الاختصاص العلمي ، والفلسفات

---

(1) من كتاب « تذكرة الدعاة » للأستاذ البهي الخولي ص : 388 .

الفكريّة .. وإنّما يكتب عن واقع الحياة اليوميّة ، ويستوحي مواضيعه الدعوية من مشاكل الناس ، وعادات المجتمع ، وتعامل أبناء الحياة ..

وربط الكتابة والأدب بالواقع يشمل كل موضوع له صلة بأحداث المجتمعات الإسلامية ، وله ارتباط بمشكلات الحياة الفرديّة والأسريّة ، وله علاقة بعادات البيئة الاجتماعية والإنسانيّة ..

بل على العموم نقول : إن على الداعية الكاتب أن يستمدّ كتابته من عالمه الذي يعيش فيه ، وما يقوم عليه من نُظم ، وما يسوده من مذاهب ، وما يحرّكه من عوامل ، وما يصطرع فيه من قوى ، وما يجري فيه من تيّارات ، وما يعاني أهله من متاعب ، وبخاصة بيئته المحلّية ، وما يسودها من أوضاع وتقاليد ، وما تقاسيه من صراع ومشكلات ، وما يشغلها من قضايا وأفكار .. وبعد ذلك وطنه الإسلامي الكبير : بآلامه وآماله ، وأفراحه وأحزانه ، ومصادر قوته ، وعوامل ضعفه ، وأسباب وحدته ، وطريقه إلى العزة والسيادة والنصر .

فإذا أخذ الداعية مادة كتابته من صميم ما يجري في هذه الحياة ، وعالج الواقع بميزان الإسلام ، ومنطق العقل ، وتأثير العاطفة ، وتحريك الوجدان .. فيكون قد أدّى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وقام بدوره العظيم في الإصلاح والتربية والتغيير .. بل سوف يجد أن فكره الذي يكتبه للناس قد غمر الأسواق ، ودخل البيوت ، واستقرّ مع القرّاء في المخادع ، وسار مع الشباب في المتنزّهات ، وأخذ مكانه في المكاتب والمكتبات .. لأن واقعيّته التي عرضها على الناس تولّت حمله إلى كل هؤلاء .

فاحرص – أخي الداعية – على أن تربط فكرك الذي تخرجه للناس موضوعًا أو كتابًا أو قصة أو رسالة أو نشرة .. بواقع الناس ، وحياتهم اليومية ، ومشاكلهم العائلية والاجتماعية ، وأحداث المسلمين المحلية والعالمية .. حتى يكون لكلامك تأثير ، ولكتابتك جاذبية ، ولفكرك ذيوع وانتشار .. واللّه يقول الحق وهو يهدي السبيل .

فهل عرفت – أخي الداعية – أهم الأصول التي تجعل منك أديبًا ناجحًا ، وكاتبًا موفقًا ؟

فبالإكثار من مطالعة الكتب الأدبيّة .. تشحذ فيك قريحة الأدب ، وتصعّد في أسلوبك جمال التعبير ..

وبالتزوّد بثروة الألفاظ الفصيحة ، والتراكيب البليغة .. تزيّن أسلوبك بأحسنها ..

وبالممارسة في اكتساب فنّ المقالة .. تروض قلمك على الكتابة فكرة وأسلوبًا ومَلَكة ..

وبالنزول في الكتابة إلى مستوى الجمهور .. يفهم الناس منك ، وينجذبون إليك ..

وبربط الكتابة الدعويّة بواقع الناس .. يكون لكلامك تأثير ، ولفكرك ذيوع وانتشار ..

فاحرص – أخي الداعية – على أن تسير على هذه الأصول في ممارسة الأسلوب البليغ ، والتعبير الفصيح ، والكتابة المشوّقة ، والأدب السهل ، والفكر الواقعي .. لتكون بتوفيق اللّه الكاتب الدعويّ ، والمصلح الاجتماعي ، والداعية الموفق ، والمفكّر المبدع .. وما ذلك على اللّه بعزيز واللّه سبحانه مع العاملين المخلصين .

* * *

تلكم – إخوتي الدعاة – أهم القواعد والضوابط والمواقف في تكوين الداعية كتابيًّا ، وإعداده أدبيًّا ، وتهيئته فكريًّا ودعويًّا ..

* ولقد رأيتم أن للمواقف الكلامية **عموميات وضوابط** قررها الإسلام فخذوا بأحسنها ، وسيروا على توجيهاتها ..

- ولاشك أنكم إذا تحدثتم باللغة العربية الفصحى التي يفهمها جلساؤكم ..
- وتمهّلتُم بالكلام أثناء تعليمكم وإرشادكم ..
- وتجنّبتُم التنطّع بالبيان ، والتفاصح باللسان .. في إلقاء خطبكم ومحاضراتكم ..
- وخاطبتُم الناس على قدر أفهامهم وعقولهم في كل لقاءاتكم واجتماعاتكم ..
- وأقبلتم بوجوهكم ونظراتكم على كل جلسائكم ومستمعيكم ..
- وباسطتم الجلساء جميعًا بحلو بشاشتكم وابتسامتكم ..
- وترفّعتُم عن الغلظة والبذاءة .. في جميع أحاديثكم ومواعظكم ..
- واستثرتُم همم المدعوّين بكريم نداءاتكم ، وجميل استعطافاتكم ..
- وابتعدتُم عن عيوب النطق والصوت في كل كلامكم وإلقاءاتكم ..
- وتجنّبتُم الحركات الكثيرة ، والإشارات التمثيلية المتكلّفة .. في جميع مواقفكم وخطبكم ..
- وتحلّيتُم برباطة الجأش ، وثبات الجنان .. في حال استثاراتكم وانفعالاتكم ..
- وظهرتُم أمام الناس بجمال الزيّ ، وحسن المظهر .. في غدوّكم ورواحكم ..

إنكم إن فعلتم كل ذلك .. فتكونوا فعلًا قد اتّبعتم منهج الإسلام في تكوين

شخصية الداعية التعبيريّة سواء أكنتُم محاضرين أو خطباء .. متحدثين أو محاورين .. مدرّسين أو وعاظًا .. والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا .

ولقد عرفتم أيضًا مما سبق أن للداعية **صفات خاصة به حين يتكلّم ...**

وأن له **منهجًا محدّدًا في الاستعداد والتهيؤ حين يرتجل ..**

وأن له **طريقة متميّزة في إثارة الانتباه حين يتحدث ...**

ولاشك أنكم - إخوتي الدعاة - إذا أخذتم بهذه الصفات ، وسرتم على هذا المنهج ، وطبقتم هذه الطريقة .. استطعتم أن تؤثروا في كلامكم ، وتستمرّوا في عطائكم ، وتُحْدثوا تغييرًا كبيرًا في مجتمعاتكم ، وتحقّقوا العز والسيادة لأمة الإسلام بفضل مثابرتكم وجهادكم ..

* ولقد علمتم كذلك مما ذكرناه أن للداعية مواقف كلاميّة ينبغي أن يعرف كيف يقفها أمام من يدعوهم ؟

علمتم : كيف يكون الداعية .. محدثًا ؟

وعلمتم : كيف يكون .. مدرّسًا ؟

وعلمتم : كيف يكون .. خطيبًا ؟

وعلمتم : كيف يكون .. محاضرًا ؟

وعلمتم : كيف يكون .. مناقشًا ومحاورًا ؟

وعلمتم : كيف يكون .. أديبًا وكاتبًا ؟

ومما لا يختلف فيه اثنان أنكم إذا اتّبعتم أصول التحديث الدعويّ ، والتدريس التبليغي ، والخطابة الجماهيريّة ، والمحاضرة الموضوعية ، والحوار المتّزن ، والكتابة الفصيحة .. إذا اتبعتم أصول الذي ذكرناه في كل هذا .. كان لكم في الأمة أثر ، وفي الإصلاح تغيير ، وفي إعداد الدعاة قدوة .. بل إذا أخلصتم النية ، وعقدتم العزم ، وتابعتُم المسيرة .. وصلتم بتوفيق الله في نهاية الشوط إلى بناء التاريخ ، وصناعة الأمجاد ، وإقامة الوحدة الإسلامية الشاملة .. وما ذلك على الله بعزيز ، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

* * *

(1) سورة التوبة الآية : 105 .



فهرس الجزء الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

رقم الإيداع ٢٠٠١/٧٤٤٩

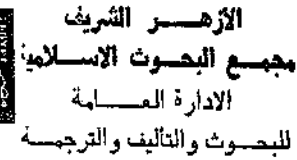
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 342 - 009 - 4

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٣٣٨٢٤٠ - ٣٣٨٢٤٢ - ٠١١/٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم







AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٥١٨٤

10p ٥١٠

الســـيد / دار الســـــــــــــلام

الســـلام عليـــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ـــ وبعـــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : هذه الدعوة ما طبيعتها ....

.... تأليف : عبد الله ناصـــــح علوان

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـــه ونشره على نفقتـــكم الخـــاصة .

مع التـــأكيد على ضرورة العنـــاية التامة بكتـــابة الآيات القـــرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـــع .

واللـــــه المـــــوفق ،،،

والســـلام عليـــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ،،،

مـــــدير عـــــام

ادارة البحوث والتـــأليف والترجمـــة

٩٨/٣/١٨

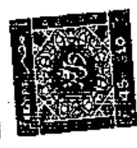
تحريرا فى ١٩/ ١١/ ١٤١٨ هـ
الموافق ١٨/ ٣ / ١٩٩٨ م

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٥١٢٥



السـيد / دار السلام

السـلام عليكم ورحمـة اللـه وبركاته ــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : الدعـوة الاسـلامية والإنقـاذ العالمي تأليف : عبد اللـه ناصـح علوان

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

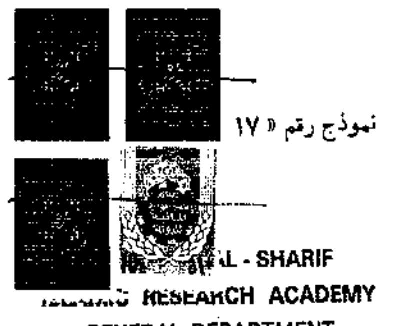
واللـه الموفق ،،،

والسـلام عليكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
ادارة البحث والتـأليف والترجمـة

٩٨/٩/١١

تحريرا فى ١٩ / ١١ / ١٤١٨ هـ
الموافق ١٨ / ٣ / ١٩٩٨ م



GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٥١٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة

الســـيد / دار الســـــــــــلام

الســلام عليــكم ورحمـــة اللــه وبركاته ــ وبعــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : وجـــوب تبليـغ الدعوة

تأليف : عبد الله ناصـــح علوان

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـــه ونشره على نفقتــكم الخـــاصة .

مع التـــأكيد على ضرورة العنـــاية التامة بكتـــابة الآيات القـــرآنية والاحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الازهر الشريف بعد الطبـــع .

واللـــــه المـــوفق ،،،

والســـلام عليــكم ورحمـــة اللــه وبركاته ،،،

ممدوح ماهر

مـــدير عـــام
ادارة البحوث والتـــأليف والترجمـــة

٩٨/٣/٢٩

تحريرا في ٢٥/ ١١ / ١٤١٨ هـ
الموافق ٢٤/ ٣ / ١٩٩٨ م

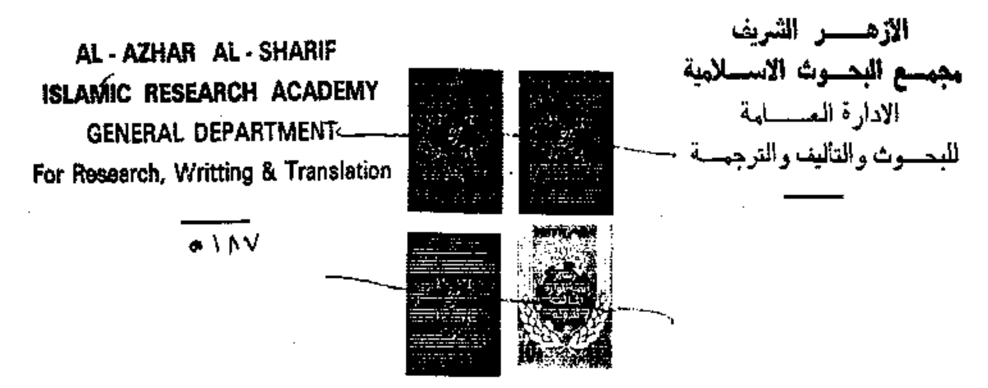
نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحــوث والتأليف والترجمــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

١٨٧ ه



السـيد / دار السـلام

السـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ــ وبعـد :

نبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : صفـات الداعية النفسية
تاليف : عبد اللـه ناصـح علوان

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

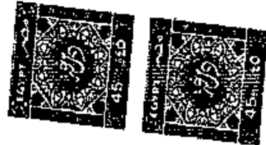
مـدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

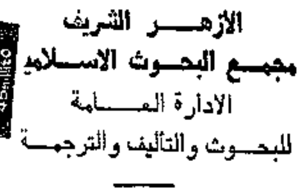
٩٨/٣/٢٤

تحريرا في ٢٥ / ١١ / ١٤١٨ هـ
الموافق ٢٤ / ٣ / ١٩٩٨ م

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم





الأزهـــــر الشريف
مجمـــع البحــوث الاســـلامية
الادارة العــــامة
للبحــوث والتأليف والترجمــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٥١٨٨



الســـيد / دار السـلام

الســـلام عليــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ـــ وبعـــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : روحانيـــة الداعيـــة .... تأليف : عبد اللـــه ناصـح علوان

نفيد بأن الــكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـــه ونشره على نفقتــكم الخــاصة .

مع التــاكيد على ضرورة العنــاية التامة بكتــابة الآيات القـــرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـــع .

واللـــه المـــوفق ،،،

والســلام عليــكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ،،،

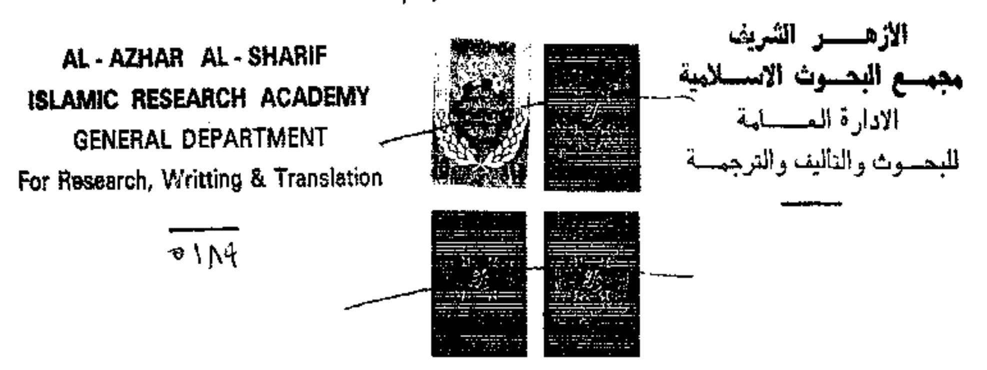
مـــدير عـــام
إدارة البحوث والتـــأليف والترجمـــة

٩٨/٢/١٩

تحريرا فى ١٩/ ١١/ ١٤١٨ هـ
الموافق ١٨/ ٣ / ١٩٩٨ م

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم



السـيد / دار السـلام

السـلام عليكم ورحمـة اللـه وبركاته ــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : أخلاقيـة الداعيـة
تأليف : عبد اللـه ناصح علوان

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،



مـدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

٩٨/٢/٢٤

تحريرا في ٢٥/ ١١ / ١٨ ١٤ هـ
الموافق ٢٤ / ٣ / ١٩٩٨ م

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاســلامية
الادارة العــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation



٥١٩٠

السـيد / دار السـلام

السـلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته ــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : ثقـافة الداعيـة
تأليف : عبد اللـه ناصح علوان .

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـه ونشره على نفقتـكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـع .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليكم ورحمـة اللـه وبركاته ،،،

مـدير عـام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمـة

٩٨/٢/١

تحريرا في ١٩ / ١١ / ١٤١٨ هـ
الموافق ١٨ / ٣ / ١٩٩٨ م

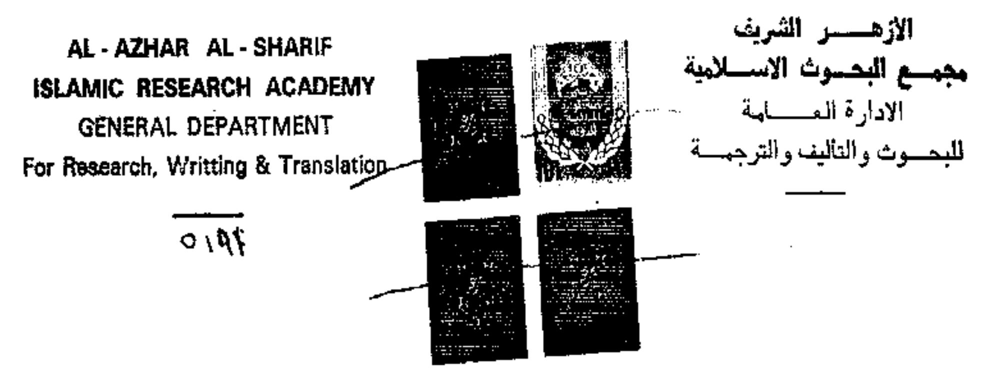
نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاســلامية
الادارة العـــامة
للبحــوث والتاليف والترجمـــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٥١٩٤



السيد / دار السلام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ـ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : كيف يدعو الداعية
.... تأليف : عبد الله ناصح علوان .

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه ونشره على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبع .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام
ادارة البحوث والتاليف والترجمة

تحريرا فى ٢٥ / ١١ / ١٤١٨ هـ
الموافق ٢٤ / ٣ / ١٩٩٨ م

٩٨/٣/٢٤

نموذج رقم « ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهـــر الشريف
مجمــع البحــوث الاســلامية
الادارة العـــامة
للبحــوث والتأليف والترجمــة

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

٥١٩٢



الســـيد / دار الســـــلام

الســـلام عليـكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ـــ وبعـــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : مواقف الداعية التعبيرية
.... تأليف : عبد اللــــه ناصح علوان

نفيد بأن الــكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعـــه ونشره على نفقتــكم الخـــاصة .

مع التــأكيد على ضرورة العنـــاية التامة بكتـــابة الآيات القـــرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبـــع .

واللــــه المـــوفق ،،،

والســـلام عليـكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ،،،

مـــــدير عـــام
ادارة البحوث والتـــأليف والترجمـــة

٩٨/٣/١٨

تحريرا فى ١٩/ ١١ / ١٤١٨ هـ
الموافق ١٨/ ٣ / ١٩٩٨ م

